نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

١٩ - ٢٠

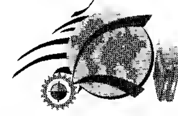
تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

الأستاذ عماد علي حمزة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهمّ يسّر ولا تعسّر، واختِمْ بخيراتك إِنَّك على كل شيء قدير، وصلّى الله على سيّدنا محمد.

الباب الثاني
من القسم الخامس
في أخبار الخلفاء الراشدين
أَبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أَبي طالب، وأَيّام الحسن بن عليّ رضوان الله عليهم أَجمعين

ذكر خلافة أبي بكر الصديق
وشيء من أخباره وفضائله

هو أبو بكر، واسمه عبدُ الله بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة بن كعْب بن لؤيّ بن غالب، ومجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند مرّة بن كعب. وأُمه سَلْمى - وكنيتها أُمّ الخير - بنت صخر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة، وهي بنت عمّ أبيه.

وكان رضي الله عنه يُنعَت بعَتِيق، وقد اختُلف في سبب نعته بذلك؛ فقال اللّيث بن سعد[1]، وجماعة معه: إنّما قيل له عَتِيق لجماله وعَتاقة وجهه.

---

(١) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا... (وفيات الأعيان ٤:١٢٧).

وقال مصعب الزُّبيريّ وطائفة من أهل النَّسب: إنَّما سُمِّيَ عَتيقًا لأنَّه لم يكن في نسبه شيء يُعاب.

وقال آخرون: كان له أخوان: أحدهما يسمّى عَتِيقًا، والآخر عُتَيْقًا؛ مات عَتيق قبله، فسمِّيَ باسمِه.

ورُوِيَ عن مُوسى بن طلْحة، قال: سألتُ أبِي طلحة بن عبيد الله، قلت له: يا أبت، بأيّ شيء سُمِّيَ أبو بكر عتيقًا؟ قال: كانت أمّه لا يعيش لها ولد، فلمّا ولدَتْهُ استقبلت به البيت، وقالت: اللهمَّ إنّ هذا عتيقُك من الموت فهبْه لي.

وقال آخرون: إنَّما سُمِّي عَتِيقًا لأنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ سرّه أن ينظُر إلى عَتِيقٍ مِن النَّار فلْينظُرْ إلى هذا»، فسمّيَ عتيقًا بذلك.

وروي عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: إنِّي لفِي بيت رسول الله ﷺ، وأصحابه بالفِناء؛ وبينهم الستْر، إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرّه أن ينظر إلى عَتِيقٍ من النار فلْينْظُر إلى هذا».

قالت: وإنّ اسمه الذي سمّاه أهلُه لَعبد الله بن عثمان، وسمِّيَ رضي الله عنه بالصِّدّيق؛ لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ في كلّ ما جاء به.

وقيل: بل قيل له الصديق؛ لتصديقه رسولَ الله ﷺ في خبر الإسراء.

وقال أبو مِحْجَن الثقفيّ(1) في أبي بكر رضي الله عنه: [من الطويل]

وَسُمِّيتَ صِدِّيقًا، وكلُّ مهاجِرٍ ... سواك تسَمّى باسْمِه غير منكَرِ
سَبَقْتَ إلَى الإِسْلاَمِ، والله شاهدٌ، ... وكنتَ جليسًا بالعريش المشهَّرِ
وبالغار إذ سُمّيتَ بالغارِ صاحبًا ... وكنت رفيقًا لِلنّبيّ المطهّرِ

يعني بقوله: «بالعريش» في يوم بدر؛ لأنه رضي الله عنه كان معَ رسول الله ﷺ في العرِيش؛ لم يكن معه فيه غيرُه. وبقوله:

* وبالغار إذ سُمِّيت بالغار صاحبا *

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

* * *

(1) هو من ثقيف وكان مولعًا بالشراب مشتهرًا به وكان سعد بن أبي وقاص حبسه فيه. ولما كان يوم القادسية أطلقته أم ولد لسعد بعد أن أخذت عليه المواثيق، فأبلى بلاءً حسنًا، فقال سعد: «لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن...».. (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ولنبدأ من أخباره رضي الله عنه بذكر شيء من فضائله، والله المستعان، وعليه التُكْلاَن.

ذكر نبذة من فضائل أبي بكر الصديق ومآثره في الجاهلية والإسلام

كان رضي الله عنه في الجاهلية وجيهًا، رئيسًا من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية - والأشناق الدِّيات - فكان إذ حمل شيئًا قالت فيه قريش: صدِّقوه، وامضُوا حَمالته[1] وحَمالةَ منْ قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيرُه خذلوه ولم يصدّقوه.

وكان رضي الله عنه ممّن حرّم الخمر على نفسه، وتنزَّهَ عنها في الجاهليّة، وكانت أشراف قريش تختلف إليه وتزورُه، وتستشيره وتقتدي برأيه، وتتربص في الأمور المعضلة إذا غاب إلى أن يقدَم، ويدلُّ على ذلك ما قدّمناه في أوائل السّيرة النبويّة من خبره مع الشيخ الكبير الأزديّ في سفره إلى اليمن، وما بشّره الأزديّ به من مبعث رسول الله ﷺ، وأنّه يعاونه على أمرِه، وأنّ أبا بكر رضي الله عنه لمّا رجع إلى مكّة، جاءه شيْبة بنُ ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختَرِيّ[2]، وعُقْبة بن أبي مُعَيط، ورجالاتٌ قريش مسلمين عليه. وقولهم له: حدث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يزعم أنه نبيّ أرسله الله إلى الناس، ولولا أنت ما انتظرنا به؛ فإذ جئت فأنت النُّهية، وقد تقدم ذكر هذه القصة في المبشرات برسول الله ﷺ.

ومثل ذلك لا ينتَظرُ به إلا مَنْ لا يمكن أن يُقطع الأمر دونه. وفي هذا أقوى دَلالة على فضله وشرَفه، ومكانته لديهم. وكان أنسبَ قريش لقريش، وأعلم قريش بما فيها من خير وشر.

* * *

وأما فضائله رضي الله عنه ومناقبه في الإسلام فكثيرة جدًا، قد أبانه رسول الله ﷺ بفضائل ومناقب، وخصّه بمزايا لم يخصّ بها غيرَه، وذكره في مواطن لم يُذكر فيها سواه.

---

(١) الحمالة: الدية.

(٢) أبو البختري: وهو وهب بن وهب، والبختري منسوب إلى التبختر في المشي.. وهو من رجال بني عبد العزى بن قصي.. (الاشتقاق لابن دريد).

وقد تقدم من ذلك جملة في أثناء السيرة النبوية فنشير الآن إليها، ونذكر ما سواها ممّا تقف عليه إن شاء الله تعالى.

فمن فضائله التي تقدم ذكرها سابقته في الإسلام، وأنَّه رضوان الله عليه أول مَنْ أسلم من الذكور، وأول منْ صلَّى مع رسول الله ﷺ.

روى أبو عمر بن عبد البرّ بسنده إلى الشعبيّ[1]، قال: سألت ابنَ عباس - أو سئل ابنُ عباس رضي الله عنهما: أيّ الناس كان أوّلَ إسلامًا؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت: [من البسيط]

إذا تذكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أخي ثقةٍ ... فاذكُرْ أخاك أبا بكرٍ بما فَعلا
خيرَ البرية، أتقاها وأعدَلَها ... بعد النبيّ، وأوفاها بما حملا
الثانِيَ التالِيَ المحمودَ مشهدُهُ ... وأوّلَ الناس حقًّا صدّق الرُسُلا

ويروى أن رسول الله ﷺ، قال لحسان بن ثابت: هل قلت في أبي بكر شيئًا؟ قال: نعم؛ وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع، وهو:

وثانيَ اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدوّ به إذ صعّدوا الجبلا

فسرّ رسول الله ﷺ، وقال: «أحسنت يا حسان».

وروي أنّ فيها بيتًا خامسًا، وهو:

وكان حِبَّ رسول الله إذ علموا ... خير البرية لم يَعْدِل به رجلا

ومما يؤيد أنه رضوان الله عليه أول من أسلم ما رواه الجَرِيري، عن أبي نضرة، قال: قال أبو بكر لعليٍّ رضي الله عنهما: أنا أسلمت قبلك...، في حديث ذكره، فلم ينكر عليه.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه فَدَى رسول الله ﷺ بنفسه.

رُوِي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أنها قالت، وقد قيل لها: ما أشدُّ ما رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قُعودًا في المسجدِ الحرام، فتَذَكَّرُوا رسولَ الله ﷺ، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَّقهم،

---

(١) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار.. وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم.. (وفيات الأعيان ٣:١٢).

فقالوا: ألستَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فتشبّثوا به بأجمعهم، فأتى الصّرِيخُ[١] إلى أبي بكر، فقيل له: أدرِك صاحبَك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسولَ الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]! فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا يضربونه. قالت: فرجع إلينا فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائِره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

ومنها، أنه رضي الله عنه أنفق على رسول الله ﷺ ما كان يملكه، طيِّبةً بذلك نفسُه.

روي عن هشام بن عُروة[٢]، عن أبيه، قال: أسلمَ أبو بكر وله أربعون ألفًا، أنفقها كلَّها على رسولِ الله ﷺ، وفي سبيل الله. وقال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مالٌ مثل ما نفعنِي مالُ أبي بكر».

ومن رواية أُخرى عنه قال: أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف دينار، وأعتق سبعة كلُّهم يعذَّب في الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فُهَيرة، وزنِّيرة، والنَّهْدية وابنتها، وجارية بني نوفل، وأم عُبَيس. وقد تقدّم خبرهم في السيرة النبوية.

ومنها، أنه رضي الله عنه أسلم على يديه بدعائِه نصف العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم: الزُّبير بن العوّام، وعثمان بن عفَّان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمٰن بن عوْف، وسعد بن أبي وقَّاص، رضوان الله عليهم أجمعين.

وأسلم أبواه، وصحبا رسولَ الله ﷺ، وأسلمَ بنوه كلُّهم، وصحبَ رسول الله ﷺ هو وأبوه أبو قُحافة، وابنُه عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وابن ابنه محمد بن عبد الرحمٰن، وليست هذه المنقبة لأحد من الصحابة غيره.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه كان مع رسولِ الله ﷺ في الغار، ورفيقه في هجرته، وناهيك بهما! وسمّاه عزّ وجل في كتابه: «صاحبه». فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) الصريخ: الاستغاثة، أو المغيث، أو المستغيث وهو المراد هنا.

(٢) هشام بن عروة: هو أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي.. وكان أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث، المعدودين من أكابر العلماء وجلّة التابعين، وهو معدود في الطبقة الرابعة من أهل المدينة رضي الله عنهم.. (وفيات الأعيان ٦: ٨٠).

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه؛ لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار.

وعن حبيب بن أبي ثابت في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]. قال: عَلَى أبي بكر؛ فأمّا النبيّ ﷺ فقد كانت عليه السّكِينَة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أنت صاحِبِي على الحوض، وصاحِبِي في الغار».

وعن سُفيان بن عُيَيْنَة، قال: عاتب الله عزّ وجلّ المسلمين كلّهم في رسول الله ﷺ إلاّ أبا بكر، فإنه خَرَج من المعاتبة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن فضائله ومزاياه رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قدمه للصّلاة بالمسلمين في حياته، وأمر بسدّ الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلاّ باب أبي بكر، وقد تقدّم ذلك.

ومنها ما روي عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «رأيت في المنام أنّي وُزِنْت بأُمّتي فرجَحْت، ثم وُزِن أبو بكر فرجحَ، ثمّ وزن عمر فرجح». وهذا دليل على أنه رضوان الله عليه أرجح من الأمة أكثر من مرتين، فإنه رجح الأمة، وعمر رضي الله عنه فيهم، ورجح عمر الأُمة. ورؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ لا محالة.

ورُوِي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما سابقت أبا بكر إلى خير قطُّ إلاّ سبقني إليه؛ ولودِدْت أني شعْرة في صدر أبي بكر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبيّ ﷺ أمر بالصدقة، قال عمر بن الخطاب وكان عندي مال كثير. فقلت: والله لأُفضُلَنّ أبا بكرٍ هذه المرّة، فأخذتُ نصف مالي وتركت نصفَه، فأتيت به النبيّ ﷺ، فقال: «هذا مال كثير، فَما تركتَ لأهلك»؟ قال: تركتُ لهم نصفَه؛ وجاء أبو بكر بمال كثير، فقال رسول الله ﷺ: «ما تركتَ لأهلك»؟ قال: تركتُ لهم اللّهَ ورسولَه.

وفي رواية: قلت: لا أُسابقك إلى شيء أبدًا.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦]؛ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عَبَاءة قد خَلَّها[١] في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل، فقال: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قدْ خَلَّها في صدره بخلال! فقال: «يا جبريل، أنفق ماله عليّ قبل الفتح»، قال: فإنَّ الله عزَّ وجل يقرأُ عليك السّلام، ويقول: قل له: أراضٍ أنت عليّ في فقرك هذا، أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أسخط على ربّي! أنا عن ربّي راض، أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ، قال: هبط عليَّ جبريل وعليه طِنْفِسة[٢]، وهو متخلِّل بها، فقلت: يا جبريل، لِمَ نزلْتَ إليّ في مثل هذا الزِّيّ؟ قال: إنَّ الله أمر الملائكة أن تتخلَّل في السماء كتخلل أبي بكر في الأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أصبح منكم صائمًا اليوم؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «مَنْ أطعم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «مَنْ عاد اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا، فقال: «مَنْ شهد اليوم منكم جنازة؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعت هذه الخِصال في رجلٍ قطّ إلاّ دخل الجنة».

وعن ابن أبي أوفَى، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فأقبل على أبي بكر وقال: «إني لأَعرف اسم رجلٍ واسم أبيه، واسم أُمّه؛ إذا دخل الجنَّة لم تبق غرفةٌ من غرفها، ولا شُرفة من شُرَفها إلا قال: مرحبًا مرحبًا!»، فقال سَلْمان: «إن هذا لغيرُ خائب»، فقال: «ذاك أبو بكر بن أبي قُحافة».

وعن سليمان بن يسار[٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعُمر خيرُ الأرض إلاّ أن يكون نبيًا».

قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «الخير ثلاثمائة وستون خَصْلة، إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا جعل فيه واحدة منهنّ يدخل بها الجنة»، قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، هل فيّ شيء منهنَّ؟ قال: «نعم، جميعًا من كلٍّ».

---

(١) المراد بقوله خلها أي ربطها.

(٢) الطنفسة: البساط؛ أو النمرقة فوق الرحل.

(٣) سليمان بن يسار: هو أبو أيوب ـ ويقال أبو عبد الرحمٰن، ويقال أبو عبد الله ـ سليمان بن يسار مولى ميمونة زوجة رسول الله ﷺ؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة... وكان سليمان المذكور أخا عطاء بن يسار، وكان عالمًا ثقة عابدًا ورعًا حجة... (وفيات الأعيان ٢:٣٩٩).

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل فأخذ بيدِي، فأراني باب الجنَّة الذي تدخل منه أُمّتي، فقال أبو بكر: وددْت أني كنت معك حتى أنظر إليه! فقال رسولُ الله ﷺ: «إنك يا أبا بكر أوّلُ مَنْ يدخل الجنَّة من أُمّتي».

وعن أبي أُمامة قال: استطال أبو بكر ذات يوم على عُمر، فقام عمر مغضَبًا، فقام أبو بكر فأخذ بطرف ثوبه، فجعل يقول: ارضَ عني، اعفُ عنِّي، عفا الله عنك! حتى دخل عمر الدّار وأغلق الباب دون أبي بكر ولم يكلِّمه؛ فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فغضب لأبي بكر، فلمَّا صلَّى الظهر جاء عُمر، فجلس بين يديه، فصرف النبيّ ﷺ وَجْهَه عنه، فتحوّل يمينًا فصرف وجهَه عنه، فلمّا رأى ذلك ارتعدَ وبكَى، ثم قال: يا رسولَ الله، قد أرى إعراضَك عني، وقد علمت أنك لم تفعل هذا إلاّ لأَمرٍ قد بلغك عني، موجِدة عليّ في نفسك، وما خير حياتي وأنت عليّ ساخط، وفي نفسك عليّ شيء! فقال: «أنت القائل لأَبي بكر كذا وكذا، ثم يعتذر إليك فلا تقبل منه!» ثم قام النبيّ ﷺ، فقال: «إنَّ الله عزّ وجل بعثني إليكم جميعًا، فقلتم: كذبتَ، وقال صاحبي: صدقتَ؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي!» ثلاثًا. فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد نبيًا. فقام أبو بكر فقال: والله لأَنا بدأْتُه، ولأَنا كنت أظلم، فأقبل عمر على أبي بكر فقال: ارض عني رضي الله عنك، فقال أبو بكر: يغفر الله لك! فذهب عن رسول الله ﷺ غضبُه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد هممتُ أن أبعثَ رجالاً من أصحابي إلى ملوك الأرض يدعونَهُم إلى الإِسلام كما بَعث عيسى ابن مريم الحواريّين». قالوا: يا رسول الله، أفلا تَبعث أبا بكر وعمر فهما أبلغ! فقال: «لا غنى لي عنهما؛ إنما منزلتهما من الدِّين منزلة السمع والبصر من الجسد».

وعن أبي أروى الدَّوْسِيّ، قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ جالسًا، فطلع أبو بكر وعمر، فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ لله الذي أيَّدَني بكما».

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «يا أبا بكْر، إنَّ الله أعطاني ثواب مَنْ آمن بي منذ خَلق آدم إلى أن تقوم الساعة، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب مَنْ آمن بي منذ بعثني إلى يوم تقوم الساعة».

وعن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لي وزيران من أهل السماء: جبريل وميكائيل، ووزيران من أهل الأرض: أبو بكر وعمر».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «ألا أُخبركما بمثلِكما من الملائكة، ومثلِكما في الأنبياء؟ أمّا مثلك أنت يا أبا بكر في الملائكة فمثل ميكائيل، ينزل بالرحمة، ومثلُك أيضًا في الأنبياء كمثَل إبراهيم إذْ كذّبه قومه، وصنعُوا به ما صنعوا، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [نوح: ٢٦]. ومثَلُك يا عُمر في الملائكة كمثل جبريل، ينزل بالبأس والشدة والنقمة على أعداء الله؛ ومثلك في الأنبياء كمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وعن عمّار بن ياسر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاني جبريل آنفًا، فقلت له: يا جبريل حدّثني بفضائل عمر بن الخطاب في السماء. فقال: يا محمد، لو حدَّثتك بفضائل عمر بن الخطاب في السّماء مثل ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ما نفدت فضائل عمر، وإنَّ عُمرَ حسنة من حسنات أبي بكر».

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، قال: هبط جبريل على النبيّ ﷺ فوقف ثلاثًا يناجيه؛ فمرّ أبو بكر الصديق فقال جبريل: يا محمّد، هذا ابن أبي قُحافة؛ قال: يا جبريل، وتعرفونه في السماء؟ قال: إي والذي بعثك بالحقّ؛ لهو أشهر في السماء منه في الأرض، وإن اسمه في السماء لَلْحَليم».

وعن ابن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لَرَجح».

وعن عبد الرحمٰن بن أبي بكر؛ أنّه كان يوم بدر مع المشركين، فلمّا أسلم قال لأبيه: لقد اهتدفْتَ[1] لي يوم بدر، فصُرِفت، عنك ولم أقتلك؛ فقال أبو بكر: لكنَّك لو اهْتدفت لي لم أنصرف عنك.

وعن ابن غَنْم، أنّ النبيّ ﷺ قال لأبي بكر، وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تستشير أبا بكر».

وعن أنس قال: كان رسولُ الله ﷺ خرج إلى المسجد ومعه المهاجرون والأنصار، ما أحد منهم يرفع رأسه من حبوته إلا أبو بكر وعمر، فإنَّه كان يبتسم إليهما ويبتسمان إليه.

---

(١) اهتدفت: أي جعلت عرضة للطعن.

وعن الزُّبير بن العوّام، قال: قال رسولُ الله ﷺ في غزوة تَبُوك: «اللَّهمّ بارك لأمّتي في أصحابي، فلا تسلبهم البركة، وباركْ لأصحابي في أبي بكر، فلا تسلبه البركة، واجمعْهم عليه، ولا تشتِّت أمره؛ فإنه لم يزل يؤثر أمرك على أمره. اللهم أعِزْ عمر بن الخطاب، وصبّر عثمان بن عفّان، ووفّق عليّ بن أبي طالب، وثبِّت الزبير، واغفر لطلحة، وسلِّم سعدًا، ووقِّر عبد الرحمٰن، وألحق بي السَّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

وقيل: لمّا قدم رسولُ الله ﷺ من حَجّة الوداع صعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يأيّها الناس، إنَّ أبا بكر لم يسؤني قطّ، فاعرفوا ذلك له. يأيّها الناس، إنّي راضٍ عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمٰن بن عوْف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا ذلك لهم. يأَيّها الناس، إنَّ الله قد غفر لأَهل بدر والحُديبِيَة. يأيّها الناس، احفظوني في أحبابي وأصهاري وفي أصحابي، لا يطلبنّكم الله بمظلمةِ أحدٍ منهم، فإنها ليست فيما يوهب. يأَيّها النَّاس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، إذا مات الرجل، فلا تقولوا فيه إلا خيرًا»، ثم نزل ﷺ.

وعن عَمْرو بن العاص، أنّه أتى النبيّ ﷺ، فقال: أيّ الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: من الرجال، قال: أبوها. قال: ثم مَنْ؟ قال: عمر.

وعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كنّا مع النبيّ ﷺ، فقال: «إنّي مشتاق إلى إخواني»، فقلنا: أوَلَسْنَا إخوانَك يا رسول الله! قال: «كلاّ، أنتم أصحابي وإخواني»، فجاء أبو بكر الصديق، فقال عمر: إنه قال: «إني لمشتاق إلى إخواني، فقلنا: ألسنا إخوانَك؟ فقال: لا، إخواني قوم يؤمنون بي ولم يروْني. فقال النبي ﷺ: «ألا تُحبّ قومًا بلغهم أنّك تحبني فأحبوك لحبّك إياي، فأحبهم الله»!

وعنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ متّكِئًا على عليّ، وإذا أبو بكر وعمر قد أقبلا، فقال رسولُ الله ﷺ: «أحِبَّهما فحبُّهما يدخل الجنّة».

وعن أنَس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حبُّ أبي بكر وشكْرُه واجبٌ على أمتي».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبّ أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما كفر».

وعن ابن عُمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا ولِد أبو بكر الصّديق أقبل الله تعالى على جنّة عَدْنٍ، فقال: وعزَّتي وجلالِي لا أُدخلك إلاّ من يحبّ هذا المولود» - يعني أبا بكر -.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في السماء الدنيا ثمانين ألف ملَك يستغفرون الله تعالى لمن أحبّ أبا بكر وعمر؛ وفي السماء الثانية ثمانين ألف ملك يلعنون مَنْ أبغض أبا بكر وعمر».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: دخل رسولُ الله ﷺ المسجد بين أبي بكر وعمر، وهو معتمد عليهما، فقال: «هكذا ندخل الجنة جميعًا».

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ مَنْ يعطَى كتَابَه من هذه الأَمّة أبو بكر؛ الناس كلهم يحاسَبُون إلا أبا بكر».

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تأْتي الملائكة بأبي بكر الصديق مع النبيّين والصّدّيقين تَزُفُّه إلى الجنة زَفًّا».

وعن ثابت، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أوّل مَنْ يعطَى كتابَه من هذه الأُمّة عمر بن الخطاب، وله شُعاع كشُعاع الشمس» فقيل له: فأين أبو بكر يا رسول الله؟ قال: «هيهات! زَفَّته الملائكة إلى الجنة».

وعن أَنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كأنّي بك يا أبا بكر على باب الجنَّة تشفع لأُمّتي».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ من تحت العرش: ألا هاتوا أصحاب محمد»، قال: فيؤتَى بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فيقال لأبي بكر: قِف على باب الجنّة، فأَدخِل الجنة مَنْ شئت برحمة الله، ودعْ من شئت بعلم الله، ويقال لعمر بن الخطاب: قفْ على الميزان فثقِّل من شئت برحمة الله، وخفِّف من شئت بعلم الله، ويعطى عثمان بن عفَّان عصا آس[1]، التي غرسها الله عزَّ وجل في الجنة، ويقال له: ذُدِ النَّاس عن الحوض».

وقد ورد في الصحيحين من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ما فيه مقنع، وفضائله رضوان الله عليه كثيرة، وقد ذكرنا جملةً كافية، فلنذكر صفته.

---

(١) الآس: شجر دائم الخضر، بيضي الورق، أبيض الزهر أو ورديه، عطري، وثماره لبية سود تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل. وهو من فصيلة الآسيات.

ذكر صفة أبي بكر الصديق

كان رجلاً نحيفًا طويلاً أبيض، خفيف العارضين أجْنأ[١]، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقْوَيه[٢]، مَعروق الوجه[٣]، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع[٤].

هكذا وصفته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وكان يخضب بالحِنَّاء والكَتَم[٥].

ذكر ما ورد من أن رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على أمته من بعده وحجة من قال ذلك

قال الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمريّ[٦] رحمه الله: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه على أُمته من بعده؛ بما أظهر من الدلائل البيِّنة على محبّتِهِ في ذلك، وبالتعريض الذي يقوم مقام التَّصريح، ولم يصرّح بذلك لأنه لم يؤمَرْ فيه بشيء.

وكان ﷺ لا يصنع شيئًا في دين الله إلا بوحي، والخلافة ركن من أركان الدين.

قال: ومن الدليل الواضح على ما قلنا، ما حدّثنا سعيد بن نصر وعبد الوارث بن سُفيان، قالا: حدّثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدّثنا أحمد بن زُهير، قال: حدّثنا منصور بن سَلَمَة. وأخبرنا أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا الميمون بن حمزة الحسينيّ بمصر، قال: حدّثنا الطّحاويّ؛ قال: حدّثنا المزنيّ، قال: حدّثنا الشافعيّ، قال:

---

(١) الأجنأ: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الحقو: الكشح والإزار أو معقده.

(٣) معروق الوجه: أي قليل اللحم فيه.

(٤) الأشاجع: مفردها الأشجع، وهو عرق ظاهر الكف.

(٥) الكتم: المشهور أنه النيلاء، وقيل نبت له ورق دقيق وزهر أصفر وحمل أسود كالفلفل... يقوي الشعر ويمنع سقوطه... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٦) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وأبي محمد بن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وغيرهم.. وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وغيرهما... (وفيات الأعيان ٧:٦٦).

حدّثنا إبراهيم بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم، عن أبيه، قال: أتت امرأة إلى رسولِ الله ﷺ، فسألها عن شيء، فأمرها أن ترجع إليه. فقالت: يا رسولَ الله، أرأيت إن جئتُ ولم أجدك؟ ـ تعني الموت ـ فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجديني فأت أبا بكر».

قال الشافعيّ رحمه الله: في هذا الحديث دليلٌ على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

وقد تقدم في السيرة النبويّةِ عن عاصم، عن قتادة[1]، قال: ابتاع النبي ﷺ بعيرًا من رجل إلى أجلٍ، فقال: يا رسولَ الله، إن جئتُ فلم أجدك؟ ـ يعني الموت ـ قال: فأت أبا بكر، قال: فإن جئت فلم أجد أبا بكر؟ ـ يعني بعد الموت ـ قال: فأت عمر، قال: إن جئتُ فلم أجد عمرَ؟ قال: إن استطعتَ أن تموتَ إذا مات عمر، فمت.

وساق أبو عمر بن عبد البرّ في أدلّته على استخلاف رسول الله ﷺ له أحاديث الصلاة، وكونه استخلفه أن يصلّيَ بالناس في مرضه.

وقد قدمنا ذكر ذلك كلّه في خبر وفاة رسُول الله ﷺ.

وممّا يؤيد ذلك ويعضّده ما قدّمناه من حديث عائشة رضي الله عنها، وقول رسول الله ﷺ لا: «لقد هممتُ ـ أو أردت ـ أن أُرسل إلى أبيك، أو أخيك فأقضِيَ أمري، وأعهد عهدي؛ فلا يطمع في الأمر طامع، ولا يقول القائلون، أو يتمنَّى المتمنُّون» ثم قال: «كلا يأْبى الله ويدفع المؤمنون»، أو «يدفع الله ويأْبى المؤمنون».

وقال بعضهم في حديثه: «ويأبى الله إلا أبا بكر».

وفي الحديث الآخر عن أبي مُليكة، قال: قال النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «ادعوا إليّ أبا بكر»، فقالت عائشة: إنّ أبا بكر رجل يغلبه البكاء؛ ولكن إن شئتَ دعونا لك ابن الخطاب؛ قال: «ادعوا إليّ أبا بكر، قالت: إن أبا بكرٍ يرقّ، ولكن إن شئت دعوْنا لك ابن الخطاب، فقال: «إنكنّ صواحبُ يوسف، ادعوا أبا بكر وابنه؛ فليكتب؛ أن يطمع في أمر أبي بكر طامع، أو يتمنى متمنٍّ». ثم قال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون، يأبى الله ذلك والمؤمنون!».

---

(١) قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، السدوسي البصري الأكمه، كان تابعيًا وعالمًا كبيرًا.. وكان قتادة أجمع الناس... (وفيات الأعيان ٤: ٨٥).

قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون.

وفي هذا الحديث والذي قبله تصريح على أنه الخليفة بعده، ودليلٌ على أن الكتاب الَّذي أراد رسولُ الله ﷺ أن يكتبه، وتركه لما كثر عنده التنازع؛ إنما كان المرادُ به أن ينصَّ على أبي بكر في الخلافة. والله تعالى أعلم.

وروى أبو عُمر بسنده إلى عبد الله بن مسعود، أنه قال: اجعلوا إمامكم خيركم؛ فإن رسولَ الله ﷺ جعل إمامنا خيرنا بعده.

وروى الحسن البصريّ، عن قيس بن عباد، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن رسولَ الله ﷺ مرِض ليالِيَ وأيامًا، ينادَى بالصلاة فيقول: «مرُوا أبا بكر يصلِّي بالناس»؛ فلما قبِض رسولُ الله ﷺ، نظرتُ، فإذا الصّلاة علَم الإسلام، وقِوامُ الدِّين، فرضينَا لدنيانا ما رضيَ رسولُ الله ﷺ لديننا، فبايعنا أبا بكر.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: أنا خليفة رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان يدعى: يا خليفة رسول الله ﷺ.

وروي عن ابن أبي مليكة، قال: قال رجل لأبي بكر يا خليفة الله، قال: لستُ خليفة الله؛ ولكن أنا خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك.

وروى أبو عمر بسنده، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: خيرُ هذه الأُمة بعد نبيّها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: سبق رسولُ الله ﷺ، وصلّى أبو بكر، وثلَّث عمر، ثم خبطتْنا فتنة يغفر الله فيها عمّن يشاء. وقال: رحم الله أبا بكر! كان أول من جمع بين اللَّوحين[1].

وقال أبو عمر بن عبد البر: وروينا من وجوه، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أنه قال: ولينا أبو بكر فخير خليفة، أرحمه بنا؛ وأحناه علينا.

وقال مسروق: حبّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنّة.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: لا يفضِّلُنِي أحدٌ على أبي بكر وعمر إلاَّ جلدته جَلْد المفتري.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

(١) اللوح المحفوظ: أي مستودع مشيئات الله تعالى، وإنما هو على المثل... وقوله عزّ وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: ١٤٥] قال الزجاج: قيل في التفسير إنهما كانا لوحين، ويجوز أن يقال للوحين ألواح، ويجوز أن يكون ألواح جمع أكثر من اثنين... (اللسان مادة ل.و.ح).

ذكر بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخبر السقيفة، وما وقع بين المهاجرين والأنصار من التراجع في الإمارة

بويع أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بالخلافة في يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل، سنة إحدى عشرَة من الهجرة؛ وهو اليوم الَّذِي مات فيه رسول الله ﷺ، في سقيفة بني سَاعدة، وذلك قبل أن يُشرَع في جهاز رسول الله ﷺ.

وكان من خبر سقيفة بني ساعدة، أنَّه لمّا تُوفِّيَ رسول الله ﷺ، اجتمعت الأنصار في سَقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولِّي هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ سَعد بن عُبادة، وأخرَجوا سعدًا إليهم وهو مريض، فلمّا اجتمعوا قال سعد لأبيه ـ أو لبعض بني عمّه ـ: إني لا أقدر أشْكو، أي أن أُسْمِع القومَ كلهم كلامي؛ ولكن تَلقَّ مني قولي فأسمِعْهموه، فكان سعد يتكلّم ويحفظ الرجلُ قولَه، فيرفع به صوتَه، فيسمَعُ أصحابُه، فقال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه: يا معشَر الأنصار، إنَّ لكم سابقةً في الدين، وفضيلةً في الإسلام ليست لقبيلة من العرب؛ إن محمدًا ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمٰن، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلاَّ رجال قليل؛ واللّهِ ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسولَه، ولا أن يُعزُّوا دينه، ولا أن يَدْفعوا عن أنفسهم فيما عُمُّوا به؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة؛ ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنعَ له ولأصحابه، والإعزازَ له ولدينه، والجهادَ لأعدائه. فكنتم أشدَّ الناس علَى عدوِّه من غيركم؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيد المقادةَ صاغرًا[١] دَاخِرًا[٢]؛ وحتى أثخن[٣] الله لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب. وتوفَّاه الله إليه وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير العين. استبدُّوا بهذا الأمر دون النَّاس؛ فإنه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم، أن قد وفِّقتَ في الرأي، وأصبت في القول، ولَنْ نَعْدُو ما رأيت؛ نولِّيك هذا الأمر؛ فإنك فينا رفيع، ولصالح المؤمنين رضًا.

ثـم إنـهـم تـرادُّوا الـكـلام، فـقـالـوا: فإن أبت مـهـاجـرةُ قـريـش؟ فـقـالـوا: نـحـن المهاجرون وصحابةُ رسولِ الله ﷺ الأولون، ونحن عشيرتُه وأولياؤه؛ فعلامَ تنازعوننا

---

(١) الصاغر: الذي رضي بالذل والمهانة. (٢) الداخر: الذليل المهان.

(٣) يقال: أثخن في الأرض: إذا بالغ في قتل أعدائه. وأثخن الشيء: علمه حق العلم.

الأمرَ من بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإنا نقول إذًا فمنًّا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا أبدًا. فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الْوهَن[١]!

وأتى عمرَ رضي الله عنه الخبرُ، فأقبل إلى منزل النبيّ ﷺ، فأرسل إلى أبي بكر، وأبو بكر في الدار، وعليّ بن أبي طالب دائب في جهاز النبيّ ﷺ؛ فأرسل إلى أبي بكر، أن اخرج إليّ؛ فأرسل إليه: إنّي مشتغل، فأرسل إليه: إنه قد حَدث أمرٌ لا بدّ لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمتَ أنّ الأنصار قد اجتمعتْ في سقيفة بني ساعدة، يريدون أن يولُّوا هذا الأمر سعد بن عبادة؛ وأحسنُهم مقالة مَنْ يقول: منّا أميرٌ ومن قريش أمير!

فخرجا مسرعيْن نحوهم، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوْا إليهم ثلاثتُهم، فلقيَهم عاصم بن عديّ وعُوَيم بن ساعدة، فقالا لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. قالا: فارجعوا. فاقضوا أمركم بينكم؛ فإنّه لم يكن إلا ما تحبون، فقالوا: لا نفعل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه: فقلت: والله لنأتينَّهم! قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سقيفة بني سَاعدة وإذا بين أظهرهم[٢] رجل مزمَّل[٣]، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة. قلت: ما شأْنُه؟ قالوا: وَجِع، فقام رجل منهم، فحمد الله وقال: أمّا بعد، فنحن الأَنصار، وكتيبة الإِسلام، وأنتم يا معشر قريش رهطُنا، وقد دفّت[٤] إلينا من قومكم دافّة.

قال: فلما رأيتُهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. وقد كنت زوّرت[٥] في نفسِي مقالة أقدّمها بين يديْ أبي بكر، وكنت أُداري منه بعض الحدّ، وهو كان أوقرَ مني وأحلم، فلمّا أردتُ أن أتكلَّم قال لي: على رِسْلِك[٦]! وكرهت أن أُغضبه، فقام، فحمِد الله، وأثنى عليه، فما ترك شيئًا زوّرت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت، إلا قد جاء به، أو بأحسن منه.

---

(١) الوهن: الضعف وذبول الحيوية. (٢) بين أظهرهم: أي بينهم.

(٣) الرجل المزمل: الذي تلفف وتغطى.

(٤) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد.

(٥) يقال: زور الكلام: إذا زخرفه وموّهه. وزور الكلام في نفسه: أي هيأه وحضره.

(٦) على رسلك: أي على مهلك.

وقال: أمّا بعد، يا معشرَ الأنصار، فإنّكم لا تذكرون منكم فضلاً إلاّ أنتم له أهلٌ، وإنّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش؛ هم أوسط العرب دارًا ونسبًا، وإنّي قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم. وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح.

يقول عمر وهو على المنبر: وإنّي والله ما كرهتُ من كلامه شيئًا غير هذه الكلمة، أن كنت أُقدّمُ فتضرَب عنقي أحبُّ إليّ مِنْ أن أؤَمّر عَلَى قوم فيهم أبو بكر.

قال: فلما قضى أبو بكر كلامَه قام منهم رجل، فقال: أنا جُذَيْلُهَا[١] المحكَّك، وعُذيقُها[٢] المرجَّب؛ منّا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش.

قال عمر: وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبي بكر: ابْسط يدك نبايعك، فبسط يده فبايعتُه، وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار، ثمّ نَزَوْا[٣] على سعد؛ حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عُبادة. فقلت: قتل الله سعدًا! وإنا والله ما وجدنا أمْرًا هو أقوى من مبايعة أبي بكر، إنّا خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعَهم على ما نرضى، أو نخالفهم فيكون فَشل.

ومن رواية عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي عمر الأنصاريّ، وذَكر ما تكلَّم به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وما قاله الأنصار، فقال بعد أن ساق ما تقدم أو نحوه، ثـم قال: فبدأ أبو بكر، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثـم قال: إنَّ الله بعث محَمّدًا ﷺ رسولاً إلى خَلْقه، وشهيدًا على أُمّته؛ ليعبدُوا الله ويوحِّدوه وهم يعبدون من دونه آلهةً شتى، يَزْعمون أنّها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنّما هي حَجَر منحوت، وخشب منجور. ثم قرأ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فعظم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به، والمواساةِ له والصبر معه، على شدّة أذى

---

(١) الجذل: عود يَنصب للإبل الجربى لتحتك به. ويقال: هو جذيلها المحكك: لمن يستشفى برأيه.

(٢) رحب النخلة: أي دعمها ببناء تعتمد عليه، أو ضم عذاقها إلى سعفاتها وشدها بالخوص لئلا تنفضها الريح. والعذق: قنو النخلة.

(٣) نزا عليه: أي وثب عليه.

قومهم لهم، وتكذيبهم إيّاهم، وكلّ الناس لهم مُخالف، وعليهم زارٍ[١]، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنَف[٢] النّاس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أوّل مَنْ عَبد الله في الأرض، وآمن بالله والرّسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعُهم ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، أنتم مَنْ لا ينكر فضلُهم في الدّين، ولا سابقتُهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجْرته، وفيكم جِلّة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدٌ بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفاتون بمشورة ولا تقضَى دونكم الأُمور.

قال: فقام الحُباب بن المنذر بن الجَموح، فقال: يا معشرَ الأنصار، املِكوا على أيديكم. فإنّ الناس في فيئكم وفي ظلّكم، ولن يجترىء مجترىءٌ على خِلافكم، ولن يُصدِر الناس إلا عن رأيكم؛ وأنتم أهل العزّ والثّروة، وأُولو العدد والتجربة، وذوو البَأس والنَّجدة؛ وإنما ينظر الناس إلى ما تَصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتنتقض عليكم أُموركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قَرَن[٣]! إنه والله لا يرضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها ﷺ من غيركم؛ ولكن العرب لا تمتنع أن تولّيَ أُمورها من كانت النبوّة فيهم، ووَلِيّ أُمورهم منهم؛ ولنا بذلك علَى من أبى من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين. مَنْ ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته؛ ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانف[٤] لإثم أو متورّطٌ في هَلكة!.

فقام الحُبابُ بن المنذر، فقال: يا معشر الأنصار، املِكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوْا عليكم ما سألتموه، فأجلُوهم عن هذه البلاد، وتولّوْا عليهم هذه الأُمور؛ فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم؛ فإنه بأسيافكم دان لهذا الدّين من لم يكن يدِين، أنا جُذيلُها المحكَّك وعُذَيقها المرَجّب؛ أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جَذَعَة[٥]! فقال له عمر: إذن يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل.

---

(١) الزار: المحتقر.

(٢) يقال: شنف له: أي فطن.

(٣) القرن: الحبل يقرن به البعيران.

(٤) المتجانف: المتمايل.

(٥) جذعة: فتية.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنَّكم أوّل مَنْ نصر وآزر، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر.

فقال بشير بن سعد، أبو النعمان بن بشير:

يا معشر الأنصار، إنَّا والله لئن كنَّا أُولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقةٍ في هذا الدّين، ما أردنا به إلا رضا ربّنا، وطاعة نبيّنا ﷺ، والكدْح لأنفسنا؛ ما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا، فإن الله وليّ المنة علينا بذلك؛ ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحقُّ به وأولى. وأيمُ اللّهِ لا يراني الله أُنازعهم هذا الأمر أبدًا! فاتقوا الله ولا تخالفوهم، ولا تنازعوهم.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: هذا عمر وأبو عبيدة، فأيّهما شئتم فبايعوا؛ فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك، وأنت أفضلُ المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصّلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك! ابسُط نبايعك.

فلمّا ذهبا ليبايعاه سبَقهما إليه بَشير بن سعد فبايعَه، فناداه المنذر بن الحُباب: يا بشيرَ بن سعد، عققتَ عَقَاقِ! ما أحوجك إلى ما صنعت! أنفَست على ابن عَمّك الإمارة! قال: لا والله، ولكن كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم.

قال: ولمَّا رأت الأوسُ ما صنع بشير بن سعد، وما تدْعُو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض - وفيهم أُسَيد بن حُضَيْر: والله لئن وليَتْها الخزرج عليكم مرّة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[(١)] في تاريخه: فروي عن أبي بكر بن محمد الخُزاعيّ: إنّ أسلمَ أقبلت بجماعتها حتى تضايقت بها السكك ليبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هُوَ إلاّ أن رأيتُ أسلمَ، فأيقنت بالنَّصْر.

---

(١) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل يزيد بن كثير بن غالب؛ صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٤:١٩١).

قال عبد الله بن عبد الرحمٰن: فأقبَل النّاس من كلّ جانب يبايعون أبا بكر، وكادُوا يطؤون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدًا لا تَطؤوه، فقال عمر: اقتلوه، اقتلوه، قتله الله! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تُنْدَر[١] عِضوُك؛ فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، ثم قال: والله لو حَصَصْتَ[٢] منها شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة[٣].

فقال أبو بكر: مَهْلًا يا عمر، الرفق هاهنا أبلغ! فأعرض عنه عمر؛ وقال سعد: أمَا والله لو أنّ بي من قوتي ما أقوى على النهوض لسمعتم مني في أقطارها وسككها[٤] زئيرًا يُجْحِرك[٥] وأصحابك. أمَا والله إذا لألحقنَّك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع. احملوني عن هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره، وتُرِكَ أيامًا ثم بُعث إليه أن أقبِلْ فبايعْ؛ فقد بايع الناس وبايع قومُك؛ فقال: أمَا والله حتّى أرميَكم بما في كنانتي من نَبْل، وأخضب منكم سِنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكتْه يدي، وأقاتكلم بأهل بيتي ومَنْ أطاعني من قومي، فلا أفعل وأيمُ الله: لو أن الجنّ اجتمعت لكم مع الإِنس ما بايعتكم حتى أُعْرَض على ربي وأعلم ما حسابِي.

فلما أُتِيَ أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعْه حتى يبايع؛ فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى وإنه ليس يبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته. فاتركوه، فليس تركه يضارّكم، إنما هو رجل واحد. فتركوه، وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لِمَا بدا لهم منه؛ فكان سعد بن عبادة لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمعَ مَعَهم، ويحجّ ولا يُفيض معهم بإفاضتهم[٦]، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن الضحّاك بن خليفة، أنّ سعد بن عبادة بايع.

وعن جابر، قال: قال سعد بن عبادة يومئذ لأبي بكر: إنّكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنّك وقومي أجبرتموني على البيعة؛ فقال أبو بكر: إنّا لو أجْبَرْناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سَعة، ولكنَّا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها؛ لئن نزعت يدًا من طاعة، أو فرّقت جماعة لأضربنّ الذي فيه عيناك.

---

(١) يقال: يندر الشيء: أي يزال عن موضعه.
(٢) حصصت: أسقطت.
(٣) الواضحة من الأسنان: التي تبدو عند الضحك.
(٤) السكة: السطر المصطف من الشجر والنخيل، أو الطريق المستوي. جمع سكك.
(٥) يجحرك وأصحابك: أي يدخلكم المضايق.
(٦) الإفاضة: انصراف الحجاج عن الموقف في عرفة.

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله؛ أنّ عمر رضي الله عنه قال: نشدتكم الله! هل تعلمون أن رسولَ الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلّيَ بالناس! فقالوا: اللهمّ نعم، قال: فأيّكم تطيب نفسه أن يزيلَه عن مقامٍ أقامه فيه رسول الله ﷺ! فقالوا: كلنا لا تطيب نفسه، ونستغفر الله. وبايعوه.

قال: ثم بويع البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم، وتخلّف عن بيعته سعد بن عبادة، وطائفة من الخزرج، وفرقة من قُرَيش، ثم بايعوه بعدُ غير سعد.

وقيل: إنه لم يتخلّف عن بيعته يومئذ أحدٌ من قريش.

وقيل: تخلّف عنه من قريش: عليّ، والزُّبير، وطلحة، وخالد بن سعد بن العاص. ثم بايعوه بعد.

وقد قيل: إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لم يبايعْه إلا بعد موت فاطمة رضي الله عنها، ثم لم يزل سامعًا مطيعًا له، يثني عليه ويفضّله.

وقيل: إنه تخلّف عليٌّ وبنو هاشم والزُّبير وطلحة عن البيعة، وقال الزُّبير: لا أغمِد سيفي حتى يبايع عليّ، فقال عمر: خذوا سيفه، فاضربوا به الحجَر؛ ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة.

وقيل: إنّ عليًا لما سمع ببيعة أبي بكر خرج في قميصٍ، ما عليه إزار ولا رداء، عَجِلًا حتى بايعه، ثم استدعى إزاره ورداءه.

وحكى محمد بن إسحاق رحمه الله؛ عن عبد الله بن أبي بكر،أنّ خالد بن سعيد بن العاص قدِم من اليمن بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، فتربّص ببيعته لأبي بكر شهرين، وكان يقول: قد أمّرني رسول الله ﷺ ولم يعزلني، ثم بايع أبا بكر. فلمّا بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، كان أولَ مَنْ بعث على رُبْع منها خالد بن سعيد، فلم يزلْ به عمر حتى عزله، وأمّر يزيد بن أبي سفيان، وكان عمر رضي الله عنه قد اضطغن عليه تأخره عن بيعة أبي بكر.

وعن عِكْرمة[١]، قال: لمّا بويع لأبي بكر تخلّف عن بيعتِه عليّ، وجلس في بيته، فلقيَه عمر، فقال: تخلّفت عن بيعة أبي بكر، فقال: إنّي أكتب بيمين حين قبض رسول الله ﷺ ألاّ أرتديَ برداء إلاّ إلى الصلاة المكتوبة؛ حتى أجمع القرآن؛ فإني خشيت أن ينفلت، ثم خرج فبايع.

(١) عكرمة: هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أصله من البربر من أهل المغرب، كان لحصين بن الحر العنبري، فوهبه لابن عباس رضي الله عنهما حين ولي البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسماه بأسماء العرب... (وفيات الأعيان ٣: ٢٦٥).

وعن مالك بن مِغول، عن ابن أبجر، قال: لما بُويع لأبي بكر الصديق جاء أبو سفيان بن حرب إلى عليّ، فقال: غَلَبكم علَى هذا الأمرِ أرذلُ بيت في قريش! أمَا والله لأملأنّها خيلاً ورَجْلاً! فقال له عليّ: ما زلتَ عدوَّ الإسلام وأهلِه، فما ضرّ ذلك الإسلامَ وأهلَه شيئًا. إنّا رأينا أبا بكر لها أهلاً. ورواه عبد الرزاق، عن ابن المبارك.

وروَى أبو عمر بن عبد البر بسنده، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عليًا والزبير كانا حين بويع لأبي بكر يدخلان على فاطمة فيشاورانها في أمرهم، فبلغ ذلك عمر، فدخل عليها فقال: يا بنت رسول الله، ما كان من الخلْق أحدٌ أحبَّ إلينا من أبيك، وما أحدٌ أحبّ إلينا بعده منك، وقد بلغني أن هؤلاء النّفر يدخلون عليك، ولئن بلغني لأفعلنّ ولأَفعلنّ! ثم خرج وجاؤوها فقالت لهم: إن عمر قد جاءني وحلف إن عدتم ليفعلنّ، وأيمُ الله ليفينّ بها، فانظروا في أمركم، ولا تنظروا إليّ؛ فانصرفوا ولم يرجعوا حتى بايعوا لأبي بكر. رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا الحديث يردّ قول من زعم أن عليّ بن أبي طالب لم يبايع إلا بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها.

ولما بُويع لأبي بكر رضي الله عنه، قال ابن أبي عَزّة[1] القرشي الجُمحيّ: [من الكامل]

شكرًا لمن هُوَ بالثّناء خَليقُ ... ذهب اللّجاجُ وبويع الصّدّيقُ[2]

مِنْ بعد ما ذهبتْ بسعدٍ بغْلُه ... ورجا رجاءً دونَه العَيُّوق[3]

جاءت به الأنصار عاصِبَ رأسِه ... فأتى به الصديق والفاروق

وأبو عبيدة والّذين إليهمُ ... نفس المؤمّل للبقاء تَتُوق

كنّا نقول لها عليٌّ والرّضا ... عمرٌ وأوْلاهم بتلك عَتِيق

فدعت قريش باسمه فأجابها ... إنّ المنوّه باسمه الموثوق

---

(١) أبو عزة: هو عمرو بن عبد الله بن عمير بن أهيب بن جذافة.. أحد رجال بني جمح، كان يحضض على النبيّ ﷺ، فأسر يوم بدر... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) اللجاج: واحدتها اللجة، وهي اختلاط الأصوات، أو الجلبة.

(٣) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها. ويطلع قبل الجوزاء.

وروي عن سعيد بن المسيّب، قال: لما قُبِض رسول الله ﷺ ارتجّت مكة، فسمع أبو قُحافة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قُبِض رسول الله ﷺ، قال: أمرٌ جَلَلٌ، فمن وَلِيَ بعده؟ قالوا: ابنُك، قال: فهل رضيتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: لا مانع لما أعْطى الله، ولا معطي لما منع الله. والله تعالى أعلم، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب بعد البيعة الأولى وقبل البيعة الثانية العامة

روَى أنَس بن مالك[1]، قال: لما بُويع أبو بكر رضي الله عنه في السَّقيفة، وكان الغَدُ، جلس أبو بكر على المِنْبر، فقام عمرُ فتكلَّم قبل أبي بكر، فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

أيها الناس، إنِّي قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاَّ عَنْ رأيي، وما وجدتُها في كتاب الله، ولا كانتْ عهدًا عِهَده إلينا رسولُ الله ﷺ، ولكن قد كنتُ أرى أنّ رسولَ الله ﷺ سيُدبِّرُ أمرنا حتى يكون آخِرَنا، وإنّ الله قد أبقى فيكم كتابَه الَّذي هَدَى به رسولَه، فإن اعتصمتم به هَداكم الله لما كان هداه له، وإنَّ الله قد جمعَ أمرَكم على خيركم، صاحِب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوا. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامّة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلَّم أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بالَّذي هو أهله، ثم قال: أمّا بعد؛ أيها النّاس، فإنِّي قد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصّدق أمانة، والكذب خيانة، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله، والقويّ منكم الضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدَع قومٌ الجهادَ في سبيل الله، فإنّه لا يَدَعه قوم إلاَّ ضَرَبهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاَّ عَمَّهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلاَ طاعة لي عليكم؛ قوموا إلى صلاتكم، يرحمكم الله.

---

(١) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام، صحب رسول الله ﷺ وخدمه.. (الاشتقاق لابن دريد).

ـ يعني بالصّلاة هنا، الصّلاة على رسول الله ﷺ ـ فإن خطبته هذه كانت قبل دفنه ﷺ.

وقول عمر بن الخطاب في كلامه: «إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة»، إشارة إلى ما كان قد تكلّم به عند وفاة رسول الله ﷺ من إنكاره أنّه مات، على ما قدّمنا ذكره في خبر وفاة رسول الله ﷺ؛ وإنّما أوضحنا هذا الكلام في هذا الموضع لئلا يتبادَر إلى ذهن من يسمعه مِمّن لم يطالِع ما قبله، ولا علِم الواقعة فيتوهّم أن كلامه بذلك رجوعٌ عمّا تكلّم به بالأمس في شأن بَيْعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

وعن عاصم بن عديّ[١]، أنه قال: وقام أبو بكر رضي الله عنه من بعد الغد ـ يعني من يوم بيعته ـ فحمِد الله، وأثْنى عليه، ثمّ قال: يأيّها الناس؛ إنما أنا مثلُكم، وإنّي لا أدري لعلكم ستكلّفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إنّ الله اصطفى محمّدًا على العالَمين، وعصَمه من الآفات، فإنّما أنا متّبِع ولست بمبتدِع فإن استقمت فاتّبعوني، وإن زغتُ فقوّموني، وإن رسولَ الله ﷺ قُبِضَ، وليس أحَدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمةٍ؛ ضربةَ سوط فما دونها؛ ألا وإنما لي شَيْطان يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أُؤَثِّر في أشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غُيِّبَ عنكم علمه، فإن استطعتم ألاّ يَمْضِيَ هذا الأجل إلاّ وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلاّ بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تُسلِمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإنّ قومًا نَسُوا آجالَهم، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهُم. الجدّ الجدّ، والوحى الوحَى[٢]، والنَّجَاة النَّجاة، وإنَّ وراءكم طالبًا حثيثًا، أجلا مرّه سريع. واحذروا الموتَ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تُغْبَط به الأمواتُ.

وقام أيضًا رضي الله عنه، فحمِد الله وأثْنَى عليه، ثم قال:

إنّ الله لا يقبلُ من الأعمال إلاّ ما أُريدَ به وجهه، فأَريدُوا الله بأعمالكم، واعلموا أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم، فطاعةٌ أتيتموها، وحظٌّ ظفِرتم به، وضرائب أدّيتموها، وسلَفٌ قدّمتموه من أيام فانية لأُخرى باقية، لحين فقْرِكم وحاجتِكم، واعتبرُوا يا عبادَ الله بمن مات منكم، وفكّروا فيمن كان قبلكم.

---

(١) هو من بني أسماء بهراء بن عمرو واسمه عاصم بن عديّ بن الجد، صحب النبيّ ﷺ. (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) الوحى: الإسراع.

أين كانوا أمس وأين هم اليوم! أين الجبّارون الذين كان لهم ذكرُ القتال والغَلبة ومواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدّهر وصاروا رميمًا، قد تُرِكتْ عليهم القالات[١]؛ الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات.

وأين المُلُوك الَّذين أثاروا الأرض وعمَرُوها، قد بَعُدوا، ونُسِيَ ذكرُهم، وصاروا كلا شيء. ألاَ إنّ الله قد أبقى عليهم التّبِعاتِ، وقَطَع عنهم الشَّهوات، ومضَوْا والأعمالُ أعمالهم، والدُّنيا دُنْيَا غيرِهم، وبقينا خَلَفًا بعدهم، فإنْ نحنُ اعتبرنا بهم نجوْنا.

أين الوُضَاءُ[٢] الحسَنة وجوهُهم، المعجَبُون بشَبابهم! صاروا ترابًا، وصار ما فرَّطُوا فيه حسرةً عليهم.

أينَ الذين بنَوا المدائن؛ وحصّنوها بالحوائط، وجَعَلُوا فيها الأعاجيب! قد تركوها لمَنْ خلْفهم، فتِلْك مساكنُهم خاوية وهُم في ظلمات القبور، هل تحسُّ منهم من أحدٍ، أو تسمع لهم ركْزًا[٣]!

أَيْنَ مَنْ تعرِفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت به آجالهم؛ فوردوا على ما قدّموا، فحلُّوا عليه، وأقاموا للشِّقْوة أو السَّعَادة فيما بعد الموت؛ ألا إنَّ الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحدٍ من خلْقه سبب يُعطيه به خيرًا، ولا يصرف به عنه شرًّا إلا بطاعته واتِّباع أمره.

واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأنّ ما عنده لا يُدْرَك إلاَّ بطاعته. ألا وإنَّه لا خير بخير بعده النَّار، ولا شرَّ بشرٍّ بعده الجنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر إنفاذ جيش أسامة

قد ذكرنا في السِّيرة النبويّة في الغَزَوات والسَّرايا؛ أنّ رسول الله ﷺ كان قد جَهَّز أُسامةَ بنَ زيد قبل وفاته، وندب معه جماعة من أعيان المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر.

وذكرنا أيضًا ما تكلَّمَ به من تكلَّم من الصحابة في شأنه، وما قاله رسول الله ﷺ

(١) القالة: اسم للقول الفاشي في الناس، خيرًا كان أو شرًا. جمع قالات.
(٢) الوضاء: أي الوضيء: وهو الذي حسن وجمل ونظف.
(٣) الركز: الصوت الخفيّ.

عندما بلغه ذلك، من الثناء على أُسامة بنِ زيدٍ وعلى أبيه زيد بن حارثة، واستخلافه للإمارة، وأنّ رسولَ الله ﷺ قُبِضَ وجيش أُسامة بالجُرْفِ[١].

فلمَّا بويع أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه، كان أوّلَ ما بدأ به أن أمر منادِيَهُ فنادى في الناسِ من بعد الغد من متوفَّى رسول الله ﷺ ليتمّم بعثَ أُسامة: ألاَ لا يبقينَّ في المدينة أحدٌ من جُندِ أُسَامة إلاَّ خرج إلى عَسْكَرِه بالجُرْفِ.

رُوي ذلك عن عاصم بن عديّ. وعن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: لما بُويع أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه، وجمع الأنصار على الأمر الذي افترقوا عنه، قال: لِيَتِمّ بعث أُسامة، وقد ارتدَّتْ العرب، إمّا عامّةً، وإمّا خاصّةً في كلّ قبيلة، ونَجم[٢] النِّفاق، واشرأبَّت اليهوديّةُ والنَّصرانية، والمسلمون كالغنم المَطيرة[٣]، في اللَّيلة الشاتية؛ لفقد نبيّهم وقلَّتهم، وكثرةِ عدوّهم.

فقال له النَّاس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب علَى ما ترى؛ قد انتقضَتْ بك، فليس ينبغي لك أنْ تُفَرِّقَ عنكَ جماعة المسلمين.

فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكرٍ بيده، لو ظننتُ أنّ السِّباع تخطفُنِي لأنفذتُ بعثَ أُسامة كما أمَر به رسولُ الله ﷺ، ولو لم يبْقَ في القرى غيري لأنفذْتُه.

وعن الحسن بن أبي الحسن، قال: ضربَ رسولُ اللّهِ ﷺ قبل وفاته بعْثًا على أهلِ المدينة ومَنْ حولهم، وفيهم عمر بن الخطابِ، وأمّر عليهم أُسامةَ بن زيد، فلم يجاوزْ آخِرُهم الخندق حتى قُبِض رسولُ الله ﷺ، فوقف أُسامة بالناس، ثم قال لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسولِ الله ﷺ، فاستأْذِنْه، يأْذَن لي أن أرجع بالناس، فإنّ معي وجوه الناس وحدَهم، ولا آمن على خليفة رسولِ الله ﷺ وثَقَلِ رسول الله وأثقالِ المسلمين أن يتخطَّفهم المشركون. وقالت الأنصار: فإنْ أبَى إلاَّ أنْ نمضيَ؛ فأبلغْه عَنَّا، واطلب إليه أن يُوَلِّيَ أمْرَنا رجلاً أقدمَ سنًّا من أُسامة.

فخرج عمر بأمر أُسامة، فأتى أبا بكر، فأخبره بما قال أُسامة، فقال أبو بكر: لو خَطَفَتْنِي الكلاب أو الذِّئاب لم أردَّ قضاءً قضى به رسولُ الله ﷺ، قال: فإنّ الأنصارَ

---

(١) الجرف: بالضم ثم السكون. . . موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل، قالوا: سمي الجرف لا نبعًا مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى العرض. . . (معجم البلدان لياقوت الحموي).

(٢) نجم الشيء: أي طلع وظهر، أو نشأ وحدث.

(٣) المطيرة: التي أصابها المطر.

أمروني أنْ أُبلغَكَ أنَّهُمْ يطلبون إليك أن تولِّيَ أمرهم رجلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامة. فوثب أبو بكر وكان جالسًا. فأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أُمُّك وعدِمَتْك يا بنَ الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعَهُ!

فخرج عمر إلى النَّاس، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضُوا ثكلتكم أُمّهاتكم! ما لقيت في سببكم اليوم من خليفةِ رسول الله ﷺ!

ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتاهم، فأشخصَهُمْ وشيَّعهم وهو ماشٍ؛ وأُسامة راكبٌ، وعبد الرحمٰن بن عوف يقودُ دابّة أبي بكر، فقال له أُسامة: يا خليفةَ رسول الله، والله لتركبَن أو لأَنزلَنَّ! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركبُ، وما عَليّ أن أُغَبِّر قدميّ في سبيل الله ساعةً؛ فإنّ للغازي بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعمائة حسنة تكتبُ له، وسبعمائة درجة تُرْفع له، وتُمحى عنه سبعمائة خطيئة؛ حتى إذا انتهى أبو بكر، قال لأُسامة: إنْ رأيتَ أن تعينني بعمر فافعل، فأذِنَ له. ثم قال:

يأَيّها الناس، قفوا أُوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عنِّي: لا تخونوا ولا تَغُلُّوا[١] ولا تغدِروا، ولا تمثِّلوا[٢]، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأةً، ولا تعقرُوا[٣] نخلاً، ولا تحرِقوه، ولا تقطعوا شجرة مُثْمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلاَّ لمأكلةٍ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمُون على أقوامٍ يأْتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليها. وسوف تلقَوْن أقوامًا قد فَحصُوا[٤] أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخْفِقوهم[٥] بالسيف خفقًا، اندفِعوا باسم الله.

ثم أوصى أُسامَة أن يفعل ما أَمَره به رسولُ الله ﷺ، فسار وأَوْقع بقبائل قُضاعة الَّتي ارتدَّت، وغنِم وعاد، وكانت غيبتُه أربعين يومًا، وقيل: سبعين يومًا، وقيل: أربعين؛ سوى مُقامه ومَقْفله راجعًا.

---

(١) غلّ الشيء: أخذه من الغنيمة خفية قبل القسمة.

(٢) مثّل بفلان: أي نكل به بجدع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء.

(٣) عقر النخلة: أي قطعها من أصلها فسقطت.

(٤) المراد أن الشيطان قد جعلها مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها. والأفحوص: حفرة تحفرها القطاة لتبيض وترقد فيها، جمع أفاحص؛ وكذلك المفحص، جمع المفاحص.

(٥) خفقه بالسيف: أي ضربه به خفيقًا.

وكان إنفاذ جيش أُسامة من أعظم الأُمور نفعًا للمسلمين، فإنّ العرب قالوا: لو لم تكن لهم قوّةٌ ما أرسلوا هذا الجيشَ؛ فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا عزمُوا على فعله، وذلك ببركة اتّباع أمر رسول الله ﷺ.

ذكر أخبار من ادعى النبوة من الكذابين وما كان من أمرهم، وتجهيز أبي بكر الصديق الجيوش إليهم، وإلى من ارتدّ من قبائل العرب

قال المؤرّخون: كان ادّعى النبوّة في حياة رسول الله ﷺ ثلاثة، وهم: الأسود العنسي، وطُلَيْحة الأسدِيّ، ومُسيلمة الكذّاب، وادّعت النبوّة سَجاح بنت الحارث التميميّة.

فأما الأسود العَنْسِي، واسمه عَبْهلة بن كَعْب بن عوف العنسيّ ـ بالنُّون الساكنة، وعَنْس بطن من مَذْحج ـ فكان يُلَقَّب ذا الخِمار[1] لأنه كان متخمّرًا أبدًا.

وقال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرِيّ: إنه كان له حِمارٌ مُعْلِم يقول له: اسجد لربكَ، فيسجد. ويقول له: ابرك فيبرك. فقيل له: ذا الحِمار. والله تعالى أعلم.

وكانتْ رِدّته أوّلَ رِدةٍ كانتْ في الإسلام، وغلب على صنعاء إلى عُمَان إلى الطائف.

وكان من خبره ما رُوِي عن الضحّاك بن فيروز الدَّيلمي عن أبيه؛ قال: أوّلُ رِدّةٍ كانت في الإسلام باليَمن، رِدَّةٌ كانت على عهد رسولِ الله ﷺ، على يد ذي الخمار عَبْهلة بن كَعْب ـ وهو الأسود ـ في عامّة مذحج، خرج بعد الوَدَاع. وكان الأسود كاهنًا مشعبِذًا[2]، وكان يُريهم الأعاجيب، ويَسْبِي قلوبَ مَنْ سمع منطقه، وكان أول ما خرج أن خرج من كهف خُبَّان ـ وهي كانت موطنه وداره، وبها ولد ونشأ ـ فكاتبَتْه مَذْحِج وواعدوه نَجْران، فوثبوا عليها، وأخرجوا عَمْرو بن حَزْم وخالد بن سعيد بن العاص، ثم أنزلُوه منزلَهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فرْوَة بن مُسَيْك فأجلاه، ونزل منزله، فلم يلبث عَبْهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) الخمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها، أو ما خالط الإنسان من سكر الخمر.
(٢) المشعبذ: المشعوذ: الذي يأخذ كالسحر، يجعلك ترى الشيء بغير ما عليه.

وكان رسول الله ﷺ جمع لباذام، حين أسلَم، وأسلمت اليمن كُلُّها على جميع مخالفيها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته لم يعزله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه فيها شريكًا حتى مات باذام، ففرّق رسولُ الله ﷺ عمل اليمن على جماعة من أصحابه، وهم: شهر بن باذام، وعامر بن شَهْر الهمْدَانيّ، وعبد الله بن قيس أبو موسى، وخالد بن سعيد بن العاص، والطّاهر بن أبي هالة، ويعلَى بن أُميّة، وعمرو بن حَزْم. وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البَيَاضيّ، وعُكّاشة بن ثور بن أصْغَر الغوْثيّ؛ علَى السَّكاسِك والسَّكون، ومعاوية بن كِنْدة. وبعث مُعاذ بن جبل مُعلِّمًا لأهل البلدين: اليمن وحَضرموت.

ورويَ عن عُبَيد بن صَخْر، قال: بينما نحن بالْجُنْد؛ قد أقمناهم على ما ينبغي، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب؛ إذ جاءنا كِتابٌ من الأسود: أيها المتورّدُون علينا، أمسِكُوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفِّروا ما جَمَعتم، فنحن أوْلَى به، وأنتم على ما أنتم عليه، فقلنا للرسول: مِنْ أين جئت؟ قال: من كَهف خُبَّان؛ ثم كان وجهه إلى نجْران حتى أخذها في عشرٍ لمخرجه، وطابقَهُ عوامُّ مذحج؛ فبينا نحن ننظر في أمرنا، ونحن نجمع جَمْعنا إذ أُتِينا. فقيل: هذا الأسود بشَعُوب[١]، وقد خرج إليه شَهْر بن باذام، وذلك لعشرين ليلةً من مَنْجمه؛ فبينا نحن ننتظر الخبر على مَنْ تكون الدَّبْرة[٢]؛ إذ أتانا أنه قتَل شهرًا، وهَزَم الأبناء، وغلَب على صنعاء، لخمس وعشرين ليلةً من مَنْجمه.

وخرج مُعَاذ هاربًا حتى مرّ بأبي موسى وهو بمأرِب، فاقْتحما حضرموت، فأمّا مُعاذ فإنّه نزل في السَّكُون، وأمّا أبو موسى فإنّه نزل في السَّكاسِك، وانحازَ سائرُ أُمراءِ اليمن إلى الطّاهر إلاّ عَمْرًا وخالدًا، فإنّهما رجعا إلى المدينة، والطّاهرُ يومئذ في وسط بلاد عَكّ[٣] بحِيال صَنْعاء؛ وغلب الأسْود على ما بين صَهِيد ـ مفازة حضرموت ـ إلى عمل الطائف، إلى البحرين قِبَل عَدَن، وطابقت عليه اليَمن، وعَكّ بتِهَامة معترضون عليه، وجعل يستطير استطارة الحريق، وكان معه يوم لَقِيَ شهر بن باذام سبعمائة

---

(١) شعوب: بفتح أوله، وآخره باء موحدة، قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع... وقيل: شعوب: بساتين بظاهر صنعاء.. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الدبرة: الهزيمة في القتال.

(٣) عك: بفتح أوله: قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك، قال أبو القاسم الزجاجي: سميت بعك حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائز أن يكون من العك وهو شدة الحر... (معجم البلدان).

فارس سوى الرُّكبان، واستغلظ أمرُه، ودانت له سواحل من السواحل وعَدَن والجنَد؛ ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسية وغيرها.

وعامله المسلمون بالبقيّة، وعامله أهل الرِّدةِ بالكُفْر، والرجوع عن الإسلام.

وكان خليفتُه في مَذْحِج عمْرو بن معدي كرب، وأسند أمر جُنْدِه إلى قيس بن عبدِ يَغُوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذَوَيْه. فلمّا أثخن في الأرضِ استخفَّ بقيسٍ وبفيروز وبداذَوَيْه. وتزوَّج امرأة شَهْر، وهي ابنة عم فيروز.

قال أبو عبيد بن صخر: فبينا نحن كذلك بحضرموت، ولا نأمن أن يسير إلينا الأسود، أو أن يبعث إلينا جيشًا، أو يخرج بحضرموت خارجٌ يَدَّعي بمثل ما ادّعى به الأسودُ، فنحن على ظهرٍ، تزوَّج مُعاذ إلى بني بكرة ـ حيٌّ من السَّكون ـ امرأةً يُقَال لها: رَمْلَة، فحدِبوا[1] لصهره علينا ـ وكان معاذ بها معجَبًا ـ فإن كان يقول فيما يدعو الله به: اللَّهم ابعثني يوم القيامة مع السَّكون، ويقول أحيانًا: اللَّهم اغفر للسَّكون؛ إذ جاءتنا كتبُ النبيّ ﷺ، يأمرنا فيها أن نبعث الرجال لمجاولته ومصاولته، وأن نُبْلِغَ كُلَّ من رجا عنده شيئًا من ذلك عن النبي ﷺ.

فقام مُعاذ في ذلك بالَّذِي أمِرَه به، فعرفنا القوّة، ووثقْنا بالنَّصر.

وعن جُشَيْش بن الدّيلميّ، قال: لمَّا قدِم علينا وَبْرُ بن يُحَنِّس بكتاب النبيّ ﷺ يأمُرنا فيه بالقيام على ديننا، والنُّهوض في الحرْب، والعمل في الأسود، إمّا غيلةً، وإمّا مصادمة، وأن نُبْلغ عنه مَنْ رأينا أنّ عنده نجْدة ودينًا، فعملنا في ذلك، فرأين أمرًا كثيفًا، ورأيناه قد تغيَّر لقيس بن عبد يغوث ـ وكان على جنده ـ فقلنا: يُخاف على دَمِه فهو لأول دعوة، فدعوناه وأنبَأناه الشأن، وأبلغناه عن النبيّ ﷺ، فكأنَّما وقعْنا عليه من السَّماء، وكان في غمٍّ وضيقٍ بأمرِه، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك، وكاتبْنا النَّاس، ودعوناهم. فأخبره الشيطان بشيء، فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عمَدت إلى قيس فأكرمتَه؛ حتى إذا دخل منك كل مَدْخلٍ، وصار في العِزِّ مثلَك؛ مالَ مَيْلَ عدوّك، وحاول مُلْكَك، وأضمرَ على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود! يا سوأة، يا سوأة! اقطفْ قُنَّته[2]، وخُذْ من قيسٍ أعلاه؛ وإلاَّ سلبك، أو قطف قُنَّتك.

فقال قيس وحلف به؛ كذب وذي الخِمار؛ لأنت أعظم في نفسي، وأرجى عندِي من أن أحدِّث بك نفسي!

(١) حدب عليه: انحنى وعطف.

(٢) قنة كل شيء: أعلاه.

فقال: ما أجفاك! أتكذب الملَك! صدق الملَك، وعرفتُ الآن أنّك تائب مما اطَّلع عليه منك، ثم خرج فأتانا فقال: يا جُشَيش، يا فيْروز، يا داذوَيْه! إنه قد قال وقلت: فما الرأي؟ فقلنا: نحن على حذَرٍ؛ فإنا في ذلك، إذ أرسل إلينا؛ فقال: ألم أشرّفكم على قومكم! ألم يبلّغني عنكم! فقلنا: أقِلْنا مرّتنا هذه؛ فنجونا، ولم نكد، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم؛ إذ جاءنا اعتراضُ عامر بن شهر وذي زود وذي مُرّان وذِي الكَلاع وذي ظُلَيْم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصر، وكاتبناهم؛ وأمرناهم ألا يحرّكوا شيئًا حتى نُبْرِم الأمر، وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتابُ رسول الله ﷺ إليهم. وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكني الأرض من غير غربهم، فتنحّوْا، وانضمّوا إلى مكان واحد. وبلغه ذلك، وأحسَّ بالهلاك، وفرَق لنا الرأي، فدخلت على آزاد ـ وهي امرأته ـ فقلت: يا بنت عمٍّ، قد عرفته بلاء هذا الرجل عند قومك؛ قتل زوجَك، وطأطأ[1] في قومك القتل، وسَفَل[2] بمن بَقِيَ منهم، وفضَح النساء، فهلْ عندكِ من ممالأة[3] عليه؟ فقالت: علَى أيّ أمره؟ قلت: إخراجه، فقالت: أو قتله! قلت: أو قتله، قالت: نعم والله ما خلَق الله شخصًا أبغَض إليّ منه؛ ما يقوم لله على حقٍّ، ولا ينتهي له عن حُرْمة، فإذا عزمتم فأعلموني أخبرْكم بمأتى هذا الأمر. فأخرُج فإذا فيروز وداذوَيْه ينتظرانني، وجاء قيسٌ ونحن نريد أن نناهضه، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا: المَلِك يدعُوك، فدخلَ في عشرة من مَذْحِج وهَمْدان فلم يقدِرْ على قتله معهم.

فقال: يا عَبْهلة بن كعب بن غوث، أمِنّي تَحصَّنُ بالرجال! ألم أخبرك الحقّ وتخبرني الكذابة! إنه يقول: يا سوأة، إلاّ تقطع من قيس يده، يقطع قُنّتك العُلْيا، حتى ظنَّ أنه قاتله.

فقال: إنه ليس من الحقِّ أن أقتلك وأنت رسول الله؛ فمرني بما أحببتَ، فأمّا الخوف والفزع فأنا فيهما مخافَةَ أن تقتُلَني، وإمّا قتلتَني فموتة أهون عليَّ من موتاتٍ أموتها كلَّ يوم. فرقّ له وأخرجه؛ فخرج إلينا، فأخبرنا. وقال: اعملوا عمَلكم، وخرج إلينا في جمعٍ، فقمنا مُثُولاً له، وبالباب مائة ما بين بقرةٍ وبعير، فقام وخطَّ خطًّا، وأُقيمتْ من ورائه، وقام من دونها فنحرها غير محبَّسةٍ ولا معقّلة، ثم خلاّها ما يقتحم الخطّ منها شيءٌ، ثمّ خلاها فجالت إلى أن زَهَقت[4].

---

(١) طأطأ: وضع من قدره.

(٢) سفل: نزل من أعلاه إلى أسفله.

(٣) مالأه عليه ممالأة: ساعده وعاونه.

(٤) زهقت نفسه: خرجت.

فما رأيتُ أمرًا كان أفظع منه، ولا يومًا أوحشَ منه، ثم قال: أحقّ ما بلغني عنك يا فيروز؟ - وبوّأ له الحربة - لقد هممتُ أن أنحرك فأُتبِعَك هذه البهيمة؛ فقال: اخترتَنا لصِهْرك، وفَضَّلْتَنا على الأبناء، فلو لم تكن نبيًّا ما بعنا نصيبنَا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنَا بك أمرُ آخرةٍ ودنيا! لا تقبلنّ علينا أمثال ما يبلغك؛ فإنّا بحيث تحبّ؛ فقال: اقسمْ هذه، فأنت أعلم بمن هنا.

فاجتمع إليّ أهل صنعاء، وجعلت آمر للرهط بالجَزُور، ولأهل البيت بالبقرة، ولأهل الحِلّةِ بعدّة، حتى أخذ أهلُ كلّ ناحيةٍ بقسطهم. فلحِق به قبل أن يصل إلى داره - وهو واقف عليّ - رجل يسعى إليه بفيروز، فاستمع له، واستمع له فيروز، وهو يقول: أنا قاتله غدًا وأصحابه، فاغْدُ عليّ، ثم التفت فإذا به؛ فقال: مَهْ! فأخبره بالّذي صنع؛ فقال: أحسنت، وضرب دابّته داخلًا، فرجع إلينا فأخبرنا بالخبر، فأرسلنا إلى قَيْس، فجاءنا، فأجمع ملؤهم أنْ أعودَ إلى المرأة؛ فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر، فأتيت المرأة، وقلت: ما عندك؟ قالت: هو متحرز متحرِّسٌ، وليس من القَصر شيء إلا والحرسُ محيطون به غير هذا البيت؛ فإن ظَهْره إلى مكان كذا وكذا من الطَّريق، فإذا أمسيتم فانقبُوا عليه، فإنَّكم من دُون الحرس؛ وليس دون قتله شيء. وقالت: إنكم سترون فيه سراجًا وسلاحًا، فخرجتُ فتلقَّاني الأسود خارجًا من بعض منازله؛ فقال: ما أدخلك عليّ؟ ووجأ[1] رأسي حتى سقطت؛ وكان شديدًا، وصاحت المرأة فأدهشَتْه[2] عنّي؛ ولولا ذلك لقتلني؛ وقالت: ابن عمي جاءني زائرًا؛ فقال: اسكتِي لا أبا لك! فقد وهبتُه لك فتزيَّلتْ[3] عني، فأتيت أصحابي، فقلت: النَّجاء! الهرب! وأخبرتُهم الخبر، فإنّا على ذلك حيَارى إذ جاءني رسولُها: لا تَدعَنَّ ما فارقتُك عليه، فإني لم أزلْ به حتى اطمأنّ.

فلمّا أمسينا عملنا في أمرنا، وقد واطأنا أشياعنا، وعجلْنا عن مراسلة الهَمْدانيّين والحِمْيريّين، فنقبْنا البيتَ من خارج، ثم دخلنا وفيه سراجٌ تحت جفنةٍ[4]، والْتقينا بفيروز - وكان أنجدنا وأشدّنا - فقلنا: انظر ماذا ترى؟ فخرج ونحن بينه وبين الحَرس معه في مقصورته، فلمّا دنا من باب البيت سمع غطيطًا شديدًا، فإذا المرأة جالسةٌ، فلمّا قام على الباب أجلسه الشيطان، فكلّمَه على لسانه وإنه ليغُطُّ جالسًا. وقال أيضًا:

---

(١) وجأ رأسه: ضربه.
(٢) أدهش: أذهب عقله من وله أو فزع أو حياء.
(٣) تزيلت: احتشمت.
(٤) الجفنة: القصعة.

ما لي ولك يا فيروز! فخشي إن رجع أن يهلِك وتهلكِ المرأة، فعاجله فخالطه[١] وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه فقتله، فدَقَّ عُنُقَه، ووضع ركبتيْه في ظهره فدقَّه، ثمّ قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه، وهي ترى أنّه لم يقتله، فقالت: أين تَدعُني؟ قال: أُخبر أصحابي بمقتله؛ فأتانا، فقمنا معه، فأردنا حزَّ رأسه، فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه. فقلتُ: اجلسوا على صَدْره، فجلس اثنان على صَدْره، وأخذت المرأة بشعْرِه، وسمعنا بَرْبَرة[٢]، فأمرّ الشّفرة على حلْقه، فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ.

فابتدر الحرسُ الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا؟ فقالت المرأة: النبيّ يوحى إليه؛ فخمد، ثم سَمَرْنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا؛ ليس غيرنا ثلاثتنا فيروز وداذويه وقيس، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا أو بين أشياعنا، ثم ينادَى بالأذان فلمّا سمع بذلك، وطلع الفجر، نادى داذوَيه بالشِّعار، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمّع الحرس فأحاطوا بنا.

ثم ناديت بالأذان، وتوافت خيولهم إلى الحرس، فناديتهم، أشهد أنّ محمدًا رسول الله، وأن عَبْهلة كذّاب، وألقينا إليهم رأسه؛ فأقام وبرٌ الصلاة، وشنَّها القوم غارة، ونادينا: يا أهل صنعاء؛ مَنْ دخل عليه داخل فتعلّقوا به، ومَنْ كان عنده منهم أحد لم يخرج، فتعلّقوا به، ونادينا بمَن في الطريق: تعلّقوا بمن استطعتم، فاختطفوا صبيانًا كثيرًا، وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوا خارجين.

فلمّا برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا، وإذا أهل الطريق والدُّور قد وافوْنا بهم، وفَقَدْنا سبعمائة عَيّل، ثم راسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما في أيديهم، ونترك لهم ما في أيدينا، ففعلوا؛ فخرجوا لم يظفروا بشيء.

وتردَّدُوا فيما بين صنعاء ونَجْران، وخلصت صنعاء والجَنَد، وأعزّ الله الإسلام وأهله، وتنافسنا الإمارة، وتراجع أصحابُ النبيّ ﷺ إلى أعمالهم، فاصْطَلَحْنا على مُعاذ بن جبل فكان يصلّي بنا، وكتبْنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وذلك في حياة النبيّ ﷺ، فأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رُسُلنا، وقد ماتَ النبيُّ ﷺ صبيحة تلك الليلة، فأجابنا أبو بكر رضي الله عنه.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أتى الخبرُ النبيّ ﷺ من السماء الليلةَ التي قتِل فيها العَنْسِيّ ليبشّرَنا فقال: قتِل الأسود البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين قيل: ومن هو؟ قال: فيروز.

---

(١) خالطه: اشتبك معه.

(٢) البربرة: الصوت المختلط.

وعن فيروز؛ قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان، إلاَّ أنَّا أرسلنا إلى مُعاذٍ؛ فتراضينا عليه، فكان يصلّي بنا في صَنْعاء، فوالله ما صلَّى بنا إلا ثلاثًا ونحن راجعون مؤمّلون، حتى أتى الخبرُ بوفاةِ رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيرًا ممّا كنا نعرف، واضطربت الأرض.

وكانت مدّة العنسيّ من حين ظهور أمره إلى أن قتِل ثلاثة أشهرٍ.

وعن الضحاك بن فيروز، قال: كان ما بين خروجه بكهف خُبّان[1] إلى مقتله نحوًا من أربعة أشهر، وقد كان قبل مستسرًّا بأمره حتى نادى بعد.

وقال أبو بشر الدّولابيّ: إنّه قتل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. والله أعلم.

وقيل: أتي الخبر بمقتله إلى المدينة في آخر ربيع الأوّل، سنة إحدى عشرة، بعد إنفاذ جيش أُسامة بنِ زيد، فكان ذلك أول فتح لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

روى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ يرفعُه إلى شُرَحْبيل بن مسلم الخَوْلانيّ أنّ الأسود بعث إلى أبي مسلم عبد الله الخولانيّ، فلما جاءه قال: أتشهدُ أنّي رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أنّ محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، فردَّد ذلك عليه؛ كلّ ذلك يقول مثل ذلك. قال: فأمر بنارٍ عظيمة فأُجّجت، ثم ألقى فيها أبا مسلم، فلم تضرّه شيئًا. فقيل له: انفِه عنك وإلاّ أفسد عليك مَن اتبعك، فأمرَه بالرّحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبِض رسول الله ﷺ واستُخْلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، وقام فصلَّى إلى سارية، وبَصُر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مِمّن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الذي أحرقه الكذّاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: أنشدك الله أنت هو! قال: اللهمّ نعم، قال: فاعتنقه عمر، وبكى. ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، ثم قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى في أمّةِ محمد ﷺ من فُعِل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله ﷺ.

هذا ما كان من أمر العنسيّ، وأمّا بقية الكذّابين؛ فسنذكر أخبارهم عند ذكرنا تجهيزَ أبي بكر الجيوش إن شاء الله تعالى.

---

(١) خبّان: بضم أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: هي قرية باليمن في واد يقال له وادي خبّان قرب نجران، وكهف خبان: هي دارة الأسود العنسي وبها ولد ونشأ... (معجم البلدان).

ذكر غزوة أبي بكر
وقتاله أهل الردة وعبس وذُبيان

قالوا: لما قُبِض رسولُ الله ﷺ، ارتدّت العرب كُلُّها إلا قريشًا وثَقِيفًا، وأتت وفُود العرب إلى أبي بكر الصّديق رضي الله عنه مرتدّين يُقرّون بالصّلاة، ويمنعون الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردهم، وقال: والله لو منعوني عِقَالاً[١] كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم عليها. وخرج في جمادى الآخرة منها، واستخلف على المدينة أُسَامة بن زيد، وقيل: سنانًا الضَّمريّ، وسار فنزل بذي القَصَّة[٢].

وكان رسول الله ﷺ بعث نَوْفَل بن معاوية الدّيلميّ على الصَّدقَة، فلقيه خارجة بن حُصين بالشَّربَّة[٣]، فأخذ ما في يديه وردّه على بني فزارة، ورجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة.

فأوّلُ حربٍ كانت في الرّدةِ بعد وفاة رسول الله ﷺ حرب العنسيّ باليمن، ثم حرب خارجة بن حصين ومنظور بن زبّان بن سيار في غَطَفان، والمسلمون غَارُّون[٤]، فانحاز أبو بكر إلى أكَمة فاستتر بها، ثم هزم الله المشركين.

وروي أن أوّل غزاةٍ غزاها أبو بكر، كانت إلى بني عبْس وذبيان، وأنه قاتلهم وهزمهم، وأتبعهم حتى نزل بذِي القَصَّة، وكان ذلك أول الفتح، ووضع أبو بكر رضي الله عنه بها النعمان بن مقرّن[٥] في عدد ورجع إلى المدينة، فوَثب بنو عبس وذُبيان على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم. فحلف أبو بكر رضي الله عنه: لَيقتُلَنّ في المشركين بمن قتَلوا من المسلمين وزيادة.

وقدمت رسل رسول الله ﷺ من اليمن واليمامة وبلاد بني أسد، ووفود مَنْ كان كاتبه النبي ﷺ.

---

(١) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.

(٢) ذو القصة: جبل في سلمى من جبلي طيىء عند سقف وغضور، وقال نصر: ذو القصة موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو طريق الربذة... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الشربة: بفتح أوله وثانيه، وتشديد الباء الموحدة، قيل: الشربة موضع بين السليلة والربذة، وقيل: إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقعت في الشربة... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) غارون: غافلون.

(٥) النعمان بن مقرن: هو من رجال مزينة (قبيلة من قبائل الرباب)، له صحبة. وكان على المسلمين يوم نهاوند في خلافة عمر رضي الله عنه، ففتحها وقتل يومئذ... (الاشتقاق لابن دريد).

وأمِر أمرُه في الأسود ومُسَيْلمة وطلحة بالأخبارِ والكُتب، فدفَعُوا كُتُبَهم إلى أبي بَكرٍ، وأخْبَروه الخبر؛ فقال لهم: لا تَبْرَحُوا حتى تَجيء رسلُ أُمرائِكم وغيرهم بأدهى مما وَصَفْتُم، وأمرّ بانتقاض الأُمور؛ فلم يلبَثوا أن قَدِمَتْ كُتُبُ أُمراء النبي ﷺ من كُلّ مكانٍ بانْتِقاضٍ، عامة أو خاصّة، وتبسّط من ارتدَّ على المُسْلِمين بأنواع الميل.

فحاربهم أبو بكر رضي الله عنه بما كان النبيّ ﷺ يحاربهم، حاربهم بالرسل، فردَّ رسُلَهُم، وأتبع الرسُلَ رسُلاً، وانتظر بمصادَمتهم قدومَ أُسامة بن زيْدٍ، وطرقَتْ المدينة صدقات نفرٍ كانوا على الصَّدقةِ؛ وهم صَفْوان بنِ صفْوانٍ، والزِّبرقانِ[1] بن بَدْرٍ، وعديّ بن حاتِمٍ؛ فازداد المسلمون قُوّة، ثم قَدِمَ أُسامَةُ بنُ زيدٍ، فاستَخْلَفه أبو بكرٍ على المدينة ومعه جنده ليَسْتَريحوا.

ثم خرج بمن كان معه، فناشدهُ المسلمون ليقيم، فأبى وقال: لأُوَاسِيَنَّكُمْ بنفسي، فسار إلى حُسىً وذي القَصَّةِ حتى نزل بالأبْرقِ[2]، فقاتل من به من المشركين فهزمهم، وأخذَ الحطيئة أسيرًا، وأقام بالأبرقِ أيامًا ثم رجع إلى المدينة، ولحقَ مَنْ انهزَمَ من عَبْسٍ وذُبْيَانَ وطُلَيْحَة.

ورُوِيَ عن هشام بن عُرْوة عن أبيه أنَّ أوّل مَنْ صادَم أبو بكر رضي الله عنه بني عبسٍ وذُبْيَان، عاجَلُوه، فَقَاتَلَهمْ قبل رُجوعِ أُسامة.

ولما قدم أُسامة استُخْلف على المدينةِ، ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة[3]، فتلقَّى بني عبسٍ وذبيان وجماعةً من بني عبدِ مناة بن كنانة، فلقيهم بالأبْرقِ، فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُم اللّهُ عَزَّ وجلّ وَفَلَّهم، ثم رجَعَ إلى المدينة فعَقَد الألْوِيَةَ.

والله سبحانَه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

---

(١) قيل: للزبرقان ثلاث كنى: أبو العباس، وأبو شذرة، وأبو عياش. وثلاثة أسماء الزبرقان، والقمر، والحصين: بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن بهدلة، وسمي بذلك لأنه كان يرفع له بيت من عمائم وثياب، وينضح بالزعفران والطيب. وكانت بنو تميم تحجه... (الروض الأنف للسهيلي ٢: ٣٣٥).

(٢) المراد أبرق الربذة: بالتحريك والذال معجمة: موضع كانت به وقعة بين أهل الردة وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ذكر في كتاب الفتوح: كان من منازل بني ذبيان فغلبهم عليه أبو بكر رضي الله عنه لما ارتدوا وجعله حمى لخيول المسلمين... (معجم البلدان).

(٣) الربذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، واسمه جندب بن جنادة... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر عقد أبي بكر رضي الله عنه الألوية وتجهيزه الجيوش لقتال أهل الردة وما كاتب به من ارتد وما عهد

قال أبو جعفر محمدُ بنُ جَريرٍ الطبريّ رحمه الله في تاريخه ما مختصره ومعناه: لما رَجع أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى المدينة، وأراح أُسامةُ وجُنْده ظَهْرَهُم وجمّوا[١]، وقد جاءتْ صدقاتٌ كثيرةٌ تفْضُلُ عَنْهم، قطع أبو بكرٍ البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً:

عَقَدَ لخالدِ بن الوليد، وأمَره بطُلَيْحة؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُوَيْرَة بالبُطاحِ إن أقامَ له.

وعقد لعِكْرِمَةَ وأمَره بمسيلِمة الكذّاب باليَمامة.

وعقد للمهاجر بن أبي أُمَيَّةَ، وأمَره بجنود العَنْسي ومعونة الأبناء على قيس بنِ المكْشوحِ، ومن أعَانَهُ من أهل اليمنِ عليهم، ثم يَمْضي إلى كِنْدَة بحضرمَوْت.

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص، وبعثَهُ إلى الحمْقَتَيْن من مشارِفِ الشام.

وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى جِماع قُضاعة ووَديعة والحارثِ.

وعقد لحُذَيْفَة بن محصن الغَلْفانيّ، وأمره بأهلِ دَبَا[٢] لابن هَرْثمة، وأمره بمَهْرة وأمرهما أن يجتمع كل واحد منها في عمله.

وبعثَ شُرَحْبيل ابنَ حَسَنَةَ في أثرِ عِكْرِمة بن أبي جهلٍ وقال: إذا فُرِغَ من اليمامةِ فالحق بقُضاعةَ؛ وأنت على خَيْلِكَ تُقاتلُ أهل الرِّدّة.

وعقد لمَعْن بنِ حاجزٍ - ويقال: لِطُرَيْفة بن حاجزٍ - وأمره ببني سُلَيْم[٣] ومن مَعَهُم مِن هَوَازِن.

---

(١) جمّوا: أي استراحوا فذهب إعياؤهم.

(٢) دبا: بفتح أوله، والقصر، قال الأصمعي: سوق من أسواق العرب بعمان. . . وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عمان، ولعل هذه السوق المذكورة فتحها المسلمون في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) بنو سليم: هم بنو سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر. أو هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وعقد لسُوَيْدِ بنِ مُقرّن؛ وأمره بتِهَامة[1] اليمن.

وعقد للعلاءِ بنِ الحَضرمِيّ، وأمَره بالبَحْرِيْن.

فَفَصَلَتْ الأُمراء من ذِي القَصّةِ، ولحق بكلِّ أمير جُنْده، وعهدَ إلى كلّ أميرٍ منْهُم، وكتبَ رضي الله عنه إلى سائرِ من ارتد نُسْخَةً واحدةً، وهي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله ﷺ إلى من بَلَغه كِتَابي هذا من عامّةٍ أو خاصةٍ، أقامَ على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على مَن اتبع الهدى، ولم يَرْجعْ بعدَ الهُدَى إلى الضَّلالة والعَمَى، فإني أحْمَدُ الله إليكُم الذي لا إله إلاّ هو، وأشْهَدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسُوله، وأُقِرُّ بما جاء به.

أما بَعْد؛ فإنَّ الله أرسلَ محمدًا بالحقّ من عِنْده إلى خَلْقِه بَشِيرًا ونَذيرًا، ودَاعِيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا؛ لينذرَ من كان حَيًّا، ويَحِقَّ القَوْل على الكافرين، فهدَى الله للحقِّ من أجاب إليه، وضَرَب رسولُ الله ﷺ بإذنه من أَدْبَر عنه؛ حتى صار إلى الإسلام طَوْعًا وكَرْهًا، ثم تُوفِّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ وقد نفذ لأمرِ اللّهِ، ونَصَح لأُمّته، وقَضى الذي عليه.

وكان الله قد بَيَّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتابِ الذي أنْزلَهُ؛ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فمن كانَ إنمَا يعْبُدُ محمدًا، ﷺ؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان إنّما يَعْبُد الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، فإنَّ الله له بالمرصاد، حَيٌّ قَيُّومٌ لا يموتُ، ولا تَأْخُذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، حافِظٌ لأمْره، منتقم من عدوّه، يجزيه.

وإني أُوصيكُم بتَقْوى اللّهِ، وحَظُّكم ونَصِيبُكَمْ من اللّهِ، وما جاء به نبيكم، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإنَّ كل من لم يَهْدِه الله ضالٌّ، وكُل من لم يُعَافِه الله مبْتَلًى، وكل مَنْ لم يُعِنْه الله مَخْذُول.

(١) تهامة: بالكسر: تهامة تساير البحر، منها مكة.. والحجاز ما حجز بين تهامة والعروض... (معجم البلدان).

فَمَنْ هداه اللّهُ كان مُهْتَدِيًا، ومن أَضَلَّهُ الله كانَ ضالاً، فإنَّه قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ولَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ في الدُّنْيَا عمَلٌ حتى يقرّبه، ولم يُقْبَلْ لَهُ في الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْلٌ.

وقد بلَغني رجُوعُ من رَجَع مِنْكُم عن دينه بعد أنْ أقرَّ بالإسلام، وعمِل به اغترارًا بالله وجَهالَةً بأمْرِه، وإجابة للشيطان.

وقـال الله جَـلّ ثـنـاؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

وقـال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

وإنِّي بعثتُ إليكم فلانًا في جيشٍ من المهاجرينَ والأنصارِ والتَّابعين لهم بإحسان، وأمرتُه ألاَّ يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يَدْعُوَهُ إلى داعيةِ الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكَفَّ، وعَمِلَ صَالِحًا قبِل مِنْهُ، وأعانَهُ عليه، ومَنْ أبى أمرت أن يُقَاتِلَه على ذَلِكَ، ثم لا يُبْقى على أحدٍ منهم قَدرَ عليه، وأنْ يُحْرِقَهُم بالنيران ويَقْتُلَهُمْ كل قِتْلَةٍ، ويَسْبِيَ النساءَ والذرارِيّ، ولا يقبَل مِنْ أحدٍ إلا الإسلامَ.

فمَنْ اتَّبَعَهُ فهو خيرٌ له، ومن تركه فَلَنْ يُعْجِزَ الله، وقد أمرتُ رسُولِي أن يقرأ كِتابي في كلّ مجمعٍ لكم.

والدَّاعيةُ الأذانُ؛ فإذا أذَّن المسلمون فأذِّنوا كُفُّوا عنهم، وإن لم يؤذِّنوا عاجِلُوهُم؛ وإن أذَّنُوا اسألوهم ما عِلَّتهم، فإن أبَوْا عاجِلُوهُم، وإن أقرُّوا قبِلَ منهم وحملهم على ما يَنْبَغِي لهم.

قال: فنفذت الرُّسُلُ بالكتبِ أمامَ الجنودِ، وخرجَتْ الأُمراءُ ومعهم العُهُودُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا عهدٌ من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى فلانٍ؛ حين بعثَهُ فيمَنْ بعثَ لقتالِ مَنْ رجعَ عن الإسلام؛ عهِد إليه أنْ يتَّقِيَ الله ما استطاعَ في أمرِه كلِّه؛ سرِّه وعلانيتِه، وأمره بالجدِّ في الله ومجاهدَةِ مَنْ تولَّى عنْهُ، ورجَع عن الإسلامِ، فإن أجَابُوه أمْسَكَ عنهم، وإن لم يجيبُوهُ شَنَّ غارتَهُ عليهم حتى يُقِرُّوا له، ثم ينبِّئهم بالَّذي عليهم والذي لهم، ويأْخذ ما علَيْهم، ويُعْطِيهم الذي لهم؛ لا يُنظِرهم، ولا يردّ المسلمين عن قتالِ عدوِّهم، فمَنْ أجاب إلى أمر الله وأقرَّ له قَبِل ذلك منه، وأعانه

عليه بالمعرُوفِ وإنَّما يقاتلِ من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، وإذا أجاب الدّعوةَ لم يكن عليه سبيلٌ، وكان الله حَسِيبَه فيما استسر به، ومَنْ لم يجب داعية الله قُتِلَ وقُوتِلَ حَيْثُ كان، وحيثُ بلغ مراغِمَهُ[1]؛ لا يقبَل من أحدٍ شيئًا أعطاه إلاّ الإسلام، فمَنْ أجابَهُ وأقرَّ قُبِلَ منه وعلَّمه، ومَنْ أبى قاتله؛ فإنْ أظهرَهُ[2] الله عليه قتل منهم كُلَّ قتلةٍ، بالسلاحِ والنِّيرانِ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلاّ الخُمس، فإنه يبلِّغناه، وأن يمنع أصحابَهُ العجلة والفساد، وألاَّ يُدخلَ فيهم حَشْوًا حتى يَعْرفهم ويعلَم ما هم؛ لا يكونوا عيونًا، ولئلاَّ يؤتَى المسلمُون من قِبَلهم وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بِهم في السير والمَنْزِل، ويتفقدَهم ولا يُعْجِل بعضَهم عن بعضٍ، ويستوصِيَ بالمسلمينَ في حسن الصُحْبَةِ ولين القَوْلِ.

والله تعالى أعْلَمُ بالصوابِ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا محمد.

ذكر خبر طليحة الأسدي وما كان من أمره وأمر من اتبعه من قبائل العرب وما آل إليه أمره بعد ذلك

كان خبر طلَيْحة بنِ خوَيْلد الأسديّ؛ أسد خزَيْمةِ، أنَّه ارتدّ في حياة رسول الله ﷺ وادَّعى النُّبوّة، فلمّا ظهر أمْرُهُ وجّه رسولُ الله ﷺ ضِرارَ بنَ الأزور إلى عمّاله على بني أسَدٍ، وأمرهم بالقيام في أمر طلَيْحة ومَن ارتدَّ معه، ونزلَ المسلمون بوَارِدَات[3]، ونزلَ المشركون بِسَميرَاء[4].

فضعفَ أمر طُلَيْحة، وما زال المسلمون في نماءٍ، والمشركون في نُقصان حتى همَّ ضرارُ بن الأزور أن يسير إلى طُلَيْحة، ولم يَبْقَ أحد إلاَّ أخذه سَلَمًا[5]، فاتَّفَقَ أنَّه ضرب ضَرْبَةً بسيفٍ فنبا[6] عنه، وشاعَتْ تلك الضربة في النَّاس، وقالوا: إنَّ السلاحَ لا يَعْمَلُ في طُلَيْحة، فبينما النَّاسُ على ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فما

(١) المراغم: المهرب والمذهب. (٢) أظهره الله عليه: أعانه.
(٣) واردات: موضع عن يسار طريق مكة وأنت قاصدها.
(٤) سميراء: قال أبو عبيد السكوني: الربائع عن يسار سميراء وواردات عن يمينها، ويوم واردات معروف بين بكر وتغلب... (معجم البلدان).
(٥) السلم: الاستسلام. (٦) نبا السيف عن الشيء: لم يصبه.

أمسى المسلمونَ مِنْ ذلك اليوم حتَّى عرفوا النقْصان، وكَثُر جَمْعُ طُلَيْحة واستطار أمْرُهُ، وادَّعى أنَّ جبريل يأتيه، وسجع للناس الأكاذيب فكان مما أتى به قَوْلُهُ: «والحمام واليمام، والصُردِ[١] الصَّوّام، قد ضَمِنَ قبلكُمْ بأعوام، ليبلُغنّ ملكنا العِراق والشام». وأمَرَ طُلَيْحة الناس بترك السجود في الصَّلاة، وتبعَهُ كثيرٌ من العرب، وكان أكثر أتباعه أسدٌ وَغطفان وطيِّىء، ولما انهزمَتْ عبْسٌ وذبْيَان التحقوا به ببُزاخة[٢]، وأرسل طُلَيحة إلى جديلَةَ والغوْثِ ـ وهما حَيَّانِ من طيّىء ـ أن ينضموا إليه، فتعجَّل إليه أُناسٌ من الحيَّين، وأمروا قومهم باللَّحاقِ بهم، فقدموا على طُلَيْحة وكانوا معه.

وبعثَ أبو بكرٍ رضي الله عنه عدِيَّ بن حاتم الطَّائيّ قبْلَ توجيهه خالدَ بن الوليد إلى قوْمِه، وقال: أدْرِكْهُم لا يُؤْكَلُوا؛ فخرج عدِيّ إليهم؛ ففتَلهم في الذِّرْوة والغارب، وخرج خالدُ بنُ الوليد في أثرِهِ، وأمرَه أبو بكر رضي الله عنه أن يَبْدَأَ بطيّىء على الأكناف؛ ثم يكون وجهه إلى البُزاخَةِ، ثم يُثَلِّث بالبُطاح، ولا يَبْرَحْ إذا فَرَغَ من قوم حتى يأْذَنَ له، وأظهرَ أبو بكرٍ أنَّه خارجٌ إلى خيْبرَ ومنصبٌّ عليهم مِنْها، حتى يَلاقيَه بالأكناف، أكناف سَلْمى.

قال ابن الكلبيّ: وإنَّما قال ذلك أبو بكر مكيدةً حتى يبلغ ذَلك عدوَّه فيُرعِبَهم، وكان قد أَوْعَبَ[٣] مع خالد الناس، فخرج خَالدٌ، فازْوارّ عَنِ البُزاخَةِ وجَنَح إلى أجأ[٤]، وقدم عَدِيُّ بن حاتم عليهم؛ ودَعَاهم إلى الإسلام؛ فأجَابُوه بعد امتناع، وقالوا له: أخِّرْ عنَّا الجيش حتى نستخرجَ من أُلحقَ بالبُزاخة مِنَّا، فإنَّا إن خالفْنَا طُلَيْحة وهم في يَدَيْه قتلَهُمْ أو ارتهنَهم، فاستقبل عديٌّ خالدًا وهو بالسُّنْح، فقال: يا خالد، أمسِكْ عني ثلاثًا؛ تجتمع لك خمسمائة مقاتلٍ تضرب بهم عدوَّكَ؛ خيرٌ من أن تُعْجِلَهم إلى النَّار. وتشاغَلْ بهم، ففعل وعاد إليْهم وقد أرسلوا إلى إخوانهم؛ فأتَوْهُم من بُزاخة كالمدَدِ، ولولا ذلك لم يُتْرَكوا، فعاد عدِيٌّ بإسلامهم إلى خالد، وارتحل

---

(١) الصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به.

(٢) بزاخة: بالضم والخاء معجمة، قال الأصمعي: بزاخة ماء لطيىء بأرض نجد، وقال أبو عمرو الشيباني: ماء لبني أسد كانت فيه وقعة عظيمة في أيام أبي بكر الصديق مع طليحة بن خويلد الأسدي... (معجم البلدان).

(٣) أوعب الناس: جمعهم.

(٤) أجأ: بوزن فعل، بالتحريك، مهموز مقصور، قال الزمخشري: أجأ وسلمى جبلان عن يسار سميراء، وقد رأيتهما، شاهقان. ولم يقل عن يسار القاصد إلى مكة أو المنصرف منها... (معجم البلدان لياقوت).

خالد يريد جَدِيلة، فقال له عَدِيٌّ: إنَّ طيِّئًا كالطائر، وإنَّ جَدِيلَةَ أَحَدُ جَنَاحَيْ طيِّىء، فأجِّلْني لعلَّ الله أن يُنقِذ جديلَة لك كما أنقذ الغَوْث؛ ففعل، وأتاهم عديٌّ؛ فلم يَزَلْ بهم حتى بايَعُوهُ؛ فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألفُ راكبٍ، فكان خيرَ مولودٍ ولد في أرض طيىء وأعظمه عليهم بركة.

قال هشام الكَلْبي: وسار خالدُ بن الوليد إلى طُلَيْحة، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه قد جعل ثابتَ بن قيسٍ على الأنصار وأمْرُه إلى خالدٍ، فلمّا دنا خالدٌ من القوم، بَعثَ عُكَّاشةَ بن محصن، وثابت بن أقرم بن ثَعْلَبة العَجلانيَّ البَلَوِيَّ حَليفَ الأنصارِ طليعةً؛ حتى إذا دنوْا من القوم خرجَ طُليحة وأخُوهُ سلمة ينظران ويسألانِ، فلقياهما فبرزَ سَلَمة لثابت، وبرز عُكَّاشَة لِطُليحة. فأما سلمة، فلم يُمْهلْ ثابتًا أنْ قتلَه، ونادى طليحةُ أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أنْ أعِنِّي على الرَّجُل فإنّه آكل، فاعتَونا[1] عَلَى عُكَّاشه، فقتلاه ثم رجعا، وأقبل خالدٌ بالناسِ، فمروا بثابتِ بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطيُّ بأخْفافها، فكبُرَ ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هُمْ بعُكَّاشة صَرِيعًا، فجزع لذلك المسلمون وقالوا: قُتِل سيّدان مِنْ ساداتِ المسلمين، وفارسانِ من فرسانهم.

قال: ثمَّ التقى المسلمون بطُليحة ومَنْ معه على بُزاخَة، واقتتلوا أشدَّ قتال، وطليحة متلَفِّف في كسائِه بفِناء بَيْتٍ يتنبأُ لهم بزَعْمِه، وكان عيَيْنية بن حصْن بن حُذيفة الفزارِيّ مع طليحة في سبعمائِة من بني فَزارة يُقَاتِلُ قِتالاً شديدًا، فلما اشتدَّ القتال كرّ عُيينة على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا؛ فرجع فقاتل حتى إذا ضرِس[2] القتال، وهَزَّته الحربُ كرَّ عليه، فقال له: لا أبا لك! هل جاءكَ جبريلُ بعد؟ فقال: لا، فقال عُيَيْنة: حتى متى؛ قد والله بلغ منّا! ثم رجع فقاتل؛ حتى إذا بلغ كرَّ عليه فقال: هل جاءك جبريلُ بعد؟ قال: نعم؛ قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إنَّ لك رَحًا كرحاه، وحديثًا لا تنساه». قال عُيَيْنة: قد عَلِمَ الله أن سيكونُ لك حديث لا تنساه، ونادى عيينة: يا بَني فَزارة؛ هكذا فانصرفوا، فهذا والله كذَّاب، فانصرفوا وانهزمَ الناس فغشُوا طليحة، يقولون: ماذا تأمُرُنا؟ وكان طليحة قد أعدَّ فرسه وراحلته عنده، فلمّا غشيه النَّاس قام فَوَثَبَ على فرسه، وحمل امرأته النَّوارَ على الراحلةِ فنجا بها، وقال للناس: مَن استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلْتُ وينجوَ بأهْلِه

(١) اعتونا: تعاونا.

(٢) ضرس القتال: اشتد.

فليفعل، ثم سلك الجُوشنيَّةَ[١] ولحِقَ بالشام فارْفَضَّ جمْعُهُ، وقتل الله مَنْ قتل مِنْهُم، وأتت قبائِلُ سُلَيم وهوازن وفزَارَة وأسد وغطفان، وتلك القبائِلُ يقولون: نَدْخُلُ فيما خرجْنا منه، ونُؤمِنُ بالله وبرسوله ونُسلِّم لحكمه في أموالنا وأنْفُسِنَا.

فبايعهم خالدُ بن الوليد على الإسلام، ثمّ أقبلَتْ بنو عامرٍ بعد هزيمةِ أهل بُزاخة، يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالدٌ على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيّىء قبلهم، وأعطوْهُ بأيديهم على الإسلام.

قال أبو الحسن عليُّ المعروف بابن الأثير[٢]: وكانت بيعته: عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمِنُنَّ بالله ورسوله، ولتقيمُنّ الصلاة، ولتؤتُنّ الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكُمْ! فيقولون: نعم، ولم يقبل من أحد منهم إلا أن يأْتُوه بالذين حرَّقوا ومَثَّلُوا، وعَدَوْا على المسلمين في حال رِدَّتِهم، فأتوه بهم، فقبل مِنْهم إلاَّ قُرّة بن هبيرة سيِّد بني عامرٍ ونفرٌ معه أوثقهم، ومثَّل بالذين عَدَوْا على المسلمين فأحرقهم بالنيران بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونَكَّسَهُم في الآبار وأرسل إلى أبي بكر يعلمه ما فعل، ورضخهم، وبعث بقرّة وبالأُسارى إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه وكتب إليه: إنَّ بني عامر أقبلَتْ بعد إعراضٍ، ودخلَتْ في الإسلام بعد تربّص، وإنّي لم أقبل من أحدٍ سألني شيئًا حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتُهم كُلّ قِتْلَة، وبعثْتُ إليك بقرّة وأصحابه.

فكتب أبو بكر إليه: ليزِدْكَ ما أنْعَمَ اللّهُ به عليكَ خيرًا، فاتَّق الله في أمْرِك، فإنّ الله مع الَّذين اتَّقَوْا والَّذين هم محسنون، جِدَّ في أمر الله ولا تنِيَنَّ ولا تظفرنّ بأحدٍ قتلَ المسلمين إلا قتلْتَه، ونكَّلْتَ به غيرَه.

وكان عُيَيْنة بن حِصْنٍ ممن أُسِرَ، روي عَنْ عُبيْدَ الله بن عبد الله بن عتبة بن مَسْعُودٍ. قال: أخْبرني مَنْ نظر إلى عيينة بن حصن مَجْمُوعة يدَاهُ إلى عُنقِه في حبلٍ،

---

(١) الجوشنية: بزيادة ياء النسب، والهاء: جبل الضباب قرب ضرية من أرض نجد... (معجم البلدان).

(٢) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه... كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

ينخسه غِلْمان المدينة بالجريد[١] يقولون: أيْ عَدُوّ الله، أكفرتَ بالله بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قطُّ؛ حكاه أبو جَعْفر الطبريّ.

قال: فتجاوَزَ أبو بكرٍ رضي الله عنه، وحقن له دَمَه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأمّا طُلَيحة وما آل إليه أمْرُهُ؛ فإنَّه لَحِقَ بالشام، ثم نزل على كَلْبٍ، فأسلَم حين بلغه إسلامُ أسدٍ وغطفان، ولم يزلْ في بني كلْب حتى مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وخرج في خلافة أبي بكر إلى مكة مُعْتَمِرًا، ومرَّ بجَنَباتِ المدينة. فقِيل لأبي بكرٍ: هذا طُلَيْحة، فقال: ما أصنع به؟ خلُّوا عَنْه، فقد هداه الله للإسلام. فمضى نحو مكة، فقضى عُمْرته، ثم أتى عُمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه للبيعة حين استُخْلِفَ، فقال له عمر: أنتَ قاتل عُكّاشة وثابت! والله لا أُحِبُّكَ أبدًا؛ فقال: يا أمير المؤمنين ما تنقم من رَجُلَيْن أكرمَهُمَا الله بيديَّ، ولم يُهنِّي بأيديهما!

فبايعه عُمَر ورجع إلى دار قومه فأقام حتى خرج إلى العراق.

ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد

كان من خبر بني تميم أنَّ رسولَ الله ﷺ قبل وفاته فرّق عمّاله فيهم، فكان الزِّبْرقان بنُ بدرٍ على الرِّباب[٢] وعوف والأبناء؛ وكان سهم بنُ مِنْجاب وقيس بنُ عاصم على مُقَاعِس[٣] والبُطُون، وصفوان بن صفوان وسَبْرة بن عمرو على بني عمرٍو، هذا على بَهْدَى، وهذا على خَضَّم (قبيلتين مِن بني تميم)، ووكيع بن مالك ومالك بن نُوَيْرَة على بني حنظلة، هذا على بني مالكٍ، وهذا على بني يَرْبوع.

فأمّا صفوانُ فإنَّه لما أتاه الخبر بوفاةِ رسول الله ﷺ ضرب إلى أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه بصدَقات بني عمرو وما ولِيَ منها وبما وَلِيَ سبْرة، وأقامَ سبرة في قومه لحدَثٍ إن ناب.

---

(١) الجريد: واحدتها الجريدة، وهي سعفة طويلة تقشر من خوصها.

(٢) الرباب: تيم، وعديّ، وعكل، ومزينة، وضبّة. وإنما سموا الرباب لأنهم تحالفوا فقالوا: اجتمعوا كاجتماع الربابة.. وقال قوم: بل غمسوا أيديهم في ربّ وتحالفوا... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) بنو مقاعس: هم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم.. ومن قبائل مقاعس: عمرو، وصريم، وأصرم، وربيع، وعمير، وعبيد.. ومن رجال مقاعس: سليك بن السلكة.. ومقاعس اسمه الحارث بن عمرو.

وأمّا قيس بن عاصم فإنه قسّم ما وليه من الصَّدقات في مُقاعِس والبطون؛ وإنّما فَعَل ذلك مخالفةً للزّبْرِقان.

وأمَّا الزبْرِقانُ فإنَّه أتبعَ صفوان بالصَّدقاتِ التي أخذها مِمَّنْ كانَتْ تليه، وقدم بها إلى المدينة على أبي بكرٍ وهو يقولُ ويُعرِّضُ بقيس بن عاصم[1]: [من الطويل]

وَفَيْتُ بأَذْوادِ الرَّسول وقد أَبَتْ سُعاةٌ فلم يَرْدُد بعيرًا مُجيرُها

ثم ندم قيسُ بن عاصم على ما كان مِنْهُ، فلما أظلَّه العلاءُ بنُ الحضرمِيّ تلقَّاه بالصَّدقةِ، وخرج معه؛ وقال في ذلك: [من الطويل]

ألا أَبْلِغا عنّي قُريشًا رِسَالةً إذا ما أَتتها بيِّناتُ الودائِعِ

قال: وتشاغَل الناسُ في تلك الحالِ بعضهم ببعض، ونَشِبَ الشَّرُّ، فتشاغلَتْ عَوْفٌ والأبناءُ بالبُطون والرِّباب بمقاعِسٍ، وتشاغلَتْ عمرو وخضَّم بمالك وبَهْدى بيربُوع؛ فبينا الناس في بلاد تميم على ذلك قد شغل بعضهم بعضًا، فَمُسْلِمهم بإزاء مَنْ قدَّم رِجْلًا وأخَّرَ أُخرى، وتربَّص وارتاب؛ إذ فجِئتهم سَجاح ابنة الحارث، قد أقبلَتْ من الجزيرة؛ وكانت ورهْطها في بني تغلِب، فأتت تقود أفناء ربيعة، معها الهُذيلُ بنُ عِمْران في بني تَغْلِب، وعَقَّة بنُ هلالٍ في النَّمِر، وزيادُ ابنُ فلانٍ في إياد، والسَّليلُ بن قَيْسٍ في بني شَيْبَان، فأتاهم أمرٌ دَهِيٌّ؛ هو أعظمُ مما فيه الناس؛ لهجومها عليهم، ولما هُم فيه مِنْ اختلافِ الكلمة والتشاغل بما بينهم. وكانت سَجَاح ابنة الحارث بن سُوَيْد بن عُقْفَان هي وبنو أبيها بنو عُقْفَانَ في بني تغلِب، فاستجاب لها الهُذَيل، وترك النَّصرانية، فراسلت مالك بن نُوَيْرَة ودعته إلى الموادعَةِ، فأجَابَها وحملها على أحْياء بني تميم، فقالتْ: نعم فشأنك بمن رأيتَ، فإنما أنا امرأة من بني يَربوع، فإن كان مُلْكٌ فالمُلكُ مُلْكُكُم. وأرسلتْ إلى بني مالك وحنظلة تدعوهم إلى الموادعة.

فخرج عُطَارِد بن حاجب، وسَروات بني مالِك، حتى نزلوا في بني العَنْبر على سَبْرة بن عمرو هُرَّابًا، وخرج أشباههم من بني يَرْبُوع حتى نزلوا على الحصين بن نيار

---

(١) قيس بن عاصم المنقري، جده سنان بن خالد بن منقر أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم وقيس يكنى أبا عليّ، وهو شارع فارس شجاع حليم، كثير الغارات مظفر في غزواته أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم وأحسن إسلامه وأتى إلى النبي ﷺ وصحبه في حياته وعمر بعده زمانًا... (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢: ٢٦٣).

في بني مازِنٍ، وقد كرهوا ما صنع مالك، فلما جاءَتْ رسُلُهَا إلى بني مالكٍ تَطْلُب المُوادَعَةَ أَجَابَها إلى ذلك وكيعُ بن مالكٍ، فاجتمع وكيعٌ ومالك بن نويرة وسَجَاح، وقد وادع بعضُهم بعضًا، واجتمعوا على قتالِ الناسِ، وقالوا: بِمَنْ نَبْدَأ؟ بخَضَمٍ أم بِبَهْدَى، أم بعَوْفٍ والأبناءِ، أم بالرِّباب؟ وكفُّوا عن قيْس بن عاصم لما رأوْا مِنْ تردُّدِه وطمعوا فيه. فقالت سجاح: «أعدُّوا الركاب، واستعدُّوا للنِّهاب، ثم أغِيرُوا على الرِّباب، فليس دونهم حجاب»، وصمدت سجاح للأحفارِ حتى تنزل بها، وقالتْ لهم: «إنَّ الدَّهْناءَ حجازُ بني تميم، ولن تَعْدوَ الرِّباب، إذا شدَّها المُصاب، أنْ تكون بالدَّجاني والدَّهاني، فلينْزِلْها بعضُكم».

فتَوَجَّه مالك بن نُوَيْرة إلى الدَّجاني فنزلها، وسمعت بهذا الرِّبابُ، فاجتمعوا لها: ضَبَّتُها وعبْدُ مَنَاتِها، فوَلِيَ وكيع وبِشْرٌ بني بكرٍ بن ضَبَّة، ووَلِيَ ثعلبةُ بن سعد عقَّة، ووَلِيَ عَبْدَ مناةِ الهُذَيْلُ، فالتقى وكيعٌ وبِشْرٌ وبنو بكرٍ من بني ضَبَّةَ فهُزما، وأُسِرَ سَمَاعَةُ ووكيعٌ وقعقاع، وقُتِلَتْ قَتْلَى كثيرة، فاجتمع بعد ذلك رؤساءُ أهلِ الجزيرة، وقالوا لسجَاح: ماذا تأمُرِيننا؛ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا؟ فقالت: اليمامة؛ فقالوا: إنَّ شَوْكة أهل اليمامةِ شَدِيدةٌ، وقد غَلُظَ أمر مُسيلَمة فقالت: «عليكم باليمامة، ودُفُّوا[1] دَفيف الحمامةِ، فإنها غزوَةٌ صَرَّامة، ولا يلحقكُمْ بعدها ملامة»، فَنَهدَتْ[2] لبني حنيفة، وبلغ ذلك مُسَيْلمة فهابَها، وخاف إن هو شُغِل بها أن يدهَمَه شُرَحبيل ابن حَسَنة والقبائل، فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنُها على نفسه حتى يأتيَها.

فأنزلت الجنود على الأمواه له وأمَّنته، فجاءها في أربعين مِن بني حَنيفة. وكانت سجَاح راسِخَةً في النَّصْرَانية، قد عَلِمَتْ مِنْ عِلْم نصارى تَغْلِب، فقال لها مُسَيْلِمةُ: لَنَا نصفُ الأرض، وكان لقريش نصفها لو عَدَلَتْ، وقد رَدَّ الله عليكِ النصف الذي رَدَّتْ قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلَتْ؛ فقالت: «لا يَرُدُّ النِّصف إلاَّ مَنْ حنَف، فاحمل النِّصف إلى خيل تراها كالسَّهَف»[3]. فقال مسيلمة: «سَمِعَ اللّهُ لمَنْ سمِعَ، وأطمعه بالخيرِ إذا طَمِعَ، ولا زال أمره في كُلّ ما سرَّ نفسه يجتمع. رآكم ربُّكم فحيّاكم، ومن وحْشَةٍ خَلاَّكم، ويوم دينه أنجاكم فأحْيَاكُمْ، علينا من صلواتِ معْشر أبرارٍ؛ لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربِّكُم الكُبار، ربّ الغيوم والأمطارِ».

---

(١) يقال: دفّ الطائر: إذا ضرب جنبيه بجناحيه، أو حرك جناحيه ورجلاه في الأرض.

(٢) نهدت: نهضت.

(٣) السهف: الذي اشتد عطشه.

وقيل: إنَّ مُسَيْلمة لما نزلتْ به سَجاح أغْلَقَ الحصن دُونَها. فقالت له: انزِلْ. قال: فنحِّي عنكِ أصحابَكِ، ففعلَتْ. فقال مسيلمة: اضربوا لها قُبَّة وجمِّروها[١] لعلها تذكرُ الباه[٢]، ففعلوا، فلمَّا دخلت القُبَّةَ نزل مسيْلمة. فقال لأصحابه: ليقف هاهنا عشرةٌ، ثمَّ دارسها. فقالتْ: ما أُوحي إلَيْك؟ فقال: «ألم ترَ إلى ربِّك كيف فعلى بالحُبْلى، أخرج منها نسمةً تَسْعَى، من بين صِفاقٍ[٣] وحَشَى» قالت: وماذا أيضًا؟ قال: أوحى إليَّ «إنَّ الله خلق النساء أفراجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولِجُ فيهنَّ قُعْسًا[٤] إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالاً[٥] إنتاجًا». قالت: أشهدُ أنَّك نبيّ. قال: هل لك أن أتزوَّجَكِ، وأذِلّ بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال: [من الهزج]

ألاَ قُومي إلى النَّيْكِ فقد هُيِّي لكِ المضْجَعْ
فإن شئت ففي البيت وإن شئت ففي المخْدَعْ
وإن شئتِ سَلَقْناكِ وإن شئتِ على أربعْ[٦]
وإن شئت بثلثيه وإن شئتِ به أجمعْ

قالتْ: بل به أجْمَع. قال: بذلك أُوحي إليَّ، فأقامَتْ عنده ثلاثة أيام، ثم انصرفتْ إلى قومها. فقالوا لها: ما عِنْدك؟ قالت: كان عَلَى حَقٍّ، فاتَّبعتُهُ فتزوَّجْتهُ، قالوا: هَلْ أَصدقكِ شيئًا؟ قالت: لا. قالوا: فارجِعي إليه، فقبيح على مثلِكِ أن ترجعَ بغير صداق، فرجَعَتْ. فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال: ما لكِ؟ قالت: أصدِقْنِي صَدَاقًا. قال: مَنْ مؤذِّنُكِ؟ قالت: شبث بن رِبْعِيّ. قال: عليَّ به، فأتاه. فقال: نادِ في أصحابك: إنّ مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتَيْن مما أتاكم به محمّد: صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة.

قال: وكان من أصحابها الزِّبْرِقان بن بدرٍ وعطارد بن حاجب ونظراؤُهم. فقال: إنّ عامَّةَ بني تميم بالرَّمْلِ لا يصلُّونها، فانصرفت سَجَاح ومعها أصحابها، فقال عُطاردُ بن حاجب: [من البسيط]

أمْسَتْ نبيَّتُنَا أُنْثَى نطيفُ بها وأصبحتْ أنْبِيَاءُ الناسِ ذكْرَانا

---

(١) جمروها: أي بخروها بالمجمرة، والمجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.
(٢) الباه: النكاح.
(٣) الصفاق: الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر.
(٤) القعس: اللواتي بهن قعس. والقعس: دخول الظهر وخروج الصدر.
(٥) السخال: جمع السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد؛ والمراد هنا المواليد.
(٦) سلقها: أي بسطها وجامعها.

وقيل: إنَّها صالحت مسيلمة على أنْ يَحْمِل لَها النِّصفَ مِنْ غلاَّت اليمامة: وأبت إلا السنة المقبلة يُسْلفُها، فأعطى لها النصف وقال: خلِّفي على السَّلَف مَنْ يجمعُهُ لكِ، وانصرفي أَنْتِ بنصف العام، فانصرفَتْ بالنِّصف إلى الجزيرة، وخَلَّفَتْ الهذيْل وعَقَّةَ وزيادًا؛ لينجزوا النِّصف الثاني، فلم يفجأهم إلا دُنوّ خالدِ بنِ الوليد، فارفضُّوا[1].

وكان من أمرِ مُسَيْلمة وقتله ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

قال: ولم تزل سجاح بالجزيرة في أَخْوَالِهَا مِنْ بني تَغْلِب حتى نَقَلَهُمْ معاوية بن أبي سفيان عامَ الجماعة، وجاءت مَعَهُمْ وحَسُنَ إسلامها وإسلامُهُمْ، وانتقلَتْ إلى البصرةِ وماتت بها.

وقيل: بَلْ لمّا قتِلَ مُسَيْلمة سارت إلى أخوالها بالجزيرة، فماتت عندهم، ولم يُسمع لها بذكْر، والله تعالى أعلم.

قال أبو جعفر الطبريّ رحمه الله: وخَرَجَ الزِّبْرِقان والأقرعُ إلى أبي بكر؛ وقالا: اجعل لنا خَرَاج البَحريْن؛ ونضمن لك ألاَّ يرجعَ من قومنا أحدٌ، ففعل. وكتب الكتاب، وكان الذي يختلفُ بينهم طلحة بن عُبَيْد الله، وأشهد شهودًا، منهم عمر بن الخطاب، فلما أُتِيَ عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد، ثم قال: لا والله ولا كرامة! ومزَّقه ومحَاه، فغضب طلحة، وأتى أبا بكرٍ، فقال: أنت الأمير أم عُمَر؟ فقال: عمر؛ غير أن الطاعة لي، فسكتَ.

وشهد الزِّبْرِقان والأقرعُ مع خالدِ المشاهد كلَّها حتى اليمامة، ثم مضى الأقرعُ ومعه شرحبيلُ إلى دُومَة الجَنْدل[2].

ذكر مسير خالد إلى البطاح ومَقْتل مالك بن نُوَيْرة

قال أبو جعفر[3] رحمه الله: لمّا انصرفَتْ سَجاحُ إلى الجزيرة ارْعَوَى مالك بن نُوَيْرة، وندِم وتحيّر في أمره، وعَرَف وكِيعٌ وسَماعة قُبْح ما أتيا، فرجعا رجوعًا حسنًا؛

---

(١) ارفضوا: تفرقوا وتبددوا.

(٢) دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين، وقد جاء في حديث الواقدي دوماء الجندل... قيل: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبليّ طيىء كانت به بنو كنانة من كلب... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أبو جعفر: هو محمد بن جرير الطبري، وقد تقدمت ترجمته.

ولم يتجبّرا، وأخرجا الصَّدقاتِ واستقبلا بها خالد بن الوليد، فقال خالد: ما حملكما على مُوادعة هؤلاء القوم؟ فقالا: ثَأْرٌ كُنَّا نطْلُبه في بني ضبَّة.

فسار خالد يريدُ البُطاحَ دون الحَزْن[1]، وعليها مالك بن نُوَيْرَة، وقد تردَّدَتْ الأنصار على خالد، وتخلَّفتْ عنه. وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنّ الخليفةَ عَهد إلينا إنْ نحن فرغنا مِنَ البُزَاخة واسْتَبْرأنا بلادَ القوم أن نقيم حتى يكْتُبَ إلينا؛ فقال خالد: إنْ يَكُ عَهد إليكُمْ هذا، فقد عهد إليّ أن أمضيَ، وأنا الأمير، وإليَّ تنتهي الأخبارُ، ولو أنّه لم يأتني له كتابٌ ولا أمرٌ، ثم رأيتُ فرصة فكنت إن أعلمته فاتَتْني لم أُعلمه حتى أنتهزَهَا، وكذا لَوْ ابتلِينا بأمرٍ ليس منه عَهْدٌ إلَيْنَا فيه لم نَدَعْ أنْ نَرَى أفضلَ ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نُوَيْرة بِحيالنا، وأنا قاصدٌ له ومن معي من المهاجرينَ والتابعِين بإحسانٍ، ولست أُكرههكم.

ومضى خالد، وندمَت الأنصار وتَذَامروا، وقالوا: إن أصاب القومُ خيرًا، إنَّه لخيرٌ حُرِمتموه، وإنْ أصابتهم مصيبة لَيجتنبنَّكُم الناس، فأجمعوا اللَّحاقَ بخالدٍ، وجرَّدوا إليه رسولاً، فأقام عليهم حتى لَحِقُوا به، ثم سار حتى لَحِقَ البُطاحَ، فلمْ يَجِدوا به أحدًا. ووجد مالك بن نويرة قد فرَّقهم في أموالِهم، ونَهاهُم عن الاجتماع حين تردَّدَ عليه أمْرُه، وقال: يا بني يَرْبُوع، إنَّا قد كُنَّا عَصَيْنَا أُمَرَاءَنَا إذْ دَعَوْنا إلى هذا الدِّين، وبَطَّأْنا الناس عنه فلم نُفْلِحْ ولم نُنجِح، وإنِّي قد نظرت في هذا الأمر فوجدتُ الأمر لا يتأتَّى لهم بغير سياسَة، فإيَّاكُم ومُنَاوَأَة قوم صُنِعَ لهم، فتفرَّقُوا إلى دياركُمْ، وأدخِلُوا في هذا الأمر. فتفرّقُوا على ذلك إلى أمْوالهم.

وخرج مالك بنُ نُويرةَ حتى رجعَ إلى منْزله. فلمّا قَدِمَ خالدٌ البُطاحَ بثّ السّرايا وأمرهم بداعية الإسلام، أن يأْتُوهُ بكلّ من لَمْ يُجِبْ، وإن امتنع أن يَقْتلُوهُ. فجاءَتْهُ الخيْلُ بمالك بن نويرةَ في نفر معه من بني ثعلبةَ بن يربوع، من عاصم وعُبَيْد، وعرين وجعفر، فاختلفَتْ السَّريةُ فيهم، وفيهم أبو قتادة ـ وكان مِمَّنْ شهد أنَّهُمْ قد أذَّنُوا وأقامُوا وصَلُّوا ـ فلمَّا اختلفوا فيهم أمر بِهم خالد فَحُبِسوا في ليلة باردةٍ لا يقوم لها شيء، وجَعَلَتْ تزْدادُ بردًا، فأمَر خالدٌ مناديًا فنادى: أدفئوا أسراكم. وكانتْ في لُغةِ كنانة إذا قالوا: دَثِّرُوا الرجل فأدفِئُوهُ، كان دِفؤه قَتْلَه، فظنَّ القومُ ـ وهي في لغتهم القَتْلُ ـ أنَّهُ أراد القتلَ، فقتلوهُم، فَقَتَلَ ضِرارُ بن الأَزْوَر مالكًا، وسمع خالدٌ الوَاعية[2]، فخرج وقد فُرِغَ منهم فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابَه.

---

(١) الحزن من الأرض: ما غلظ.

(٢) الواعية: الصراخ والصوت على الميت.

وقد اختلف القومُ فيهم؛ فقال أبو قتادة: هَذَا عَمَلُكَ! فزبَرَهُ[1] خالدٌ فغضبَ، ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضِبَ عليه أبو بكرٍ حتى كلَّمَهُ عُمر فيه، فلم يرضَ إلاَّ أن يرجعَ إلى خالد، فرجع إليه حتى قَدِمَ معه المدينة.

وتزوّج خالدٌ أُمَّ تميم ابنة المنهال، وتركها لينقضيَ طهرُها، وكانت العربُ تكْرَه النِّساء في الحرب، فقال عمر لأبي بكرٍ: إنّ في سيفِ خالدٍ رَهَقًا[2]، فإنْ لَمْ يكنْ هذا حَقًّا حَقَّ عليه أن تُقيده، وأكْثرَ عليه في ذلك، وكان أبو بكر لا يُقيد من عمَّاله ـ فقال: هَبْهُ يا عُمَر تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالدٍ. وَوَدَى مالكًا، وكتب إلى خالد أن يقدم ففعل، فأخبره خبره فعذره وقبل مِنهُ، وعنَّفَهُ في التَّزويج الذي كانت تعيب عليه العرب.

وقيل: إنّ عمرَ بنَ الخطابِ أَلَحَّ على أبي بكر في عَزْلِ خالدٍ. وقال: إنَّ في سيفه رهقًا. فقال: يا عمر، لم أكن أشِيمُ[3] سيفًا سَلَّهُ اللّهُ على الكافرين.

وقيل: ولما أقبل خالدُ قافِلاً دخل المسجد وعليه قَبَاءٌ، عليه صدأ الحديد، مُعْتجرًا[4] بعمامة له، قد غرز فيها أسهمًا، فقام إليه عُمر فانتزعَ الأسْهُمَ مِنْ رأسِهِ فحطَّمَها، ثم قال: أقتلتَ امرأً مسلمًا ثم نزوْتَ على امرأتِهِ! والله لأرْجمنَّكَ بأحجارِكَ، وخالد لا يكلِّمُهُ ولا يظنُّ إلاَّ أنَّ رأي أبي بكرٍ على مثل رأي عمر فيه، حتى دخلَ على أبي بكرٍ فأخبره الخبر، فاعْتذرَ إليه، فعذره أبو بكرٍ وتجاوزَ عنه ما كان في حَرْبِهِ تلكَ.

وخرج خالد حين رَضِيَ عنه أبو بكرٍ وعمر جالسٌ في المسجِدِ، فقال: هَلُمَّ إليَّ يا بن أمّ شَمْلة؛ فعرفَ عمرُ أن أبا بكرٍ قَدْ رضيَ عَنْهُ فلم يكلِّمه، ودخل بَيْته.

واللّهُ سبحانَهُ وتعالى أعْلَمُ بالصوابِ، وإليه المرجعُ والمآب، وهو حسبي، ونِعْمَ الوَكيل.

ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة

كان من خبر مُسَيْلِمةَ أنّهُ لما قدِمَ وفد بني حنيفة إلى رسول الله ﷺ؛ كما قدَّمْناهُ في السيرة النبوية في أخبار الوفودِ، وكان مسيلمةُ في رِحَالهم، فلمَّا أجازَهُمْ رسول الله ﷺ. قالوا: يا رسولَ الله، خلَّفْنا صاحبًا لنا في رِحَالنا يُبْصِرُهَا لنا، وفي

(١) زبره: نهره.
(٢) الرهق: السفه والخفة وركوب الظلم.
(٣) شام السيف: أغمده.
(٤) اعتجر: لف العمامة.

ركابنا يَحْفَظُهَا علَيْنا؛ فأمر له رسولُ الله ﷺ بمثل ما أمر لأصحابه، وقال: «ليْس بشرّكم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم»، فقيل ذلك لمُسَيْلَمة. فقال: عَرف أنّ الأمر إليّ من بعده.

ثم ادّعى النبوّة بعد ذلك، وكان الرَّجّال بن عُنْفُوة قد هاجر إلى رسول الله ﷺ، فتعلَّمَ القرآن من أُبيّ بن كعب، وفَقِهَ في الدِّين، فبعَثَهُ رسولُ الله ﷺ مُعَلّمًا لأهل اليَمامَةِ، وليشغَبَ[1] على مسيْلَمة؛ ويشدّد من أمر المسلمين، وكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أُشْرِكَ معه؛ فصدَّقوه واستَجابُوا له، وأمروه بمكاتبةِ النبيّ ﷺ، وَوَعَدُوه إنْ هو لم يَقْبَلْ أَنْ يُعِينوه عَلَيْه.

وقُبِضَ رسول الله ﷺ؛ والأمر على ذلك، فقوِيَتْ شوكةُ مُسيْلمة، واشْتَدَّ أمْرُه، وكثُرَتْ جُموعه، وتمكَّنَ الرَّجّال بن عُنْفُوَةَ من مُسَيْلمة، وعَظُمَ شأنُهُ عِنْده، فكان لا يخالِفُه في أمر ولا يقولُ شيئًا إلا تابَعَهُ عليه، وكان مسيلمةُ يُصَانِعُ كلَّ أحدٍ مِمَّنْ اتَّبعه، ويتابِعه على رأيِه، ولا يبالي أن يطَّلع الناس منه على قبيح، وضربَ حَرَمًا باليمامة؛ فكان مُحَرَّمًا، فوقع ذلك الحَرم في الأحاليفِ، (أفخاذٌ من بني أُسيّد كانَتْ دارُهُم اليمامة)، فصارَ مكانُ دارِهِمْ الحرَم، والأحاليف: سيْحانُ ونُمارةُ، وبنو جُرْوةَ، فكانوا يُغيرُون على ثمار أهل اليمامة، فإن نَذِروا[2] بهم فدخَلوا الحرم أَحْجَمُوا[3] عنهم، وإنْ لم ينذِروا بهم فذاك ما يريدون؛ فكثُر ذلك منهم، حتى استعدَوْا عليهم مسيلمة، فقال: انظُروا الذي يأتي من السماءِ فيكُم وفيهم، ثم قال لهم: «والليل الأطْحَمْ[4]، والذئبِ الأدلم[5]، ما انتهكَتْ أَسَيّد من مَحْرَمْ»، ثم عادوا للغَارة والعُدْوَى[6]، فقال: انتظروا الّذي يأتيني. ثم قال: «والليلَ الدَّامِس، والذئبِ الهامِسِ[7]، ما قطعتْ أُسَيِّد من رَطْبٍ ولا يابسٍ»؛ فقالوا: أمّا النخيل فَمُرطِبةٌ وقد جَدُّوها[8]، وأمّا الجُدْرانُ فيابسَةٌ وقَدْ هَدَمُوها، فقال: اذْهبوا وارجعوا فلا حقَّ لكم.

وكان فيما يقرؤه لهم فيهم: إنّ بني تميم قوم طُهر لَقاحٌ[9]، لا مكْرُوه عَلَيْهم ولا إتارة، نجاورهم ما حيينا بإحْسانٍ، نمنعهم من كلّ إنسانٍ، فإذا مِتنا فأمْرُهُم إلى الرحمٰن».

---

(١) شغب القوم وعليهم وفيهم وبهم: هيّج الشر بينهم.

(٢) نذروا: علموا.

(٣) أحجموا عنهم: كفوا ونكصوا.

(٤) الليل الأطحم: الأسود.

(٥) الذئب الأدلم: الأسود الطويل.

(٦) العدوى: العدوان.

(٧) الهامس: الشديد.

(٨) جدّ: قطع.

(٩) قوم لقاح: لم يدينوا للملوك.

وكان يقول: والشّاءِ وألوانِها، وأعجبُها السُّود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض؛ إنَّه لعَجَبٌ محض، وقدْ حُرِّم المَذْق[١]، فما لكم تمجّعون[٢]!.

وكان يقول: «يا ضِفْدع ابنة ضِفْدعٍ، نُقّي مَا تنِقّين، أعلاكِ في الماء وأسْفَلُك في الطين، لا الشاربَ تمنعين، ولا الماء تُكدِّرين».

وقال أيْضًا: «والمبذِّرات زرعًا، والحاصِداتِ حَصْدًا، والزّارعاتِ قمحًا، والطّاحناتِ طحْنًا، والخابزاتِ خبزًا، والثّاردات ثَرْدًا[٣]، واللاّقماتِ لقمًا، إهالةً[٤] وسمنًا، لقدْ فُضِّلْتُم على الوَبَرِ، وما سبقكُمْ أهل المدَر؛ ريفكم فامنعوهُ، والمُعْترَّ[٥] فآووه، والباغي فناوئوه».

قالوا: وأتته امرأة فقالت: إنَّ نخلنا لَسُحُقٌ[٦]، وإن آبارنا لَجرُزٌ[٧] فادعى الله لمائنا ونخلنا، كما دعا محمّدٌ لأهل هزمان، ففعل كما فعل رسولُ الله ﷺ، ودعا للنخل، وتمضمض مِنَ الماءِ، ومَجَّهُ في الآبار، فيبسَتْ النخْلُ، وغارتْ الآبارُ.

وقيل: إنَّه نزل على أولادِ بني حنيفةَ كما فعل رسولُ الله ﷺ، فمرَّ بيده على رؤوسهم، وحَنَّكهم، فقرع ولَثِغَ مَنْ فُعِل به ذلك، وظهر ذلك كلُّهُ بعد مَهْلكه.

قالوا: وجاءَ طلحة النَّمَريّ، فقال: أَيْن مُسَيْلمة؟ فقالوا: مَهْ رسول الله! فقال: لا، حتى أراهُ، فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: مَنْ يأتيك؟ قال: رحمٰن، قال: أفي نور أوْ في ظلمة؟ فقال: في ظلْمَة، فقال: أشْهَدُ أنَّكَ كذّاب، وأنَّ محمدًا صادِقٌ، ولكنَّ كذّابَ رَبيعَةَ أحَبُّ إليَّ مِنْ صادق مُضَر.

والله سبحانه أعْلم، وصلَّى الله على سَيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّمَ.

ذكر الحروب الكائنة بين المسلمين وبين مسيلمة وبين أهل اليمامة وقتل مسيلمة

قد ذكرنا أنَّ أبا بكر الصدِّيق لمَّا عَقَد الألوية، عَقَد لِعِكْرمة بن أبي جهْلٍ، وأمره بمسَيْلمة، ثم أرْدفَهُ شُرحبيل ابن حَسَنَة، فعجّل عِكرِمة، وبادر الحرب ليذْهَبَ بصوتها، فوَاقَعهم، فنكبوه، وأقام شُرَحْبيلُ في الطريق حتى أدْركه الخبرُ.

---

(١) المذق: اللبن الممزوج بالماء.
(٢) مجّع: أكل المجيع. والمجيع: ضرب من الطعام يصنع من لبن وتمر.
(٣) يقال: ثرد الخبز: أي فته ثم بله بمرق.
(٤) الإهالة: الشحم؛ أو الزيت: أو كل ما أؤتدم به.
(٥) المعتر: الفقير.
(٦) السحوق: الطويلة من النخل، جمع سحق.
(٧) الأرض الجرز: التي أجدبت.

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عكرمةَ: يا بنَ أُمِّ عِكْرَمة؛ لا أرينَّكَ ولا ترانِي على حالها، ولا تَرْجِعْ فَتوهِنَ الناسَ، امْضِ على وجهِكَ حتى تسانِدَ حُذَيْفَةَ وعَرْفَجة، فقاتِلْ معهما أهلَ عُمَان ومَهْرة[1]، وإنْ شغِلاَ فامْضِ أنت، ثم تسيرُ ويسيرُ جُنْدُك؛ تسْتَبْرِئون مَنْ مرزتم به حتى تلْتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أُميَّة باليمن وحَضْرَمَوْت.

وكتب إلى شُرَحْبِيل يأمره بالمقام حَتَّى يأتِيَهُ أمرُه، ثم كتب إليه قبلَ أنْ يوجِّه خالد بن الوليد بأيّام إلى اليمامة: إذا قدِمَ عليك خالدٌ ثم فرغتم - إنْ شاءَ اللّهُ - فالحَقْ بقضاعةَ حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على مَنْ أبَى منهم وخالفَ.

فلمَّا قدِمَ خالد على أبي بكر الصّديق رضي الله عنه من البُطاحِ رضي الله عنه، وقبلَ عُذْرَهُ كما ذكرنا، ووجَّهَهُ إلى مُسَيْلمة، وأوْعَبَ[2] معه الناس، وجعل على كلِّ قبيلةٍ رَجُلاً، وجعلَ على المهاجرين أبا حُذَيْفة بن عُتْبَة، وجعل عَلَى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وتعجَّل خالدٌ حَتَّى قدم على أهلِ العسكرِ بالبُطاحِ، وانتظر البعث الذي ضرِبَ بالمدينةِ، فلمّا قدِم عَلَيْهِ نهض حتى أتى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ تزيدُ عدَّتهُمْ على أربعين ألف مقاتلٍ. وعجَّل شُرَحْبِيلُ ابن حسنة، وبادر بالقتالِ قبلَ وصول خالد كما فعل عِكرِمة، فنُكِبَ كما نكِبَ، فلما قدِمَ خالدٌ لامَهُ، وسار خالدٌ حتى إذا أطلَّ على بني حنيفة أسْنَدَ خيولاً لعقَّة والهُذيْلِ وزياد، وقد كانوا أقاموا على خَرْجٍ أخْرَجَهُ لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح، وإنَّما أسْنَد خالدٌ تلك الخيولَ مخَافةَ أنْ يأتوه مِنْ خَلْفِه، وأمَدَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه خالدًا بسَلِيط بنِ عمروِ بن عبد شَمْس العامِرِيِّ القرشِيِّ ليكونَ ردءًا له من أنْ يأتِيَهُ أحدٌ من خلْفِه؛ فخرجَ.

فلمَّا دنا من خالد وجَدَ تِلْكَ الخيولَ التي انتابَتْ تِلْكَ البلادَ قَدْ فُرِّقوا فهربُوا، فكان مِنْهُم قَرِيبًا لَهُمْ، وأمّا مسيلمة فإنَّه لما بَلَغَهُ دُنوُّ خالد بنِ الوليدِ مِنْهُ عَسْكر بعَقْرَباء، واستنفر النَّاس، فجعل النَّاسُ يخرجون إليه، وخرجَ مجّاعة بن مُرارة بنُ سَلْمى الحنفيّ اليمامِيُّ - وكان رئيسًا من رؤساء بني حنيفة - في سريّة يطْلُبُ بثأرٍ له في بني عامرٍ وبني تميمٍ، فلمَّا كان خالدٌ مِنْ عَسْكَرِ مسيْلمة على ليلةٍ، إذا مَجّاعَةُ

(١) مهرة: بالفتح ثم السكون، هكذا يرويه عامة الناس، والصحيح مَهَرَة بالتحريك وجدته بخطوط جماعة من أئمة العلماء لا يختلفون فيه... قيل: مهرة: بلاد تنسب إليها الإبل... وقيل: مهرة: قبيلة، وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة تنسب إليهم الإبل المهرية وباليمن هم مخلاف... بينه وبين عمان نحو شهر... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: أوعب القوم: خرجوا كلهم إلى الغزو.

وأصْحَابُهُ وقد غَلَبَهُم الكَرَى - وكانُوا راجِعِينَ من بلادِ بني عامرٍ - فَعَرَّسُوا دون ثَنِيَّةِ[1] اليمامةِ، فوجَدُوهُمْ نيامًا وأرْسانُ خُيُولِهِمْ بأيْدِيهِمْ تَحتَ خُدُودِهِم، ولا يَشْعُرونَ بقربِ الجيش مِنهم، فأنبهوهم، وقالوا: مَنْ أنْتُم؟ قالوا: مجّاعة، وهذه حنيفة، فأوْثَقُوهُم، وأقامُوا إلى أنْ جَاءَهُم خالد فأتوه بهم، فظَنَّ أنَّهم جاؤوهُ ليستقبلُوهُ، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما شَعَرْنَا بك، إنَّمَا خرجْنَا لثَأرٍ لنَا فيمن حَوْلَنا من بني عامر وتميم، فأمر بهم أنْ يُقتَلوا، فقالوا: إنْ كُنْتَ تُريدُ بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا فاستبْقِ هذا، ولا تقتله - يريدون مَجّاعة - فَقَتَلَهُمْ كُلَّهم دونه، وكانوا ثلاثةً وعشرينَ راكبًا - وقيل: أرْبَعِينَ. وقيل: ستِّين - وصبَرَ[2] مجّاعة، وسار إلى اليمامة، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة، فنزلوا بعقْرَباء، وهي طَرَف اليمامة؛ دون الأموال، وريف اليمامةِ وراء ظُهُورهم.

وقال شُرَحْبِيلُ بنُ مسيلمة: يا بني حنيفة، اليومُ يومُ الغيْرة، اليوم إنْ هُزِمتم تُسْتَرْدَفُ[3] النساءُ سَبِيّات، ويُنْكَحْنَ غير حظيّات، فقاتِلُوا عن أحسابِكُم، وامنعوا نساءَكُمْ.

فالْتَقَوْا بِعَقْرَبَاءَ واقْتَتَلُوا، وكانَتْ رايةُ المهاجرينَ يَوْمَئذ مع سالم مولى أبي حُذَيْفَة. وقيل: بَلْ كانَتْ مع زيْد بنِ الخطاب، فلما قُتِلَ أخذها سالم، فقالوا له: تخشى عَلَيْنا مِنْ نَفْسِكَ شيئًا؟ فقال: بِئْس حاملُ القرآن إنا إذًا! وكانت رايةُ الأنصار مع ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ، وكانت العرب على راياتها، ومَجّاعةُ في الأسرِ مع أُمِّ تميم زَوْجَة خالد في فُسْطَاطِهَا[4]، واقْتَتَل النَّاسُ أشَدَّ قتال، ولم يلقَ المسلمون حربًا مثلها، فانهزم المسلمون وخَلَصَ بنو حَنيفة إلى خالد، فزال عن الفسطاط، ووصلوا إليه وقطعوه، ودخل أُناسٌ من بني حَنيفة على أُمِّ تميم، فأرادوا قتلَهَا، فمنعها مَجّاعة. وقال: أنا لها جارٌ، فَنِعْمَتِ الحرّةُ! فدفعهم عنها.

ثم إنّ المسلمين تداعَوْا؛ فقال ثابت بنُ قيس: بئسما دعوْتُمْ أنفُسَكُم إليه يا مَعْشَر المسلمين، اللَّهُمّ إنّي أبرأُ إليك مِمّا يَعْبُدُ هؤلاء - يعني أهلَ اليمامة - وأعتَذِرُ إليكَ ممّا يَصْنَعُ هؤلاء - يعني المسلمين - ثم قَاتَل حتى قُتِلَ، قُطِعَتْ رِجْله فرمى بها قاتِله فقتلَهُ.

- وله رضي الله عنه عجيبٌ نذكُره إن شاء الله تعالى في آخر هذه الوقْعة -.

---

(١) الثنية: كل عقبة في الجبل مسلوكة.
(٢) صبر فلانًا: حبسه.
(٣) أردف فلانًا: جعله ردفه وأركبه خلفه.
(٤) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

قالوا: وحمل خالدٌ في الناسِ حتى رَدَّهم أبعدَ ما كانوا، واشتدَّ القتال، وكانت الحربُ يومئذ تارةً للمسلمين، وتارةً عليهم، وقُتِل سالمٌ وأبو حذيفة وزيدُ بنُ الخطابِ وغيرُهم.

فلما رأى خالدُ ما النَّاسُ فيه، قال: امتازوا[1] اليوم أيُّها الناس، لنعلم بلاءَ كلِّ حيٍّ، ولنعلم مِنْ أين نُؤتى! فلمَّا امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم نستَحيِي من الفرار. وقاتل الناسُ قتالاً عظيمًا، وثبت مُسيلمة، فعرف خالدٌ أنَّ الفتنة لا تَرْكُد إلاَّ بقَتْلِ مُسيلمة، فبرز ودعَا إلى البِراز، فما يبرز له أحدٌ إلا قتلَهُ، ودعا مسيلمةَ فأجابه؛ وعرض عَلَيْهِ أشياء، فكان إذا هَمَّ بجوابه أعرض بوجهه يستشير شيطانه، فينهاه أن يَقْبَل، فأعرضَ بِوَجْهِه مرة، فركبه خالد وأرهقه فأدبر، وزال أصْحَابُهُ، فكانتْ هزيمَتهم، وقالوا لمُسَيْلمة: أين ما كُنْتَ تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أَحْسَابكم. ونادى المُحكَّم بنُ الطّفَيْل: يا بني حنيفةَ، الحديقة الحديقة! فدخَلُوها، وأغلَقُوا بابها عليهم.

قال: وكان البَرَاءُ بنُ مالكٍ أخو أنسٍ؛ إذا حضر الحرب أخذتْهُ رِعْدة حتى يقْعُد الرجال عليه، ثم يبول، فإذا بال ثار كما يثور الأسَدُ، فأصابَهُ ذلك، فقال: إليّ أيها الناس؛ أنا البراءُ بنُ مالكٍ؛ وقَاتَل قِتالاً شديدًا، فلمّا دخل بنو حنيفةَ الحديقةَ، قال البراء: يا معشر المسلمين، ألْقُوني عليهم فيها. فقالوا: لا نفعلْ، فاحتمل حتى أشرفَ على الجِدارِ واقتحمها عليهم، وقاتل على الباب، وفتحه المسلمون، ودخلوا عليهم، فاقتتلوا أشَدَّ قتال، وكَثُر القتْلُ في الفريقيْن، فلم يزالوا كذلك حتى قُتِلَ مُسَيْلمة، واشترك في قتله وحشيٌّ، مولَى جُبَيْر بن مُطْعِم قاتل حمزة بن عبد المطَّلب، ورجلٌ من الأنصار، فولَّتْ حنيفة عِنْد قتْله منهزِمَةً، وأخَذَهُم السَّيْفُ من كُلِّ جانب. وقُتِلَ محكَّم اليمامة، قتلَهُ عبد الرحمٰن بن أبي بكرِ الصِّديق، رضي الله عنه؛ رماه بسهم في نحره وهو يخطبُ ويحرِّض الناس فقتله، وقُتِلَ من المهاجرين والأنصارِ من أهلِ المدينة ثلاثمائة وستُّون، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة، وقتل مِنْ بني حنيفة بعَقْرَباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموتِ مثلها، وفي الطَّلَبِ نحو منها؛ وخرج خالدٌ بمجّاعة يرسُفُ[2] في الحديد ليدُلَّهُ على مُسَيلمة، فجعل يكشِفُ القَتْلى حتى مرَّ بمحكَّم بن الطُّفَيْلِ، وكان رَجُلاً جسيمًا وسيمًا، فلمّا رآه خالدٌ قال: هذا صاحبُكُمْ؟ قال: لا، هذا والله خيرٌ منه وأكرَمُ؛ هذا محكَّم اليمامة، ثم مضى حتَّى دخل

(١) امتاز: انفصل عن غيره وانعزل؛ أو بدا فضله على مثله.
(٢) رسف في القيد: مشى فيه رويدًا.

الحديقة، فقلّب له القَتْلى، فإذا رُوَيجل أصَيْفر أُخَيْنس[١]. فقال مجّاعة: هذا صاحبُكمْ قد فرغتم منه؛ فقال خالدٌ لمجّاعة: هذا فعل بكم ما فعل! قال: قَدْ كان ذلك يا خالد، وإنّه واللّهِ ما جاءك إلاّ سَرَعان[٢] الناس، وإنَّ جَماهير النَّاس لَفِي الحُصون، فقال: ويلك، ما تقول! قال: هو واللهِ الحقُّ، فهلُمَّ لأُصَالحكُمْ على قومِي.

وجاء عبد الرحمٰن بن أبي بكرٍ وعبدُ الله بن عمر إلى خالد، فقالا له: ارتحلْ بالنّاس، فانزل على الحصونِ، فقال: دعاني أبُثُّ الخيول فألتقط مَنْ ليسَ في الحصون ثم أرى؛ فبثَّ الخيول فحوَوْا ما وجدوا مِنْ مال وصبْيَانٍ، فضَمُّوهُم إلى العَسْكَرِ، ونادى بالرحيل لينزلَ علَى الحصون، فقال له مَجّاعة: إنَّه واللّهِ ما جاءك إلاّ سَرَعانُ النَّاس، فإنّ الحصون لمملوءة رجالاً، فهلُمَّ إلى الصلح علي ما ورائي، فصالحه على كلّ شيءٍ دون النُّفوس؛ ثمّ قال مجّاعة: أنطلقُ إليهم فأُشاوِرهم، وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك، فدخل مجّاعَةُ الحصونَ وليس فيها إلا النِّساءُ والصِّبيانُ ومشيخة فانِيةٌ، ورجال ضَعْفَى، فظاهر[٣] الحديدَ على النِّساءِ، وأمرهُنَّ بنشر شعورهنَّ، وأن يُشْرِفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهم، ثم رجع إلى خالدٍ، فقال: قد أبَوْا أنْ يُجيزُوا ما ضَيّعْت، وقدْ أشْرف لك بعضُهُمْ نقْضًا عَلَيَّ، وهم منِّي بُراء، فنظر خالدٌ إلى رؤوس الحُصون، وقد اسودَّتْ وقد نَهكَتْ المسلمين الحربُ، وأحبُّوا أن يَرْجعوا على الظَّفَرِ. فقال مجّاعةُ لخالد: إن شئتَ صنعتُ شيئًا، فعزمت على القومِ؛ تأْخذ مني رُبْعَ السَّبْي وتدعُ ما بقي؛ فقال خالد: قد فعلتُ. قال: قد صالحتك، فلما فرغا فُتحت الحصونُ، فإذا لَيْسَ فيها إلاَّ النساءُ والصِّبيانُ. فقال خالدٌ لمجّاعة: ويحك! خدعتَني. فقال: قومي، ولم أستطع إلا ما صنعتُ.

وقيل: إنَّ خالدًا صالح مجّاعة على نصف السَّبْي، والصَّفْراء، والبَيْضاء، والحلْقة[٤]، والكُراع[٥]، وحائط[٦] من كل قرية يختار خالد، ومزرعة يختارها، فتقاضَوْا على ذلك، ثم سَرَّحَهُ وقال: أنتم بالخيار ثلاثًا، والله لَئن لم تُتِمُّوا وتَقْبَلُوا لأنْهَدَنَّ إليكم. ثم قال: لا أقبلُ منكم خَصلَةً أبدًا إلاَّ القتلَ، فأتاهُمْ مجّاعة فقال: أمّا الآن فاقبلوا، فقال سلمةُ بن عُمَيْر الحنفي: لا والله لا نقبل؛ تبعَثُ إلى أهل القرى والعبيد، فنقاتل ولا نقاضي خالدًا؛ فإنَّ الحصون حصينة، والطعام كثير، والشتاء قد حضَر.

---

(١) أخينس: تصغير أخنس؛ وهو الذي تأخر أنفه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.
(٢) سرعان الناس: أوائلهم.
(٣) المراد ألبسهن الحديد.
(٤) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة.
(٥) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٦) الحائط: يراد به هنا البستان.

فقال له مجّاعة: إنَّك امرؤٌ مشؤوم، وغرَّك أني خدعت القوم حتى أجابُوني إلى الصُّلْح، وهل بقيَ منكم أحدٌ فيه خيرٌ وبه دَفْع! وإنَّما أنا بادرتُكُم.

فخرج مَجّاعة سابع سبعة حتى أتى خالدًا. فقال: بَعْد شَرٍّ ما رضوا اكتب كتابك، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما قاضى عليه خالدُ بن الوليد مجّاعة بن مُرارة وسَلَمَة بن عُمَير، وفلانًا وفلانًا، قاضَاهم على الصَّفْراء والبَيْضاء ونصف السَّبْي، والحلْقة والكُراع، وحائطٍ من كُلِّ قريةٍ ومزرعة، علَى أنْ يُسْلِمُوا، ثم أنتم آمِنُونَ بأمان الله، لكم ذمّةُ خالدِ بنِ الوليدِ، وذمة أبي بكرٍ خليفة رسول الله ﷺ، وذِمم المسلمين على الوفاء.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالدٍ بقتل كلّ محتلم، وكان قد صالحهم فوفَى لهم. ثمَّ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ قال لمجَّاعة: زوِّجني ابنتَك، فقالَ مجّاعة: مهلاً، إنَّك قاطع ظهْرك وظهْري مَعَك عند صاحبكَ. قال: أيُّها الرجل، زوِّجني، فزوَّجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب، إليه كتابًا يقطر الدَّم؛ يقول:

يا بن أُمِّ خالد؛ إنك لفارغٌ، تنكح النساءَ وبفناءِ بيتك دَم ألفٍ ومائتي رجل من المسلمين لم يجْفَفْ بعد!

فلما نظر خالد في الكتابِ جعل يقول: هذا عمل الأعيْسر - يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه -.

وبعث خالدٌ وفدًا من بني حنيفة إلى أبي بكر، فقدموا علَيْه. فقال لهم: ويحكم! ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمرًا لم يبارك الله له، ولا لعشيرته فيه. قال: على ذلك، ما الذي دعاكُمْ به؟ قالوا: كان يقول: «يا ضِفدع نقِّي نقِّي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدِّرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: سبحان الله، ويلكم! إن هذا الكلام ما خرج من إلٍّ[1] ولا بِرٍّ[2]، فأين يذهب بكم!

---

(١) الإلّ: العهد والقرابة.

(٢) البر: الخير أو الفؤاد.

قال أبو جعفر: لما فرغ خالد من اليمامة، وكان مَنْزِلُه الذي به التقى الناس أباضَ (وادٍ من أودية اليمامة)؛ ثم تَحوَّل إلى وادٍ من أوديتها يقال له: الوبر، فكان مَنْزِله بها.

ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس في مقتله وتنفيذ وصيته للرؤيا التي رئيت بعد مقتله

قد أشرنا عند ذكر مقتله أن له خبرًا عجيبًا نذكره، ورأينا إيرادَه هاهنا توفيةً للشرط.

حكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة. قال ثابت بن قيسٍ وسالمٌ مَوْلى أبي حذيفة: ما هكذا كنَّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثم حفَر كُلُّ واحدٍ منهما له حفرة، وثبتا وقاتلا حتى قُتِلا. وكان على ثابت يومئذٍ دِرْعٌ له نفيسةٌ، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأَخذها، فبينا رجلٌ من المسلمينَ نائمٌ إذْ أتاه ثابتٌ في منامِه، فقال له: إنِّي أُوصيك بوصية، فإيّاك أن تقول هذا حُلْم فتضيِّعَه؛ إني لمّا قُتِلتُ أمسِ مرّ بي رجلٌ من المسلمين، فأخذ دِرْعِي، ومنزلُه في أقصى النَّاس، وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ[1] في طِوَله[2]، وقد كفأ[3] على الدِّرع بُرْمةً[4]، وفوقَ البُرْمةِ رحل، فأْتِ خالدًا فمرْه أن يبعث إلى درعي فيأْخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إنَّ عَلَيَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيقٌ.

فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها.

وحدَّث أبا بكرٍ برؤياه، فأجاز وصيّته من بعد موته. قال: ولا نعلم أحدًا أُجِيزتْ وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيسٍ رحمه الله تعالى.

ذكر أهل البحرين ومن ارتد منهم وانضم إلى الحُطم وما كان من أمرهم

والحطم اسمه شُرَيْح بنُ ضُبَيْعَة. قال أبو عبَيْدَة في سبب تسميته بالحُطم: إنَّه كان غزا اليمن في جموع جمعها من ربيعة، فغنِم وسَبَى بعد حرب كانت بينه وبين

(١) يستن: يقمص.
(٢) الطول: الحبل.
(٣) كفأ البرمة: كبها وقلبها.
(٤) البرمة: القدر من الحجارة.

كِنْدَة، أسر فيها فزْعان بن مهديّ بن معدي كرب عَمّ الأشعث بنِ قيسٍ، وأخذ على طريق مفَازة؛ فضلَّ بهم دليلهم، ثم هرب منهم، ومات فزْعان عَطَشًا، وهلك منهم ناسٌ كثيرون بالعطشِ، وجعل شُرَيْح يسوقُ بأصحابه سَوْقًا حثيثًا حتى نجَوْا، ووردوا الماء؛ فقال فيه رُشَيْد بنُ رُمَيْضٍ[1] هذه الأبيات: [من الرجز]

بـات يـقـاسِـيـهـا غـلامٌ كـالـزَّلـمْ — نـامَ الـحـداةُ وابـن هـنـدٍ لـم يَـنـمْ[2]
هـذا أوانُ الـشَّـدِّ فـاشـتـدِّي زِيَـمْ — قد لـفَّـهـا الـلـيـل بـسوّاقٍ حُـطـمْ[3]
خـدَلَّـجُ الـسـاقـيْـنِ خـفَّـاقُ الـقـدَمْ — لـيـسَ بـراعـي إبـلٍ ولا غـنـمْ[4]
* ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظـهـرِ وضَـمْ *[5]

فلقِّب يومئذٍ الحُطم لذلك.

قال أبو جعفرٍ محمد بنُ جرير الطبري رحمه الله: كان من حديث أهل البحْرين أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى هو والمنذر بن ساوَى في شهرٍ واحدٍ، ثم مات المنذر بعد رسول الله ﷺ بقَليل، وارتدّ بعدَه أهلُ البحرين، فأما عبد القيس ففاءت[6]، وأمّا بكر فتمَّت على الردَّةِ، وكان الذي ثنى عبد القيْس الجارود بنُ المعلَّى. وقيل فيه: الجارود بن عمرو بن حبيش بن يعلَى، واسمه ـ فيما يقال ـ بشر بن عمرو، وإنَّما قيل له الجارود؛ لأنَّه أغار في الجاهلية على بكر بن وائلٍ، فأصابهم فجرّدهم.

ـ وهذه الزيادة في اسم الجارود عن غير الطبري ـ.

قال أبو جعفر: وكان الجارود قد قدِم على رسول الله ﷺ، وكان نصرانيًا فأسلم، ومكث بالمدينة حتى فَقِه، ثم رجع إلى قومه فكان فيهم؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى قُبِض رسول الله ﷺ؛ فقالت عبد القيس: لو كان محمدٌ نبيًا لما مات؛ وارتدُّوا؛ فبعث إليهم فجمعهم، وقال: يا معشرَ عبد القيس؛ إنِّي سائلكم عن أمرٍ فأخبروني به إنْ علمتُموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموا؛ قالوا: سَلْ عمّا بدا لك. قال: تعْلمون أنَّه كان لله تعالى أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: ترونه أو تعلمونه؟ قالوا: لا، بل

(١) هو رشيد بن رميض العنزي، من بني عنز بن وائل، أو من بني عنزة... (تاج العروس ٥:٣٧).
(٢) الزلم: القدح الذي لا ريش عليه، والجمع أزلام. الجوهري: الزلم، بالتحريك القدح... (اللسان مادة ز.ل.م).
(٣) ماشية زيم: متفرقة.
(٤) الخدلج: الممتلىء الذراعين والساقين.
(٥) الوضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك، يوقى به من الأرض.
(٦) فاءت: رجعت.

نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا؛ قال: فإنّ محمدًا ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا عبده ورسولُه؛ قالوا: ونحن نشْهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا عَبْده ورسولُه، وأنَّك سيدنا وأملُنا.

وثبتُوا على إسلامهم وخلَّوْا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى، فكان المنذر مشتغلاً بهم حياتَه، فلمّا مات حُصِر أصحابه في مكانين، فكانوا كذلك حتى أنقذهم العلاء بن الحضرميّ.

قال: ولما ارتدَّت ربيعة ومن تابعها. قالوا: نردُّ الملْك في آل المنذر، فملَّكوا المنذرَ بن النُّعمان بن المنذر، وكان يسمَّى الغَرور، فكان يقول بعد ذلك حين أسلمَ الناس وغلبهم السيف: لستُ بالغَرور، ولكني المغرور.

قال: ولمّا مات النبيّ ﷺ خرج الحُطم بن ضُبَيعة أخو قيس بن ثعْلبة فيمن اتَّبعه من بكر بن وائل على الرِّدةِ، ومن تأشَّب[1] إليه من غير المرتدِّين؛ مِمَّن لمْ يَزلْ كافرًا حتى نزل القَطِيف[2] وهَجَر، وبعث بعثًا إلى دارِين، فأقاموا به ليجعل عبدَ القيسِ بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم، يمدُّون المنذر والمسلمين، وأرسل إلى الغَرور ابن أخي النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جُؤاثَى، وقال له: اثبت، فإنِّي إنْ ظفرت ملَّكْتُك بالبحرين حتى تكون كالنُّعمان بالحِيرة، وبعث إلى جُؤاثى فحصَرهم، وألَحُّوا عليهم، وفي المسلمين المحصُورين رجلٌ من صالحي المسلمين. يقال له: عبد الله بن حَذَف، أحد بني بكر بن كلاب، فاشتدّ عليه وعليهم الجوع حتى كادوا يهْلِكُوا؛ فقال عبد الله بنُ حَذف[3] في ذلك: [من الوافر]

ألاَ أبْـلِـغْ أبـا بـكـرٍ رسـولاً ... وفـتـيـان الـمـدينـةِ أجْـمَـعِـيـنـا

فـهـل لـكُـمُ إلـى قـوم كـرام ... قُـعـودٍ في جُؤاثَى مـحْـصَـرِيـنـا[4]

كـأنَّ دِمـاءَهـمْ فـي كُـلِّ فَـجٍّ ... شُعَاع الشمْسِ يَغْشَى النَّاظرينا

تـوكَّـلْـنَـا عـلـى الـرَّحْـمـن إنَّـا ... وَجَـدْنـا الـصَّـبْـرَ لـلـمـتـوكِّـلـيـنـا

---

(١) تأشب: تجمع إليه من هنا وهنا.

(٢) القطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه: مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها، وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة. وقال الحفصيّ: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) عبد الله بن حذف: من بني فزارة.

(٤) الجائث والجأث: الذي ينقل الأخبار؛ وجئث: ثقل عند القيام أو حمل شيء ثقيل.

وكان أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه قد عَقَد للعَلاء بن الحضرميّ، وأمَّرَه بالبحْرين كما قدَّمنا ذكر ذلك، فسار العَلاء فيمن معه، فلمّا كان بحيال اليَمامة لحِقَ به ثُمامةُ بنُ أُثال في مُسْلِمة بني حَنِيفة، وخرج مع العلاء من بني عمرو وسعد والرِّباب مثل عسكره، وسلَك الدَّهناء[1] فنزل، وأمَر النَّاس بالنزول، فنزلوا، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقيَ بعيرٌ ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلاَّ ذهب عليها في عرض الرَّمْلِ، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطُّوا، فَما هَجَم على جَمْعٍ من الغمِّ ما هجم عليهم، وأوصى بَعْضُهمْ إلى بعض، ونادَى مُنادِي العلاء: اجْتمِعوا، فاجتمعوا إليه؛ فقال: ما هذا الذي قد ظهر فيكُمْ، وغلب عليكُمْ؟ فقال النَّاس: وكيف نلام ونحنُ إن بلغنا غدًا لم تحْمَ شَمْسُه حتى نصير حديثًا، فقال: أيُّها النَّاس، لا تُراعوا، ألسْتُمْ مسلمين! ألسْتُمْ في سبيل الله! ألَسْتُمْ أنْصَارَ اللّهِ! قالوا: بلى. قال: فابشروا فوالله لا يخذُل الله مَن كان في مثل حالكم.

ونادى المنَادِي بصلاة الصُّبْح حين طلع الفجر، فصلَّى بهم، منهم المتيمّم، ومنهم من لم يَزَلْ على طُهْره، فلمَّا قضى صلاته جَثَا لركبتَيْهِ، وجَثَا النَّاس، فنصِب في الدُّعَاء، ونصِبوا معه، فلمع لهم سراب الشَّمْسِ، فالتفتَ إلى الصفِّ. فقال: رائد ينظُر ما هذا، ففعل، ثم رجع فقال: سراب. فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر، فكذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس معه، فمشوْا حتى نزلوا عليه، فشربوا واغتسلُوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَد[2] من كُلِّ وجْهٍ، فأناخَتْ عليهم، فقام كُلُّ رجلٍ إلى ظهره، فأخذه.

قال منجاب بنُ راشد: فما فقدنا سِلْكًا[3]؛ فأرْوَيْنَاها وأسقيناها العَلَلَ[4] بعد النَّهَلِ[5]، وتروّينا، ثم تَروَّحْنا. وكان أبو هريْرَة رفيقي فلمَّا غِبنا عن ذلك المكانِ. قال لي: كيف عِلْمكَ بموضع ذلك الماء؟ فقلت: أنا من أهدَى العرب بهذه البلاد. قال: فكن معي حتى تقيمَني عليه، فكرَرتُ به، فأتيْتُ به على ذلك المكانِ، فقلت: لولا

---

(١) الدهناء: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ونون وألف تمد وتقصر، قيل: هي سبعة أحيل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أغذاء ومياه، وإذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جمعًا لسعتها وكثرة شجرها. . . (معجم البلدان).

(٢) تكرد: تطرد.

(٣) السلك: واحدتها سلكة، وهو الخيط الذي يخاط به الثوب.

(٤) العلل: الشراب الثاني.

(٥) النهل: الشراب الأول.

أنّي لا أرى الغديرَ لأخبرتُكَ أنّ هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءً ناقعًا قبل اليوم، وإذا إداوةٌ[1] مملوءةٌ، فقال: يا أبا سَهْم، هذا والله المكان، ولهذا رجعتُ بك، وملأت إداوتي ثم وضعْتُها على شفيره. فقلت: إن كان مَنًّا من المنّ وكانت آية عرفتُها، وإن كان غياثًا عرفتُه، فإذا مَنٌّ من المنّ؛ فحمد الله. ثم سِرْنا حتى ننزل هَجَر[2].

قال: فأرسل العَلاء بنُ الحضرميّ إلى الجارودِ ورجلٍ آخر: أن انضما في عبد القيس حتى تَنْزِلاَ على الحُطَم مما يليكُمَا، وخرج هو فيمن جاء معه، وفيمن قدِمَ عليه حتّى ينزل عليه ما يلي هَجَر، وتجمّع المشركُون كُلُّهم إلى الحُطَم إلاّ أهل دارين، وتجمّع المسلمون كُلُّهم إلى العَلاء، وخَنْدَقَ المسلمون والمشركون، فكانُوا يتراوحون القتال ويَرْجِعونَ إلى خَنْدَقِهم، فكانوا كذلك شهرًا.

فبينا الناسُ ليلةً إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدةً، كأنها ضوضاءُ هزيمة أو قتال، فقال العلاء: مَنْ يأتينا بخبر القوم؟

فقال عبدُ اللّهِ بن حَذَف: أنا آتيكم بخبر القوم؛ فخرج حتّى إذا دنا من خَنْدقهم أخذوه؛ فقالوا له: مَنْ أنت؟ فانْتسبَ لهم، وجعل ينادي: يا أبجراه! فجاء أبجر فَعَرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: لا أُضعَّر بين اللهازم[3]، فقال: والله إني لأظنُّك بئس ابن الأُختِ لأخوالكِ الليلة. فقال: دَعْني من هذا، وأَطْعِمْني؛ فإنّي قَدْ مِتُّ جوعًا؛ فقرّب له طعامًا فأكل، ثم قال: زوّدني واحْمِلْني، فحملَه على بعير، وخرج عبد الله بن حَذَفٍ حتّى دخلَ عَسْكر المسلمين، فأخبرهم أنّ القوم سُكَارَى، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عسكَرهُمْ، فوضَعُوا السُّيوف فيهِمْ حيث شاؤوا، واقتحموا الخندق هُرّابًا فمتردٌ وناجٍ، ودَهِشٌ ومقتولٌ أو مأسُورٌ، واستولى المسلمون على ما في العسكر، ولم يسلَم رجلٌ إلا بما عليه، فأمّا أبجر فأفلت؛ وأمّا الحُطَم فإنَّه دَهِشَ، وطار فؤاده، فقام إلى فرسه - والمسلمون خلالهم - فلمّا وضع رجلَه في الرِّكاب انقطع به فمَرَّ به، عفيفُ بن المنذر والحُطَم يستغيث؛ يقول: ألا رجلٌ يعقلني! فعرف

---

(١) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء جمع أداوى.

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: هي مدينة وهي قاعدة البحرين.. وقيل: هي في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) اللهازم: واحدتها اللهزمة: عظم ناتىء في اللحى تحت الحنك. وهما لهزمتان.

صوته، فقال: أعطني رِجْلَك، فأعطاه رِجْلَهُ فنفحها[١] فأطنَّها[٢] من الفخذ، وتركه، فقال: أجْهِز عليَّ؛ فقال: لا، إنّي أُحبُّ ألاَّ تموت حتى أُمِضَّك[٣]. وجعل الحُطَم لا يمرُّ به أحدٌ من المسلمين في الليل إلا قال: هل لك في الحُطَم أن تقتله! حتى مرَّ عليه قيسُ بن عاصم فقَتله، فلمَّا رأى فخذَهُ نَادِرَةً[٤]، قال: واسوأتاه لو علمت الذي به لم أُحَرِّكْهُ! وخرجَ المسلمون بعدما أخذوا الخندق على القوم يطلبونهم، فلحق قيس بن عاصم أبجر، فطعنه قيس في العرقوب فقطعه، فكانت رادَّة، وأصبح العلاء فقسَّم الأنفال[٥]، ونفَّل رجالاً من أهل البلاء ثيابًا.

وأما أهل عُمَان ومَهْرةَ واليمن، فإنّ حذيفةَ بنَ محصن الحميريّ وعَرْفجة سارا إلى القوم، فاقتتل المسلمون وأهل عُمَان قتالاً شديدًا فَهَزَم المسلمون المرتدين، وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلافٍ، وَسَبُوا الذَّراريّ، وجَمَعُوا الغنائِم، وبَعثوا الخُمْسَ إلى أبي بكرٍ، وقَسَّمُوا ما بَقِيَ، ثم خَرَجُوا نحو مَهْرة، فكشف اللّهُ جنود المرتدِّينَ، وقُتِلَ رئيسُهُمْ، وركِبَهُم المسلمون، فقتلوا منهم من شاؤوا، وأصابوا مَنْ شاؤوا، وخَمَّسوا الغنائم، وبعثوا بالخُمس إلى أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه، وقَسَّمُوا ما بقِيَ.

وأمّا من بقيَ مِنْ بقية الأُمراء الذين عقد لهم أبو بكر رضي الله عنه، وبعثهم إلى من ارتدّ من قبائل العرب، فإنَّ كل أمير سار إلى مَنْ بعثه إليه فمن رجعَ عَن الردةِ، وفاء إلى الإسلام قُبل منه ومَنْ أبى قتل، وأطْفَأ الله تلك النيران.

رُوِيَ عَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّهُ قال: لقد أقمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كِدْنا نهْلِكُ فيه، لولا أنَّ الله تعالى مَنَّ علَيْنا بأبي بكرٍ، جمَعنا على أن نقاتل على ابنةِ مخاضٍ وابنة لَبُونٍ، وأن نأكل قرى عُرَيْنَةَ[٦]، ونعبد الله حتى يأتينا اليقينُ.

فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضيَ منهم إلا بالخُطَّة المخزية أو الحرب المجلِّية، فأما الخُطة المخزية فأن يُقِرُّوا بأنَّ منْ قُتِلَ منهم في النار، وأنَّ مَنْ قُتِلَ منَّا في الجنة، وأن يَدُوا قَتْلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وما أَخَذُوا مِنَّا مردودٌ علَيْنا، وأمَّا الحرب المجَلِّية فأن يخرجوا من ديارهم. وكانت هذه الحروب التي ذكرناها.

* * *

(١) يقال: نفحه بالسيف: أي ضربه ضربة خفيفة.
(٢) أطنها: قطعها.
(٣) أمضه: آلمه.
(٤) نادرة: ساقطة.
(٥) النفل: الغنيمة؛ أو الهبة، جمع أنفال.
(٦) عرينة: بلفظ تصغير عرنة، وعرينة: موضع ببلاد فزارة، وقيل: قرى بالمدينة؛ وعرينة: قبيلة من العرب... (معجم البلدان).

وهذه الوقائع كُلُّها في سنة إحدى عشرة، وكان فيها حوادثُ أُخر غير ما ذكرناها، نذكرها إنْ شاء الله تعالى في حوادثِ السنين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد نهاية الغزوات. والله أعْلم.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق
وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية

كان إرسالُ خالد بن الوليد إلى العراق في المحرم سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

قالوا: وكان الَّذِي هاج أبا بكرٍ رضي الله عنه؛ أن المثنّى بن حارثة الشَّيبانيّ كان يُغير على أهل فارسَ بالسواد، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعه قبْل معرفةِ نسبه؟ فقال قيسُ بنُ عاصم: أمَا إنَّه غيرُ خامل الذِّكْر، ولا مجهول النَّسب، ولا قليلُ العدد، ولا ذليل العِمارة[1]، ذلك المثنّى بن حارثة الشيباني.

ثم قَدم المثنّى على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، ابعثْني على قَوْمي، فإنّ فيهم إسلامًا، أقاتل بهم أهلَ فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدوّ؛ ففعل أبو بكر رضي الله عنه ذلك.

وقدم المثنّى إلى العراق، فقاتل، وأغارَ على أهل فارس ونواحي السواد حَوْلاً، ثم بعثَ أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكرٍ يسأله المدد ويقول: إن أمددتَني وسمعتْ بذلك العرب أسرَعُوا إليّ، وأذلّ اللّهُ المشركين، مع أنّي أُخبِركَ يا خليفة رسول الله أنَّ الأعاجم تخافنا وتتَّقِينا. فقال له عمر: يا خليفةَ رسول الله، ابعث خالد بن الوليد مددًا للمثنّى بن حارثة، يكون قريبًا من أهل الشام، فإن استغنى عنه أهلُ الشام ألحّ على أهل العراقِ؛ حتى يفتَح الله عليه. حكاه أبو عمر بن عبد البر من حديث الأصمعي عن سلمة بن بلال عن أبي رجاء العُطارِدِي.

قال: كتب أبو بكرِ الصّديق رضي الله عنه إلى المُثَنَّى بن حارثة: إنِّي قد ولَّيتُ خالد بن الوليد، فكن معه؛ وكان المثنّى بسواد الكوفة، فخرج خالد فتلقَّاه، وقدم معه البصرة.

---

(١) العمارة: بالكسر، وبعد الألف راء، ضد الخراب، والعمارة: الحي العظيم ينفرد بظعنه وهي دون القبيلة، والعمارة: الصدر، وبها سميت القبيلة: وهو ماء بالسليلة من جبل قطن به نخل... (معجم البلدان لياقوت).

وحكى أبو الحسن عليٌّ بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير في تاريخه «الكامل» قال: أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق، وقيل: بل قدم إلى المدينة من اليمامة، فأرسله إلى العراق، وأوصاهُ أن يَبْدأ بفرْج الهند، وهو الأُبُلَّة[1]، وأن يتألَّف أهل فارس، وكُلّ من كان في ملكهم من الأُمم، فصار حتى نزلَ بيانِقيا، وبَارُوسْمَا وأُلّيس، فصالحه أهْلُها على عشرة آلاف دينار سوى جزْية كِسْرى، وكان على كلِّ رأسٍ أربعةُ دراهم فأخذ منهم الجزْية، ثم سارَ حتَّى نزل الحيرةَ، فخرج إليه أشرافُها مع قُبَيْصَة بن إياس الطائيّ، وكان أميرًا عليها بعد النُّعْمَانِ بن المنْذِر، فدعاهُمْ إلى الإسلام، أو الجزية، أو المحَاربة فاختاروا الجزيةَ، فَصالحهم على تسعين ومائة ألفِ درهم، فكانت أوّلَ جزية أُخِذَتْ من الفُرْس في الإسلام، هي والقُريّات التي صالح عليها، واشترط على أهل الحيرة أن يكونُوا عيونًا للمسلمين، فأجابوا إلى ذلك.

ثم سار خالدٌ لقتالِ هرْمز، فلمّا سمِع هرْمز بهم كتب إلى أَرْدَشير الملك بالخبر واستمدَّه والْتقيا، وخرج هُرْمُز، ودعا خالدًا للبِرازِ ووطَّأ أصحابه على الغَدْرِ به، فبرز إليه خالدٌ، ومشى نحوه راجلًا، وبرز هرْمز، واقتتلا، فاحتضنه خالدٌ، وحمل أصحاب هرمز، فما شغله ذلك عن قتْله، وحملَ القعقاع بن عمرو، فأنهى أهلَ فارسٍ وركبهم المسلمون؛ وسمِّيَتْ هذه الوقعة: ذات السَّلاسل، وكانَتْ عِدّة أصحاب خالدٍ ثمانية عشر ألفًا، ونجا قُبَاذ وأنو شجان، وأخذ خالد سلَب هرْمز، وكانت قلنسوته بمائة ألفٍ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وسار حتى نزل بموضع الجسرِ الأعظم بالبَصْرةِ، وبعث المثنّى بن حارثة في آثارهِم، وبعث مقرّن إلى الأُبُلّة ففتحها، وجمع الأموال بها والسَّبْي.

وقيل: إن الأُبُلّة فُتِحَتْ في خلافة عمر على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وحاصر المثَنّى حصن المرأة، فافتتحه، وأسلمت المرأة.

ذكر وقعة الثّني[2]

قال: ولما وصل كتابُ هُرمز إلى أردشير بخبر خالد، أمَدَّهُ بقارن بن قريانس، فلقيه المنهزِمُون، فرجعوا معه وفيهم قُباذ وأنو شجان، فنزلوا الثِّني - وهو النهر -

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: اسم بلد: كانت به امرأة خمارة تعرف بهوب في زمن النبط، فطلبها قوم من النبط، فقيل لهم: هوب لاكّا، بتشديد اللام، أي ليست هوب هنا، فجاءت الفرس فغلطت، فقالت: هو بلّت، فعربت العرب فقالت: الأبلة... (معجم ياقوت).

(٢) الثني: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وياء مخففة؛ والثني من كل نهر أو جبل منعطفه... ويوم الثني لخالد بن الوليد على الفرس قرب البصرة... (معجم ياقوت).

وسار إليهم خالد، والتقوا، واقتتلوا، فبرز قارِن فقتله مَعْقِلُ بنُ الأعشى، وقَتَل عاصمٌ أنوشَجان وقتل عَدِيٌّ قُبَاذ، وقُتِلَ من الفُرْسِ مقتلةٌ عظيمةٌ يبلغون ثلاثين ألفًا؛ سوى مَنْ غرق في الماء، فقسَّم خالدُ الفيء، بعد أن خمَّسَهُ وأرسل بالأخماسِ إلى المدينة، وأعطى الأسلابَ مَنْ سلبها، وكانت غنيمة عظيمة، وأخذ الجزيةَ مِنَ الفلاحين، وكانوا ذِمَّة، وكان في السَّبْي أبو الحسن البصري، وكان نصرانيًا.

ذكر وقعة الولجة[1]

قال: ولمّا وصل الخبر إلى أردشير بعثَ الأندرزغر وكان فارسًا من مولدي السّواد، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش، وكان مع الأندرزغر الفرس والعرب الضَّاحيَة والدهاقين، فعسكروا بالولَجة، فجاءهم خالدٌ إليها وكمن لهم كَمينًا، وقاتلهم قتالاً شديدًا، وخرج كمين خالدٍ من خَلْفِهم فانهزمت الأعاجم، وأخذهم خالد من أمامهم، والكمين من خلفِهم، فقتِل منهم خلْقٌ كثير. ومضى الأندرزغر منهزمًا، فمات عَطَشًا.

وكانت هذه الوقعة في صفر سنة اثنتي عشرة، فأصاب خالدٌ ابنًا لجابر بن بُجيْر، وابنًا لعبد الأسود من بكر بنِ وائل.

ذكر وقعة أليس[2]

قال: لـمَّا أصابَ خالدُ بنُ الوليد يومَ الولَجَةِ ما أصاب من نصارى بكر بن وائل، الَّذين أعانُوا الفُرْسَ، غضِب لهم نصارى قوْمِهم، فكاتَبُوا الفُرسَ، واجتمعوا على أُلَّيس، وعليهم عبد الأسود العِجْلِيّ، وكتب أزدشير إلى بَهْمَن جاذَوَيْهِ، وأمره بالقدوم على نصارى العرب، فقدم عليهم بهمن جابان، وأمره بالتوقفِ عن المُحَارَبة حتى يقدمَ عليه، وسار بَهْمَنُ إلى أَرْدَشِير يُشَاوِره فيما يَفْعَل، فوجده مريضًا فتوقَّفَ؛ واجتمع على جَابَانِ نصارى عِجْل، وهم اللاّت وضُبيعة وجابر بنُ بُجَير، وعربُ الضَّاحية من أهل الحيرة، فسار إليهم خالد والتقوْا، واقتتلوا قِتالاً شديدًا؛ فقال خالد: اللَّهمّ إنْ هزمْتَهم فعلَيّ ألاّ أستبقيَ منهم مَنْ قدرتُ عليه؛ حتّى أُجْرِيَ من دمائِهم

---

(١) الولجة: بأرض كسكر موضع مما يلي البر واقع فيه خالد بن الوليد جيش الفرس فهزمهم.. في صفر سنة ١٢... (معجم ياقوت).

(٢) أليس: مصغر بوزن فُلَيس، والسين مهملة: الموضع الذي كانت فيه وقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية... (معجم ياقوت).

نهرهم، فانهزمتْ فارس، فنادى منادي خالد: الأسر الأسر! إلا من امتنع فاقتلوه، فأقبل بهم المسلمون أُسراء، ووكَّلَ بهم مَنْ يضرب أعناقهم، فضرب أعناقهم يومًا وليلة؛ فقال له القعقاعُ: لو قتلتَ أهل الأرض لم تَجْرِ دماؤُهم، فأجرى عليه الماء فسمِّيَ ذلك الماء نهر الدم، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا، وكانت الوقعة في صفر أيضًا.

ثم سار إلى أمْغِيشيا، وأصابَ فيها ما لم يصب مثلَهُ من الغنائم، وأخربها، وبعثَ إلى أبي بكر بالسَّبي والغنائم؛ فقال أبو بكر: عَجَز النِّساء أن يلدْن مثل خالد. رضي الله تعالى عنهما.

ذكر وقعة فرات بادقلى وفتح الحيرة

قال: ثم سار خالد من أمْغِيشْيَا إلى الحِيرة، وحمل الرِّجال والأثقال في السفن، فخرج مرزُبان الحِيرة، وهو الأزادبه، فعسْكَر عند الغَرِيَّيْن وأرسل ابنه، فقطع الماء عن السُّفن، فبقيتْ على الأرض، فسار خالد نحوه فلقيه على فرات بادقلى، فقتله، وقتل أصحابه، فلما بلغ الأزادبه قتلُ ابنه هرب بغير قتالٍ، ونزل المسلمون على الغَرِيَّيْن، وتحصَّن أهلُ الحيرة فحصرهم في قُصورهم، وافتتح المسلمون الدُّرُوبَ والدُّورَ، وأكْثَروا القتل، فنادى القسِّيسون والرُّهْبان: يا أهل القصور! ما يقتلنا غيركم! فنادى أهلُ القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث: إمَّا الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة، فكَفُّوا عنهم، وصالحهم على مائةِ ألفٍ وتسعين ألفًا. وقيل: مائتي ألفٍ وتسعين ألفًا.

وكان فتحُ الحيرة في شهر ربيع الأوّل، وكتب لهم خالدٌ كتابًا، فلمَّا كفر أهل السواد ضيّعوه، فلما افتتحها المثنَّى ثانية عاد بشرط آخر، فلمّا عادوا كفروا، وافتتحها سعدُ بنُ أبي وقاصٍ، ووضع عليهم أربعمائة ألف. فقال خالد: ما لقيتُ قومًا كأهل فارسٍ، وما لقيتُ من أهل فارسٍ كأهل أُلَّيْس.

ذكر ما كان بعد فتح الحيرة

قال: وكان الدَّهاقين[١] يتربَّصُونَ بخالدٍ، ما يصنعُ أهلُ الحيرة، فلمّا صالحهم واستأمنوا له أتته الدَّهاقِينُ من تلك النَّواحي، فصالَحُوه على ألفيْ ألفٍ. وقيل: ألف ألف، سوى ما كان لآل كسرى.

---

(١) الدهاقين: رؤساء الأقاليم، أو رؤساء القرى.

وكتب إلى أهل فارس يدْعُوهم إلى الإسلام أو الجِزْيةِ، فإن أجابُوهُ وإلاَّ حارَبَهُمْ. وجَبى الخراجَ في خمسين ليلة، وأعطاه للمسلمين، ولم يبقَ لأهل فارس فيما بَيْن الحيرة ودِجلة أمرٌ، لاختلافهم بموت أردشير، إلاَّ أنّهم مجمعون على حرب خالد، وهو مُقِيم بالحيرة.

ذكر فتح الأنبار[(١)]

قال: ثم سار خالدٌ إلى الأنْبَار، وإنَّما سُمِّيَتْ الأنبار، لأن أهْرَاء[(٢)] الطعام كانت بها أَنَابير[(٣)]، وكان على مَنْ بها من الجند شِيرُزاد صاحب سَابَاط، فلمَّا التَقوْا أمر خالد رُمَاتَهُ برشْقِ السِّهَام، وأنْ يقصدوا عُيُونَهُمْ، فرَشَقُوا رِشْقًا واحدًا، ثم تابَعُوا، فأصابوا ألف عينٍ، فسمِّيَتْ هذه الواقعة ذات العيون، فلما رأى شيرزاد ذلك، أرسل في طلب الصُّلح، فصَالَحه خالدٌ على أنْ يُلْحقه مَأْمَنه في جريدة، وليس معهم من المتاع شيء.

وخرج شيرزاد إلى بَهْمَن جاذويه، ثم صالح خالدٌ مَنْ حول الأنْبار وأهل كِلْواذى. والله سبحانه وتعالى أعْلم والحمد لله وحْدَه.

ذكر فتح عين التمر[(٤)]

قال: ولما فرغَ خالدٌ مِن الأنبار، استخلف عليها الزِّبرقان بن بدر، وسار إلى عينْ التَّمْر، وبها مِهْران بنُ بَهْرام جُوبين في جمع عظيم من العجم، وعَقَّة بنُ أبي عقَّة في جمع عظيم من العرب؛ من النَّمِر، وتَغْلِب، وإياد؛ وغيْرهم. فقال عَقَّة لِمهْرانَ: إنّ العرب أعلم بقتال العرب منكم، فدعنا وخالدًا؛ فقال: نعم، وإن احتجتم إليْنَا أعنَّاكم، فالتقى عقَّة بخالدٍ، فحمل خالدٌ عليه وهو يقيم صُفُوفه، فاحتضنه وأسره، فانهزم أصحابُه من غير قتالٍ، وأُسِرَ أكثرهم. فلما بلغ الخبر مِهران، هرب في جنده

---

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها، ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة، وبناؤها طين، وبينها وبين شبورقان مرحلة من ناحية الجنوب... (معجم ياقوت).

(٢) الأهراء: مخازن الغلال.

(٣) أنابير: واحدتها: الأنبار: وهي بيت التاجر الذي يجمع فيه المتاع والغلال؛ أو أكداس البر.

(٤) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا، منهما يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية، وهي قديمة... (معجم البلدان لياقوت).

وترك الحصن، فانتهى المنهزمون إليه وتحصَّنوا به، فنازلهم خالدٌ، فسألوا الأمان، فأبى، فنزلوا على حُكْمِه، فأخذهم أسرى، وقتلَ عَقَّة، ثم قتلَهُم عن آخرهم، وسبى كلّ مَنْ بالحِصْنِ وغَنِم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلَّمُون الإنجيل، عليهم بابٌ مغلَق، فكسره وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهُن، فقسَّمهم في أهل البلاد، منهم: أبو زياد مَوْلَى ثقيف، وأبو عمرة جدُّ عبد الله بنُ عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد، ونُصَيْر أبو موسى، وحُمْرانُ مولى عثمان بن عفانٍ.

وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس والسَّبي، فكان أول سَبْيٍ قدم المدينة من العجم، وجعل خالدٌ على عيْن التمر عويْمرا السُّلَمِيّ.

ذكر خبر دومة الجندل

قال: ولمّا فرغ خالدٌ من عَيْن التَّمْر أتاه كتاب عياض بن غَنْم؛ يستمده على مَنْ بإزائه من المشركين، فسارَ إليه، وكان بإزائه بَهْراء وكَلْبٌ، وغسَّان، وتنُوخ، والضجَاعِمُ، وكانت دومة الجنْدَل على رئيسين: أُكَيْدِر بن عبد الملك، والجُودِي بن ربيعة، فأمّا أُكَيْدر فأشار بالصُّلْح، ولم يَرَ قتالَ خالدٍ، فلم يقبَلُوا منه، فخرجَ عنهم، وسمِع خالدٌ بمسيره، فأرسل إلى طريقه، وأخذه أسيرًا وقتله وأخذ ما كان معه، وسار حتى نزل بدُومَة، وجعلها بيْنه وبين عياضٍ، وخرج الجُودِي إلى خالدٍ في جمع مِمَّنْ عنده من العرب، وأخرج طائفة إلى عياضٍ، فهزمهم عياضٌ، وهزم خالدٌ مَنْ يليه، وأسر الجُودِي، وانهزموا إلى الحِصْنِ، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابِهم، فبَقُوا حَوْله، فقتلهم خالدٌ، وقتل الجُودي وقتل الأسرى إلاَّ أسرى كَلْبٍ، فإنَّ بني تميم قالوا لخالدٍ: قد أمَّنَّاهُمْ، وكانوا حلفاءهم، فتركهم لهم، ثم أخذ الحِصْن فقتل المقاتِلَة، وسبَى الذُّرِيَّة، فاشترى خالدٌ ابنة الجُودِي، وكانت موصوفة بالجمال.

وأقام خالدٌ بدُومةِ الجنْدل، فطمِع الأعاجم، وكاتبهم عرب الجزيرة غَضَبًا لعقَّة، فكانت وقعة حَصِيد[١] والخنافِس[٢]، بين القعقاع بن عمرو، خليفة خالدٍ على الحيرة، وبين روزبه وزرمهر. فقُتِل روزبه بحصِيد، وانهزم الأعاجِمُ إلى الخنافِس؛ فتبعهم المسلمون، وهربوا إلى المصيَّخ، إلى الهذيل بن عمران.

---

(١) الحصيد: بالفتح ثم الكسر، وباء ساكنة، ودال مهملة: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة... (معجم ياقوت).

(٢) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب... (معجم ياقوت).

ثم كانت وقعة مُصَيَّخ[١]

قال: ولما انتهى الخبر إلى خالدٍ كتب إلى القعقاع وأبي ليلى، وواعدهم في وقت معلوم يجتمِعُونَ بالمُصَيَّخ لقتال هُذَيْلِ بن عِمْران ومَنْ معه، فأغاروا عليه من ثلاثةِ أوْجُهٍ وهم نائمون فقتلوهم، وأفلت الهذيْلُ في نفرٍ قليل، وكَثُرَ فيهم القتلُ.

ذكر وقعة الثّنى والزُّمَيْل[٢]

وكان ربيعة بن بجير بالثّنى والزُّمَيل ـ وهما شرقيّ الرُّصَافَة ـ قد خرج غضبًا لعقَّة، فلمّا أصابَ خالدٌ أهلَ المُصيَّخ سار إلى الثّنى وَبَيَّتَهُم من ثلاثةِ أوجهٍ، وأوقع بهم وقتلهم، فلم يُفْلت منهم مخبر، وسبى وغنم، وبعث بالخبر والخمس إلى أبي بكرٍ الصّديق رضي الله عنه، فاشترى عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ بنت ربيعة بن بُجير التَّغلَبِيّ، فولدتْ له عُمرَ ورقَيَّة.

ذكر وقعة الفِرَاض[٣]

قال: ثم سار خالد إلى الفِراض، وهي تخوم الشّام والجزيرة، فأفطر فيها شهر رمضان لاتّصال الغزواتِ، وحميَت الرُّوم، واستعانوا بمَنْ يليهم من الفُرْس فأعانوهم، واجتمع معهم تَغْلِب وإياد والنَّمِر، وسارُوا إلى خالد، وبلغُوا الفُرات، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت الرُّوم ومَنْ معهم، وأمر خالد ألاّ يُرْفَع عنهم السيْفُ، فَقُتِلَ في المعركة، وفي الطلب مائة ألفٍ، وأقام خالدٌ على الفراض عشرًا، ثم أذِنَ بالرُّجُوعِ إلى الحِيرة لخمس بَقِينَ من ذي القَعْدة سنة ثنتي عشرة، وخرج من الفراضِ سرًّا، ومعه عِدَّةٌ من أصحابه يَعْسِف[٤] البلاد، حتى أتى مَكَّةَ فحجّ ورجعَ، وكانت غيبتُهُ عن الجندِ يسيرة؛ ولم يعلمْ بحجّه إلاّ مَنْ أفضى إليه بذلك.

---

(١) المصيّخ: بضم الميم، وفتح الصاد المهملة، وياء مشددة، وخاء معجمة: هو بين حوران والقلت. . . (معجم ياقوت).

(٢) الزميل: تصغير زمل: موضع في ديار بكر.

(٣) الفراض: بكسر أوله، وآخره ضاد معجمة: موضع بين البصرة واليمامة قرب فليج من ديار بكر بن وائل. . . (معجم ياقوت).

(٤) يعسف البلاد: يضرب فيها سيرًا.

ذكر فتوح الشّام

قال: وفي سنة ثلاثَ عشرَة وجّه أبو بكر رضي الله عنه الجنودَ إلى الشأم، بعد منصرَفِه من مكّة إلى المدينة، فبعثَ عمروَ بنَ العاصِ قِبَل فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عُبَيْدَة بن الجراح وشُرَحبيل ابن حَسَنة، وأمرهم أن يسلُكوا على البلقاءِ من عَلْياء الشام. وقيل: أوّلُ لواءٍ عَقَده أبو بكر رضي الله عنه، عند توجيهه الجنود إلى الشام لواءُ خالد بن سعيد بن العاص، ثم عَزَله قبل أنْ يسير، وولّى يزيد بن أبي سفيان - وكان عَزله عَنْ رأي عمر - وقدم عِكْرِمةُ بنُ أبي جَهْلٍ علَى أبي بكر فيمن كان معه من تِهامة وعُمان والبَحْرين، فجعل أبو بكرٍ عكرمة ردءًا للنَّاس. وبلغ الرُّومَ ذلك، فكتبوا إلى هِرَقْل، فخرج هرقل حتى أتى حِمْصَ، فأعدّ لهم لجنود، وأرسل أخاه إلى عمرو، فخرج نحوه في تسعين ألفًا، فهابَهم المسلمون، وجميعُ فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا سوى عكرمة؛ فإنّه في ستة آلاف، فكتبوا إلى عمرو بن العاص: ما الرأي؟ فكاتبهم أنَّ الرأي الاجتماع، وذلك أنَّ مثلَنا إذا اجتمع لا يُغْلَبُ مِنْ قلّة. فاتَّعدوا الرموك ليجتمعوا به، وكان المسلمون كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كَتَبُوا به إلى عمرو، فجاءهم كتابُه بمثل ما رأى عمرو. وبلغ ذلك هِرَقْل، فكتب إلى بَطَارقته أن اجتمعوا لهم، وانزِلوا بالرُّوم منزلاً واسعَ المطرَّد ضيّق المَهْرب، ففعلوا، ونزلوا الواقوصة، وهي على ضَفَّة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم، وأقبل المسلمون، فنزلوا عليهم بحِذائهم، فأقاموا صفر وشَهْرَيْ ربيع لا يقدرون من الروم على شيء، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول، كتبوا إلى أبي بكرٍ يستمدونه، فكتب إلى خالدِ بنِ الوليد يلحق بهم، وأن يسيرَ في نصف العَسْكر، ويستخْلِف على النِّصف الآخر المثنّى ابن حارثة الشَّيبانيّ، ففعل. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى الشام وما فعل في مسيره إلى أن التقى بجنود المسلمين بالشام

لما ورد كتابُ أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد، يأمُرُه بالمسير إلى الشام في نصف العسكر سار كما أمره، فلما انتهى إلى سُوى[1] أغار على أهله، وهم بهراء، وأتاهم وهم يشربون الخمر، ومغنيهم يقول: [من الطويل]

ألاَ عَلِّلاني قَبْلَ جيشِ أبي بكرِ لَعلَّ منايانا قريبٌ وما نَدْري

---

(١) سوى: بضم أوله، والقصر: اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة... (معجم ياقوت).

ألا عـلِّـلانـي بـالـزُّجَـاج وكـرِّرَا عَلَيَّ كُمَيْتَ اللَّونِ صافيةً تَجرِي[١]
ألا عـلِّـلانَـي مـن سُـلافـةِ قـهـوةٍ تُسلِّي هُمُومَ النفسِ من جَيِّد الخمر[٢]
أظنّ خيـول الـمسلـمين وخـالـدًا سَتَطْرُقُكُمْ قبلَ الصَّباحِ مَعَ النَّسر
فهل لكُم في السَّيْر قبل قتالِهِمْ وقبل خروج المعصرات من الخِدْرِ[٣]

فقتل المسلمون مغنّيَهم، وسال الدَّمُ في تلك الجفْنة[٤]، وأخذوا أموالهم، وقتِل حُرقُوصُ بنُ النعمان البهرانيّ. ثم سار خالد حتى أتى أرَك[٥]، فصالحوه، ثم أتى تدمُر فتحصّن أهلها، ثم صالحوه، ثم أتى القَرْيتيْنِ[٦]، فقاتل أهلها وظفر بهم وغنِم، وأتى حُوَارِين[٧] فقاتل أهْلَهَا فهزمهم، وسار حتى نزل ثَنِيّةَ العُقَاب، بالقرب مِنْ دِمشقِ ناشرًا رايتَه، وهي رايةٌ سوداءُ كانت لرسول الله ﷺ، تُسمَّى العُقابَ، فسمِّيت الثَّنِيّة بها، ثم سار فأتى مَرْجَ راهِط[٨]، فأغار على غسّان، فقتل، وسَبَى، وأرسل سريّة إلى كنيسة بالغُوطةِ، فقتلوا الرّجال، وسبوا النِّساء، ثم سار حتى وصل إلى بُصْرى[٩]، وعليها أبو عبيدة بنُ الجراح، وشُرْحبيل ابن حسَنةٍ، ويزيدُ بن أبي سفيان، فجمع له صاحب بُصْرَى، فسار إليه خالد هو وأبو عُبَيْدة، فلَقِيَهُم خالد، فظفر بهم وهزمهم، فَدخَلوا حصنهم وطَلَبُوا الصُّلح، فصالحهم على كلِّ رأسٍ دينار في كلّ عام، وجَريب[١٠] حنطة، فكانت بُصْرى أوّلَ مدينة فتحت بالشّام على يد خالد بن الوليد، وأهل العراق. وبعثَ الأخماسَ إلى أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه. ثم سار فطلع على المسلمين في شهر ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم مُنْذِرًا لهم. واتفق قدومُ

---

(١) الكميت: الخمرة لما فيها من سواد وحمرة.
(٢) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها؛ والسلافة من كل شيء: خالصه.
(٣) المعصرات: جمع معصر: وهي الفتاة التي دخلت في شبابها.
(٤) الجفنة: القصعة، أو البئر الصغيرة.
(٥) أرك: مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون.
(٦) القريتان: مكة والطائف... وقيل: القريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك أهلها كلهم نصارى... (معجم البلدان لياقوت).
(٧) حوارين: قرية من قرى حلب.
(٨) مرج راهط: بنواحي دمشق.
(٩) بصرى: في موضعين، بالضم، والقصر: إحداهما بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، وبصرى أيضًا: من قرى بغداد قرب عكبراء... (معجم ياقوت).
(١٠) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.

خالدٍ وقدومُ باهان، ومع باهان القسيسون والشمامسة والرّهبان يُحَرِّضُون الرّوم على القتال، وخَرج باهان، فوليَ خالدٌ قتالَه، وقاتل الأُمراءُ مَنْ بإزائِهم، ورجع ماهان والرُّومُ إلى خَنْدَقِهم، وقد نالَ المسلِمونَ منهم، فلزموا خندقَهُمْ غاية شهرهم. والله سبحانه وتعالى أعْلَمُ.

ذكر وقعة أجنادين[١]

هذه الوقعة قد ذكرها ابن الأثير رحمه الله بعد وقعة اليَرْمُوك، واعتمد في ذلك على أبي جعفر الطبري رحمه الله، فإنَّه أوردها على مِنْواله، ويقتضي سياقُ التاريخ أن تكون مُقدَّمة على وقعة اليرموك؛ وذلك أن خالدَ بن الوليد لما قدِم بُصرى وعليها أبو عُبَيْدة وشُرَحبيل ابنُ حسنة ويزيدُ بنُ أبي سفيان، صَالَح أهْلَهَا على الجزية على ما تقدّم، ثم ساروا جميعًا إلى فلسطين مددًا لعمرو بن العاص، وهو مقيم بالعَرَبات[٢]، واجتمعتْ الروم بأجْنَادين - وهي بين اليَرْموك وبيْت جِبْرين من أرض فلسطين - وعليهم تَذَارِق أخو هِرَقْل لأبويه. وقيل: كان على الرُّوم القبقلار. وسار عمرو بنُ العاص حين سمع بالمسلمين فلقيَهم، فنزلوا بأجْنادين، فبعث القُبْقلار عربيًّا إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فعاد إليه، فقال له: ما وراءَكَ؟ فقال: باللَّيل رُهبان، وبالنهارِ فُرسان، ولو سرقَ ابنُ ملكهم قطعوه، ولو زنَى رجموه، لإقامة الحقّ فيهم، فقال: إنْ كنتَ صدقْتَني فبطنُ الأرض خَيْرٌ مِنْ لقاء هؤلاء على ظهْرِها. ثم التقَوْا يوم السبْت لليلتيْن بقيتا من جُمَادى الأُولى سنة ثلاث عَشْرةَ، وظهر المسلمون عليهم، وانهزم الروم، وقُتِلَ القُبقلار وتَذَارق، واسْتُشْهِدَ رجالٌ من المسلمين.

ثم جمع هرقل للمسلمين، فالتقوْا باليَرْموك.

والله سبحانه أعْلَمُ وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم.

---

(١) أجنادين: بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وتفتح الدال فتكسر معها النون، فيصير بلفظ التثنية، وتكسر الدال، وتفتح النون بلفظ الجمع: وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين... وقيل: إن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين... (معجم ياقوت).

(٢) عربات: بالتحريك، جمع عربة: وهي بلاد العرب... وعربات: طريق في جبل بطريق مصر... (معجم ياقوت).

ذكر وقعة اليرموك[١]

قال: واجتمع المسلمون باليَرْمُوك، وقَدْ تكامَلَ عددهُم ستَّة وثلاثين ألفًا، منهم جيشُ خالد تسعة آلاف، وجيشُ عِكرمةَ ستَّة آلاف. وقيل في عَدَدِهم غير ذلك. وكان الرُّوم في مائتي ألفٍ وأربعين ألْفَ مقاتلٍ، منهم: ثمانون ألْفَ مُقَيَّدٍ، وأربَعُونَ ألفَ مُسَلْسَلٍ للموت، وأربعون ألفًا مَرْبوطُونَ بالعمائم، وثمانون ألف راجلٍ. وذلك في جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وخَرجُوا للّقاء، فلما أَحَسَّ المسلمون بخرُوجِهم، قام خالدُ بنُ الوليدِ، فحمِدَ الله تعالى، وأثنى عليه؛ وقال: إنَّ هذا يومٌ من أيَّام الله، لا ينبغي فيه الفخر. أخْلِصُوا بجهادكم، وأريدُوا الله بعملكم، وهلمُّوا فلنتعاور[٢] الإمارة، فليكُنْ عليها بعضُنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غدٍ، حتى يتأمَّر كُلُّكُمْ؛ ودعوني أميرَكُم اليوم. فأمّرُوهُ، وهم يَرَوْنَ أنّ الأمرَ أطْوَلُ مما صارُوا إليه، وخرجتْ الرومُ في تعبئة لم يَرَ الرَّاؤون مثْلَها قَطّ، وخرج خالدٌ في تعبئة لم يعبِّئها العربُ قبلَ ذلك، فخرج في ستةٍ وثلاثين كُردُوسًا[٣] إلى أربعين، وجعل القلْبَ كَراديس، وأقام فيه أبا عُبَيْدَةَ، وجعل الميمنة كَراديس، وجعل عليها عمرو بن العاص، وفيها شُرَحْبيل ابن حَسَنة، وجعل الميسرة كَرادِيس، وعليها يَزيدُ بنُ أبي سفيان، وجعل على كُردوسٍ من كراديس العراق إنسانًا، وشهد اليرموكَ ألفُ رجلٍ من الصحابة، فيهم من أهل بدرٍ نحو المائة. فقال رجلٌ لخالدٍ: ما أكْثَرَ الرومَ وأقلّ المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمينَ وأقلّ الروم! وإنَّما تكْثر الجنود بالنَّصرِ، وتَقلُّ بالخِذْلان، لا بعدَدِ الرِّجال.

ثم أمَّر خالدٌ عِكرمة والقعقاع بن عمرو - وكانا مجنَّبَتي القلْب - فأنشبا القتال، فنشِب والتحم الناسُ، وتطارد الفرسانُ؛ فإنَّهم على ذلك إذ قَدِم البريدُ من المدينة، فسأله النَّاس عن الخبر، فأخبرهم بسلامةٍ وأمدادٍ تقبِلُ إليهم؛ وإنَّما كان قد جاء بموت أبي بكر وتأْمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالدًا، فأخْبَره بوفاةِ أبي بكر سرًا، وأخبره بالّذي أخبر به الجُنْد، فشكره وأخذ الكتابَ، فجعله في كنانَتِهِ[٤]. وخَرَجَ جَرجَة من عَسْكَرِ الرّوم، وكان أحد عظمائهم، فوقف بين الصَّفَّين ليخرج إلى خالد، فخرج إليه، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقَفَه بين الصفَّين حتى اختلفتْ أعناق دابّتيهما، وقد أمِنَ كُلٌّ منهما صاحِبَهُ.

---

(١) يرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة... (معجم ياقوت).

(٢) تعاور: تداول.

(٣) الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل.

(٤) الكنانة: جعبة صغيرة من أدم البغل.

فقال جَرَجَةُ: يا خالد، اصدقْنِي ولا تكذِبْني، فإن الحُرَّ لا يكذِب، ولا تخادعْني، فإن الكريمَ لا يخَادع المسْتَرْسِلَ، قد أنزل الله على نبيكم سيفًا، فأعْطَاه لك، فلا تَسلّه على قوم إلاّ هَزَمَهمْ الله! قال: لا، قال: ففيم سُمّيتَ سَيْفَ الله؟ قال: إنّ اللّهَ بعثَ فينا نبيَّه ﷺ، فدعانا، فنفرْنا منه، ثم إن بَعْضَنا صدَّقه وبعضَنا باعَدَه وكَذَّبه، فكنت مِمَّن كذَّبَه وقاتلَهُ ثم هداني الله فتابَعْتُه؛ فقال: أنْتَ سيفٌ مِنْ سيوفِ الله سلّه الله على المشركين، ودعَا لي بالنصر، فسُمّيتُ سيفَ اللّهِ بذلك، فأنا أَشَدُّ المسلمين على الكافرين المشركين؛ فقال: صَدَقْتَ، فأخْبرني، إلام تدعوني؟ قال خالد: إلى الإسلام أو الجزْيَة، أو الحَرْب. قال: فما منزلةُ الذي يُجيبُكُمْ ويَدْخُلُ فيكم؟ قال: منزلتنا واحدةٌ، قال: فَهَلْ له في الأجْرِ والذُّخْرِ مثلكُمْ؟ قال: نعم، وأفضلُ؛ لأنّنَا اتَّبعْنَا نبيّنا وهو حَيٌّ يُخبِرُنا بالغَيْب، ونَرى منه العجائبَ، وأنتم لم ترَوْا مِثْلَنَا، ولم تَسْمَعُوا ما سَمِعْنَا، فَمَن دخل بنيّةٍ وصِدْقٍ، كان أفْضلَ منّا. فقلَّب جَرَجة تُرْسَهُ، ومال مع خالد يُعَلِّمُهُ الإسلام، وأسْلم، فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطِه، فشنّ[١] عليه قِرْبةً من الماءِ وصَلَّى به ركْعَتَين.

وحملتْ الروم مع انقلابه إلى خالدٍ، وهم يَرَوْنَ أنها مِنْه حيلةٌ، فأزالوا المسلمينَ عَنْ مواقِفِهم، فقال عِكْرمةُ بن أبي جهلٍ: قاتلتُ مع رسول الله ﷺ في كُلّ مَوْطنٍ، وأفرُّ منكم! ثم نادى: مَنْ يُبَايع على الموت؟ فبايعه الحارثُ بنُ هشامُ، وضرارُ بنُ الأزْوَر في أربعمائةٍ مِنْ وجُوه المُسْلِمِين وفُرْسَانهم، فقاتَلُوا أمام فُسْطَاط خالدٍ حتى أُثْبِتوا[٢] جميعًا جراحًا، فمنهم مَنْ بَرِىءَ، ومنهم مَنْ استُشْهِدَ.

وحمل خالدٌ ومعه جَرَجَة ـ والرُّومَ خلال المسلمين ـ فنادى الناس فثابوا، وتراجعتْ الرُّوم إلى مواقعهم، وزحف خالدٌ بالمسلمين إليهم حتى تصافحوا بالسيوف، وضرب فيهم خالدٌ وجرجَةُ من لدُن ارتفاع النَّهار إلى جُنوح الشمسِ للغرُوبِ، ثم أُصيبَ جَرَجَةُ، ولم يُصَلّ صلاةً سجد فيها إلاّ الركعتين مع خالدٍ، وصلَّى الناس الظُّهر والعَصْر إيماءً، وتضعْضَعَ الرُّومُ، ونهَد خالدٌ بالقلْبِ حتى كان بين خيْلهم ورجْلهم، فانهزم الفُرْسانُ، وخرجَتْ خيْلُهم تشتدّ في الصحراء.

ولما رأى المسلمون خَيْل الروم أفْرَجُوا لها، فذهبَتْ، فتفرّقت في البلاد، وأقبل خالد ومَنْ معه على الرَّجْل، ففَضُّوهم؛ فكأنما هُدِمَ بهم حائطٌ، واقتحموا في

---

(١) شنّ: صبّ.

(٢) أثبتوا: جرحوا وبهم رمق.

خَنْدَقِهم، فاقتحمه عليهم، فعمَدوا إلى الواقوصة[1]، فهوى فيها المقترنون وغيرهم، فتهاوَى فيها عِشْرون ومائةُ ألف، ثمانون ألف مقترن، وأربعون ألف مُطْلق، سوى مَنْ قُتل في المعركة من الفرسان والرجالِ، وقاتلَ النساءُ يومئذٍ، وكانت هزيمة الرُّوم مع اللَّيل. وصَعِدَ المسلمون العَقَبة وأصابوا ما في عسكر الرُّوم، قتل الله صناديد الرُّوم ورؤوسهم وأخا هرقْل؛ وانتهَتْ الهزيمةُ إلى هِرَقْلٍ وهو دون مدينة حمْص - أو بحمص - فنادى بالرّحيل عنها، وجعلها بينه وبين المسلمين، وأمّر عليها أميرًا كما أمّر على دِمشق.

هذا ما كان من واقعةِ اليرموك على سبيل الاختصَارِ.

رُوي عن عبدِ الله بن الزُّبَير، قال: كنتُ مع أبي باليَرْمُوك وأنا صبيٌّ لا أُقاتل؛ فلمّا اقتتل النّاسُ نظرتُ إلى أُنَاسٍ على تلٍّ لا يقاتلون، فركبتُ فذهبتُ إليهم؛ فإذَا أبو سُفْيَانَ بن حرب ومشيخةٌ منْ قُريش مِنْ مهاجِرَةِ الفَتْح، فَرَأوني حَدَثًا فلمْ يتقُوني. قال: فَجعلُوا إذا مال المسلمون، وركبهم الرُّوم يقولون: إيه بني الأصفر! وإذا مالت الرّوم، وركبهم المسلمون قالوا: وَيْحَ بني الأصفر! فلما هُزِمَتْ الرّوم أخبرتُ أبي بذلك، فضحك وقال: قاتلهم الله! أبوْا إلا ضغنًا! لنحْنُ خيرٌ لهم من الرّوم.

وقد حكى أبو جعفرِ الطَّبريّ رحمه الله، أنّ أبَا سُفْيانَ يومَ اليرموك كان يسيرُ فيقف على الكراديس فيقولُ: الله، الله! إنَّكم ذادة العرب وأنْصارُ الإسلام، وإنَّهم ذادة الرّوم وأنصارُ الشِّركِ! اللَّهُمّ إنّ هذا يومٌ من أيّامك، اللَّهُمّ أنْزِلْ نَصْرَكَ على عبادِكَ. والله أعْلَمُ.

* * *

هذا ما وقع في خلافة أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه من الغزواتِ والحروبِ، والفتوحاتِ، فنذكُرْ ما هو خلاف ذلِكَ من الحوادث على السنين، إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده.

ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر غير ما ذكرناه

سنة إحدى عشرة

فيها كانت وفاةُ فاطمة بنتِ رسولِ الله ﷺ ورضي عنها، وذلك في ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلَوْن من شهر رمضان، وهي يومئذٍ ابنةُ تسع وعشرين سنة، أو نحوها. وقيل: تُوُفِّيتْ بعد رسول الله ﷺ بثلاثة أشهرٍ؛ قاله أبو جعفر.

(١) الواقوصة: واد بالشام في أرض حوران... (معجم البلدان لياقوت).

ثم قال: والثَّبْتُ عندنا أنها تُوفِّيتْ بعدَ ستةِ أشهرٍ، وغسَّلها عليّ بن أبي طالبٍ، وأسماء بنت عُمَيْسٍ، وصلَّى عليها العباسُ بنُ عبد المطلبِ، ودخل قبرها العباسُ وعليّ والفضلُ بنُ عباسٍ؛ قاله الواقِديُّ[1].

قال أبو عُمَر: فاطِمةُ أوَّلُ مَنْ غُطِّيَ نعْشُها مِنَ النِّساءِ في الإسلام؛ وذلك أنَّها قالت لأسماء بنت عُمَيْس: يا أسماءُ، إنِّي قد استقبحتُ ما يُصْنَعُ بالنساء، إنه يُطْرَحُ على المرأةِ الثَّوْبُ، فيصفها. فقالت أسماء يا بنْتَ رسولِ الله، ألا أُرِيكِ شيئًا رأيْتُهُ بأرضِ الحبشةِ؟ فدَعَتْ بجرائد رطْبَةٍ فحنَتْها، ثم طرحَتْ عليها ثَوْبًا. فقالت فاطمةُ: ما أحْسَنَ هذا وأجمله! تُعرفُ به المرأةُ من الرجل، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت وعليّ، ولا تُدْخِلي عليّ أحدًا، فلمَّا تُوفيتْ جاءتْ عائشة تَدْخُل؛ فقالت أسماء: لا تَدْخُلِي، فشكتْ إلى أبي بكر. فقالت: إنَّ هذه الخثعميّة تحول بيننا وبين بنت رسول الله، وقد جَعَلَتْ لها مِثْلَ هوْدج العروس؛ فجاء أبو بكرٍ، فوقف على الباب. فقال: يا أسماء، ما حملك على أن منعتِ أزواجَ رسول الله ﷺ أن يَدْخُلْنَ على بنتِ رسول الله، وجعلتِ لها مثل هودج العروس؟ قالت: أمرتْنِي ألاَّ يدخُلَ عليها أحَدٌ، وأريْتُها هذا الذي صنعتُ وهي حيَّة، فأمرتْنِي أن أصنَعَ ذلك لها. قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك، ثم انصرف.

وفيها انصرف مُعاذُ بنُ جَبَلٍ عن اليمن.

واستقضى أبو بكر عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم.

وفيها أمَّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم عتَّابَ بنَ أُسَيْد؛ وقيل: بل حجّ بالنَّاس عَبْدُ الرَّحْمَن بن عوف عن تأميرِ أبي بكر إيّاه.

سنة اثنتي عشرة

فيها مات أبو مَرْثَد الغَنَوِيّ، واسمه كنَّاز بن حِصْن ـ ويقال ابن حصين ـ حليفُ حمزة بن عبد المطلب؛ صحب رسولَ الله ﷺ هو وابنه مَرْثَد، وابنه أُنَيس بن مَرْثَد؛ وشهد بَدْرًا هو وابنه مَرْثَد، وشهد هو المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، ومات وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة.

---

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ. . . (وفيات الأعيان ٤ :٣٤٨).

وفيها، في ذي الحِجّةِ مات أبو العاص بنُ الربيع، واخْتُلِفَ في اسمه، فقيل: لَقيط، وقيل: مُهشم، وقيل: هُشيم، والأكثر لَقيط بن الرّبيع بن عبد العُزّى بن عبد مناف بن قُصيّ القُرشِيّ العبشَميّ ويسمى جرو البطحاءِ، وهو صِهْرُ رسول الله ﷺ على ابنتِه زينب، وأُمّه هالَة بنتُ خويلد، أُخْتُ خديجةَ أُمّ المؤمنين، وأوْصى إلى الزُّبَير بن العوّام، وتزوّج عليّ ابنته.

وحجّ بالنّاس في هذه السّنة أبو بكر الصّديق رضي الله عنه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفّان رضي الله عنه. وقيل: بَلْ حَجَّ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله تعالى عنه. والله تعالى أعلم بالصّوابِ.

ذكر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومدة خلافته

قد اختلف في وقت وفاتِه رضي الله عنه؛ فقال ابنُ إسحاق[1]: في يَوْمِ الجمعة لتسعٍ من جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة.

وقال غيرُه: إنّه مات عشيّ يوم الاثنين. وقيل: ليلة الثلاثاء. وقيل: عشيّ يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة.

قال ابن عبد البر: هذا قول أكثرهم.

وقيل: مكثَ في خِلافته سنتين وثلاثة أشهُرٍ وسبع ليالٍ.

وقال ابن إسحاق: سنتين وثلاثة أشهرٍ إلا خمسَ ليالٍ. وقيل: سنتين وثلاثة أشهر واثنتي عشرة ليلة.

وقال غيره: وعشرة أيام.

وقال آخرون: وعشرين يومًا.

واختُلف أيضًا في السَّبب الذي مات منه، فذكر الواقِدِيُّ: أنّه اغتسل في يوم بارد، فَحُمَّ. ومرض خمسة عشر يومًا.

---

(١) ابن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان، المطلبي بالولاء، المديني، صاحب المغازي والسير... (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

وقال الزبير بنُ بكَّار: كان به طَرَفٌ من السّل. ورُوِيَ عن سلاَّم بن أبي مُطيع: أنه سُمَّ، وأن اليهودَ سمَّته في حَرِيرة[١]، وهي الحسو، فأكل هو والحارثُ بنُ كَلَدَة، فكَفَّ الحارثُ، وقال لأبي بكر: أكَلْنا طعامًا مسمُومًا، سمَّ سنةٍ، فمات بعد سنة.

وقيل: أصلُ مرضه الغمُّ على رسول الله ﷺ.

وانتهت سنُّه رضي الله عنه عند وفاته إلى سنّ رسول الله ﷺ، ثلاثًا وستين سنة.

قال أبو عمر بن عبد البر: لا يختلفون في أن سنَّه انتهتْ إلى ذلك، إلاَّ ما لا يصح.

وقد كان آخر ما تكلَّم به: توفَّني مسلمًا، وألحِقْني بالصالحين.

وغسَّلته زوجته أسماء بنت عُمَيْس بوصيَّة منه وابنه عبد الرحمٰن، وأوصى أن يكفَّنَ في ثوبيه، ويشتري معهما ثوبٌ ثالث، وقال: الحيّ أحْوَجُ إلى الجديد من الميِّت، إنَّما هو للمُهْلة[٢] والصَّديد[٣].

وصَلَّى عليه عمرُ بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وكبَّر أربعًا، وحُملَ على السَّرير الذي حُملَ عليه رسولُ الله ﷺ، وهو سرير عائشة رضي الله عنها، وكان من خشبتي ساج[٤] منسوجًا باللِّيف في ميراث عائشة، بأربعة آلاف درهم اشتراه مولى لمعاوية، وجعلَه للمسلمين. ودخل قبره ابنُه عبدُ الرحمٰن وعمر بن الخطاب وعثمان وطلحة، وجُعِلَ رأسُه عند كَتِفَي النَّبي ﷺ، وألصقوا لَحْده بلَحْدِهِ، ودفن رضي الله عنه ليلاً.

ذكر نبذة من أخباره وأحواله ومناقبه رضي الله عنه غير ما تقدّم

قد ذكرنا فيما تقدَّم من كتابنا هذا في هذا السِّفْر وما قبله نبذةً من أخباره، ولمعة من آثاره، وطَرَفًا من مآثره السنيَّةِ، وجملةً من فضائِله التي هي بجزيل الخيرات مليّة، وأحببنا أن نُورِدَ في هذا الموضع نبذةً أُخرى غير ما قدَّمنا، ونختم هذا الفصلَ بشيءٍ من مناقِبِهِ كما بدأْنا، ولا نشترط الاستيعاب لمناقبه ومآثرِه لتوفُّرِها، ولا الحصر

(١) الحريرة: براءين مهملتين، كأنه تصغير حرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة، وبها كانت الوقعة الرابعة من وقعات الفجار... (معجم ياقوت).

(٢) المهملة: القيح.

(٣) الصديد: القيح يفسد به الجرح.

(٤) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

لفضائله الجزيلة لتعدُّدِها وتكرُّرها، بل نورد من كل نوع منها طرفًا يحتوي على خِصَال منيعة، وأخلاقٍ شريفةٍ، ويتحقَّق سامته أنّه لو أنفق مِلءَ أُحُدٍ[١] ذهبًا ما بلغ مُدَّه ولا نُصَيْفَه.

كان رضي الله تعالى عنه قد تقلَّل من الدنيا جُهد طاقته، واقتصر منها على بعض ما يسُدُّ به بعض خلَّتِه وفاقَتِهِ، وتجنَّب أموال المسلمين جهْدَه، وأنفق في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ ما كان عنده؛ نطقَ بفضله القرآن، وجاهد في دين الله فأذلَّ الله له وبه أهْلَ الشّرك والطُّغيان، وشمَّر عن السَّاعد في قتالِ أهلِ الرِّدّة حين استذلَّهم الشيطان، وأقدم على حربهم بنفسه وجيوشه حين اشرأبَّ النفاق ولمعت بوارقُه، وناضلهم بكُتبِهِ وكتائِبه حين ظهر الكفر ونُشِرتْ خوافقُه، فأخْمد الله تعالى به ما كان قد اضطرم من نيران الرِّدة، وأفاء تلك القبائل التي كانت لحرب الإسلام مستعدة؛ إلاّ من استمرّ منهم على كفره، وما نزع عن شرِّه ومكرِه، وأبى إلاّ جحود هذا الدِّين وقتالِ شعبِه، ونَفَر عن الرُّجوع والانضمام إلى حزبه؛ فإن الله تعالى قتله شرّ قِتْلة، وأباح للمسلمين ماله وأهله ونسلَه.

رُوِيَ أنّه لما ارتدت العرب، خرج أبو بكر رضي الله عنه شاهرًا سيفه إلى ذي القَصَّة، فجاءه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بزمام راحلته، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحد: شِمْ سيفك لا تَفْجَعْنَا بنفسك، فوالله لئِن أُصِبْنَا بك لا يكون للإسلام نظام، وكان له رضي الله عنه بيت مال بالسُّنح[٢]، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة؛ فقيل له: ألا تجعل عليه مَنْ يحرسُه؟ قال: لا، فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين، فلا يبقى فيه شيء، فلمّا انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه في داره.

ولما تُوفِّيَ جمع عمر الأُمناء، وفتح بيت المالِ فلم يجدْ فيه شيئًا غيْرَ دينارٍ سقط من غِرارةٍ، فترحَّمُوا عليه.

---

(١) أحد: بضم أوله وثانيه معًا: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر، ليس بذي شناخيب، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قتل فيها حمزة عم النبيّ ﷺ وسبعون من المسلمين... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) السّنح: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره حاء مهملة: وهي إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تزوج مليكة... (معجم ياقوت).

وفي خلافته رضي الله عنه: انفتح معدِن بني سُلَيم، فكان يُسوِّي في قِسمتِه بين السَّابقين الأوَّلين والمتأخِّرين في الإسلام، وبين الحرِّ والعبد، والذَّكر والأنثى. فقيل له: لِيقدِّم أهْلَ السَّبْق على قَدْر منازلهم. فقال: إنّما أسلموا لِلّهِ، ووجب أجرُهم عليه، يوفِّيهم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغٌ.

وكان يشتري الأكْسِيةَ ويُفَرِّقها في الأرامل في الشتاء.

قال أبو صالح الغِفَاريّ: كان عمر رضي الله عنه يتعهّد امرأةً عمياءَ في المدينة بالليل، فيقوم بأمرها، فكان إذا جاءَها وَجَدَ غَيْره قد سَبقه إليها، ففعل ما أرادت، فرصَدَه عمر، فإذا هو أبو بكرٍ رضي الله عنه، كان يأْتيها ويقضي أشغالها سرًّا وهو خليفة؛ فقال: أنْتَ هو لعَمْري!

وكان منزل أبي بكر رضي الله عنه بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة، فأقام هناك ستة أشهرٍ بعدما بويع، وكان يَغْدو على رجليْه إلى المدينة، وربّما ركب فرسَه، فيُصَلّي بالنَّاس؛ فإذا صَلَّى العشاء رجع إلى السُّنْح. وكان إذا غاب صَلَّى بالنَّاس عمر، وكان يَغْدو كُلَّ يوم إلى السُّوقِ فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعةُ غنم تروح عليه، وربّما خرج هو بنفسِه فيها، وربّما رُعِيتْ له، وكان يحلُب للحيِّ أغْنامَهم، فلما بُويعَ بالخلافة قالت جَارِيةٌ منهم: الآن لا يَحْلُب لنا مَنَائِحَ[1] دارِنا، فسمعها، فقال: بل لعمري لأحلبنّها لكم، وإني لأرجو ألا يغيِّرَني ما دخلتُ فيه عن خلُق كنتُ عليه، فكان يحلُبُ لهم، ثمَّ تحوَّل إلى المدينة بعد ستة أشهر من خلافته. وقال: لا تصلح أُمور النَّاس مع التجارة، وما يصلح إلا التَّفرغُ لهم؛ والنظر في شأْنهم، فترك التجارة، وأنفق من مال المسلمين، ما يصلِحُه ويصلح عيالَه يومًا بيوم، ويحجُّ ويعتمر؛ فكان الذي فرضوا له في كلّ سنة ستة آلاف درهم. فلما حضرته الوفاةُ قال: رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإنّي لا أصيبُ من هذا المال شيئًا، وإنَّ أرضِي الذي بكذا وكذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر. وقيل: إنَّه قال: انظروا كم أنْفَقْت منذ وُلِّيتُ من بيت المال؟ فاقضوه عنّي، فوجدوا مبْلَغَهُ ثمانية آلاف. وقيل: إنَّه قال لعائشة رضي الله عنها: أما إنَّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين لم نأكلْ لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنَّا قد أكلنا من جَرِيشِ[2] طعامهم، ولبسنا من خشِن ثيابهم، وليس عندنا من فيء المسلمين إلاَّ هذا العَبْد، وهذا البعير، وهذه القطيفة، فإذا مِتُّ فابعثي

---

(١) المنائح: واحدتها المنيحة، وهي الناقة تدر اللبن.

(٢) الجريش: المجروش من الحبوب وغيرها.

بالجميع إلى عمر؛ فلما مات بعَثَتْه إليه، فلما رآه بكى حتى سالت دموعُه على الأرض؛ وجعل يقول: رحم الله أبا بكر! لقد أتعب مَنْ بعده، يكرّر ذلك، وأمر برفعه. فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: سبحان الله! تسْلُب عيال أبي بكر عَبْدًا، وناضِحًا[١]، وشِقَّ قطيفةٍ ثمنها خمسة دراهم! فلو أمرْتَ بردِّها عليهم. فقال: لا، والذي بعث محمدًا لا يكون هذا في ولايتي، ولا خرج أبو بكر منه وأتقلّدُه أنا.

وقد قيل: إنّه رضي الله عنه، كان يأْخُذ من بيت المال في كلّ يوم ثلاثةَ دراهم أجرة، وإنه قال لعائشة: انظري يا بُنيَّة ما زاد في مالِ أبيك منذ وليَ هذا الأمر فردِّيه على المسلمين. فنظرت فإذا بجُرْدِ[٢] قطيفَةٍ لا تساوي خمسة دراهم، ومَحَشَّة[٣]، فجاء الرَّسُول إلى عمر بذلك والنَّاسُ حولَه، فبكى عمر، وبكى النَّاس؛ وقال: رَحِمَكَ اللّهُ أبا بكرٍ! لقد كلَّفت مَنْ بعدك تعبًا طويلًا! فقال الناس: اردُدْه يا أمير المؤمنين إلى أهله. قال: كلاَّ، لا يُخرِجه من عنقه في حياته، وأرُدُّه إلى عنقه بعد وفاته. ثم أَمَر بذلك، فحُمِلَ إلى بيت المال.

وحكي أنّ زوجته اشتهت حُلْوًا، فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت: أنا أستَفْضِل من نفقَتِنا في عدَّة أيام ما نشتري به؛ قال: افعلي، ففعلَتْ ذلك؛ فاجتمع لها في أيام كثيرة شيءٌ يسير، فلمَّا عرَّفته ذلك أخَذه، فردَّه في بيت المال. وقال: هذا يَفْضُل عن قوتِنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما استفْضلَتْ في كُلِّ يومٍ، وغرامة لبيت المال في المدة الماضية من مِلْكٍ كان له.

قيل: ولمّا حَضَرتْه الوفاة أتته عائشة رضي الله عنها وهو يعالج الموت، فتمثَّلت:

لَعَمْرُك ما يغني الثَّراء عن الْفَتَى إذا حَشْرجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق: ١٩]. إنّي قد نحلتُكِ حائط كذا، وفي نفسي منه! فردِّيه على الميراث؛ وقال: إنّما هو أخواك وأُختاك! قالت: مَن الثانية؟ إنّما هي أسماء. قال: ذات بطْن بنت خارجة ـ يعني زوجته ـ وكانت حاملًا، فولدت أُمَّ كُلْثوم بعد موته.

---

(١) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء. (٢) جرد القطيفة: القطيفة البالية.

(٣) المحشّة: حديدة تحرك بها النار.

وهو رضي الله عنه أوّلُ والٍ فَرَضَتْ له رعيّتُه نفقتَه، وأوّلُ خليفة وُلّيَ وأبوه حَيّ، وأوّل مَنْ جَمَع القرآن بين اللَّوحَيْن بمشورة من أصحابِ رسول الله ﷺ، وسماه مُصْحَفًا، وهو أوّلُ من سُمِّيَ خليفة؛ رضوان الله عليه.

ذكر أولاد أبي بكر وأزواجه

تزوّج رضي الله عنه في الجاهلية قَتْلة - ويقال: قُتَيْلَة - بنت عبد العزّى بن عبد بن أسعد بن مُضر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، فولدت له عبد الله وأسماء.

وتزوّج أيضًا في الجاهليةَ أُمَّ رَومان - بفتح الراء وضمها - واسْمُهَا زينب بنت عامر بن عُوَيْمر بن عبد شمس بن عَتَّاب بن أُذَيْنَة بن سُبَيْع بن دهمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة. أسلمت وهاجرت؛ وكانت قَبْلَ أبي بكر تحت عبدِ الله بن الحارث بن سَخْبَرة بن جرثومة الخير بن عادية بن مرّة الأزدِيّ، وكان قَدِمَ بها مكّة، فحالف أبا بكر قبل الإسلام، ثم تُوُفِّيَ عن أُمّ رُومان، فولدت له الطُّفيل، ثم خلف عليها أبو بكر، فولدت له عبدَ الرحمٰن وعائشة؛ فالطُّفيلُ أخوهما لأُمِّهما، توفيت أُم رومان في ذي الحجة سنة أربعٍ، أو سنة خمسٍ، فنزل رسول الله ﷺ في قبرها، واستغفر لها. وقال: اللَّهُمَّ لم يَخْفَ عليك ما لقيتْ أُمُّ رُومان فيك وفي رسولك.

ورويَ عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «من سَرّه أنْ ينظر إلى امرأةٍ من الحُورِ العين فلينظرْ إلى أُمّ رُومان».

وتزوّج رضي الله عنه في الإسلام أسماء بنت عُميس الخثعميّة؛ وهي أُختُ ميمونَة زَوْج النبيّ ﷺ لأُمّها، وكانت عند جعفر بن أبي طالب، وهاجرتْ معه إلى أرض الحبشة، فولدت له هناك محمد بن أبي بكر، ثم تزوّجها بعده عليّ بن أبي طالب، فولدت له يحيى بنَ عليّ. وزعم ابنُ الكلبي أن عون بن عليّ، أُمُّه أسماء، ولم يقله غيره.

وقيل: كانت أسماء بنت عُمَيْس تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له ابنةً تُسمَّى أمةَ الله. وقيل: أُمَامَة، ثم خَلَف عليها بَعْدَه شدّاد بنُ الهادِ اللّيثي، ثم العتواريّ، حليف بني هاشم، فولدت له عبدَ اللّهِ وعبد الرحمٰن بنَ شدّاد، ثم خلف عليها بعدَ شدّاد جعفر بن أبي طالب. وقيل: التي كانت تحت حمزة وشدّاد سَلْمى بنت عُمَيْس أُختها أسماء، والله تعالى أَعْلَمُ بالصواب.

وتزوّج رضي الله عنه في الإسلام أيضًا أمّ حبيبة بنتَ خارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصارية، من بني الحارث بن الخزرج، فولدت له بعد وفاته أُمّ كلثوم.

* * *

ولنصل هذا الفصلَ بذكر شيءٍ من أولاد أبي بكر رضي الله عنهم.

وأمّا عبدُ اللّهِ بن أبي بكر رضي الله عنهما، فكان قديمَ الإسلام إلاّ أنّه لم يُسْمَع له بمشْهد إلاّ شهوده الفتح وحُنينًا والطائف. ورُمِيَ بالطائف بسهم؛ قيل: رماه به أبو مِحجَن، فاندمل جُرْحُه، ثم انتقض عليه، فمات في شَوّال سنة إحدى عشرة.

وكان قد ابتاع الحُلّة التي أرادوا دَفْنَ رسولِ الله ﷺ فيها بسبعة دنانير ليكفَّن فيها، فلما حضرتْه الوفاة، قال: لا تكفّنُوني فيها، فلو كان فيها خير كُفّن رسولُ الله ﷺ فيها، ودُفِنَ بعد الظهر، وصلَّى عليه أبوه، ونزل قبره عمرُ بن الخطاب وطلحة وعبد الرحمٰن أخوه.

وكان عبدُ الله رضي الله عنه زَوْجَ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل العدويّة، أُخت سعيد بن زيد، كانت من المهاجرات، وكانت حسناء جميلة بارعة، فأُولع بها، وشَغَلَتْهُ عن مغازيه، فأمره أبوه بطلاقها لذلك؛ فقال: هذه الأبيات: [من الطويل]

يقولون طلِّقها وخَيِّم مكانها ... مقيمًا، تمنّي النَّفس أحلامُ نائِمِ
وإنَّ فراقي أهلَ بيْتٍ جميعُهمْ ... على كَبْرَةٍ منّي لإِحدَى العظائِم
أرانِي وأهلِي كالعَجول تروّحتْ ... إلى بَوّها قبل العِشارِ الرَّوائِم[1]

فعزم عليه أبوه حتى طلقها، ثم تبعتْها نفسه، فهجم عليه أبو بكر رضي الله عنه وهو يقول: [من الطويل]

أعاتكَ لا أنساكِ ما ذَرّ شارِقٌ ... وما ناح قُمريُّ الحمام المطوَّقُ[2]
أعاتِك قلبي كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إليكِ بما تُخفي النفوسُ معلَّقُ
فلم أرَ مثلي طلّق اليومَ مِثلهَا ... ولا مثلَها في غير جُرْم تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ جزل ورأيٌ ومنصبٌ ... وخَلْقٌ سَويٌّ في الحياءِ ومصدَقُ

فرقَّ له أبوه، وأمره بمراجعتها فارتجعها؛ وقال هذه الأبيات: [من الطويل]

---

(١) الروائم: جمع رائم: وهي الأنثى تحب وتعطف على ولدها وتلازمه.
(٢) القمري: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.

أعاتِك قد طُلِّقْته في غير ريبةٍ ورُوجعتِ للأمر الذي هو كائنُ[١]
كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ على النَّاسِ فيه أُلفةٌ وتباينُ
وما زال قلبي للتفرّق طائرًا وقلبي لما قد قرَّب الله ساكن
فإنَّكِ ممَّن زيّن الله وجْهَهُ وَليس لوجهٍ زانه الله شائن[٢]

فلما مات عبد الله صارت عاتكة ترثيه بهذه الأبيات: [من الطويل]

رُزئتُ بخير النَّاس بعد نبيِّهمْ وبعد أبي بكر وما كان قَصَّرا
فآليتُ لا تنفكُّ عيني حَزِينةً عليك، ولا ينفك جِلْدِيَ أغْبرَا
فللَّهِ عينَا من رأى مثلَه فتًى أكَرَّ وأحْمِيَ في الهياج وأَصْبَرا[٣]
إذا شرعت فيه الأسِنَّةُ خاضها إلى الموت حتى يترك الرُّمْحَ أحْمرَا

ثم تزوّجتْ بعده زيدَ بنَ الخطاب، على اختلاف في ذلك؛ فقتل عنها يوم اليمامة شهيدًا، فتزوّجها عمرُ بن الخطاب في سنة اثنتي عشرة، فأولم عليها، ودعا عمرُ بنُ الخطاب أصحابَ رسول الله ﷺ. وفيهم عليٌّ بن أبي طالب؛ فقال له: دعني أُكَلِّم عاتكة، قال: نعم، فأخذ بجانب الحذر. ثم قال: يا عُديَّة[٤] نفسها، أين قولك:

فآليت لا تنفكّ عيني حَزينةً عليك ولا ينفك جِلْدِيَ أغبرا

فبكت. فقال عمر: ما دعاكَ إلى هذا يا أبا الحسن؟! كلّ النساء يفعلْن هذا، ثم قُتِلَ عنها عمر، فقالت تبكيه: [من الخفيف]

عَيْن جُودِي بعَبْرةٍ ونَحيبِ لا تَمَلِّي على الجوادِ النَّجيبِ
فجعتْني المنونُ بالفارس المُعْـ ـلِم يوم الهياج والتَّثويبِ[٥]
قل لأهل الضّرّاء والبؤس موتوا قد سَقَتْهُ المنونُ كأسَ شَعُوبِ

وقالت أيضًا ترثيه بهذه الأبيات: [من الكامل]

مُنِعَ الرقادُ فعاد عَيْنيَ عائدٌ مما تضمَّن قلبيَ المعمودُ
يا ليلةً حُبِسَتْ عليَّ نجومُها فسهرتُها والشَّامِتُون رُقُودُ

---

(١) الريبة: الظن والشك والتهمة.
(٢) الشائن: المعيب.
(٣) الهياج: الهيجاء: الحرب.
(٤) عدية نفسها: عدوة نفسها.
(٥) المعلم: الذي جعل له علامة في الحرب.

قد كان يُسْهِرني حِذَارُكَ مرّةً فاليوم حُقَّ لعينيَ التَّسْهيدُ
أبكي أمير المؤمنين ودونَه للزائرين صفائحٌ وصَعِيدُ(١)

ثم تزوَّجها الزُّبير بن العوّام فقتِل عنها؛ فقالت ترثيه بهذه الأبيات: [من الكامل]

غدر ابن جُرْموزٍ بفارس بُهمَةٍ يوم اللِّقاءِ وكانَ غير مُعَرِّد(٢)
يا عمرو لو نبّهتَه لوجدتَه لا طائشًا رعشَ الجنَانِ ولا اليَدِ(٣)
كم غَمرةٍ قد خاضها لم يَثْنِهِ عنها طِرادُكَ يا بن فِقع الْقَرْدَدِ(٤)
ثَكِلَتْكَ أمُّك إن ظفرت بمثله فيما مضى ممن يَرُوحُ ويَغْتَدِي
واللّهِ ربِّكَ إنْ قتلت لمسلمًا حلَّتْ عليكَ عُقوبةُ المتعمِّد

ثم خطبها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انقضاء عِدّتها، فأرسلت إليه. إنّي لأضنُّ بك يا بنَ عَمّ رسول اللّهِ عن القتل!

وإنما ذكرنا ما ذكرنا من خبر عاتكة في هذا الموضع على سبيل الاستطراد؛ فالشَّيء بالشيء يُذكر، فلنذكر عبد الرحمٰن بن أبي بكر.

وأمّا عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنه؛ فهو أسنُّ ولد أبي بكر، وكان يُكْنى أبا عبد اللّهِ. وقيل: أبا محمد، بابنه محمد الذي يقال له: أبو عَتِيق، والد عبدِ الله بنِ أبي عَتيق، وأدرك أبو عَتيق محمد بن عبد الرحمٰن رسولَ الله ﷺ هو وأبوه وجدّه، وجدّ أبيه؛ أربعتهم، أجمعوا على أنّ هذه المنقبة ليست لغيرهم، روى البخاريُّ رحمه الله، قال: قال موسى بن عُقْبة: ما نعلَمُ أحدًا في الإسلام أدركوا هم وأبناؤهم النّبيَّ ﷺ أربعة إلاّ هؤلاء الأربعة: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وابنه عتيق بن عبد الرحمٰن.

وعبد الرحمٰن شقيق عائشة؛ شهد عبد الرحمٰن بدرًا وأُحدًا مع قومِه، ودعا إلى البراز، فقام إليه أبو بكر ليبارزه، فذكِر أنّ النبيّ ﷺ قال له: «متِّعنِي بنفسك». ثم أسلم عبد الرحمٰن، وحَسُن إسلامه، وصَحِبَ رسول الله ﷺ في هُدْنة الحديبية(٥).

(١) الصعيد: التراب.
(٢) عرّد فلان: هرب، أو نكل وأحجم عن قرنه.
(٣) الجنان: القلب.
(٤) القردد: الأرض المستوية الغليظة المرتفعة. والفقع: أردأ أنواع الكمأة.
(٥) الحديبية: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها... (معجم البلدان لياقوت).

وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبد الرحمٰن، وكان رضي الله عنه من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم، حضر اليمامةَ مع خالد بن الوليد، فقتل سبعةً من كبارهم، منهم محكّم اليمامةِ طُفَيْل، رماه بِسَهْم في نحره فقتله. ولما فُتِحَتْ دمشق نَفَلَهُ[1] عمر ليلى بنت الجودي، وكان قد رآها قبل ذلك، وكان يتشبّب بها. وشهد عبد الرحمٰن الجمل مع عائشة، وكان ابنه محمد يومئذ مع عليّ.

قال أبو عمر بن عبد البر: ولما قعد معاوية على المنبر، ودعا إلى بيعة يزيد، كلّمه الحسين بن عليّ وعبد اللّهِ بن الزُّبير، وعبد الرّحمٰن بن أبي بكر، فكان كلامُ عبد الرحمٰن: أهرقليّة! إذا مات كسرى كان كسرى مكانه! لا نفعل والله أبدًا. وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردّها عبد الرحمٰن. وقال: أبيع ديني بدنياي! وخرج إلى مكة، فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد.

ويقال: إنه مات فجأة بموضع يقال له: الحُبْشيّ[2] على نحو عشرة أميال من مكّة، وحُمِل إلى مكة فدفن بها.

وقيل: إنّه توفي في نَوْمةٍ نامها، وكانت وفاته في سنة ثلاث وخمسين. وقيل: سنة خَمْس وخمسين، والأول أشهر.

ولما اتَّصل خبر وفاته بعائشة أُمّ المؤمنين أُخْته، ظَعَنَتْ[3] من المدينة حَاجَّة حتى وقفت على قبره، وتمثّلت بهذه الأبيات: [من الطويل]

وكُنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمة حِقْبَةً … من الدَّهْرِ حتى قِيلَ لن يتصدَّعَا[4]
فلمّا تفرَّقْنا كأنّي ومَالِكًا … لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

وقالت: أَمَا واللّهِ لو حضرتُك لدفنْتكَ حيثُ مِتَّ مكانك، ولو حضرتك ما بَكَيْتُكَ! رضي الله عنهما.

وأما محمّد بن أبي بكر رضي الله عنهما، فإنه وُلِدَ في عَقِب ذي الحجة سنة عشر من الهجرة بذي الحُليفة، أو بالشجرة، وسمَّته عائشة محمدًا، وكنَّته أبا القاسم، ثم كان محمد بعد وفاة أبي بكر في حِجْر عليّ بن أبي طالب لما تزوّج أُمَّه أسماء بنت عُمَيْس، وكان محمّد على رجَّالةِ عليٍّ يوم الجمل، وشهد معه أيام صِفِّين، ثم ولاّه

---

(١) نفله: أي جعل له من الغنيمة.
(٢) الحبشي: جبل بأسفل مكة.
(٣) ظعنت: ارتحلت.
(٤) البيتان لمتمم بن نويرة، ومالك أخوه.

مصر، فقتِل بها. واختلفوا في قتله، فقيل: قتلَه معاوية بن حُديج صَبْرًا[١]، وذلك في سنة ثمان وثلاثين؛ وقيل: إنَّه لمّا ولاَّه على مصر سار إليه عمرو بن العاص من قِبَل معاوية فاقتتلوا، فانهزَمَ أصحابُ محمدٍ وفرَّ هو، فدخل خَرِبةً فيها حِمارٌ ميّت، فدخل في جوفه، فأُحرِق في جوفِ الحمارِ؛ وقيل: بل قتله معاوية بن حُدَيْج في المعركة، ثم أُحرِق في جوف الحمار بعد ذلك، وقيل: إنَّه أتى عمرو بن العاص فقتله صبرًا بعد أن قال له: هل معك عهدٌ؟ هل معك عقد من أحد؟ فقال: لا، فأمر به فقُتِلَ.

وكان عليٌّ يثني على محمدٍ خيرًا، ويفضِّله؛ لأنه كانت له عبادة واجتهاد؛ وكان ممّن دخل على عثمان حين أرادوا قتله، فقال له عثمان: لو رآك أبوك لم يرضَ بهذا المقام منك! فخرج عنه وتركه.

روى محمد بن طلحة، عن كنانة مولى صفيّة بنت حُيَيّ - وكان شهد يوم الدّار - أنّه لم يَنَلْ محمد بن أبي بكر دم عثمان بشيء. قال: محمد بن طلحة: فقلْت: لكنانة: فلم قيل: إنَّه قتله؟ قال: معاذ الله أن يكون قتله! إنَّما دخل عليه، فقال له عثمان: يا بن أخي، لستَ بصاحبي، وكلَّمه عثمان بكلامٍ فخرج ولم يَنَلْ دمه بشيء. فقلت لكنانة: فمن قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال لَه: جَبَلَة بن الأيهم.

وأمّا عائشةُ رضي الله عنها فقد تقدّم ذكرها في السيرة النبوية في أزواج النبيّ ﷺ، أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ.

وأما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه فهي قديمة الإسلام. قال ابن إسحاق: أسلمتْ بعد سبعة عشر، وكانت تحت الزُّبير بن العوام رضي الله عنه، وهاجرت إلى ملدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقُباء[٢]، وكانت تُسمَّى ذات النِّطاقين، وقد تقدَّم الخبر في تسميتها بذلك في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عند خروجه من مكة إلى الهجرة.

توفيت أسماءُ بمكّة في جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله، وقد بلغت مائة سنة.

وأُمّ كلثوم بنت أبي بكر رضي الله عنه، تَزَوَّجها طلحةُ بنُ عبيد الله رضي الله عنهما، فولدت له عائشة بنت طلحة، فتزوجها عبد الله بن عبد الرحمٰن بن

(١) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.
(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه.

أبي بكر الصِّديق. ولعائشة بنت طلحة أخبار تقدّم ذكرها، وتزوّجت عائشة بعد عبد الله مُصعَبَ بن الزبير، ولم تلِدْ من أحد من أزواجها غيرَ عبد الله، ولدتْ له عمرانَ، وعبدَ الرحمٰن، وأبا بكر، وطلحة، ونفيسة، تزوجها الوليدُ بنُ عبد الملك، وكان ابنها طلحة أجودَ أجواد قريش، وله يقول الحزين الدِّيليُّ[1]: [من المتقارب]

فإن تك يا طلح أعطيتني ... عُذافِرةً تَستخِفُّ الضفَارَا[2]

فما كان نَفْعُك مَرَّةً ... ولا مَرَّتين ولكنْ مِرارَا

أبوك الذي صَدَّق المصطفَى ... وسَارَ مع المصطفى حيثُ سارَا

وأُمُّكَ بَيضاءُ تيميَّةٌ ... إذا نُسِبَ الناسُ كانت نُضَارَا

وطلحة هذا، ابن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

وطلحة هذا هو جَدِّي الذي أُنسَب إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه وحاجبه وخادمه

لمَّا وُلِّيَ أبو بكر رضي الله عنه، قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء، فاستعملهما. فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان في محاكمة، وكان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومَنْ حضر، وكان حاجبَه شَدِيد مولاه، وكان عامله على مكَّة عَتَّاب بن أَسَيْد، ومات في اليوم الَّذي مات فيه أبو بكر. وقيل: مات بعده.

وكان على الطَّائف عثمان بن أبي العاص، وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أُميّة، وعلى حضْرموت زياد بن لَبِيد، وعلى خَوْلان يعْلَى بن أُمَية، وعلى زَبِيد أبو موسى الأشعريّ، وعلى الجَنَد معاذ بن جَبل، وعلى البحرين العَلاء الحضرميّ.

---

(١) الحزين الديلي: قد يكون الحزين الكناني: وهو أحد بني كنانة والحزين لقب غلب عليه واسمه عمرو بن عبيد بن وهب بن مالك أحد بني عبد مناة بن كنانة ويكنى الحزين أبا الحكم... (شرح الحماسة للتبريزي).

(٢) العذافرة: الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة وهي الأمون... (اللسان مادة ع.ذ.ر). والضّفار: ما يشد به البعير ونحوه من شعر مضفور ونحوه.

وبعث جرير بن عبد الله إلى نَجْران، وعبد الله بن ثور إلى جُرَش[(١)]، وعِياض بن غَنْم إلى دُومة الجَنْدل.

وكان على الشام أبو عبيدة بن الجراح، وشُرَحْبيل ابن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص؛ كلُّ رجل منهم على جُند وعليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكان خاتمة خاتم رسول الله ﷺ. وقال الزُّبير بن[(٢)] بَكّار: وكان نقش خاتمه: «نعم القادرَ الله». وقال غيره: كان نقش خاتمه: «عبدٌ ذليل لربٍّ جليل».

وعاش أبو قحافة بعده ستة أشهر وأيامًا.

وفي المعجم الكبير للطَّبراني[(٣)]، قال: ومات أبو بكر، فورثه أبواه، وكانا قد أسلما، وماتت أُمّ أبي بكر قبل أبيه، ومات أبوه وله سبع وتسعون سنة.

والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلّم.

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أبو حفص عُمر بنُ الخطاب بنُ نُفَيل بن عبد العُزَّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَديّ بن كعب بن لُؤيّ بن غالب القُرشيّ العدويّ، ويجتمِع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند كعب بن لؤيّ. وأمة حَنْتَمةُ بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ على ما صححه أبو عمر بن عبد البر ـ وخطَّأ من قال: إنَّها بنت هشام بن المغيرة، وقال: لو كانت بنت هشام لكانت أُخت أبي جهل، وإنما هي بنت عمّه لأن هاشمًا وهشامًا أخوان، فهاشم والد حَنْتَمةَ أُمّ عمر، وهشام والد الحارث، وأبي جهل، وهاشم بنُ المغيرة جدّ عمر لأبيه يقال له: ذو الرُّمحَين.

---

(١) جرش: بالضم ثم الفتح، وشين معجمة: من مخاليف اليمن من جهة مكة، وهي في الإقليم الأول، طولها خمس وستون درجة، وعرضها سبع عشرة درجة، وقيل: إن جرش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة... (معجم ياقوت).

(٢) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار ـ وكنيته أبو بكر ـ بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيريّ، كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله تعالى، وصنف الكتب النافعة، منها كتاب أنساب قريش... (وفيات الأعيان ٢:٣١١).

(٣) الطبراني: هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني؛ كان حافظ عصره، رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر وبلاد الجزيرة الفراتية.. له المصنفات الممتعة النافعة الغريبة منها المعاجم الثلاثة: «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير»... (وفيات الأعيان ٢:٤٠٧).

وُلِدَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الْفِيل بثلاث عشرة سنة، وروى أُسامة بن زيد بن أسلم عَنْ أبيه، عن جَده، قال: سمعتُ عمر يقول: وُلِدْتُ بعد الفِجار الأعظم بأربع سنين.

قال الزُّبير بن بكّار: كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه من أشرفِ قريش، وإليه كانت السِّفارة في الجاهلية؛ وذلك أنَّ قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا ومفاخرًا، ورضوا به. وقد تقدم خبر إسلامه، وإظهار الله تعالى الإسلام به، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيه حين قال: «اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحد الرجلين عمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام».

فاستجيب في عمر.

قال ابن مسعود: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر.

ولقِّب بالفاروق لإعلانه بالإسلام، ففَرقَ بين الحقّ والباطل لمّا أسلم؛ رضي الله عنه.

ذكر نبذة
من فضائل عمر رضي الله عنه ومناقبه

وفضائله رضي الله عنه كثيرةٌ، ومناقبه جمّة مشهورة، قد قدّمنا منها في ترجمة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما ما تقدّم، ولنورد في هذا الفصل من مناقبه خلاف ذلك:

رُوِيَ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه». ونزل القرآن بموافقته في أشياء؛ منها ما رآه في أسرى بدر، وفي تحريم الخمر، وفي حجاب أزواج النبيّ ﷺ، وفي مقام إبراهيم.

ورُوي عن عُقبة بن عامر[١] وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عُمر».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد كان في الأُمم قبلكم مُحدَّثون، فإن كان في هذه الأمة أحدٌ فعمر بن الخطاب».

(١) هو عقبة بن عامر بن نابي، من رجالات الخزرج، شهد بدرًا والعقبة الأولى، وقتل يوم اليمامة. . . (الاشتقاق لابن دريد).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أنا نائِمٌ أُتيتُ بقدَحِ لبَنٍ فشربْتُ منه حتى رأيْتُ الرِّيّ[١] يخرجُ من أظفاري، ثم أعطيْتُ فَضْلِي عمر». قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم.

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دخلْتُ الجنَّة، فرأيتُ فيها دارًا - أو قال: قصرًا - وسمعت فيه ضوضأةً، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجلٍ من قريشٍ، فظننت أني أنا هو؛ فقلت: مَنْ هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب، فلولا غيْرتُك يا أبا حفص لدخلته. فبكى عمر وقال: عليك يُغار يا رسول الله! أو قال عليك أغار!».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُني في المنام، والنَّاس يُعْرَضُونَ عليّ، وعليهم قُمُصٌ منها إلى كذا، ومنها إلى كذا، ومرَّ عليّ عمر بن الخطاب يجرّ قميصه، فقيل: يا رسول الله، ما أوَّلت ذلك؟ قال: الدِّين».

ومن رواية اللَّيث بن سعد[٢]، عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنه قد سمع رسول الله ﷺ، يقول: «بينا أنا نائِم والنَّاس يُعْرَضُونَ عليَّ، وعَليْهم قُمُص، منها ما يبلغ الثَّدْيَ ومنها دونَ ذلك، وعُرِض عَلَيّ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله تعالى عَنْه، وعليه قميص يَجُرُّه»، قالوا: فما أوّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: خَيْرُ النَّاس بعدَ رسولِ الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، وقال: ما كنَّا نُبْعِد أنَّ السّكينة[٣] تنطق على لسان عُمر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو وُضِعَ علْمُ أحياءِ العرَب في كفَّة ميزان، وَوَضِعَ عِلْم عُمَرَ لرجحَ عليهم عِلْمُ عُمَر. ولقد كانوا يرون أنَّه ذهَبَ بتسعة أعْشَارِ العلم، ولَمَجْلسٌ كنت أجلسه مع عمر أوْثَقُ في نفسي من عمل سنة.

---

(١) الرِّيّ: يقال: روي من الماء بالكسر، ومن اللبن يروى ريًا ورِوىً أيضًا مثل رضا وتروّى وارتوى كله بمعنى، والاسم الرِّيّ أيضًا، وقد أرواني... (اللسان مادة ر.و.ي).

(٢) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا... (وفيات الأعيان ٤:١٢٧).

(٣) المراد بالسكينة: الإلهام.

ذكر صفة عمر رضي الله عنه

قد اختلف النَّاسُ في صفة عمر رضي الله عنه؛ فقيل: كان شديد الأُدْمة[١] طُوالاً أكثَّ اللحية، أصلع أعْسَرَ يَسرًا، يَعمل بيديه جميعًا، يخضب بالحناء والكتَم[٢]، هكذا وصفه زرّ بن حبيش وغيرِه بأنّه كان شديد الأُدْمَة.

قال أبو عمر: وهو الأكثر عند أهل العلم بأيّام الناس وسِيَرهم وأخبارهم.

قال: ووصفه أبو رَجاء العُطَارِديّ - وكان مغفلاً - فقال: كان عُمر طويلاً جسيمًا أصلعَ شديد الصَّلَع، أبيض شديد حُمرة العينين، في عارضيه خِفَّةٌ، سَبَلَته[٣] كثيرة الشعر، في أطرافها صُهْبَة[٤].

وذكر الواقديّ من حديث عاصم بن عبيد الله بن عمر عن أبيه، قال: إنَّما جاءتنا الأُدْمة من قِبَلِ أخوالي بني مَظْعون، قال: وكان أبيض، لا يتزوج إلا لطلب الولد.

قال أبو عمر: وعاصم بن عبيد الله لا يُحْتجُّ بحديثه، ولا بأحاديث الواقديّ.
قال: زَعم الواقديُّ أنّ سُمْرةَ عمر وأُدمته إنَّما جاءت من أكله الزَّيت عام الرَّمَادة[٥]
قال: وهذا منكَرٌ من القول.

وأصحّ ما في هذا الباب حديث سُفيان الثَّورِيّ[٦]، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيْش، قال: رأيت عمر شديدَ الأُدْمة. وقال أَنس: كان أبو بكر يخْضِب بالحناء والكَتَم، وكان عُمر يخضب بالحناء بَحْتًا.

وعن مجاهد أنَّ عمر كان لا يُغَيِّر شَيْبَه.

---

(١) الأدمة: السمرة.
(٢) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.
(٣) السبلة: ما على الشارب من الشعر. (٤) الصهبة: حمرة أو شقرة في الشعر.
(٥) الرمادة: هي في عدة مواضع، منها: رمادة اليمن... ورمادة فلسطين... والرمادة بلدة لطيفة بين برقة والإسكندرية... والرمادة أيضًا: بلدة من وراء القريتين على طريق البصرة... والرمادة أيضًا: محلة كبيرة كالمدينة في ظاهر مدينة حلب... والرمادة: محلة أو قرية من نواحي نيسابور... والرمادة قرية من قرى بلخ معروفة... (معجم البلدان لياقوت)... وعام الرمادة، كما في القاموس: في أيام عمر هلكت فيه الناس والأموال.
(٦) سفيان الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور بن عبد مناة... يرجع نسبه إلى معد بن عدنان، الثوري الكوفي؛ كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٢: ٣٨٦).

وقال هلالُ بنُ عبد الله: رأيت عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه، رجلاً آدم ضخمًا كأنّه من رجال سَدُوس، في رجليه رَوَحٌ[١].

وقال بعضُهم في صفتِه: كان طويلاً من النَّاس كراكب الجمل، أمهق[٢] أصْلَع.

استخلفه أبو بكر رضي الله عنه قبل وفاته؛ وذلك أنه لمَّا نزل به الموت دعا عبد الرحمٰن بن عوف. فقال: أخبِرْني عن عمر، فقال: إنَّهُ أفضلُ من رأيِكَ فيه إلاّ أنّ فيه غِلظة؛ فقال أبو بكر: ذلك لأنّه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمرُ إليه لترك كثيرًا ممّا هو عليه، وقد رمقتُه، فكنتُ إذا غضبتُ على رجل أراني الرِّضَا عنه، وإذا لِنْتُ له أراني الشِّدةَ عليه. ودعا عثمان فقال له: أخبرني عن عمر، فقال: سريرتُه خيرٌ من علانيته، وليس فينا مثله. فقال أبو بكر لهما: لا تذكرا مما قلت لكما شيئًا، ولو تركته ما عدوتُ عثمان، ولا أدري لعله تاركٌ، والخِيرة له ألاّ يليَ من أموركم شيئًا، ولوددت أنّي كنت من أُموركم خِلْوًا، وكنتُ فيمن مَضَى من سَلَفكم.

ودخل طلحةُ على أبي بكر فقال: استخلفتَ على الناسِ عمرَ، وقد رأيتَ ما يلقى الناسُ منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم! وأنت لاقٍ ربَّك فسائلك عن رعيَّتك؛ فقال: أجْلسوني؛ فأجلسوه، فقال: بالله تُفَرّقني، أو باللّهِ تُخوّفني! إذا لقيتُ ربِّي فساءَلني قلت: استخلفتُ على أهلِك خيرَ أهلِك. ثم أحضر أبو بكر عثمان بن عفان خاليًا، فقال: اكتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عَهِدَ أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين؛ أمَّا بعد ـ ثم أُغمِيَ عليه ـ فكتب عثمان: أما بعد؛ فقد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عَلَيَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر وقال: خِفْتُ أن يختلفَ الناس إن متُّ في غَشْيَتي، قال: نعم. قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله. فلمَّا كتب العهد أمرَ به أن يُقرأ على النَّاس، فجمعهم، وأرسل الكتاب مع مولًى له، ومعه عمر، فكان عمر يقول للناس: أنصتوا واسمعوا لخليفة رسولِ الله ﷺ؛ فإنّه لم يألكم نُصْحًا، فسكت النَّاس، فلما قُرِىء عليهم الكتابُ سمِعوا وأطاعوا.

---

(١) الروح، بالتحريك: وسعة في الرجلين دون الفحج، وهو أن يتباعد صدر القدمين وتتدانى العقبان.

(٢) الأمهق: الأبيض كالجص لا يخالطه حمرة، وليس بنيّر.

وكان أبو بكر قد أشرف على الناس، وقال: أترضَوْن بمن استخلفتُ عليكم؟ فإنّي ما استخلفتُ ذا قَرابةٍ، وإنّي قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنّي والله ما أَلَوْتُ من جَهْد الرأي، فقالوا: سمعنا وأطعنا، ثم أحضر أبو بكر عمرَ، فقال: قد استخلَفْتُكَ على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوصاه بتقوى الله، ثم قال: يا عمر؛ إنّ لله حقًّا باللّيل لا يقبله في النّهار، وحقًّا في النّهار لا يقبلُه في الليل، وإنه لا يقبلُ نافلةً حتى تُؤَدَّى الفريضة، ألم تر يا عمر إنّما ثقلت موازين مَنْ ثَقُلَتْ موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحقّ وثقله عليهم! وحَقّ الميزان لا يوضع فيه غدًا حقٌّ إلاّ أن يكون ثقيلًا! أَلَمْ تر يا عمر إنّما خَفَّتْ موازين من خَفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وخِفَّته عليهم، وحقِّ الميزان لا يوضع فيه غدًا باطل إلاّ أن يكون خفيفًا! ألم تر يا عمر إنّما نزلت آية الرخاء مع آية الشدَّةِ، وآية الشدّة مع آية الرّخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا؛ لا يرغب رغْبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبةً يُلقِي فيها بيديه! ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النارِ بأسوإ أعمالهم، فإذا ذَكرتَهُم قلت: إنّي لأرجو ألاّ أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنّه تجاوز لهم ما كان من شيءٍ، فإذا ذكرتَهم قلت: أين عملي من أعمالهم! فإن حَفِظت وصيتي، فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، ولست بمعجزه.

وتوفِّيَ أبو بكر رضي الله عنه، فلما دُفِنَ صَعِد عمر المنبر، فخطب النّاس ثم قال: إنّما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ[١] اتّبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود. وأمّا أنا فوربّ الكعبة لأحملنّكُمْ على الطريق.

وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوليته جند خالد بن الوليد، وبعزل خالدٍ لأنّه كان عليه ساخطًا خلافة أبي بكر كلها لوقعته بابن نُويْرة، وما كان يَعْملُ في حربه، وأوّلُ ما تكلم به عزل خالد، وقال: لا يلي لي عملاً أبدًا.

* * *

---

(١) الجمل الأنف: الذي عقر الخشاش أنفه لا يمتنع على قائدة للوجع الذي به... (النهاية لابن الأثير).

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وفي خلافته رضي الله عنه كثرت الفتوحات على المسلمين، ولنبدأ من ذلك بذكر فتوح دمشق، وما والاه من المدن والثغور والحصون، ثم نذكر فتوحات العراق، وما والاه، ثم فتوح مصر، وما والاها، لتكون الفتوحات متوالية، ولا ينقطع خبرها بأخبار غيرها، ولا يتداخل فتوح بفتوح، ثم نذكر الغزوات إلى أرض الروم، ثم نذكر الوقائع بعد ذلك خلاف الفتوحات والغزوات على حكم السنين على ما ستقف عليه، إن شاء الله تعالى على ذلك.

ذكر فتوح مدينة دمشق

قال: لمّا هَزم الله تعالى أهل اليَرْمُوك استخف أبو عبيدة على اليَرْموك بشيرَ بن كعب الحِميريّ، وسار حتى نزل بالصُّفَّر؛ فأتاه الخبر أن الذين انهزموا من الرُّوم اجتمعوا بفِحْل[1]، وأن المدَدَ قد أتى أهل دمشق من حِمْص؛ فكتب إلى عمر بذلك، فأمره أن يبدأ بدمَشْق فإنّها حصْن الشام وبيت المملكة، وأن يَشْغَل أهل فِحْل بخيْلٍ تكون بإزائهم، فإذا فُتِحَتْ دمشق سار إلى فِحلْ، ثم يسير إلى حِمْص هو وخالد بنُ الوليد، ويترك شُرَحْبِيل ابن حَسَنَةَ، وعمروَ بن العاص بالأردنّ وفِلَسطين. فأرسل أبو عُبَيْدة طائفة من المسلمين، فنزلوا بالقُرب منها، وبثق[2] الرُّوم الماء حول فِحْل، فوحِلت الأرضُ، ونزل عليهم المسلمون، فكان أوّلَ محصورٍ بالشام أهلُ فِحْل، ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة أيضًا جندًا، فنزلوا بين حِمْص ودِمشق، وأرسل جندًا فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار هو وخالدُ بنُ الوليد، فقدما دِمَشْق، وعليها نِسْطاس؛ فنزل أبو عبيدة على ناحية، وخالدٌ على ناحية؛ ويزيد بن أبي سفيان على ناحية، وحصَرهم المسلمون سبعين ليلة، وقاتلوهم بالزَّحف[3] والمجانيق[4]، فكان هِرقْل بالقرب من حمص، فأمّد أهلَ دمشق بخيل، فمنعتها خيولُ المسلمين، وخُذِل أهلُ دمشق. وَوُلِدَ

---

(١) فحل: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره لام: اسم موضع بالشام... (معجم البلدان).

(٢) بثق الماء موضع كذا: خرقه وشقه فانبثق.

(٣) الزحف: الجيش الكثير.

(٤) المنجنيق: آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة.

للبطريق الذي على دمشق مولود، فصنع وليمةً، فأكل القومُ وشَرِبوا، فعلم خالد بذلك دون غيره، وكان قد اتَّخذ حبالاً كهيئة السلاليم، فلمّا أمسى ذلك اليوم نهض بمن معه وتقدَّمهم هُو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عَدِيّ وأمثاله، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السُّور فارتقوا إلينا، واقصدوا الباب؛ وارتقى هو وأصحابُه على السّور في تلك الحِبال، ثم انحدر ببعض مَنْ معه، وتَرك بذلك المكان الذي صعِد منه مَنْ يحميه، وأمرَهُمْ بالتكبير، وجاء المسلمون إلى الباب وإلى الحبال، وقصد خالد الباب، وقتل مَنْ دُونَه، ثم قتل البَوّابين، وفتحَ البابَ، وقتل مَنْ عِندَه من الروم، ودخل أصحابه المدينة، وثار أهْلُهَا لا يدرون ما الخبر، فلما رأوا ذلك قصدوا أبا عبيدة، وبذلوا له الصلح، فقبله منهم، وفتحوا له الباب، وقالوا: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كُلّ باب بصلح ممّن يليهم، ودخل خالدٌ عَنْوَةً، والتقى والقوّاد وسط المدينة هذا قتلاً ونهبًا، وهذا صفحًا وتسكينًا، فأجروا جهة خالدٍ مجرى الصلح، وكان صلحهم على المقاسمة؛ الدينار والعقار[1] ودينار عن كل رأس، واقتسموا الأسلاب.

أرسل أبو عبيدة إلى عمرَ بالفتح، وأنَّه قسَّم الغنيمة على مَنْ حضر الفتح، وعلى الجنود التي على فِحل وحمص وغيرهم، فجاء كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جُنْد العراق إلى سعد بن أبي وقاص، فأرسلهم، وأمر عليهم هاشم بن عُتْبَة، وسار أبو عبيدة إلى فِحْل. والله أعلم.

ذكر شيء مما قبل في أمر مدينة دمشق ومن بناها

حُكي عن كعب الأحبار[2]، قال: أوّلُ حائطٍ وضع على وجه الأرض بعد الطُّوفان حائط حَرّان ودمشق ثم بابل[3].

واختُلف فيمن اختطّ دمشق؛ فقيل: إن نوحًا عليه السلام اختطها بعد حَرَّان. وقيل: نزل جَيْرون بن سعد بن عاد بن عوص دمشق، وبنى مدينتَهم وسمّاها جَيْرون.

---

(١) العقار: كل ملك ثابت له أصل، كالأرض والدار.

(٢) يقول ابن عماد الحنبلي في «شذرات الذهب»: سنة خمس وثلاثين... وفيها توفي عالم الكتاب به وبالآثار كعب الأحبار أسلم في زمن أبي بكر وروى عن عمر رضي الله عنه... (١: ٤٠).

(٣) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية من الكوفة والحلة؛ ينسب إليها السحر والخمر... (معجم البلدان).

وقيل: هي إرم ذات العماد.

وقيل: إن جَيْرون وبَريد كانا أخوين، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهمَا اللذان يعرف جيرون وباب البريد بدمشق بهما.

وعن وهب بن منبّه[١]، قال: دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل، وكان حبشيًا، وهبَه له نمرود حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق، فسماها على اسمه، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له، وسكنها الرّوم بعد ذلك بزمان.

وقيل: إنّ بيوراسب الملك بنى مدينة بابل، وبنى مدينة صُور، وبنى مدينة دِمَشق.

وقيل: كان زمن معاوية رجل صالح بدمشق، كان الخضر عليه السلام يأتيه في أوقات، فبلغ ذلك معاوية، فجاء إلى الرجل وسأله أن يجمع بينه وبين الخضِر، فذكر الرجل ذلك للخضر، فأبى؛ فقال معاوية: قل له: قد قعدنا مع مَنْ هو خير منك؛ وحدّثْناه، وهو محمّد ﷺ ولكن اسأله عن ابتداء بناء دمَشْق كيف كان، فسأله؛ فقال: نعم صِرْت إليها، فرأيتُ موضعَها بحرًا مستجمِعًا فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها فرأيتها غَيْضة[٢]، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها، فرأيتها بحرًا كعادتها الأُولى، ثم غبت عنها خمسمائة عام، وصرت إليها فرأيتها قد ابتدىء فيها بالبناء ونفر يسير فيها.

وعن أبي البختريّ[٣] قال: وُلِد إبراهيمُ عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة، وذلك بعد بنيان دمشق بخمس سنين، وقال: جَيْرون عند باب مدينة دمشق من بناء سليمان، بنتْه الشياطين، وكان الشيطان الذي بناه يقال له: جيرون فسُمِّي به. وقيل: إن دِمشْق بناها دمشقين غلام كان مع الإسكندر.

---

(١) هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص؛ وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء (ص) وسير الملوك... (وفيات الأعيان ٦: ٣٥).

(٢) الغيضة: الأجمة، أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٣) أبي البختري: هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب، القرشي الأسدي المدني؛ حدث عن عبيد الله بن عمر العمري وهشام بن عروة بن الزبير وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

وقيل: إنَّ الذي بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة، وجعل لها سبعة أبواب، وصُوِّر على باب كيسان زحل، وقيل: وجد في كتابٍ: بابُ كيسان لزحل، وباب شرقي للشمس، وباب توما للزُّهرة، وباب الصغير للمشتري، وباب الجابية للمرّيخ، وباب الفراديس لعطارد، وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

وقيل: إن ملك مصر بنى حصن دمشق؛ الذي هو حول المسجدِ، وداخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس، فوضعها على أبوابه؛ فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب بيت المقدس. حكاه أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق.

ونعود إلى فتوح الشام.

ذكرُ غزوة فِحْل

وفِحْل بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة وبعده لام، وهو بلد معروف بِغَوْرِ الشَّامِ. قال: لما فُتحَتْ دمشق في سنة ثلاث عشرة استخلف أبو عبيدة عليها يزيدَ بنَ أبي سفيان، وسار إلى فِحْل، وكان أهل فِحْل قد قصدوا بَيْسان[1]. وكانت العرب تسمي هذه الغزوة ذات الرَّدَغَة وبَيْسان وفِحْل.

وكان خالدُ بنُ الوليد على المقدِّمة، وعلى النَّاسِ شُرَحْبِيل ابن حَسَنَة وعلى المُجَنِّبَتَيْنِ أبو عبيدةِ وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضِرارُ بن الأزور، وعلى الرَّجْل عياض بن غَنْم.

فنزل شُرَحبيل بالنَّاس علَى فِحْل، وبينهم وبين الروم تلك الأوْحال، وكتبوا إلى عمر، وأقاموا ينتظرون جوابه، فخرج عليهم الرّوم، وعليهم سِقلار بن مِخْراق فأتوهم، والمسلمون حَذِرُون، وكان شُرَحْبِيل لا يبيت ولا يُصْبِح إلا على تعبئةٍ؛ فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى الصباح، ويومهم إلى الليل، فانهزم الرّوم، وقد أظلم الليلُ عليهم، فحاروا، وأُصيب رئيسهم سِقْلار والذي يليه فيهم نسطورس، وظفر المسلمون بهم، وركبوهم، فلم يعرف الروم مَأْخَذَهُم، فانتهت بهم الهزيمة إلى تلك الأوْحَال

---

(١) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس يقال إنها من الجنة، وهي عين فيها ملوحة يسيرة. . . (معجم البلدان لياقوت).

التي كانوا أعدّوها مكيدةً للمسلمين، فلحقهم المسلمون، فوخزُوهم بالرماح، فكانت الهزيمةُ بِفحْل، والقتل بالرّداغ، فأُصيبت الروم، وهم ثمانون ألفًا، لم يُفْلت منهم إلاّ الشَّرِيد، فصنع الله للمسلمين وهم كارهون؛ كرهوا البُثوق[١] والأوحال، فكانت عونًا لهم على عدوّهم، وغنموا أموالهم، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حِمْص.

وقد اخْتُلف في فتح فِحْل ودمشق، وذكروا أن المسلمين لما فرغوا من أَجْنَادِين على رأي من جعلها بعد اليرموك؛ اجتمع الروم بِفحْل، فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحت، وكانت فِحْل في ذي القَعْدة سنة ثلاثَ عشرة، وفتح دمشق في شهر رجب سنة أربع عشرة. وقيل: كانت وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة، ولم يكن للروم بعدها وقعة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

هذا الفتح أورده ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة، قال: لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وسار إلى فِحْل، وسار يزيد إلى مدينة صَيْدَاء وبيروت، وَجُبَيْلِ وَعِرْقة[٢]، وعلى مُقَدّمته أخوه معاوية، ففتحها فتحًا يسيرًا، وجلا كثير من أهلها، وتولّى فتح عِرْقَةَ معاوية بنفسه في ولاية يزيد.

ثم غلب الروم على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر، وأول خلافة عثمان، وفتحها معاوية، ثم رمّها وشَحَنَهَا[٣] بالمقاتلة.

ذكرُ فتح بِيسان وطبرية

قال: لما قصد أبو عبيدة حِمْص من فِحْل، أرسَل شُرَحبيل ومَنْ معه إلى بَيْسَان، فقاتلوا أهلَها، وقتلوا منها خَلْقًا كثيرًا، ثم صالحهم مَنْ بقي على صلح دِمَشق، وكان أبو عبيدة قد بعث بالأعْوَر إلى طَبَرِيَّة، فصالحه أهلها على صُلْح دمشق أيضًا، وأن يشاطروا المسلمين المنازل، فنزلها الناس، وكتبوا بالفتح إلى عمرَ بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه.

---

(١) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه. جمع بثوق.

(٢) عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة لها... (معجم البلدان).

(٣) شحنها: جعل فيها الكفاية لضبطها.

ذكرُ الوقعةِ بمرج الرُّوم

كانت هذه الوقْعة في سنة خمس عشرة؛ وذلك أنّ أبا عبيدة وخالدًا سارا بمن معهما إلى حِمْص، فنزلاً على ذي الكَلاع، وبلغ هِرَقْل الخبر فبعث توذر البِطريق حتى نزل بمرْج الرُّوم غَرْب دمشق، ونزل أبو عبيدة بالمرْج أيضًا، ونازله يوم نزوله شنس الرُّوميّ في مثل خيل توذر مَدَدًا لِتوذَر، وردءًا[١] لأهل حِمْص، فكان خالد بإزاء توذر، وأبو عبيدة بإزاء شنس، فسار توذر يقصد دِمَشق، فاتّبعه خالد في جريدة وبلغَ يزيدَ بنُ أبي سفيان الخبر، فاستقبله فاقتتلوا، ولَحِقَ بهم خالد فأخذهم مِنْ خَلْفِهم، فقُتِل توذر، ولم يفلت مِنْ عسكره إلا الشّريد، وغنم المسلمون ما معهم، فقسّمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد، وعادَ يزيد إلى دِمشق، ورجع خالد إلى أبي عبيدة، فوجده قد قاتل شنس بمرْج الروم، فقُتلت الرومُ مقتلةً عظيمةً، وقتل شنس، وتبعهم المسلمون إلى حمص بالسير إليها، وسار هو إلى الرِّيف، وسار أبو عبيدةِ إلى حِمْص.

ذكرُ فتح بعلبكّ وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس

قال: وفي سنة خمس عشرة سار أبو عبيدة إلى حِمْص بعد وقعة ملك الروم، فسلك طريق بعلبك وحصرها، فطلب أهلُها الأمان فأمَّنهم وصالحهم، وسار عنهم ونزل حمص ومعه خالدُ بنُ الوليد، فقاتل أهلها، ولقِيَ المسلمون بَرْدًا شديدًا، وحاصر الرُّوم حصارًا طويلًا، وكان هِرَقل قد أرسل إليهم يعدُهُم المدد، وأمر أهلَ الجزيرة جميعها بالتّجهيز إلى حِمْص، وسيّرَ سَعْدُ بنُ أبي وقاص السرايا من العراق إلى هِيت[٢] فحصرها، وسار بعضهم إلى قَرْقِيسِيَاء[٣] فتفرق أهْلُ الجزيرة، وعادوا عن نجدة أهل حِمْص، وكان أهل حِمْص يقولون: تمسّكوا بالمدينة فإنَّهم حفاةٌ، فإذا أصابهم البرد تقطّعت أقدامُهُم، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبعٌ، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الرّوم، ودعاهم إلى مُصَالحة المسلمين، فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فكبّر المسلمون تكبيرة فانهدم كثير من دُورِ حمص، وتزلزلت

---

(١) الردء: المعين والناصر، أو القوة والعماد.

(٢) هيت: بالكسر، وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية. . . (معجم البلدان).

(٣) قرقيسياء: . . قال حمزة الأصبهاني: قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية بالحلبة. . بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق. . وعندها مصب الخابور في الفرات. . . (معجم البلدان).

حيطانهم، وكبّروا الثانية والثالثة، فأصابهم أعظم من ذلك، وخرج أهلُها يطلبون الصلح، ولم يعلم المسلمون بما حَدَثَ فيهم، فصالحوهم على صُلْح دِمَشق. وأنزلها أبو عبيدة السِّمْطَ بنَ الأسود الكنديَّ في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السَّكون، والمِقْداد في بَلِيّ؛ وغيرهم، وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود.

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبَادَةَ بنَ الصّامتِ. وسار إلى حَماة، فتلقاه أهلُها مُذْعِنِين، فصالحهم على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم، ومضى نحو شيْزَرَ[١]، فخرجوا إليه فصالحهم على مثل صلح أهل حماة.

وسار إلى مَعرّة النعمان ـ وكانت تُعرف بمعرّة حِمْص، ونسبت بعد ذلك إلى النُّعمان بن بشير الأنصاري، فصالحوه على مثل صُلْح أهل حِمْص.

ثم أتى اللاّذقية فقاتله أهلها، وكان لها بابٌ عظيمٌ يفتحه جمْع من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارسيْن، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها، ورحلوا، فلمّا أجنَّهُم[٢] الليل عادوا، واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقيّة وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا، فأخرجوا سَرْحهم[٣]، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرُعْهُم إلاّ والمسلمون يصيحون بهم، ودخلوا المدينة معهم، ومُلِكت عنوة، وهربَ قومٌ من النَّصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم على خَرَاج يؤدونه قلّوا أو كثروا، فرُدَّت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجدًا جامعًا؛ بناه عبادة بن الصامت، ثم وسّع فيه بعد ذلك.

ولما فتح المسلمون اللاّذقية جَلاَ أهل جَبَلة من الرّوم عنها، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصَّامِتِ أنطرسوس، وكان حصنًا فجلا عنه أهله، وبنى معاوية أنطرسوس ومصّرها، وأقْطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس، وفتحت سُلَمْيَةِ؛ وقيل: إنها سُميتِ سَلميَة لأنّه كان بقربها مدينة تُدْعَى المُؤْتفكَة، انقلبت بأهلها، ولم يَسْلَم منها غير مائة نَفْس، فبنوا لأنفسهم مائة منزل، وسميت «سل مائة»، ثم حرَّفها النَّاس. فقالوا: سَلَمِيَة، ثم مصَّرها صالحُ بنُ عليّ بن عبد الله بن عباس.

---

(١) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة. . . (معجم البلدان).

(٢) أجنهم الليل: سترهم.

(٣) السّرح: الماشية، ولا يسمى سرحًا إلا ما يغدى به ويراح.

ذكر فتح قنسرين[١] ودخول هرقل القسطنطينية وما تكلم به عند ذلك

قال: ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرين، فلما زحف ونزل الحاضر زحف إليه الروم، وعليهم ميناس، وكان أعظمَهم بَعْد هِرَقْل، فقُتِل هو ومن معه عَلى دمٍ واحدٍ.

وسار خالد حتى نزل قِنَّسرين فتحصَّن أهلها منه، ثم صالحوه على صلح أهل حِمْص، فأبى خالد إلاّ إخراب المدينة، فأَخْرَبَها، فلمّا بلغ ذلك هِرَقْل - وكان بالرُّهَا - سار إلى سُمَيْساط[٢]، ثم منها إلى القُسطنطينية، ولمّا سار عَلاَ نَشَزًا[٣]، ثم التفتَ إلى الشَّام. فقال: سلامٌ علَيْك يا سوريّة، سلام لا اجتماع بعده ولا يعودِ إليك روميٌّ أبدًا إلا خَائِفًا، حتى يولَد الولد الْمشؤوم وليته لا يولَد، فما أحلَى فعله، وأمرَّ فتنته على الرُّوم. ثم سار وأخذ أَهْلَ الحصونِ الَّتي بين إسكندرونة وطَرَسوس معه لِئلاً يسير المسْلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكيَة وبلاد الروم، وخلت تلك الحصون وشَتَّتها هِرقل، فكان المسلمون إذا مَرُّوا بها لا يجدون بِهَا أحدًا، وربَّما كَمَن عندها الرُّوم، فأصابوا غِرَّة مِمَّن يتخلف من المسلمين، فاحتاط المسلمون لذلك. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المآب.

ذكر فتح حلب وأنطاكية[٤] وغيرهما من العواصم

وهي سَرْمِين، وقورُس، وتَلّ عزاز، ومنبِج، ودُلوك، ورَعْبان وبالِس، وقاصِرين، وجُرْجومة، ودرب بغراس، ومرْعَش، وحصن الحدَث. قال: ولما فرغ أبو عبيدة من قِنَّسرين سار إلى حلبٍ فبلغه أنَّ أهل قِنَّسرين مَضَوْا، وَغَدَروا، فوجَّه إليهم السِّمطَ الكِنْديَّ فحصرهم وفتحها، ووصَل أبو عبيدة إلى حَاضِرِ حلب، وهو قريب منها يَجْمع أصْنافًا مِنَ العرب، فصالحهم على الجزيةِ، ثم أسلموا بعد ذلك،

---

(١) قنسرين: مدينة قيل فيها قبر النبي صالح.. وقيل كان خرابها في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر... (معجم البلدان).

(٢) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن... (معجم البلدان).

(٣) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٤) أنطاكية: كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير... (معجم البلدان).

وأتى حلبَ وعلى مقدَّمته عياض بن الفِهريّ، فتحصَّن أهْلُها، وحصرهم المسلمون، فلم يلبثوا أن طلبوا الصُّلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وحصُنهم وكنائِسِهِمْ، فأعطَوْا ذلك، واستثنى عليهم مَوْضعَ المسجد.

وكان عياض بن غنْم هو الذي صالحَ، فأجاز أبو عبيدة ذلك. وقيل: صولِحوا عَلَى أنْ يُقَاسِموا منازلهم وكنائسهم، وقد قيل: إنَّ أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدًا؛ لأنَّ أهلها انتقلوا إلى أنطاكِيَة، وتراسلوا في الصُّلح، فلمَّا تم الصّلح رجعوا، وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكِيَة، وقد تحصَّن بها خلقٌ كثيرٌ من قِنَّسرين وغيْرِها، فلما فارقها لَقِيَه جَمْع العدوّ فهزَمهم، وألجأهم إلى المدينة، وحَصَرها من نواحيها، فصَالحوه على الجِزية أو الجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ثم نقضوا، فوجّه إليهم عياض بنَ غَنْم وحبيب بن مَسلمة، ففتحاها على الصّلح الأول.

وكانت أنطاكيَة عظيمة الذِّكر عند المسلمين، فلما فُتِحتْ كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتِّبَ جماعة من المسلمين بها مرابِطَةً، ولا يحبس عنهم العطاء.

وبلغ أبا عبيدة أنّ جمعًا من الرُّومِ بَيْن مَعرَّةِ مَصْرين وحلب، فسار إليهم فهزمهم، وقتل عدة من البَطَارِقة، وسَبَى وغَنِم، وفتح معرّة مَصْرين على مثل صلح حلب، وجَالتْ خُيولُه، فبلغت بُوقة، وفُتِحَتْ قرى الجومَه وسَرْمِين وتبرين، وغلبوا على جميع أرض قِنَّسرين وأنطاكيَة.

ثم أتى أبو عبيدةِ حلَب، وقد التاث[1] أهلها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة، وسار يريد قورُس، وعلى مقدّمَته عياض بن غَنْم، فلقيَه راهب من أهلها، فسأله الصلح، فبعث به إلى أبي عبيدة، فصالحه على صلح أنطاكيَة، وبثَّ خَيْله، فغلبوا على جمع أرض قُورس، وفتح تلَّ عزاز.

وكان سَلْمان بن ربيعةَ الباهليّ في جيْش أبي عبيدة، فنزل في حِصْنٍ بقورس، يُعْرَف بحصن سلمان، ثمَّ سار أبو عبيدة إلى مَنْبج، وعياض على مقدّمته، فلحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكيَة، وسيّره إلى ناحية دلُوك ورَعْبان، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل مَنْبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الرّوم.

وَوَلّى أبو عبيدة كلَّ كُورَةٍ[2] فتحها عاملاً، وضمَّ إليه جماعة، وشحن النواحي

(١) التاث: اختلط والتبس، والتاث بالشيء: التف به.

(٢) الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ذلك اسم الكورة. . . (معجم البلدان، المقدمة).

المخوفة، وسار إلى بَالِس، وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى قاصِرين فصالحه أهلُها على الجزية والجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الرُّوم، وأرض الجزيرة، واستوْلى المسلمون على الشام من هذه النَّاحية إلى الفرات، وعاد أبو عبيدة إلى جهة فلسطين وكان بجبل اللّكام[1] مدينة يقال لها: جُرْجُومة، ففتحَها حبيب من أنطاكيَة صلْحًا على أن يكونوا أعوانًا لِلْمُسْلمين، وسيَّر أبو عبيدة جيشًا مع مَيْسَرة بن مسروق العَبْسِيّ، فسلكوا درب بغراس من أعمالِ أنطاكيَة إلى بلاد الروم، وهو أوّل من سلكه، فَلَقِيَ جمعًا من الرُّوم، ومعهم عربٌ من غسّان وتنُوخ وإياد يريدون اللَّحاقَ بهرَقْل فأوقع بهم، وقتل مِنهم مقْتَلَةً عظيمة. وسيّر جيشًا آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد، ففَتَحها بالأمان على إجْلاء أهلِها، فجلاهم وَأَخْربها، وسيَّر جيشًا مع حَبيب بن مَسلَمة إلى حِصْن الحدَث ففتحه؛ وإنما سُمّيَ الحَدَثَ لأنّ المسلمين لَقُوا عليه غلامًا حَدَثًا، فقاتلَهم في أصحابه، فقيل: دَرْب الحَدَثِ. وقيل: لأنّ المسلمين أُصِيبُوا به فسُمِّيَ بذلك، وكان بنو أُميّة يُسمّونه دَرْبَ السّلامة، والله أعْلمُ.

ذكر فتح قيسارية[2] وحصن غزة

وفي سنة خمس عشرة أيضًا فتِحتْ قَيْسَارِيَّةُ. وقيل في سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين. وذلك أنَّ عمر رضي الله عنه كتبَ إلى يزيدَ بن أبي سفيانَ: أن يرسل معاوية أخاه إلى قيسَاريَّة، وكتب عمرُ إلى معاوية يأمره بذلك، فسار معاويةُ إليها وحَصَر أهلَها، فرجعوا إليه، وقاتَلوه، فبلغتْ قَتْلاهم في المعركة ثمانين ألْفًا، ثم كَمُلت في الهزيمة مائة ألفٍ وفتَحها، وكان عَلْقمة بنُ مُجَزِّز قد حَصَر القِيقارَ بغزَّة وجعل يُراسِلُه فلم يَشْفِه أحد ممّا يريد، فأتاه كأنّه رسول عَلْقَمَة وكلّمه، فأمر القِيقار رَجُلاً أن يَقْعُد له في الطريق، فإذا مرَّ به قَتَلَه، فَفَطِنَ به عَلْقمة، فقال: إنَّ معي نفرًا يُشركونني في الرّأي فانطلِق فآتيكَ بهم، فبعث القِيقار إلى ذلك الرّجل ألاَّ يتعرّض له. فخرج عَلقمَةُ مِن عنده، ولم يَعُد إليه، وفعل كما فعل عمرو بنُ العاص رضي الله عنه مع الأَرْطَبُون.

---

(١) جبل اللكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور. . . (معجم البلدان).

(٢) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. . . وقيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي ملك بني سلجوق. . . (معجم البلدان لياقوت).

ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة وسبسطية ونابلس وتبنى واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا

قال: لمّا انصرَف أبو عُبَيدة وخالدُ بنُ الوليد بعد فِحْل إلى حِمْصَ ـ كما قدّمنا ـ نزل عمرُو بنُ العاص وشُرَحْبيل ابن حَسَنة على بَيْسان فافتَتَحها، وصالحه أهل الأَردُنّ، واجتمع عَسْكر الرُّوم بغزَّة وأجنادِيْن وبَيْسانَ إلى الأرْطَبُون بأجْنادِين، فسار عَمرو وشُرَحْبيل إليهم بها، واستخلف عَمْرو على الأَردنّ أبا الأعْوَر، وكان الأرْطَبُون أدْهَى الرُّوم وأبعدَها غَوْرًا، وكان قَدْ وضَع بالرَّملة جُنْدًا عظيمًا، وبإيلياء[1] كذلك، فلمَّا بلغ عُمرَ بن الخطّاب الخبرُ قال: قد رَمَيْنَا أرْطبون الرُّوم بأرطبون العرَب، فانظروا عمَّ تنفرج.

وكانَ مُعَاوِيةُ قد شَغل أهْلَ قَيْساريَّةَ عن عمرو، وجعل عمرو عَلْقمة بن حَكيم، ومَسْروقًا العَكّيَّ على قتال أهل إيلِياء، فشغلُوا مَنْ بها عنه، وتتابَعت الأمداد مِن عمرَ رضي الله عنه إلى عمرِو، فأقام عَمْرو على أجنَادين لا يقدر من الأرْطبون عَلَى شيءٍ، ولا تَشْفِيه الرُّسل، فسار إليه بنفسه، ودخل إليه كأنّه رسولٌ، فَفطِن به أرْطبُون، وقال: لا شكّ أن هذا الأميرُ، أو مَنْ يأخُذُ الأميرُ برأيه، فأمر إنسانًا أن يَقْعدُ على طريقه، فإذا مَرَّ به يَقْتله؛ فأدرك عَمرو، فقال له: قد سمعتَ منّي، وسمعتُ منكَ، وقد وقع قولُك منّي بموْقِع، وَأنا وَاحدٌ من عَشَرة، بَعَثَنا عُمَر إلى هذا الوالي لنكاتِفه فأَرْجع وآتيكَ بهم، فإن رأَوْا ما رأيْتَ فقد رآه الأمير وأهلُ العسكر، وإن لم يَروْهُ رَدَدْتَهم إلى مأمنِهم. فقال: نعم، وردّ الرجلَ الّذي أمره بقتله، فخرج عمرو من عنده، وعلم الرُّوميُّ بعده مُفَارَقته أنّه خَدَعه. فقال: هذا أدْهَى الخَلْقِ، وبَلَغت هذهِ الواقعة عمر. فقال: لله دَرُّ عَمرٍو! ثم التَقَوْا، واقتتلوا بأجْنَادَين قتالاً شديدًا كَقِتال اليَرْمُوكِ، فانهزَم أرْطبُون إلى إيليـاءَ، ففتح عمرو غَزَّة، وقيل: فُتحت غزَّةُ في خلافةِ أبي بكر رضي الله عنه، ثم فَتَح سَبَسطِية ونابُلُس بأمان على الجِزْية، وفتح مدينة لُدّ[2] وتُبْنَى[3] وعمواس[4]، وبيْت جِبْرين ويافا. وقيل: فتحها معاويةُ رضي الله عنه، وفتح رَفَح. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) إيلياء: بيت المقدس كما سيأتي.

(٢) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٣) تبنى: بلدة بحوران من أعمال دمشق.. وقيل: تبنى: قرية من أرض البثينة لغسان.

(٤) عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس.. وقيل: عمواس هي ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء

كان فتحُ بيتِ المَقدِس على يد عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، سنةِ خمسَ عشرة. وقيل: ستَّ عشرة، وذلك أن عمْرَو بنَ العاصِ لما فتح هذه الجهات الَّتي ذكرناها، أرسَلَ إلى أرْطَبون رجلاً يتكلَّم بالرُّوميَّة، وقال له: اسمَع ما يقول، وكتب معه كتابًا، فوَصَل إليه، وأعطاه الكتابَ، وعنده وُزَراؤه، فقال لهم: لاَ يَفتح عَمرو شيئًا مَن فِلَسْطين بعد أجْنادِين. فقالوا له: من أين عَلِمت ذلك؟ فقال: صاحبها صِفَتُه كذا وكذا، وذكر صفَةَ عُمر، فعاد الرسولُ إلى عمرو، وأخْبَره بذلك، فكتَب عمرو إلى عمرَ رضي الله عنهما، يقول: إني أُعالج عدوًّا شديدًا، وبلادًا قد ادُّخِرَتْ لك، فرأيك. فعلم عُمرُ أنَّ عمْرًا لم يَقل ذلك إلا لشيءٍ سَمِعه، فسار عن المدينة. وقيل: كان سبب قدوم عمرَ إلى الشام، أنَّ أبا عُبيدة حَصر بيتَ المَقدِس، فطلب أهلُه أن يصالحَهم على صُلْح أهل مدُن الشَّام، وأن يكون المتولِّي للعقد عمرُ بنُ الخطَّاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة، واستَخلفَ عليها عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه، وكتب عمر إلى أُمَراء الأجْناد بموافاته بالجابِيَة[1] ليوم سمَّاه لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم، فوافَوْه، وكان أوّلَ من لَقِيهم يزيدُ بنُ أبي سفيان وأبو عُبَيدة ثم خالد بن الوليد على الخُيول، عليهم الدِّيباج[2] والحرير، فنَزَل عن فرسه، ورماهُم بالحِجارة، وقال: ما أسرع ما رَجعتم عن رأيكم! إيَّايَ تستقبِلُونَني في هذا الزِّي! وإنَّما شَبِعتم منذ سنتين، وتالله لو فعلتم ذلك على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيرَكم. فاعتذروا بالسلاح. ودخل عمر الجابية وعَمرو وشُرَحبيل لَم يَقدَما عليه، فبينما عمرُ بالجابيةِ إذ فزِع النَاسُ إلى السِّلاح. فقال: ما شأنُكُمْ؟ قالوا: ألاَ ترى إلى الخُيول والسّيوف! فنظر فإذا كُرْدُوسة[3]، فقال: مُسْتأمنةٌ فلا تُراعوا، فإذا هم أهْلُ إيلياءَ يُصالحونه على الجِزْية، وكان الَّذي صالحَه العوّام، لأن أرْطَبُونَ والتَّذارق دَخَلا مصر لمَّا بلغهما مقدمُ عُمر. وأخذُوا كتابَهُ على إيلياءَ وحَيِّزها، والرَّمْلة وحيِّزها. وجعل عمرُ رضي الله عنه علقمَةَ بنَ حكيم على نِصفِ فِلَسطين، وأسكنَه الرَّملة، وجعل عَلْقمة بن مجزِّز على نِصفِها الآخر، وأسكَنَه إيلياء، وضمَّ عمروَ بنَ العاص وشُرَحْبيل إليه بالجابيَة، فلقيَاه راكبًا، فقبَّلاَ رُكبَته، فضمَّ كلَّ واحد منهما مُحتضنًا، ثم

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران، إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من نوى أيضًا، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية. . . (معجم البلدان).

(٢) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٣) الكردوسة: القطعة من الخيل.

سار إلى البيت المقدس وركِب فرسَه، فرأى به عَرَجًا، فنزل عنه، وأُتِيَ بِبرْذَوْن[١] فركبه، فجعل يَتَجَلْجَلُ[٢] به، فنَزَل وضَرَب وجهَه وقال: لا أَعْلَم مَنْ علَّمك هذه الخُيَلاء؟ ثم لم يكربْ بِرْذَونًا بعدَه، ولا كان ركبه قبلَه، وفُتحت إيلِياءُ على يَدَيْه، ولَحق أرْطَبُون ومن أبَى الصلحَ بمصر، فلما ملَكَها المسلمون قُتِل. وقيل: بَلْ لَحق بالرُّوم، فكان على صَوائفهم[٣]، والْتَقَى هو وصاحب صائفةِ الْمُسْلِمين، ومع المسلمين رجلٌ من قريش، فقطع أرْطَبُون يَده، وقتله القُرَشي، وفيه يقول ويشير إلى يَدِه: [من البسيط]

فإنْ يكنْ أرْطَبُونُ الرُّومِ أفسَدَها ... فإنَّ فيها بحمدِ الله مُنْتَفَعَا
وإنْ يكنْ أرْطَبُون الرُّومِ قَطَّعَها ... فقد تركْتُ بها أوصَالَهُ قِطَعا

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

قال: وفي سنة سَبْعَ عشرةَ قصد الرُّوم أبا عُبيدةَ بنَ الجراح، ومن معه من المسلمين بِحمْص، وكان المُهَيّج للرُّوم على ذلك أنّ أهلَ الجزيرة أرسلوا إلى مَلِكهم، وبَعثوه على إرسال الجُنود إلى الشام ووَعَدوه المعونةَ بأنفسهم. ففعلَ ذلك. فلما سَمِع المسلمون باجتماعهم، ضمَّ أبو عبيدة إليه مَسالِحَه[٤]، وعَسْكر بفناء مدينةِ حمص، وأقبل خالد من قنّسرين إليهم، فاستشاره أبو عبيدة في المناجزة[٥] أو التحصن، فأشار بالمناجزة، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبةِ عُمَر، فأطاعَهم، وكتب إلى عمرَ بذلك.

وكان عمر قد اتخذ بكل مِصرٍ خُيولاً على قَدْره من فُضول أموال المسلمين عُدَّةً لكونٍ إن كان، فكان بالكوفة أربعةُ آلاف فَرَسٍ، والقيّم عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ، وفي كل مصر من الأمصارِ الثمنية على قَدْره، فإن كانت ثابتةٌ رَكِبَها المسلمون وساروا إلى أن يتجهز الناس.

---

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر.
(٢) يتجلجل: المراد هنا: يتحرك في مشيه يمنة وشمالاً.
(٣) الصائفة: غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفًا لمكان البرد والثلج من بلاد الروم. جمع صوائف.
(٤) المسلح: موضع السلاح، أو القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة. جمع مسالح.
(٥) المناجزة: المنازلة والاقتتال.

وكتب عمرُ إلى سعد بنِ أبي وَقَّاص: أن آندُب النَّاسَ مع القعقاع بنِ عَمرٍو وسَرِّحْهم مِن يَومهم؛ فإنّ أبا عبيدة قد أُحِيط به.

وكتب إليه أيضًا: سَرِّح سُهَيلَ بنَ عَدِيٍّ إلى الرَّقَّة؛ فإن أهل الجزيرة هم الَّذين آستثاروا الرّومَ على أهلِ حِمْص، وأمره أن يُسرِّح عبدَ الله بنَ عِتبان إلى نَصيبِين، ثم لِيقْصدا حَرَّان والرُّها، وأن يُسرِّح الوليد بن عُقْبَةَ على عَرَب الجزيرة مِن ربيعة وتَنُوخ، وأن يسرِّح عياضَ بن غَنْم، فإن كانت حربٌ فأَمْرُهم إلى عِياض. فمضى القَعْقَاع في أربعة آلافٍ من يومه نحو حِمْص.

وخرج عياض بن غَنم ومن نُدِب إلى الجزيرة، وتوجَّه كلُّ أمير منهم إلى الكورة الَّتي أُمِّر عليها، وخرج عمرُ من المدينة، وأتَى الجابِيَة إعانةً لأبي عُبَيْدَة، فلمّا بلغ أهلَ الجزيرة الَّذين أعانوا الرُّومَ على أهل حِمْص خبرُ الجنود الإسلاميّة تفرقوا إلى بلادهم، فأشار خالدٌ على أبي عُبيدةَ بالخُروج إلى الرّوم، فخرج إليهم وقاتَلَهم، وفتحَ الله عليه، وقَدِم القعقاعُ بعد ثلاثة أيام، فكَتَبُوا إلى عمرَ بالفتح وبقُدوم المَدَد عليهم والحُكم في ذلك.

فكَتَبَ إليهم: أنْ أشرِكُوهم في المغْنَم، فإنَّهم نَفَروا إليكم، وانْفَرَق[1] لهم عَدُوُّكم، وقال: جزى اللّهُ أهلَ الكُوفة خيرًا؛ يكفون حَوْزَتَهم وَيُمدّون الأَمْصَار؛ فلمّا فرغوا رَجَعوا. والله أعلم، وحَسبُنا اللّهُ ونِعم الوكيل.

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

قد اختلف أصحاب التَّواريخ في فتح الجَزيرة وأرْمينيَة، فمنهم من يقول: إن ذلك من فُتوح أهْلِ العِراق، ومنهم من يقول: إنَّها من فتوح أهلِ الشام. والأكثر على أنَّها من فُتوح أهل الشّام، ونحن نَذكُر القولين إن شاء الله تعالى:

فأمّا من قال: إنَّها من فُتوح العِراق فإنَّه يقول: إنَّ سعد بنَ أبي وَقَّاص لمّا أمَره عمرُ رضي الله عنه أن يَبْعثَ الجنود التي ذكرناها آنِفًا إلى نَصِيبين[2] وحَرّان[3] والرُّها والجَزيرة مع مَنْ ذكَرنا، وإن كان قتال فأمْرُهم إلى عِياض بن غَنْم. فخرج عِياض ومَن

---

(١) انفرق: افترق أو انشق.

(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان. . . (معجم البلدان).

(٣) حران: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم. . . (معجم البلدان).

معه؛ فأرسل سُهيل بن عَدِيّ إلى الرَّقَّة، فصالَحُوه على الذِّمّة، وخرج عبدُ الله بن عِتْبانَ على المَوْصِل إلى نَصِيبين، فلَقُوه وفَعلوا كفِعل أهل الرَّقَّة، وخرج الوليدُ بن عُقْبة، فقَدِم عَلى عَربِ الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ، فنهض معهم مُسلِمُهم وكافِرُهم إلاَّ إياد بن نِزار، فإنَّهم دخلوا إلى أرض الرُّوم، ولما أخذوا الرَّقَّة ونَصيبين ضَمّ عِياض إليه سُهيلاً وعبدَ الله، وسار بالنَّاس إلى حَرَّان، فأجابه أهلُها إلى الجِزْية، فقَبِلَ منهم. ثمّ إنّ عِيَاضًا سَرَّحَ سُهيلاً وعبدَ الله إلى الرُّها، فأجابوهما إلى الجِزْية، وأجْرَوْا كلَّ ما أخَذوا من الجزيرة عَنوةً مَجرى الذِّمّة، فكانت الجزيرة أسهَلَ البُلدانِ فتحًا، ورَجَع سهيلٌ وعبدُ الله إلى الكوفة.

قال: ولمّا بلغ عمر رضي الله عنه أنْ إيادًا دخلت الرُّوم، كتب إلى ملك الرُّوم يتهدَّده إن لَم يُخْرجْهم، فأخرَجَهم، فخرج منهم أربعة آلاف، وتفرَّقَتْ بقيتهم ممّا يلي الشَّام والجزيرة من أرضِ الرُّوم، فكلّ إياديّ في أرض العَرب من أُولئك الأربعة آلاف.

وقال ابنُ إسحاق: إنَّ فَتْح الجزيرة كان في سنة تسع عشرَة، وقال: إنَّ عمرَ كتب إلى سعد بن أبي وَقّاص: إذا فتح الله الشّامَ والعراق فابعثْ جندًا إلى الجَزيرة. فبَعَث عياضَ بن غَنم، وبَعَث معه جيشًا فيه أبو موسى الأشعريّ، وعمر بن سَعْد ليس له في الأمر شيء، فسار عِياض ونَزَل على الرُّها، فصالَحه أهلُها وأهلُ حَرّان، ثم بعث أبا موسى الأشعريّ إلى نَصِيبين فافتَتَحها، وسار عِياض إلى دارًا فافتتحها. وَوَجَّه عثمانَ بنَ أبي العاص إلى أرمينِيَة الرابعة فقاتَلَ أهلَها، ثم صالحَوه على الجِزية، فَعلَى هذه الأقوال تكون الجزيرةُ وأرمينِيَة من فتوح العِراق.

وأمّا من قال إنَّها من فُتوح الشام، فإنه يقول: إنَّ أبا عُبَيدة سيّر عيَاضَ بن غَنْم إليها ففتحها، وكان قد كَتَب إلى عمرَ بن الخطَّاب بعد انصرافِه من الجابِيَة يسأله أنْ يضمّ إليه عِيَاضَ بن غنْمَ - إذ أخَذ خالد بن الوليد إلى المدينة - فصَرَفه إليه، فسيّره أبو عُبيدةَ إلى المدينة ففتَحها، وذلك في سنة سبع عشرة.

وقيل: إن أبا عُبَيدة لمّا تُوُفِّيَ استَخلف عِياضًا، فورَد عليه كتابُ عمرَ بولاية حِمْصَ وقِنَّسرين والجَزيرة، فسار إلى الجزيرة في سنة ثمانيَ عشرة للنّصف من شعبان في خمسة آلاف، وعلى مَيمنتهِ سعيد بنُ عامر الجُمَحِيّ، وعلى ميْسَرته صفوانُ بن المعَطّل، وعلى مقدّمته مَيسرة بن مسروق، فانتهت طليعةُ عِياض إلى الرَّقّة، فأغاروا على الفلاّحين، وحَصَروا المدينة، وبثَّ عِيَاض السَّرايا، فأتَوْه بالأسْرى والأطعِمة، وحَصَرها ستّة أيام، فطَلَب أهلُها الصُّلحَ، فصالحَهَم على أنفُسهم وذراريِّهم وأموالِهم

ومدينتِهم. وقال عِياض: الأرضُ لنا، قد وَطِئناها وَملَكْناها، فأقَرَّها في أيديهم على الخَراج، ووَضَع عنهم الجِزْية. ثم سار إلى حَرّان فَجعل عليها عسكرًا، عليهم صفوانُ وحبيبُ بنُ مَسلمة، فحَصَراها، وسار هو إلى الرُّها، فقاتلَه أهْلُهَا ثم انهزَموا، فحَصَرهم في مدينتهم، فطلبوا الصلحَ فصالحهم، وعاد إلى حَرّان، فوجد صَفوانَ وحَبيبًا قد غلبا على حُصون وقُرى من أعمالِها، فصالحَه أهلُ حَرّانَ على مثل صُلْح الرُّها، وفَتَح سُمَيْساط، وأتى سَرُوج[1] وراس كَيْفا[2] والأرض البَيْضَاء، فصالَحه أهلُها على مِثل صُلْح الرُّهَا، ثم غدرَ أهلُ سُمَيْساط، فرجع إليهم وفتحها، ثم أتى قُرَيّات الفُرات، وهي جسر مَنبج وما يليها فَفتَحها، وبعث حبيبَ بنَ مسلمَة إلى مَلَطْيَة ففتحها عَنوةً، على يد حبيبٍ أيضًا، ورَتَّبَ فيها جُنْدًا من المسلمين مع عاملها. قال: وسار عياضٌ إلى رأس عَيْن، وهي عين الوَرْدة، فامتنعت عليه، فَتَرَكها، وسار إلى تَل مَوْزَن ففتَحها على صلح الرُّها سنة تسع عشرة. وسار إلى آمِد، فصالحه أهلها بعد قتال، وفتح مَيَّافارِقين على صلح الرُّها ثم سار إلى نَصِيبين، فقاتَلَه أهلُها، ثم صالَحوه على مِثل ذلك، وفَتَح طُور عبدين[3]، وحصن ماردين. وقصد المَوْصِل، ففتح أحدَ الحِصْنين. وقيل: لم يَصِلها، وأتاه بِطْريق الزَّوَزَان فصالحه، ثم سار إلى أرْزَن ففتحها، ودخل الدرب إلى بَدْلِيس، وبلغ خِلاط فصالحه بِطْريقُها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينيَة، ثم عاد إلى الرَّقَّة ومضى منها إلى مدينة حِمص، ومات في سنة عشرين؛ فَعَلى هذا الخبر يكونُ ذلك من فتوح أهلِ الشام.

وعلى كلا القولين ففتحها على يد عِياض بن غَنْم.

قال: ولما مات عِياض استعمَلَ عمرُ بنُ الخَطَّاب سعيدَ بنَ عامر بن حِذْيم، فلم يلبَث إلاَّ قليلاً ومات، فاستعمل عُمَيرَ بنَ سعد الأنصاريّ، فَفَتَح رأسَ عَيْن بعد قِتال شديد. وقيل: إنَّ عِياضًا أرسَل عمَير بن سعد إليها فَفتَحها. وقيل: إنَّ عمرَ رضي الله عنه أرسَلَ أبا موسى الأشعريّ إلى رأسِ عَيْن بعد وَفاةِ عِياض، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

(١) سروج: هي بلدة قريبة من جران من ديار مضر.

(٢) رأس كيفا: من ديار مضر بالجزيرة قرب جران، كان عبرته على السلطان ثلاثمائة ألف وخمسين ألف درهم. . . (معجم البلدان).

(٣) طور عبدين: بليدة من أعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل الجودي، وهي قصبة كورة فيه. . . (معجم البلدان).

انتهَى فتوحُ الشام في خلافة عمرَ رضي الله عنه؛ فلنذكر فتوحَ العِراق، وما والاه.

وإذا انتهَت الفُتوحاتُ إن شاء الله تعالى ذكَرْنا الغَزَوات إلى أرض الرُّوم من الشام.

ذكر فتوح العراقين وما والاها من بلاد فارس وغيرها وغزو الترك وفتح خراسان وسجستان وغير ذلك من الوقائع

كان ابتداءُ أمرِ العِراق أن المثنَّى بن حارثَة الشَّيْبانيّ قَدم على أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في مَرَضه الَّذي ماتَ فيه، فأوصَى أبو بكر عمرَ بالمبادَرة إلى إرسال الجُيوش معه إلى العِراق، فلمّا أصبح عمرُ من اللَّيلة الَّتي مات فيها أبو بكر نَدبَ[1] النَّاسَ إلى الخروج مع المثنَّى بن حارثة، ثم بايع النَّاسَ، وندبَهم وهو يُبايع ثلاثًا، فلم ينتدِبْ أحدٌ إلى فارسَ، وكانوا أثقَلَ الوُجوه على المسلمين، وأكرهها إليهم لشدّة سُلطانهم وشَوْكتِهم، فلمّا كان اليَوم الرابع ندب النَّاس إلى العِراق، فكان أوّل منتدَب أبو عُبَيْد بن مَسعود الثَّقفيّ، وهو والد المُخْتَار[2]، وسعد بن عُبَيدةَ الأنصاريّ، وسَلِيط بن قَيس، وهو بَدْريّ.

وتتابع النَّاس، وتكلَّم المثنَّى بنُ حارثة، فقال: أيّها النَّاس، لا يعظُمنَّ عليكم هذا الوجه، فإنا قد فَتَحْنَا ريف فارَس، وغلبْناهم على خَيْر شِقَّي السَّواد، ونِلْنا منهم، واجترأنا عليهم، ولَها إن شاء اللّهُ مَا بَعْدَها. فاجتمع النَّاسُ. وقيل لعمر: أمِّر عليهم رجلًا من التَّابعين من المهاجِرين والأنصار، فقال: والله لا أفعَل، إنَّما رَفَعهم الله تعالى بسَبْقِهم ومُسَارَعتهم إلى العَدُوّ، فإذا فعل فعلَهم قومٌ، وتَثاقَلوا هُمْ، كان الَّذين ينفِرون خِفافًا وثِقالاً ويَسْبِقون أوْلَى بالرِّياسة، واللّهِ لا أُؤَمِّر عليهم إلاَّ أوَّلَهم انتدابًا، ثم دعا أبا عُبَيدٍ وسَعْدًا وسَلِيطًا. وقال لسَعْد وسَلِيط: لو سبقْتماه لولَّيْتُكما، وأمَّرَ أبا عُبيدٍ، وقال له: اسمَع من أصحاب رسولِ الله ﷺ، وأشرِكْهم في الأمر، ولم يَمنعْني أن أُؤَمِّر سَليطًا إلاَّ سُرْعته إلى الحَرْب، وفي التسرُّع إلى الحَرْب ضَياع، وأوصَى أبا عُبيد بجُنْده.

---

(١) ندب الناس: دعاهم.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي من زعماء الثائرين على بني أمية، وكان يقال له كيسان، وإليه تنسب الطائفة الكيسانية. توفي سنة ٦٧ هجرية.

وأمَر عُمر المثنَّى بالتقدُّم حتى يقدَم عليه أصحابُه، وأمَرَهم باستنفار مَنْ حَسُن إسلامه من أهلِ الرِّدة، فَفعلوا، وسار المثنَّى فقَدِم الحِيرةَ في عشرٍ، وقَدِم أبو عُبيد بعدَه بشهر.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر وقعة النمارق

كانت هذه الوقعةُ في سنة ثلاثَ عشرةَ، وذلك أن بُوران كانت يومَئذ على الفُرْس، فأرسلَت إلى رُستم بن الْفَرُّخزاذ ـ وكان على فَرْج خُراسان ـ فَحضرَ، فتوَّجَتْه، ودَعَت مَرازبةَ[1] فارِس أن يَسمَعوا له ويُطيعوا، فدانتْ له فارِس، فكَتَب رُسْتم إلى الدَّهَاقِين أن يثُوروا بالمسلمين، وبعث في كلِّ رُسْتاق[2] رجلاً يَثُور بأهْله، فبعث جَابان إلى فرات بادَقْلَى، وبعث نرْسي إلى كسْكَر، وواعدهم يومًا، وبعث جُندًا لمُصادَمة المثنَّى، وبلَغ المثنَّى الخبر فَحذِر، وعَجِل جابان وَنزَل النَّمارق[3]، وثارُوا، وخرج أهلُ الرَّسَاتيق مِن أعلى الفُرات إلى أسفله، وخرج المثنَّى من الحِيرة، فَنزَل خَفَّان لئلاَّ يُؤتَى من خَلْفِه، وأقامَ حتى قدِم عليه أبو عُبَيد، فلمّا قَدم أقام أيّامًا ليستريح هو وأصحابه، واجتمع إلى جابان بَشَرٌ كثير بالنَّمَارق، فسار إليه أبو عبيد، وجعل المثنَّى على الخَيْل، وكان على مُجَنِّبَتَيْ جابان جُشنس ماه ومَرْدَانْشَاه، فالتَقَوْا وَاقتتَلوا بالنَّمارق قتالاً شديدًا، فهَزَمَ اللّهُ الفُرْسَ، وأُسِرَ جَابان؛ أسره مَطَرُ بن فِضَّة التَّيْمي، وأُسِرَ مردانْشَاه، أَسَره أُكْتل بن شَمَّاخ العُكْليُّ فَقتَله. وأمّا جابان فإنَّه خَدَع مطرًا، وقال: هَلْ لك أن تؤمِّنني، وأُعْطِيكَ غلامين أمْرَدَيْن خفيفَين في عَمَلك، وكذا وكذا؟ فخَلَّى عنه، فأخذَه المسلمون، وأتوْا به أبا عُبَيد، وأخبَروه أنَّه جابان، وأشارُوا عليه بقتْله؛ فقال: إنِّي أخاف الله أنْ أقتُلَه، وقد أمَّنه رجلٌ مُسلِم، والمسلمون كالجَسَد الواحد، ما لَزِم بعضَهم فقد لزِم كُلَّهم، وتَرَكَه.

وأرسَلَ في طلب من انهزم حتى أدْخَلوهم عسكر نَرْسى وقَتَلوا منهم. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المرزبان: رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم، وهو دون الملك في الرتبة. جمع مرازبة.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والأستان. . . (مقدمة معجم البلدان).

(٣) النمرق: الوسادة الصغيرة يتكأ عليها، جمع نمارق. أو الطنفسة التي فوق الرحل.

ذكر وقعة السقاطية[١] بكسكر

ولما لحق من انهزم من الفرس بكَسْكَر وبها نَرْسى، وهو ابن خالة الملك، سار أبو عبيد إليهم من النَّمارق، والمثنَّى في تعبئته التي قاتل فيها، وكان على مجنِّبَتَيْ نَرْسى بندَوَيْه وتِيرَوَيه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل باروسْما[٢] والزَّوابي[٣]، وكانت بُوران ورُسْتم قد بلغهما خبر هزيمة جابان، فبعثا الجالينوس إلى نَرْسى مددًا، فعاجلهم أبو عُبيد، فالتقوْا من مكان يُدعَى السَّقاطيَة، فاقتَتَلوا قِتالاً شديدًا، ثم انهزمت الفرْسُ، وهَرب نرسى وغَلَب المسلمون على عَسْكَره وأرضِه، وجَمعوا الغنائم.

وأقام أبو عُبيد وبعث المثنَّى إلى باروسما، وبعث والِقًا إلى الزَّوَابي، وعاصمًا إلى نهر جُور، فهزموا من كان قد تجمّع هناك وأخربوا، وسَبَوْا أهل زَنْدَوَرْد وغيرها، وبذل لهم فَرُّوخ وفروندَاذ على أهل باروسما والزَّوابي وكَسْكر ونهر جَوْبَر[٤] الخراج مُعَجَّلاً، فأجابوه إلى ذلك وصارُوا صُلْحًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيّدنا محمد.

ذكر وقعة الجالينوس

قال: ولمَّا بعث رُسْتُم الجالينوسَ سار فنَزَل بباقُسْياثا من بارُوسْمَا، فسار إليه أبو عُبَيد، وهو على تعبِئته فالتَقَوْا بها واقتَتَلوا، فَهزَم اللّهُ الفُرْس، وهَرَب الجالِينُوس، وغَلَب أبو عبيد على تلك النَّواحي، ثمّ ارْتَحَل حتى قَدِم الحِيرة.

ذكر وقعة قس الناطف
ويقال لها: وَقعة الجِسْر ووقعة المَرْوَحَة
ومقتل أبي عُبَيد وغيره

لما رَجَع الجالِينوس إلى رُسْتم منهزمًا، قال رُسْتم: أيُّ العَجَم أشَدُّ على العَرَب؟ قالوا: بَهْمَن جاذَوَيْه المعروفُ بذِي الحاجب ـ وإنَّما قيل له ذو الحاجب لأنَّه

---

(١) السقاطية: ناحية بكسكر من أرض واسط.
(٢) باروسما: الواو والسين ساكنتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما باروسما العليا وباروسما السفلى من كورة الأستان الأوسط. . . (معجم البلدان).
(٣) الزوابي: في العراق أربعة أنهار: نهران فوق بغداد ونهران تحتها، يقال لكل واحد منها الزاب، وتجمع الزوابي على غير قياس، وقياسه أزواب أو زيبان. . . (معجم البلدان).
(٤) جوبر: بالراء: قرية بالغوطة من دمشق وقيل نهر بها وهو المراد هنا.

كان يَعصِب حاجبَيْه بعِصابة ليَرفَعها كِبْرًا - فوجّهه ومعه فِيلُه، ورَدَّ الجالينوس، وقال لبَهْمن: إن انهزم الجالينوس مرّة ثانيةً فاضرِب عنقَه. فأقبل بَهْمن جاذَوَيْهِ ومعه «دِرفس كابيان» راية كِسرَى، وكانت من جُلودِ النُّمور، طولها اثنا عَشرَ ذِراعًا في عرض ثمانيةِ أذرُع، فنزَلَ بقُسّ النَّاطف، وأقبل أبو عُبَيد فنزل بالمَرْوَحَة، فرأت امرأتُه دومة أُمّ المختار أنَّ رجلًا نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عبيد ومعه نفر، فأخبرت أبا عُبيد بما رأت؛ فقال: هذه إنْ شاء الله الشَّهادة، وعَهِد إلى النَّاس وقال: إنْ قُتِلتُ فَعلى النَّاسِ فلانٌ، فإن قُتِلَ فَفلانٌ. . . حتى أمَّر الَّذين شربوا من الإناء، ثم قال: إن قتل أبو القاسم فعلى النَّاس المثنَّى. وبعث إليهم بَهمن جاذويه يقول: إمّا أن تَعبُروا إلينا ونَدَعَكم والعُبور، وإمّا أن تَدَعُونا نعْبُره إليكم؛ فنهاه الناس عن العبُور، فأبَى وتَرَكَ الرأي، وقال: لا تكونوا أجرأ على الموت مِنّا، فعبرَ إليهم على جِسْر عقده ابن صَلُوبا للفريقين، فالتقوا واقتتلوا، فلمّا نظرت الخيُول إلى الفِيَلة وإلى خَيْل الفُرْسِ، عليهم التَّجافيف[1]، رأت شيئًا منكرًا لم يكُنْ رأتْ مِثلَه، فلم تُقدِم عليهم، فاشتدَّ الأمر على المسلمين، فترجَّل أبو عُبيد والناس، ثم مَشوْا إليهم فصافَحوهم بالسُّيوف، فجعلتْ الفِيَلة لا تَحمل على جماعةٍ إلاَّ دفعتْهم، فنادى أبو عبيد: احْتوِشُوا[2] الفِيْلة واقطعوا بُطَنَها[3]، واقلبُوا عنها أهلَها؛ ووثب هو على الفِيلِ الأبيَض فقَطع بِطانَه ودفَع الَّذين عليه، وفعل القومُ مثلَ ذلك، فما تركوا فِيلًا إلاَّ حَطُّوا رَحْلَه، وقَتَلوا أصحابه. وأهوى الفيلُ لأبي عُبيد فضرَبَه أبو عُبيد بالسَّيف، وخبَطَه الفيلُ بيَده فوَقع فَوْطِئه وقامَ عليه، فلمّا بصُر به الناسُ تحتَ الفِيل خشَعتْ أنفُسُ بعضِهم، ثمّ أخَذ اللّواءَ الَّذي كان أمَّرَه بعده، فقاتل الفيلَ حتى تنحَّى عن أبي عُبَيد، فاجترّه[4] المسلمون فأحرَزُوه، ثم قَتَلَ الفِيلَ الأميرُ الَّذي بعد أبي عبيد، وتتابَع سبعةٌ من ثقيف كلهم يأخذ اللّواءَ ويقاتل حتَّى يموت، ثم أخذ المثنَّى اللواءَ فهرب عنه النَّاس، فلمّا رأى عبدُ الله بنُ مَرْثَد الثَّقفيُّ ذلك بادر إلى الجِسْر فقطعه، وقال: أيها النَّاس، مُوتُوا على ما مات عليه أُمراؤُكم أو تَظْفَروا. وحازَ المشركون المسلِمين إلى الجِسْر، فتواثب بعضُهم إلى

---

(١) التجفاف: ما يلبسه المحارب كالدرع؛ أو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب. جمع تجافيف.

(٢) تحوّش: تنحى.

(٣) البطان: حزام يشد على البطن. جمع أبطنة وبطن.

(٤) اجتر الشيء: جذبه.

الفُرات فَغرق، وحَمَى المثنَّى وفُرسانٌ من المسلمين الناسَ، وقالت أبو زُبَيْد الطائيّ حَمِيَّةً للعَرَب، وكان نَصْرانيًّا، ثم جاء الْعُلوجُ[1] وعقدوا الجِسْر، وعَبر النَّاسُ، وكان آخر من قُتِل عند الجِسْر سَليط بنُ قَيْس، وعَبَر المثنَّى وحَمَى جانِبَه، فلما عَبرَ ارْفَضَّ عنه أهلُ المدينة، وبقي المثنَّى في قِلةٍ، وكان قد جُرِحَ وأُثْبِتَ فيه حَلَق من دِرْعه. وهَلَك من المسلمين أربعة آلافِ بين قتيلٍ وغريقٍ، وهربَ أَلْفان وبقي ثلاثة آلاف، وقُتِل من الفُرس ستَّة آلاف، وأخْبِرَ عمرُ عمّن سارَ في البلاد استحياءً من الهزيمة، فاشتدّ ذلك عليه، وقال: اللَّهم إنَّ كلَّ مُسلِم في حِلٍّ مني، أنا فِئَةُ كلِّ مسلم، يرحم الله أبا عُبَيد! لو كان انحاز إليّ لكنت له فِئةً[2].

قال: وأراد بَهْمَن جاذَوَيْه الْعُبورَ خلْفَ المسلمينَ فأتاهُ الخَبَر باختلاف الفُرْس، وأنَّهم قد ثاروا بِرُسْتم، فرجع إلى المَدائن.

وكانت هذه الوَقْعة في شعبانَ سنة ثلاث عشرةَ. والله سبحانه وتعالى أعْلَم.

ذكر وقعة أُلَيس الصغرى

قال: لمّا عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومَرْدَانْشاه بما جاء به من الخبر فخرجا حتى إذا أخَذَا بالطريق، وبلغ المُثَنَّى فِعلُهما، فاستخلَف على النَّاس عاصمَ بنَ عمر، وخرج في جَريدة[3] خيلٍ يريدُهما، فَظَنَّا أنَّه هارب، فاْعتَرَضاه، فأَخَذهما أسِيرَيْن. وخرج أهل أُلَّيس على أصحابهما فأتَوْه بهِمْ أسْرى، فعقد لهم بها ذِمَّةً، وقتَلَهما وقَتلَ الأسرَى. والله تعالى أعلَمُ.

ذكر وقعة البويب[4]

ولما بلغَ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه وقعةُ الجِسْر، نَدَبَ الناسَ إلى المُثَنَّى، وكان فيمن نَدَب بَجيلة، وأمْرُهُم إلى جَرير بنِ عبد الله، فأتَوا العراقَ، وقالوا: لا نَكون إلاّ بالشَّام، فعزَم عليهمْ عمرُ ونَفَّلَهم رُبع الخُمْس، فأجابُوا، وسيَّرهم إلى

---

(١) العلج من الرجال: الشديد الكثير الصّرع لأقرانه. جمع علوج وأعلاج.
(٢) فئة: موئل.
(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.
(٤) البويب، بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب أيضًا: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات.. وهذا هو المراد هنا.

المُثَنَّى، وبعثَ عِصْمة بن عبد الله الضَّبّيّ فيمن معه، وكتبَ إلى أهل الرِّدّة فلم يأتِه أحدٌ إلاَّ رَمَى به المثنَّى. وبعث المثنَّى الرُّسُلَ إلى مَنْ يَليهِ من العَرَب، فتوافَوْا إليه في جَمْع عظيم، وكان فيمن جاءه أنَس بن هلال النَّمَريّ في جَمْع عظيم من النَّمِر، نَصارَى، وقالوا: نُقاتلُ مع قومنا. وبلغ الخبر رُسْتُم والفيْرُزان فبعثَا مِهْران الهَمَذانيّ إلى الحِيرة، فسمع المثنَّى ذلك وهو بين القادسيّة وخَفَّان، فاستبْطَن فُراتَ بادَقْلَى، وكتب إلى جرير وعِصْمة ومَن أتاه من الأمداد بالخَبَر، وأمَرهم بقَصْدِ البُوَيْب، ومِهْران بإزائه من وراء الفُرات، فاْجتمع المسلمون بالبُوَيْب مِمَّا يَلي الكوفة اليومَ، وأرسلَ مِهرانُ إلى المثنَّى يقول: إما أن تَعْبُرَ إلينا، وإمّا أن نَعْبُرَ إليكَ، فقال المثنَّى: اعبرُوا، فعَبَر مِهران فَنزل بشاطىء الفُرات، وعَبَّى المثنَّى أصحابَه، وكان في شهر رمضان، فأمرهم بالإفطار ليقوَوْا على عَدوّهم، فأفطَروا، وأقبَل الفُرس في ثلاثة صُفوفٍ، مع كلِّ صفٍّ فِيلٌ، ورجّالتهم أمامَ فِيَلِهم، ولهم زَجَلٌ[١].

فقال المثنَّى: إنَّ الذي تسمعون فَشَل، فالزَموا الصَّمت، ثم التقوْا، واقتَتَلوا أشدَّ قتالٍ وأعْظَمه، فقُتِل مِهْران؛ قتله غلام نصرانيّ من تغلِب، واستولى على فرسه، فجعل المثنَّى سَلَبَه لصاحب خَيْله، وكان التَّغْلَبيّ قد جلب خيلاً هو وجماعةٌ من تغلِب، فلمّا رأوا القتالَ قاتلوا مع العرب، وانهزمت الفُرْسُ، وسبقَهم المثنَّى إلى الجِسْر فاْفترق الأعاجمُ مُصعِدين ومنحدِرين، وأخذتْهم خيولُ المسلمين، وقُتِل منهم قَتلَى كثيرة، فكانوا يَحْزُرون[٢] القتلَى مائةَ ألف، وسُمِّيَ ذلك اليوم يومُ الأعْشار، وأُحْصِي مائةُ رَجُل، قتلَ كُلُّ رجل منهم عَشرَة. وتَبِعهم المسلمون إلى اللَّيل، ومن الغد إلى اللَّيل، وأرسلَ المثنَّى الخيلَ في طلب العَجَم، فبلغوا السَّيب[٣]، وغَنِموا من الغنائم والسَّبْي والبقرِ شيئًا كثيرًا، فقسَّمه المثنَّى فيهم، ونَفَّل أهلَ البَلاء، وأعطَى بَجِيلةَ رُبْع الخُمس. وأرسَل إليه الَّذين تَبِعوا من اْنهزَم يعرِّفونه بسلامتهم، وأنّه لا مانعَ دون القوم، ويستأْذنونه في الإقدام، فأذِن لهم، فأغَاروا حتى بلغوا ساباط؛ فتحصّن أهلُه منهم، واْستباحوا القُرَى، ورجعَتْ مَسالِحُ الفُرْس إليهم، وسرَّهم أنْ يَتْرُكوا ما وراء دِجْلة.

---

(١) زجل: أي صوت. (٢) الحزر: التخمين.

(٣) السّيب: أصله مجرى الماء كالنهر: وهو كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا عند قصر ابن هبيرة.. والسيب أيضًا: نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة... (معجم البلدان).

ذكر خبر سوقي الخنافس[1] وبغداد

قال: ثم خلَّف المثنَّى بالحِيرة بَشِيرَ ابنَ الخصاصِيَّة، وسار يَمْخُر السَّواد، وأرسل إلى مَيْسانَ ودَسْت مِيسان، وأدْنى المسالِح، ونَزَل أُلَّيْس (قريةٌ من قرى الأنبار)، وجاء المثنَّى رجلان أحدُهما أنباريٌّ فدلَّه على سُوق الخَنافِس، والثاني حِيرِيّ ودلَّه على سُوقِ بغداد، فبدأ بسُوق الخَنافِس؛ لأنَّها كانت تقوم قبل سوق بَغداد، وكان يجتمع بها تُجّار مَدائِن كِسرى والسَّواد، وتَخفِرهم[2] ربيعةُ وقُضاعةُ؛ فأغار المثنَّى على الخنافِس يومَ سُوقها، فانتسف السُّوقَ وما فيها، وسَلب الخُفَراء، ثم رجع فأتَى الأنبارَ، فنزل أهلُها إليه، وأتَوْه بالأعْلاف والزَّاد، وأخذ منهم الأدِلاَّءَ على سُوق بَغْداد، وسار ليلاً، فصبَّحهم في أسواقهم فوضع السَّيفَ فيهم، وأخذَ ما شاء، وقال لأصحابه: لا تأخذوا إلاَّ الذهبَ والفضَّة والحُرَّ من كلِّ شيء، ثم عاد راجعًا حتى أتَى الأنبار، وكان مَنْ خلفه من المسلمين يَمخُرون السَّواد، وَيشُنُّونَ الغاراتِ ما بين أسفلِ كَسْكَر وأسفلِ الفُرات، وجسور مِثْقب إلى عَيْنِ التَّمْر، ولمَّا رَجَع المثنَّى إلى الأنبار بعثَ المُضَاربَ إلى الكَباث، وعليه فارس العُنَّاب التَّغلَبيّ، ثم لحِقهم المثنَّى فسار معهم، فوجدوا الكَباث وقد سار من كان به عنه، فسار المسلمون خلفَهم، فقتَلوا في أُخْريَات أصحاب فارس العُناب، وأكثروا القتلَ ورجَعوا إلى الأنبار، وسرّح المثنَّى فُرات بن حيّان التغلَبي وعُتَيْبَة بن النهَّاس، وأمَرَهما بالغارة على أحياء بني تَغْلِب بصِفِّين، ثم اتَّبعهما واستَخلَف على النَّاس عَمرو بنَ أبي سُلْمى الهُجَيْميّ، فلما دَنَوْا من صِفِّين فرَّ مَنْ بها، وعَبَروا الفُرات إلى الجزيرة وفَنِيَ الزَّاد الَّذي كان مع المثنَّى وأصحابِه، فأكَلوا رواحلَهم إلاَّ ما لا بُدَّ منه حتَّى جلودَها، ثم أدركوا عِيرًا من أهل دَبَا[3] وحوْران فقتلوا مَنْ بها، وأخَذوا ثلاثةَ نفرٍ من تَغْلِبَ كانوا خُفَراء، وأخذوا العِير فقال لهم المثنَّى: دُلُّوني؛ فقال أحَدُهم: أمِّنوني على أهلي ومالي، وأدُلُّكم على حَيٍّ مِنْ تَغْلِب، فأمَّنه المثنَّى، وسار بهم يَوْمه، فهَجمَ العَشِيَّ على القوم والنَّعَم[4] صادِرَةٌ عن الماء، وأصحابها جلوس بأفْنِيَة البيوت، فقَتَل المقاتِلة، وسَبَى الذُّرِّية، واستاقَ الأموال.

(١) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب..

(٢) تخفرهم: تجيرهم وتحميهم.

(٣) دبا: سوق من أسواق العرب بعمان.. وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عمان...

(٤) النعم: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الابن.

وأُخبِر المثنّى أنّ جُمهور مَن سلَك البلادَ قد انتجع[١] شاطىء دِجْلة؛ فخرج المثنّى وعلى مجنّبتيه النّعمانُ بنُ عَوْف ومَطَر الشَّيْبانِيّان، وعلى مقدّمته حذيفة بن مِحصَن الغَلْفانيّ، فساروُا في طَلبهم فأدركُوهم بِتَكْرِيت، فأصابوا ما شاؤُوا من النَّعَم، وعادُوا إلى الأنْبار.

ومَضَى عُتَيْبةُ وفُرات ومَنْ معهما حتّى أغاروُا على صِفّين، وبها النمِر وتَغْلِب متساندَين، فأغاروا عليهم حتى رمَوْا طائفةً منهم في الماء، فَجعلوا ينادُونهم: الغَرَق الغَرَق! وجَعَل عُتيبة وفرات يُذمران[٢] النّاسَ وينادِيانهم: تَغْريق بتَحْرِيق! يذكّرانهم يَوْمًا من أيّام الجاهليّة، كانوا حرّقوا فيه قومًا من بكرِ بنِ وائلَ في غَيْضة من الْغِياض. ثم رجعوا إلى المثنّى وقد غرّقوهم. فبلغ ذلك عُمر، فبَعث إلى عُتَيبة وفُرات، فاستدعاهما وسألهما عن قولهما، فأخبَراه أنّهما لم يَفْعلا ذلك على وَجْه طلب ذَحْل[٣]، إنّما هو مَثَلٌ، فاستحلَفهمَا على ذلك ورَدَّهما إلى المُثنّى.

وكانت هذه الوقائعُ الّتي ذكرناها بالعِراق في سنة ثلاثَ عشرة. ثمّ كانت وقعةُ القادسيّة، والله أعلم.

ذكر خبر القادسية وأيامها

كان ابتداءُ أمرِ القادسيّة أنّ الفرسَ لمّا مات مَلِكُهَا أزْدَشير تفرّقتْ آراؤُهَا، وكان المسلمون قد فَتَحوا من بلادهم ما ذكرناه في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في حياة أزْدَشير، ثم تابعوا الغارات عليهم، فاجْتمعَت الفرسُ وقالوا لِرُسْتُم والفَيْرُزان - وهما على أهلِ فارس -: لا زال بكما الاختلاف حتى أوْهَنْتُما[٤] أهلَ فارس، وأطمعْتُما فيهم عَدوَّهم.

فاجتمعوا واستدعوْا نِساء كِسْرى وسَرارِيّه، وكشفوا عمَّن بَقِيَ مِنْ نَسْلِ الملوك الأكاسرة، فَدلُّوهم على يَزْدَجِرْد، من ولد شَهْريار بن كسرى، فاستدعَوْه وملّكوه عليهم وأطاعُوه. فَبلغ خبرُهم المثنّى بن حارثة، فكتب بذلك إلى عمر، فلم يَصل الكتابُ حتّى نَقَض من كان له عَهْدٌ من أهل السَّوادِ، فخرج المثنّى حتّى نَزَل بذي قار، ونزل النّاس بالطَّفّ[٥] في عسكر واحدٍ.

---

(١) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ.
(٢) يذمران: يحضان.
(٣) الذحل: الوتر.
(٤) أوهن: أضعف.
(٥) الطفّ: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية، منها: الصيد، والقطقطانة، والرهيمة وعين جمل وذواتها... (معجم البلدان).

ولما وصل كتابُ المثنّى إلى عمر قال: والله لأضربنّ ملوك العجم بملُوك العرب؛ وكتب إلى عمّاله على العرب: ألاّ يَدعوا مَنْ له نجدةٌ أو رأيٌ، أو فرسٌ، أو سلاحٌ إلاّ وجَّهُوه إليه، وذلك في ذي القعْدة سنة ثلاث عشرةَ.

فاجتمع إليهِ النّاسُ، ولم يَدَعْ رئيسًا ولا ذا رأيٍ وشَرَف، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلاّ اَستشَارَهم في الخُروج بنفسه لغَزْوِ الفُرس، وأجمعَ رأيُ وجوهِ أصحاب النّبيّ ﷺ أن يَبعث رجلاً من المسلمين وَيَضُمَّ إليه الجُنودَ، واتّفَقَ رأيُهم على سعد بن أبي وَقَّاص، وكان على صَدَقَات هَوازِن، فكَتبَ إليه عمرُ بانتخاب ذَوِي الرأي والنَّجْدةِ والسِّلاح، فجاء كتابه إلى عمر يقول: قد انتخبتُ لك ألفَ فارسٍ، كُلُّهم له نجدةٌ ورأيٌ؛ إليهم انتهَتْ أحسابُهم. فأمره بحرب العراقِ وضمَّ إليه الجيوش، فخرج في أربعة آلافٍ، وأمدَّه عمَرُ بعد خروجِهِ بألفَيْ يمانيّ، وألفيْ نجديّ. وكان المثنّى بنُ حارثَة في ثمانيةِ آلافٍ، فلمّا سار سعدٌ تُوُفِّيَ المثنّى قبل وصولِه، واجتمع مع سعدٍ ثمانيةُ آلافٍ، ثم أتته قبائلُ العَرَبِ، فكان جميعُ من شَهِدَ القادسيّة بضعةً وثلاثين ألفًا؛ منهم تسعةٌ وتسعون بَدْريًا، وثلاثمائة وبضعة عشر مِمَّن كانت له صحبةٌ فيما بَيْن بيْعةِ الرِّضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة مِمَّن كان شَهِدَ الْفَتْح، وسبعمائةٍ مِنْ أبناء الصَّحَابة، فعبَّأهم سَعْدُ بنُ أبي وقّاص، وأمّر الأُمراء، وعرَّف على كلِّ عشرة عريفًا، وجَعَل أهلَ السَّابقة على الرَّايات؛ وسار بالجيوشِ حتى نزل القادسيَّة بين العتيق والخَندق بحيال القنطرةِ، وأقام بها شهْرًا لم يأْتِهِ من الْفُرس أحدٌ، فأرسلَ عاصِمَ بن عمرو يطلبُ غنمًا أو بقرًا، فلم يقْدِر عليها، وتحصَّنَ مِنه مَنْ هُناكَ، فأصاب رَجُلاً بجانب أَجَمةٍ[1]، فسألَه عن البقرِ والغنم، فقال: لا أعلم؛ فصاح ثَوْرٌ من الأَجَمَةِ: كذبَ عَدُوُّ الله، ها نحن، فدخل عدوُّ اللّهِ، فاَستاق البقَرَ وأتى بها العسكر، فقسَّمَهَا سعْد على النّاس. ثم بَثَّ الغارات بَيْن كَسْكر والأنبار، فَحَوَوْا من الأطْعمةِ ما قام بهم زمانًا، فاستغاث أهلُ السَّواد إلى يَزْدَجِرد وقالوا: إمّا أن تَدفع العَرب، وإمّا أن نُعطِيَهم ما بأيدينا، فأرسلَ إلى رُسْتُم وأمره بالمسير للقاء المسلمين، فاستعفاه من ذلك وسأله أن يُجهِّزَ الجالِينوس، فأبى يَزْدَجرد إلاّ مسيرَه، فعَسْكر بسَاباط[2]، ثم استعفاه ثانيةً من المَسير، فأبَى عليه.

---

(١) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف.

(٢) ساباط: ساباط كسرى موضع معروف بالمدائن، وقد سمي ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسمّي به. . . وقيل: ساباط بليدة معروفة بما وراء النهر قرب أشروسنة على عشرة فراسخ من خجند وعلى عشرين فرسخًا من سمرقند. . . (معجم البلدان).

واتَّصَلَت الأخبار بسعد، فكتب إلى عمرَ فأجابه: لا تكرِبنَّك ما يأتيك عنهم، واستعِنْ بالله، وتوكَّلْ عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المُناظَرةِ والجَلَد يَدْعونه، فإنَّ الله تعالى جاعلٌ دعاءَهم تَوْهِينًا لهم؛ فأرسلَ نفرًا، منهم: النُّعمانُ بن مُقرِّن، وبُسْر بن أبي رُهْم، وحَمَلة بن جُوَيّة، وحَنْظلة بن الربيع، وفُرات بنُ حَيَّان، وعَدِيّ بنُ سُهَيل، وعُطارِد بن حاجب، والمغيرةُ بنُ زُرارة الأسَديّ، والأشعثُ بنُ قيس، والحارث بنُ حسّان، وعاصم بنُ عمرو، وعَمرو بنُ مَعدي كَرِب، والمغيرةُ بنُ شُعبة، والمُثنَّى بنُ حارثة، إلى يَزْدَجِرد دُعاةً، فقَدِموا عليه، فأحضَرَ وُزراءه، وأحضَرَ رُسْتُم، واستشارهم فيما يقول لهم، واجتمع النَّاسُ ينظرون إليهم، ثم أذِنَ إليهم، وأحضَر التَّرجُمان، وقال له: سَلْهُم ما جَاء بكم؟ وما دَعاكُم إلى غَزْونا، والوَلوع ببلادِنا؟ من أجل أنَّنا تَشاغلْنا عنكم اجترأتُم علينا! فقال النُّعْمَان بنُ مُقرِّن لأصحابه: إنْ شئتم تكلَّمتُ عنكم، ومن شاء آثَرْتهُ. قالوا: بل تكلَّم؛ فقال: إنَّ الله رَحِمَنا، فأرسَل إلَيْنا رسولاً يأمُرنا بالخير، وينهانا عن الشَّرّ، ووَعَدَنا عَلَى إجابَتِه خيرَ الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلةً إلاّ وقارَبَه منها فِرْقة، وتباعَدَ عنه فِرقة، ثم أمر أن نَبْتدىء إلى من خَالَفَه من العرب فبدأْنا بهم، فدَخلوا معه على وجهَيْن؛ مكرهٌ عليه فاغتبَطَ، وطائعٌ فازداد، فعرَّفْنا جميعًا فَضْلَ ما جاء به على الّذي كنَّا عليه من العَداوةِ والضِّيقِ، ثم أمَرَنا أن نبدأ بمَنْ يَلِينا من الأُمَم فَنَدْعُوَهم إلى الإنصاف، فنحن نَدْعُوكم إلى ديننا، وهو دين حَسَّن الحسَنَ، وقبَّح القبيحَ كلَّه، فإن أبَيْتم فأمرٌ من الشَّرِ هوَ أهوَنُ من آخر شرٌّ منه، الجِزْية، فإن أبَيْتم فالمناجَزة، وإنْ أجبتم إلى دِيننا خَلَّفْنا فيكم كتابَ اللّهِ وأقَمْنا عليه، على أنْ تَحكُموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشَأْنَكم وبلادَكم. وإن بَذَلْتُم الْجِزية قبِلْنا ومَنَعنَاكم، وإلاَّ قاتَلْناكم.

فتكلَّم يزدجرد فقال: إنِّي لا أعْلَمُ أُمّةً في الأرض أشْقى ولا أقلَّ عَدَدًا، ولاَ أسْوَأَ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قَدْ كُنَّا نُوكِلُ بكمْ قرى الضَّوَاحي فيَكفُوننا أمْرَكم، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غَدْرٌ لحِقكم فلا يغرَّنكم منَّا، وإن كان الجَهْد فرضنا لكم قُوتًا إلى خِصْبكم، وأكرمنا وُجوهكم وكَسَوْناكم، وملَّكنا عليكم مِلِكًا يَرْفُقُ بكم. فأسْكَتَ[1] القوم.

فقام المغيرةُ بنُ زُرارة فقال: أيّها الملك؛ إنَّ هؤلاء رؤوسُ الْعَرَبِ وَوُجوهُهُم، وهم أشرافٌ يستحْيُون من الأشراف، وليس كلَّ ما أُرسِلُوا به قَالُوه، ولاَ كلَّ ما

---

(١) أسكت: بمعنى سكت.

تَكَلَّمْتَ به أجَابُوكَ عليه، فجاوبني لأكُون الّذي أُبلغك وهم يشهدون على ذلك. وأمَّا ما ذكرتَ من سوءِ الحالِ فهي على ما وصَفت أو أشَدّ، ثمّ ذكر مِن سوءِ عَيْشِ العَرَبِ، وإرسالِ النبيّ ﷺ إليهم نحوَ قول النُّعمان، وقتالِ من خالَفَهم أو الْجِزية؛ ثم قال: اختَرْ إن شِئْت الجزيةَ عن يَدٍ وأنت صَاغر[1]، وإن شئتَ السيفَ، أو تُسْلِم فتنجّيَ نَفْسَك.

فقال: لولا أن الرّسل لا تُقتَل لَقَتَلْتُكم، ثم قال: لا شيء لكم عندي؛ واستدعى بوِقْرٍ[2] من تُرابٍ، فقال: احمِلوه على أشرَف هؤلاء ثمّ سُوقوه حتّى يَخرج من باب المدينة. ارجعُوا إلى صاحبِكم فأعلِموه أنّي مُرسِلٌ إليكم رستم حتى يَدفنَكم ويدفنَه معكم في خندق القادسيّة، ثم أُورِده بلادَكم حتّى أُشغِلكم في أنفسكم بأشدّ مما نالكم من سابور.

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب، وقال: أنا أشرفهم، أنا سَيِّد هؤلاء؛ فحمله على عُنقِه وخرج إلى راحلتِهِ فركبها وأخذ الترابَ، وقال لسعد عند عَوْده: أبشرْ فقد وَالله أعطانَا الله أقاليدَ[3] ملكهم.

وقال يَزدجرد لرُستم: ما كنتُ أرى أنَّ في العَرب مِثلَ هؤلاء، ما أنتم بأحسَن جوابًا منهم، ولقد صدَقَني القومُ، لقد وَعَدوا أمرًا لَيُدرِكنّه أو ليموتُنَّ عليه، على أنّي وجدت أفْضَلهم أحْمَقَهُم حيث حَمَل التُّرابَ على رأسه.

فقال رستم: أيُها الملك؛ إنّه أعقلُهم. وخرج رستم وبَعَث في أثر الوفد، وقال لثِقَته: إن أدركَهم الرّسولُ تلافَيْنَا أرضنا، وإن أعزَزُوه سلبكُم اللّهُ أرضَكم. فرجَعَ الرسولُ من الحِيرة بفوَاتهم، فقال: ذهب القومُ بأرضِكم من غير شكٍّ، وكان منجِّمًا كاهنًا.

ولما سار الوفد أغار سوادُ بنُ مالك التّميميّ على النِّجاف[4] والفِراض[5]، فاستاق ثَلاثمائة دابّةٍ من بعير وحمارٍ وثورٍ، وأوْقَرَها[6] سَمَكًا، وصَبّح العسكرَ، فقسَّمه سعدٌ بين النّاس؛ فسمِّيَ يومَ الحيتانِ. وكانت السَّرايا تَسرِي إلى طلب اللُّحوم، فإنَّ الطَّعامَ كان كثيرًا عندهم، وكانوا يُسمُّون الأيّام بها، منها يومُ الأباقِر ويوم الحِيتان. وبعث سعد سَرِيّةً أُخرى، فأغاروا فأصابوا إبِلًا لبني تَغلِب والنَّمِر فاستاقوها.

---

(١) الصاغر: الذليل.
(٢) الوقر: الحمل الثقيل.
(٣) الأقاليد: المفاتيح.
(٤) النجاف لغة: شعاب الجبل التي يسكب منها الماء؛ والمراد هنا اسم موضع.
(٥) الفراض: موضع بين البصرة واليمامة، قرب فليج من ديار بكر بن وائل.
(٦) أوقر الدابة: حملها حملًا ثقيلًا.

وسار رستم من سابَاط، وبعث على مُقَدِّمتِه الجالِينُوس في أربعين ألفًا، وخرج هو في ستِّين ألفًا، وساقَته في عشرين ألْفًا، وجعل في المَيْمَنةِ الْهرْمُزان، وفي المَيْسرة مِهْران بن بهرام الرازيّ. وأرسَل سعد السَّرايا ورسْتُم بالنَّجَف، والجالينوس بين النَّجف والسَّيْلَحين. وطاف في السَّوادِ، فبعث سَوادًا وحُمَيْضَة كلَّ مِنهما في مائةٍ، فأغاروا على النَّهرين، وبلغ رستم الخبرُ، فأرْسَلَ إليهم خَيلاً، وسمع سعد أنَّ خيْلَه قد وغلتْ، فأرسل عاصِمَ بنَ عمرو وجابرًا الأزديَّ في آثارهم، فلحقهم عاصِمُ وخيْلُ فارس تَحوشُهم ليخلِّصوا ما بأيديهم، فلمَّا رأته الفُرْس هَرَبوا، ورجع المسلمون بالغنائم. وأرسل سَعْدٌ عمرو بن معْدِي كِرب وطليحة الأسديّ طليعةً، فسارا في عشرةٍ، فلم يسيروا إلاّ فَرْسَخًا وبَعْضَ آخرَ حتى رأوْا مسَالِحَهم وسَرْحهم[1] على الطُّفوف قد ملؤوها، فرَجع عَمرو ومن معه، وأبَى طُلَيْحَة إلاّ التقدّم، ومضى حتَّى دخلَ عسكرَ رسْتُم، وبات فيه، فهتك أطناب بَيْت رجل واقتاد فرسه، ثم هتك على آخر بيته وحلَّ فرسه، ثم فعل بآخر كذلك، ثم خرج يَعدُو به فرسُه، ونَذِرَ به[2] النَّاسُ، فرَكِبوا في طَلَبه، فأصبح وقد لَحِقَه فارسٌ من الجُنْد فقَتَله طُليحةُ، ثم آخرُ فقتله، ثم ثالث، فرأى مضرع صاحبيْه وهما أبنا عمِّه، فأزداد حَنَقًا، فلحق به طُلَيْحة، فكرَّ عليه طُلَيْحةُ فأسَرَه، ولحِقَ النَّاسُ، فرأوْا فارسَي الجندِ قد قُتِلا وأُسِرَ الثالث، وقد شَارَفَ طُلَيْحةُ عَسْكَره فأحجَموا عنه، ودخل طُلَيْحةُ على سعدٍ ومعه الفارس وأخبَرَه الْخبر، فسألَ التُّرجمانُ الفارسيَّ فطلبَ الأمانَ، فأمَّنَهُ سَعْد، فقال: أُخبركم عن صاحِبِكُم هذا قَبلَ أن أُخبِركم عَمَّنْ قُتِلَ؛ باشرْتُ الحروبَ منذ أنا غلامٌ إلى الآن، وسمعتُ بالأبطال، ولم أسمعْ بمثل هذا، أنَّ رجلاً قَطَع عَسْكَرين إلى عسكر فيه سبعون ألْفًا يَخدُم الرجلَ منهم الخمسةُ والعشرةُ، فلم يَرضَ أنْ يخرجَ كما دخلَ حتى سَلَب فُرْسانَ الجندِ، وهتَك عليهم البيوت، فلمَّا أدركنَاهُ قتلَ الأوَّلَ، وهو يُعدُّ بألفِ فارس، ثم الثَّانِي وهو نظيرُهُ، ثم أدركْتُهُ أنا، وما خلَّفتُ بعدي مَنْ يَعدلُنِي، وأنا الثَّائر بالقَتِيلين، فرأيت الموتَ وأَسْتُؤْسِرْتُ، ثم أخبره عن الْفرس. وأسلَم ولزِمَ طُلَيْحة، وكان من أهل البَلاء بالقادِسيَّةِ، وسمَّاه سعدٌ مُسلِمًا.

ثم سار رُسْتُم وقَدَّم الجالِينُوسَ وذا الحاجب حتى وَصَل إلى القادسيّة، وكان بينَ مَسيرهِ من المدائن ووصُوله أربعةُ أشهرٍ، رَجَاءَ أن يَضْجَروا فَيَنْصَرفوا، ووَقَف على العَتيق بحِيال عَسْكر سَعدٍ، وكان معه ثلاثةٌ وثلاثون فيلاً، منها فِيلُ سابورَ الأبيض،

(١) السرح: الماشية.
(٢) نذر به: علم به.

وكان الفِيلَة تألَفُه. وباتَ رُسْتُم ليلته. ثم أصبحَ وأرسل إلى سعدٍ أن أرسِلْ إلينا رجُلاً نكلِّمه ويكلمنا، فأرسل إليه ربعيّ بن عامر، فأظهر رستم زِينَتَهُ، وجلَسَ على سريرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وبَسَطَ البُسُط والنَّمارِق والوَسائد المَنسوجةَ بالذَّهَبِ، وأقبَلَ رِبْعيٌّ على فرسِه، وسَيْفُه في خرقةٍ، ورُمْحُه مشدودٌ بعَصَبٍ وقِدّ[1]، فلما انتهى إلى البُسُطِ قيل له: انزِلْ، فحمَل فرسَه عليها، ونزل وسطها بوسادتين شقَّهما، وأدخلَ الحبلَ فيهما، فلم ينهَوْه وأرَوْه التَّهوُنَ، وعليه درعٌ؛ وأخذ عباءَة بعِيره فتدرَّعَها وشَدَّها على وسطِه، فقالوا له: ضَعْ سلاحك؛ فقال: لم آتكم فأضعَ سِلاحِي بأمركم، أنتم دعوتموني، فأخبِروا رُسْتم؛ فقال: ائذَنوا له.

فأقبل يتوكَّأُ على رمحه ويُقارب خطوَة، فلم يدع نُمْرُقةً ولا بساطًا إلاّ أفسدَهُ وهتكه، فلمّا دنا من رستم جلس على الأرض، وأركزَ رُمْحَهُ على البُسطِ؛ فقيل له: ما حَمَلك على هذا؟ فقال: إنَّا لا نستحِلُّ القُعُود على زِينتِكم، فقال له التُّرجُمَانُ ـ واسمُه عَبُود من أهل الحِيرة ـ ما جاءَ بكم؟ قال: الله، وهو بعثنا لنُخرِج مَنْ يشاءُ من عباده من ضِيقِ الدُّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنا بدِينهِ إلى خَلْقِهِ، فمَن قَبِل ذلك قَبِلْنا منه، ورجَعْنَا عنه، وتركناه وأرْضَه، ومَنْ أباه قاتلناه حتى يَقْضِيَ اللّهُ إلى الجنَّةِ أو الظَّفَر.

فقال رستم: قد سمعْنا قولَكم، فهل لكم أنْ تؤخِّروا هذا الأمرَ حتَّى ننظرَ فيه؟ قال: نعم، وإنَّ مِمَّا سَنَّ لنا رسولُ الله ﷺ ألاّ نُمكِّن الأعداءَ أكثرَ من ثلاث، فنحن متردِّدُون عنكم ثلاثًا فانْظُرْ في أمرِك، واختَرْ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجَل: إمَّا الإسلامَ وندعَكَ وأرضَكَ، أو الجِزْيةَ فتقبلَ فنكُفَّ عنكَ، وإن احتجتَ إلينا نَصرْنَاكَ؛ أو المنَابذة[2] في اليوم الرّابع إلاّ أنْ تَبْدَأنَا، وأنا كفيلٌ بذلك عن أصحابي.

فقال: أسَيِّدُ أصحابكَ أنت؟ قال: لا، ولكنَّا كالجَسَدِ الواحدِ، بعضُنَا من بَعْضٍ، يُجِيرُ أدْنَانَا على أعلانا.

فخلا رُسْتم برؤساء قومِه، فقال: هل رأيتم أو سمعتم كلامًا قطُّ أعزَّ وأوضحَ من كلام هذا الرّجلِ؟ فقالوا: معاذَ الله أنْ نميلَ إلى دِين هذا الكَلْب، أما تَرَى إلى ثيابهِ! فقَال: وَيْحَكُم! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انْظُروا إلى الرأيِ والكلامِ والسِّيرة؛ إنَّ العربَ تستخِفُّ باللِّباسِ، وتَصُون الأحسَاب؛ ليسوا مِثْلَكُم.

---

(١) القدّ: السير يقد من لجلد لخصف النعال أو نحو ذلك، أو السوط.

(٢) المنابذة: المجاهرة بالحرب.

فلمّا كان من الغدِ أرسلَ رُستم إلى سَعْدٍ: أن ٱبعثْ إلينا ذلك الرجلَ، فبعثَ إليهم حُذَيْفَةَ بنَ مِحْصَن، فأقبل في نحوِ من ذلك الزّيّ، فلم ينزلْ عَنْ فَرسِه حتّى وقف على رُسْتُم. فقال له: انزل، قال: لا أفعل، فقال: ما جاء بك ولم يأتِ الأوّل؟ قال: إنَّ أميرَنا يُحِبُّ أنْ يَعدِلَ بيننا في الشّدةِ والرَّخاء، وهذه نَوْبَتِي. فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه نحو الأوّل. فطَلب رستُم الموادَعة إلى يومٍ ما. فقال: نعم، ثلاثًا من أمسِ، فردَّه.

وأقبَل رُسْتم على أصحابهِ فقال: وَيْحَكُم! ألا ترَوْن ما أرَى؟ جاءنا الأوّلُ بالأمس فَغَلَبَنا على أرضِنا، وحَقَّر ما نُعَظِّم، وأقام فرسَه على زِبْرِجِنا[1]؛ وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يُمْنِ الطائر، يقومُ على أرضِنا دُوننا.

فلمَّا كان الغدُ أرسلَ أن ٱبعَثُوا لنا رجلًا، فبعث إليهم المغيرةَ بنَ شُعْبة، فأقبلَ عليهم، وعليهم التِّيجانُ والثيابُ المنسوجةُ بالذهب، وبُسُطُهم على غَلْوةٍ[2] سَهْم، لا يُوصَل إلى صاحبهم حتى يُمشَى عليها، فأقبلَ المغيرةُ حتى جلسَ مع رُسْتم على سريره، فوثَبُوا عليه وأنزَلوه ومعكوه[3]؛ فقال: قد كان يبلغنا عنكم الأحلامُ[4]، ولا أرى قومًا أسْفَهَ منكم؛ إنَّا مَعشَر العَرَب لا يستَعْبِد بعضُنا بعضًا، فظننتُ أنَّكم تُواسُونَ قومَكم كما نَتَواسَى، فكان أحسنَ مِن الَّذي صنعتمْ أن تُخبِروني أنَّ بعضكم أربابُ بَعْضٍ؛ وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصْنعهُ أحد، وأنا لم آتكُم ولكن دَعَوْتُموني، اليومَ علمتُ أنَّكم مغلوبون، وأنَّ مُلْكًا لا يقومُ على هذه السِّيرةِ ولا على هذه العقُول.

فقالتْ السِّفِلَةُ[5]: صَدقَ واللهِ الأعرابيّ.

وقالت الدَّهاقين: والله لقد رَمَى بكلام لا يزال عبيدُنا يَنزِعون إليه، قاتل الله أوّلينا حين كانوا يُصغِّرون أمرَ هذه الأمّة!

ثمَّ تَكلَّمَ رُسْتُم، فحمِد قوته، وعَظَّم أمرَهم، وذكَرَ تَمكُّنَهم في البلاد، وقوّة سلطانهم، وذكر معيشةَ العرب وما هم عليه من الفَاقةِ[6]، وقال: كنتم تقصدوننا إذا قَحِطتْ بلادُكُم، فنأمر لكم بشيءٍ من التَّمرِ والشَّعير، ثم نردّكم، وقد علمتُ أنّه لم

---

(١) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر.
(٢) الغلوة: مقدار مرمى السهم.
(٣) معكوه: دلكوه بالتراب.
(٤) الحلم: العقل، جمع أحلام.
(٥) السّفلة من الناس: أسافلهم وغوغاؤهم.
(٦) الفاقة: الفقر والحاجة.

يَحملكم على ما صنعتم إلاَّ الْجَهْدُ[1] في بلادكم، فأنا آمُرُ لأميركم بكُسْوةٍ وبَغلٍ وألفِ دِرهم؛ وآمرُ لكلّ رجلٍ منكم بِوِقْرِ[2] تَمْرٍ وتنصرفون عنا؛ فإنِّي لست أشتهي أنْ أقتلكم.

فتكلَّم المغيرةُ، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه، وقال: إنَّ الله خَلَقَ كُلَّ شيءٍ وَرَزَقه، فمن صنع شيئًا فإنَّما هو بصُنْعه. فأمّا الَّذي ذكرتَ به نَفْسَك وأهلَ بلادِك فنحن نَعرفه، والله صنَعه بكم، ووضَعه فيكم، وهو له دُونكم؛ وأمَّا الَّذي ذكرتَ فينا من سوءِ الْحَالِ والضيقِ فلسنا نُنكِره، واللّهُ أبْتلانا به، والدُّنيا دُوَلٌ، ولم يزلْ أهلُ الرّخاء يتوقَّعُونَ الشدائدَ حتى تنزل بهم، ولو شَكَرْتُمْ ما آتاكم الله تعالى لكان شُكركم يَقْصُر عمّا أُوتِيتم، فأسلَمَكم ضَعفُ الشكر إلى تغيُّر الحالِ، ولو كنَّا فيما أبْتَلَيْنا به أهلَ الكُفْرِ لكان عظيم ما أبتلينا به مُسْتجلبًا من الله رحمةً يُرِدُّه بها عنَّا؛ إنَّ الله تبارَكَ وتَعالَى بَعثَ فينا رسولاً؛ ثم ذَكَرَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ من ذكر الإسلام، أو الجِزية، أو القتال، وقال: إنَّ عيالَنَا قد ذاقوا طعامَ بلادكم، فقالوا: لا صَبْر لنا عنه. فقال رُسْتم إذًا تَموتُون دُونه! فقال المغيرة: يَدْخُلُ من قُتِلَ منَّا الجنَّة، ومن قُتل منكم النار، ويَظفَر من بَقِيَ منَّا بمَن بقيَ منكم. فأستشاط رستم غضبًا، ثم حَلفَ ألاَّ يرتفع الصُّبحُ غدًا حتى أقتلَكُمْ أجمعين.

وأنصرف المغيرة، وخلا رُسْتم بأهلِ فارسَ وقال: أين هؤلاء منكم! هؤلاء والله الرِّجالُ، صادقين كانوا أمْ كاذبين! والله لَئِنْ كانَ بَلَغ مِنْ عَقْلِهِمْ وصَوْنِهم لَسَرَّهُمْ ألاَّ يَخْتَلِفُوا، فما قومٌ أبلغ لِما أرادوا منهم، وإن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء. فلَجُّوا[3] وتَجَلَّدوا، فقال: أطِيعوني يا أهلَ فارس؛ إنِّي لأرى للّهِ فيكم نِقْمةً لا تستطيعون ردَّها.

ثم أرسل إليه سعدٌ ثلاثةً من ذَوي الرّأْي، فقالوا له: إنَّ أميرنا يدعوك لما هو خيرٌ لنا ولك؛ والعافية أن تَقْبَل ما دعاك إليه، ونَرجعَ إلى أرضنا وتَرجعَ إلى أرضك، ودارُكُمْ لكم وأمركُم فيكم، وما أصبتُمْ كان زِيادةً لكم دُوننا، وكُنَّا عَوْنًا لكم على من أرادَكُمْ، فاتّقِ الله ولا يكوننَّ هلاكُ قومِك على يَدَيْك، وليس بينك وبين أن نَغْتَبطَ بهذا الأمر إلاَّ أنْ تَدخلَ فيه، وتطردَ به الشيطانَ عنك؛ فقال لهم: إنَّ الأمثالَ أوضحُ من

(١) الجهد: المشقة. (٢) الوقر: الحمل الثقيل.

(٣) لج القوم: اختلطت أصواتهم. ولج في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

كثير من الكلام، إنَّكم كنتم أهلَ جَهدٍ وقَشَف[١]، لا تَنتَصفون ولا تَمتَنعون، فلم نُسيءْ جِوارَكُمْ، وكُنَّا نَمِيرُكم[٢] ونُحسِنُ إليكم، فلمّا طَعِمْتُم طعامَنا، وشَربتُم شرابَنا، وَصَفْتُم لقومِكم ذلك، ووعدتُموهُم ثم أتيتُمونا، وإنَّما مَثَلُكُمْ ومَثَلُنا كمثلِ رجلٍ كان له كرْمٌ، فرأى فيه ثعلبًا، فقال: وما ثعلب! فانطلق الثَّعْلَبُ فدعَا الثَّعالِبَ إلى ذلك الكَرْم، فلمَّا اجتمعوا إليه شدّ صاحب الكرم النقب الذي كنّ يدخلن منه فقتلهنّ. فقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والجهد، فارجعوا ونحن نَميرُكم؛ فإنّي لا أشتهي أنْ أقتلَكُمْ. ومَثَلُكم أيضًا كالذُّبابِ يَرَى الْعَسَلَ فيَقول: مَن يُوصِلني إليه وله دِرْهَمَانِ، فإذا دخلَهُ غَرِق ونَشِب[٣]، فيقول: مَن يُخرِجني وله أربعة دراهم؟

وقال: ما دعاكم إلى ما صنعتم، ولا أرَى عَدَدًا ولا عُدّة! قال: فتكلَّم القوم، وذكروا سوءَ حالِهم، وما منَّ الله تعالى عليهم من إرسال رسولِ الله ﷺ، واْختلافِهم أوّلاً، واْجتماعِهم على الإسلام، وما أمَرهم به من الجهاد، وقالوا: وأمّا ما ضَربْتَ لنا من الأمثالِ فليس كذلك، ولكن إنَّما مَثَلُكم كمثل رَجُلٍ غَرَس أرضًا واْختَار لها الشَّجرَ، وأجرَى إليها الأنهارَ وزيَّنها بالقُصُور، وأقامَ فيها فلاَّحين يسكُنُونَ قُصُورَهَا ويقُومون عَلى جَنَّاتِها، فخلا الفلاَّحون في القُصور على ما لا يُحبّ، فأطال إمهالَهم فلمْ يستجيبوا، فدعا إليهم غيرَهم وأخرَجهم منها، فإنْ ذَهَبوا عنهَا يَخْتَطِفهم النَّاسُ، وإنْ أقاموا فيها صاروا خَوَلاً[٤] لهؤلاء، فيَسومُونَهم الخَسْفَ أبدًا، والله لو لم يكن ما نقول حقًّا ولم يكن إلاَّ الدُّنيا لما صَبَرْنا عن الَّذي نحن فيه من لذيذِ عيشِكم، ورأينا من زِبْرجكم، ولقَارَعْناكم[٥] عليه.

فقال رستم: أتعبُرون إلينا أم نَعبُر إليكم؟ فقالوا: بل اْعبُروا إلينا. ورجعوا من عِنْدِه عشِيًّا، وأرسل سعدٌ إلى النَّاسِ أن يقفُوا مَواقِفَهم، وأرسَلَ إليهم شأْنَكُم والعبُور، فأرادوا الجَوازَ على القنطرة فمَنعَهم المسلمون، وقالوا: أمّا شيءٌ غلبناكم عليه فلا نَرُدُّه عليكم، فباتوا يَسْكُرون[٦] العتيق بالتُّرابِ والقصب والبَراذِع حتَّى الصباح، وجعلوا طريقًا، واستتم بعدما ارتفع النهار. ورَأى رُسْتم من اللَّيل كأنَّ مَلَكًا نزل من السَّماء، فأخذ قِسِيَّ أصحابِه فَخَتَم عليها، ثم صَعِد بها إلى السَّماء، فاستيقَظ مهمومًا، واْستدعَى خاصَّته فقصَّها عليهم، وقال: إنّ الله ليعِظنا لو اتَّعظنا، ثمّ ركب، وعَبَر

---

(١) القشف: قذر الجلد وسوء الحال.
(٢) نميركم: نطعمكم.
(٣) نشب: أي وقع فيما لا مخلص منه.
(٤) الخول: الخدم.
(٥) قارع: قاتل.
(٦) يسكرون النهر: يسدون فاه بالتراب.

وعليه دِرْعَانِ ومِغْفَر[١]، وأخَذَ سلاحَه وعَبَر الْفُرْسُ العتيقَ، ثم كانت الحربُ. والله تعالى أَعْلَمُ بالصّواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر يوم أرماث

كان يوم أرماث[٢] يوم الاثنين من المحرَّم سنة أربع عشرة؛ وذلك أن الْفُرْسَ لمَّا عَبَروا العَتيقَ، جلس رُسْتم على سَرِيره وضرب عليه طَيّاره، وعَبَّى في القَلْبِ ثمانية عشر فِيلاً، عليها الصناديقُ والرّجالُ، وفي المجنَّبتين خمسة عشر؛ ثمانية وسبعة، وأقام الجالِينُوس بينه وبين مَيْمَنته، والفَيْرُزان بينه وبين مَيْسَرتِه، وكان يَزْدَجِرد قد وَضَع بينه وبين رُسْتم رجالاً على كلّ دَعْوَةٍ رجلًا، أوّلهم على بابِ إيوانه، وآخرهم مع رستم، فكُلَّما فعَل شيئًا قال الَّذي معه للَّذي يليه: كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للثالث، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يَزْدَجِرد في أسرع وقت.

قال: وأخَذَ المسلمون مواقِفَهم، وكان بسعدٍ دَمامِيلُ وعِرْقُ النَّسا، فلا يستطيع الجلوسَ؛ إنَّما هو مُكِبٌّ على وجههِ، وفي صدرِه وِسادة، وهو على سطح القصر يُشرِفُ على النَّاسِ، فذكر النَّاسُ ذلك، وعابَه بعضُهم فقال في ذلك شعرًا: [من الطويل]

نُقاتِلُ حتَّى أنزَلَ اللّهُ نَصْرَهُ ... وسعدٌ بباب القادِسِيَّة مُعْصِمُ[٣]

فأبْنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ... ونِسوةُ سَعْدٍ ليس فِيهنَّ أيِّمُ[٤]

فبلغتْ أبياتُه سعدًا، فقال: اللّهم إنْ كان كاذبًا وقال الَّذي قاله رياءً وسُمْعة فاقطع عنّي لسانَه، فإنَّه لَواقفٌ في الصّفِّ يومئذٍ أتاه سَهْم غَرْب[٥]، فأصاب لسانَه، فما تكلَّم بكلمةٍ حتَّى لَحِقَ بالله تعالى. ونزل سعدٌ إلى النَّاس فاعتَذَر إليهم، وأراهم ما به من القُروح في فَخِذيه وأَلْيَتَيْهِ، فعذَرَه النَّاس وعَلِموا حالَه. ولمّا عَجَزَ عن الرُّكوبِ ٱستخلَف خالدَ بنَ عُرْفُطةَ على النَّاس، فٱختُلِف عليه، فأخَذ نفرًا ممَّن شَغَب[٦] عليه فحبَسهم في القَصْر، منهم أبو مِحْجَن الثَّقفيّ، وقيل: بل كان قد حُبِس في الخمر.

---

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٢) أرماث: كأنه جمع رمث: اسم نبت بالبادية، آخره ثاء مثلثة. كان أول يوم من أيام القادسية...

(٣) المعصم: الممتنع.

(٤) آمت المرأة: أقامت بلا زوج بكرًا أو ثيبًا؛ أو فقدت زوجها.

(٥) سهم غرب: لا يدرى راميه.

(٦) شغب على القوم: هيج الشر بينهم.

وأعلم سعْد النَّاسَ أنَّه قد استَخلف خالدًا، وإنَّما يأمرهم خالدٌ بأمرِه، فسمِعوا وأطاعوا. وأرسل سعدٌ نفرًا من ذوي الرأي والنَّجْدَة، منهم المغيرة، وحُذَيفة، وعاصم، وطُليحَة، وقيس الأسَديّ، وغالب، وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشمَّاخ[1]، والحُطَيئة وأوْسُ بنُ مَغراء[2]، وعَبْدةُ بنُ الطبيب[3] وغيرهم، وأمَرَهم بتحريض النَّاس على القِتال ففعلوا، وكان صَفُّ المشركين على شَفِير العتِيق، وصفُّ المسلمين على حائط قُدَيْس، والخنْدَق من ورائهم، وكان المسلمون والمشركون بين الخَنْدَق والعتيق، وأمر سعد النَّاسَ فقرؤوا سورةَ الجهاد، وهي الأنفال، فلمّا فرغ القُرّاء منها قال سعد: الزَمُوا مَواقِفكم حتى تُصَلُّوا الظهر فإذا صَلَّيْتم فإنّي مُكبِّرٌ فكبِّروا وأستعدُّوا، فإذا سمعتم الثانية فكبِّروا ولْتَسْتَتِمَّ عُدّتكم، ثم إذا كبَّرتُ الثالثةَ فكبِّروا، ولِيُنشِّط فُرسانكُم النَّاسَ، فإذا كبَّرتُ الرابعةَ فأزحَفوا حتَّى تُخالِطوا عدوَّكم، وقولوا: لا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله. فلما كبَّر سعد الثالثة برز أهل النَّجَداتِ فأنشَبوا القتال، وخرج إليهم من الفُرسِ أمثالهم.

فبرز غالب بنُ عبد الله الأسَدِيّ، فخرج إليه هُرْمُز، وكان من ملوك الباب، وكان متوَّجًا، فأسَرَهُ غالب وأتى به سعدًا. وخرج عاصم بن عمرو فطارَدَ فارسِيًا، فانهزم، فأتَّبعه عاصم حتى خالط صفَّهم فحمَوْهُ، فأخذ عاصمٌ رجلاً على بغْلٍ وعادَ بِهِ، فإذا هو خبّاز المَلِك، معه طعامٌ مِن طعامِ المَلِك وخَبِيصِة[4]، فأتى به سعدًا فنَفَّله أهل موقفه.

وخرج فارسيٌّ يَطلبُ البِراز، فبرز إليه عَمرو بن مَعدِي كَرِب، فأخذه وجَلَدَ به الأرضَ وذَبَحه، وأخذ سِوارَيْه ومِنطقَتَه[5].

---

(١) الشماخ: هو معقل بن ضرار... كان جاهليًا إسلاميًا... وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

(٢) أوس بن مغراء: هو من بني ربيعة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد وكان يهاجي النابغة الجعدي وهو القائل في بني صفوان الذين كانت فيهم الإفاضة من عرفة، وهم بنو صفوان بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد... (طبقات الشعراء).

(٣) عبدة بن الطبيب: هو من بني عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ويقال لعبشمس قريش سعد لجمالهم... (طبقات الشعراء).

(٤) الخبيصة: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

(٥) المنطقة: ما يشد به الوسط.

وحَمَلت الفِيَلةُ على المسلمين، ففرَّقتْ بين الكتائِب، فنفرَت الخيلُ، وكانت الفُرسُ قد قصدتْ بَجيلةَ بسبعة عشر فِيلاً، فنفرتْ خيلُ بَجِيلةَ، فكادَتْ بَجِيلةُ تَهلِكُ لِنِفار خيلِها عنها وعمَّنْ معها.

فأرسل سعدٌ إلى بني أَسَد أن دافِعوا عن بَجِيلة ومَنْ معها، فخرج طُليحةُ بنُ خُوَيلد، وحَمَّال بن مالِكٍ في كتائبهما، فباشَروا الفِيلة حتَّى عدلها رُكْبانُها، وخرج إلى طُليحَة عظيمٌ منهم، فقتله طليحة.

وقام الأشعثُ بنُ قيس في كندة، فأزالوا مَنْ بإزائهم من الفُرْس، ثم حَمَل الفُرْس، وفيهم ذو الحاجب والجالِينُوس، والمُسلمون ينتظرون التكبيرةَ الرّابعة من سَعْدٍ، فاْجتمعت الفُرْسُ على أَسَدٍ ومعهم تلك الفِيلةُ فثَبَتُوا لهم، وكَبَّرَ سعْدٌ الرابعة، فزَحَف المسلمون إليهم، ورَحَا الْحربِ تَدورُ على أسدٍ، وحَملتِ الفُيُول على الْميمنة والْمَيْسَرة، فحادَت الخيولُ عنها، فأرسَل سعدٌ إلى عاصم بنِ عمرو، فقال: يا معشرَ بني تَميم، أما عندكم لهذه الفِيَلَة مِن حِيلةٍ؟ قالوا: بلى واللّهِ.

ثمّ نادى عاصم في رجال من قومه رُماةٍ وآخَرين، لهم ثقافة[١]، فقال: يا معشر الرُّماةِ؛ ذُبُّوا[٢] ركْبان الفِيلَة عنهم بالنَّبلِ، ويا معشرَ أهْلِ الثَّقافةِ؛ اسْتَدْبِروا الفِيَلة، فقطِّعوا وُضُنَها[٣]. وخرج يَحمِيهم وقد جالت المَيمنَة والمَيْسرة، وأقبَل أصحابُ عاصم، فأخذوا بأذناب الفِيلَة فقطَّعوا وُضُنَها، واْرتفع عُواؤُهم، فما بقيَ فِيلٌ إلاَّ عوَى، وقُتِلَ أصحابُها، ونُفِّس عن أسدٍ، ورُدَّ الفُرسُ عنهم إلى مَوَاقفهم، ودام القتالُ حتَّى غَربت الشمسُ، وحتَّى ذهبتْ هدْأةٌ[٤] من اللَّيل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وقد أُصيب من أَسَد تلك الليلة خمسمائة، وكانوا رِدْءًا للنَّاس، وكان عاصمٌ حامِيةً للنَّاس.

وكان سعدٌ توّج سَلْمَى اْمرأةَ المثنَّى بنَ حارثة بعدَه، فلما جال النَّاسُ في هذا اليوم، جعل سعدٌ يتَملْمَل جَزَعًا على النَّاس وهو لا يُطيق الجلوس، فلمَّا رأتْ ما يَصْنَعُ الفرس، قالت: وامثنّاه، ولا مُثنَّى للخيلِ اليومَ! فَلَطَمَ وجهَها وقال: أين المثنَّى عن هذه الكَتيبةِ الَّتي تدور عليها الرحَا؟ يعني أَسَدًا وعاصمًا؛ فقالت: أغَيْرةً وجُبْنًا! فقال: واللّهِ لا يَعْذِرني أحدٌ إنْ لم تَعْذِريني، وأنتِ تَرَيْنَ مَا بِي.. والله تعالى أعلم بالصَّواب، وحَسْبنا اللّهِ ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

---

(١) ثقف فلان: صار حاذقًا فطنًا. (٢) ذب الشيء: طرده ودفعه عنه.

(٣) الوضن: جمع وضين؛ وهو ما يشد به الرحل على البعير.

(٤) هدأة من الليل: جزء منه.

ذكر أغواث[1]

قال: لما أصبحَ سعدٌ وَكَّلَ بالْقَتْلَى مَنْ يَنقلُهم ليُدْفَنوا، وأسلَمَ الجَرْحَى إلى النِّساءِ يَقُمن عليهم، فبينا الناس على ذلك إذ طَلَعَتْ نواصي الخَيْلِ من الشَّام، وكان عُمَر لمَّا فُتحَتْ دِمَشْقُ قد كَتَب إلى أبي عُبَيدة يأمره بإرسال أهلِ العِراق، فأرسَلَهم وأمَّر عليهم هاشمَ بن عُتْبة بن أبي وَقَّاصٍ، وَعَلَى مقدِّمته القَعْقاع بنُ عمرو، فتعجَّل القَعقاع، فقَدِمَ على الناس صبيحةَ هذا اليوم، وقد عَهِد إلى أصحابه أن يتقطَّعوا أعشارًا وهم ألفٌ، كُلَّمَا بلغ عشرةٌ مدَّ البَصَر سرّحوا عشرةً، وتقدَّمَ هو في عَشَرَة، فأتَى الناسَ فسلَّم عليهم، وبشَّرهم بالجُنودِ، وحَرَّضَهم على القِتالِ؛ وقال: اصنَعوا كما أصنَع، وطَلَب البِراز، فخرج إليه ذو الحاجب، فعَرَفَه القَعْقاع، ونادى: يا لثَاراتِ أبي عُبيد وسَلِيط وأصحابِ الجِسْر! واقتتلا، فقتله القَعْقاع.

وجعلتْ خيلُه تَرِد إلى اللَّيل، ونَشِط الناسُ، وكأن لم تكن بالأمس مصيبة، وانكسرت الأعاجم لقتل ذي الحاجب، فطلب القعقاعُ البرازَ، فخرج إليه الفيرزان والبندوان، فانضمَّ إلى القَعْقاع الحارثُ بن ظَبْيان، ونادى القَعْقاع: يا معشر المسلمين، باشِروهم بالسُّيوف، فإنما يُحصَد الناسُ بها، فاْقتَتَلوا حتى المساء، فلم يَرَ أهلُ فارسَ في هذا اليوم ما يُعْجِبُهم، وأكثرَ المسلمون فيهم القتْلَ، ولم يقاتِلوا في هذا اليوم على فِيلة؛ كانت توابيتُها[2] قد تكسَّرتْ بالأمس، فاستأنفوا عمَلَها، وحَمل بنو عمِّ القَعقَاع عشرةً عشرةً على إبلٍ قد ألبَسوها وجلَّلوها وبَرْقَعُوها، وطافتْ بهم خيولُهم تَخميهم، وأمرهم القعقاعُ أن يَحملوا على خيل الفُرْس يتشبَّهون بالفِيلَة، ففعلوا في يومِ أغواث، كما فَعلَ الفُرْسُ في يوم أرماث، فنَفرت خيلُ الفرس من الإبل، فلقُوا منها أعظَمَ ما لقيَ المسلمون من الفِيَلَة، وحَمَل القعقاعُ يومئذ ثلاثين حملةً، كلَّما طلَعَتْ قطعةٌ حَمَل حملة، وأصابَ فيها، وقيل: وكان آخرهم يُزُرْجُمِهْر الهَمَذانيّ.

وكان أبو محْجَن الثَّقَفِيُّ، واسمُه مالكُ بنُ حبيبٍ، وقيل: عبدُ اللّهِ بنُ حبيب بن عمرو بن عُمَير بن عوف بن عُقْدة بن غبرَة بن عَوفِ بن قَسِيّ، وهو ثَقيف، قد حُبِسَ في القَصر وقُيِّد.

---

(١) أغواث: يقال لليوم الثاني من أيام القادسية يوم أغواث... ولا يدري صاحب معجم البلدان أهذا اسم موضع أم هو من الغوث.

(٢) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع.

واختُلف في سبب ذلك؛ فقيل: كان قد خَالَف على خالدِ بنِ عُرْفُطَة خليفة سَعْدٍ، وقيل: بل كان عُمَر قد جلَده في الخمر مِرارًا ثمانيةً وهو لا يتوبُ ولا يُقْلِع، فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه رَجُلًا، فهرَب منه ولحِق بسَعْدٍ، فكتب إليه عمرُ بحَبْسه. وقيل: بل كان مع سعدٍ، فأُتِيَ به وهو سَكرانُ، فأمَر به إلى القَيْد، فلما التَحَم القتال قال: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنْ تَرْدِيَ الخيلُ بالقَنا ... وأُتْرَكَ مشدُودًا عليّ وثاقِيا
إذا قمتُ عَنَّانِي الحديدُ وأُغْلِقتْ ... مصَارعُ مِنْ دوني تُقِيمُ المُنادِيا[1]
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركُوني واحدًا لا أخالِيَا
وقد شَفَّ جسمي أنّني كلَّ شارقٍ ... أعالج كَبْلًا مُصْمَتًا قد بَرانيا[2]
فللَّه دَرِّي يومَ أُتْرَكُ مُوثَقًا ... وتَذْهَلُ عنّي أُسْرَتي ورِجالِيا
حَبيسًا عن الحرب العَوانِ وقد بَدَتْ ... وإعْمَالُ غيرِي يومَ ذاكَ العَوالِيَا[3]
ولِلَّه عهدٌ لا أخِيسُ بعَهْدِهِ ... لئن فُرِجتْ ألاّ أزورَ الحوانيا[4]

ثم قال لسَلْمى ابنه خَصَفة امرأة سَعْدٍ: وَيْحَكِ! خلِّيني، ولكِ عهدُ اللّهِ إن سلَّمني اللّهُ أن أجِيءَ حتى أضَعَ رِجلي في القَيْدِ، وإنْ قُتلتُ آسترحتمْ منّي، فحلَّتْ عنه، فوثبَ على فرسٍ لسعدٍ يقال لها: البَلْقاء، ثم أخذ الرُّمح وانطلَق حتى كان بحيالِ المَيْمنة كبَّر، ثم حَمَل على مَيسرةِ الفرسِ، ثم رَجَع من خَلْف المسلمين وحَمَل على مَيْمنتِهِمْ، وكان يَقصِفُ[5] النّاس قَصْفًا منكرًا، فتعجب النّاسُ منه وهم لا يَعرِفونه، فقال بعضُهم: هو من أصحابِ هاشم، أو هاشم نفسه. وقال بعضُ الناسِ: هو الخَضِر. وقال بعضُهم: لولا أنّ الملائكة لا تُباشِر الحربَ لقُلْنا إنّه مَلَك.

وجعل سعدٌ يقول حين ينظرُ إليه وإلى الفُرْسِ: الصَّبْرُ صَبْرُ البَلْقاءِ، والطعنُ طعنُ أبي مِحْجَن. وأبو محجنٍ في القَيْد، فلما انْتَصَفَ اللَّيْلُ وتراجعَ المسلمون والفُرْسُ، أقبلَ أبو محجن فدَخلَ القصرَ، وأعادَ رِجلَيه في القَيْدِ، وقال: [من الوافر]

لقد عَلِمَتْ ثقيفٌ غَيْرَ فَخْرٍ ... بأنَّا نَحْنُ أكرمُهم سُيوفَا
وأكثرُهم دُرُوعًا سَابِغَاتٍ ... وأصْبَرُهم إذا كَرِهُوا الحُتوفا[6]

---

(١) عنّاه الشيء: اعترضه.
(٢) الكبل: القيد من أي شيء كان.
(٣) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.
(٤) خاس العهد: نقضه وخانه.
(٥) يقصف الناس: يضربهم ضربًا منكرًا.
(٦) الحتف: الهلاك؛ الموت؛ أو القتل.

وأنَـا وفْـدُهـم فـي كـلِّ يـومٍ فإن عمِيُوا فسَلْ بهمُ عَرِيفا[1]
ولـيـلـةَ قـادِسٍ لـم يَـشـعـروا بي ولم أُشعرْ بمَخْرَجيَ الزُّحوفا
فـإنْ أُحـبَـسْ فـذلِـكُـمُ بَـلائِـي وإنْ أُتـرَكْ أُذيـقـهُـمُ الـحُـتُـوفَـا

فقالت له سَلْمى: في أيِّ شيءٍ حَبَسك؟ فقال: أمَا والله ما حَبَسني بحرام أكَلْته ولا شَرِبْته؛ ولكنّي كنتُ صاحبَ شراب في الجاهليَّةِ، وأنا امرؤٌ شاعر يَدِبُّ الشِّعرُ على لساني، فقلت مرتجِلًا في ذلك أبياتًا:

إذا مِتُّ فادْفنِّي إلى أصلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظامِي بعد مَوْتِي عُروقُهَا
ولا تَـدْفِـنَـنِّـي بـالـفَـلاةِ فـإنَّـنِـي أخـافُ إذا مـا مِـتُّ ألاَّ أذوقـهـا

فلذلك حَبَسني، فلمَّا أصبَحتْ أتت سَعْدًا فصالحتْه وأخبَرَتْه بخبرِ أبي مِحْجَن، فأطلَقَه، وقال: اذهبْ، فما أنا بمؤاخِذِكَ بشيءٍ تَقولُه حتَّى تَفعلَه، قال: لا جَرَمَ واللّهِ لا أُجيبُ لساني إلى قبيح أبدًا.

وقد قيل: إنَّ سعدًا لمّا أُخْبِرَ بأمرِهِ دَعاه وحَلَّ قُيودَه، وقال: لا تَجلَدنَّ على الخمر أبدًا، فقال أبو مِحجَن: وأنا واللّهِ لا أشرَبُها أبدًا، فقد كنتُ آنَفُ أنْ أدَعَهَا من أجلِ جَلْدِكم.

وقيل: بل قال: قد كنتُ أشربُها إذ يقامُ عَلَيّ الحدُّ وَأطْهُر منها، فأمَّا إذْ بَهْرَجْتَنِي[2] فوالله لا أشْرَبُها أبدًا.

ذكر يوم عماس[3]، وهو اليوم الثالث

قال: وأصبحَ الناس في هذا اليوم وبين الصفَّيْن من صَرْعَى المسلمين ألفان من جَريح وقتيلٍ، ومن المشركين عشرةُ آلافٍ، فَنَقَل المسلمون قَتْلاهم إلى المَقابر، وجَرْحاهم إلى النِّساء، وكان النساء والصِّبْيان يَحفرون القُبور ويُداوُون الجَرْحى. وأمّا قتلى المشركين فبين الصَّفَّين لم يُنقَلوا، وبات القَعقاعُ تلك الليلة يُسَرِّبُ[4] أصحابَه إلى المكان الَّذِي كان فارَقَهم فيه، وقال: إذا طلعت الشَّمسُ فاقتلوا مائةً مائةً، فإن جاء هاشم فذاك، وإلاَّ جَدَّدْتُمْ للنَّاسِ رَجاءً جديدًا. ولم يَشعر به أحد، وأصبح النَّاسُ على مواقِفهم.

---

(١) العريف: رئيس الجماعة. (٢) بهرجتني: زيفتني ولم تسمع قولي.
(٣) يوم عماس: اليوم الثالث من أيام القادسية ولا يعرف صاحب معجم البلدان إن كان عماس اسم موضع أو هو من العمس.
(٤) سرّب القوم: تتابعوا؛ أو أرسلهم الواحد تلو الآخر.

فلما بزَغَت الشمسُ أقبلَ أصحابُ القعقاع، فحين رآهم كبَّر وكبَّر المسلمون، وتقدَّموا وتكتَّبت[1] الكتائبُ، واختلف الطَّعْنُ والضَّرْبُ، والمدَدُ متتابع، فما جاء آخِرُ أصحابه حتَّى ٱنتهى إليهم هاشم، فأُخبِر بما صنع القَعْقاع، فعبَّى أصحابَه سَبْعين سَبْعين، وكان فيهم قيس بنُ هُبَيْرة المعروف بٱبن المكْشوح المُراديّ، فكبَّر وكبَّر المسلمون، ثم حَمَل على الفُرْسِ فقاتَلَهم حتى خَرق صفَّهم إلى العَتيق ثمّ عاد، وكانت الفُرْس قد أصلحوا توابيتَهُم وأعادُوا على الفِيَلة، وأقبلت الرَّجّالة حَوْل الفِيَلة يَحْمُونها أن تُقطَع وُضُنها، ومع الرَّجّالةِ فُرسانٌ يَحمُونهم، فلم تَنفِر الخيلُ منهم كما كانت؛ لاختلاط خيل الفُرْس ورجالِها بها.

قال: ولما رأى سعد الفيُولَ، وقد فرّقَت الكتائبَ وعادت لفِعلِها، أرسَل إلى القعقاع وعاصمَ ٱبني عمرو: أن ٱكفِياني الفِيلَ الأبيض، وكان بإزائِهما والفُيُولُ كلُّها آلِفةٌ له.

وقال لحَمّال والرّبيل: اكفِياني الفيلَ الأجْرَبَ وكان بإزائهما، فحمل القعقاع وعاصم برُمْحَيْهما وتقدَّما في خيل ورَجْلٍ حتّى وضعاهما في عَيني الفيل الأبيض، فنفَض رأسَه، وطَرحَ ساسَتَه، ودَلّى مِشْفَره. فضربَه القَعقاعُ، فرَمَى به ووقع لجَنْبه، وقَتَلوا من كان عليه. وحمل حَمّالُ والرِّبّيل الأسَديّان على الفيل الأجرب، فطعنه حَمّال في عَيْنه فأقعَى[2]، ثم ٱستوَى، وضربَه الرّبيل فأبانَ مِشْفَره، فتحيّر الفيل؛ إذا جاءَ إلى صفّ المسلمين زَجَروه بالرِّماح ليَرجع، وإذا أتى صفَّ الفُرْس نَخَسوه ليتقدّم، فولّى الفيلُ وألقَى نَفْسَه في العَتيق، وتبعتْه الفِيَلَة فخرقتْ صفوفَ الأعاجم. وٱقتتل الفريقان حتّى المساء وهم على السَّواء، فلما أمسَى النّاسُ ٱشتدّ القتال، وصَبَر الفريقان فخرجَا على السَّواء. ثم كانت ليلة الهَرير. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا محمد.

ذكر ليلة الهرير

قيل: وإنّما سُمّيت بذلك لتركهم الكلام، وإنّما كانوا يَهرُّون هَرِيرًا، وهي اللّيلة الّتي تَلِي يوم عماس. قال: وخرج مسعودُ بنُ مالكٍ الأسَديّ، وعاصمُ بنُ عَمرو، وقيسُ بنُ هُبيرة وأشباهُهم، فطارَدوا القومَ، فإذا هم لا يَشُدُّون ولا يُريدون غير الزَّحْفِ،

---

(١) تكتبت: اجتمعت.

(٢) أقعى: جلس على أليتيه ونصب ساقيه وفخذيه.

فقدَّموا صفوفَهم، وزاحَفهم النَّاسُ بغير إذن سَعْدٍ، فكان أوّل من زاحَفَهم القَعْقَاع، فقال سعد: اللَّهم اَغفِرْها له وانْصُرْه، قد أذِنْت له إذْ لم يَستأْذِنّي. ثم قال: أرى الأمرَ ما فيه هذا، فإذا كبّرتُ ثلاثًا فاحمِلوا، فكبّرَ واحدةً، فحملتْ أسَد ثم النَّخع، ثم بَجِيلة، ثم كِنْدة، وسعد يقول عند حملةِ كلٍّ منهم: اللَّهم اغفرها لهم، وانصُرْهُم؛ ثم زَحَف الرؤساء، ورَحَا الحرب تَدُورُ على القَعْقاع، ولمّا كبّر الثَّالثةَ لحِق النَّاسُ بعضُهم بعضًا، وخالَطوا القومَ، فاستقبلوا اللَّيلَ بعدما صلّوا العِشاء، واقتَتَلوا ليلتهم إلى الصَّباح، فلمّا كان عند الصُّبح انتهى النَّاسُ، فاستدلَّ سعدٌ بذلك على أنَّهم الأعْلَوْنَ.

ذكر يوم القادسية وقتل رستم وهزيمة الفرس

قال: وأصبَح النَّاسُ من لَيْلة الهَرير ـ وتُسمَّى ليلةَ القادسيَّة ـ وهم حَسْرَى[1]، لم يُغمِضُوا ليلتَهم كلَّها؛ فسار القعقاعُ فقال: إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلوا؛ فإنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْر.

فاجتمع إليه جماعةٌ من الرؤساء صَمَدوا لرُسْتم حتى خالَطوا الَّذين دونه، فلمّا رأتْ ذلك القبائلُ قام فيهم رؤساؤهم، وقالوا: لا يكوننَّ هؤلاء أجدَّ في أمرِ الله منكم، ولا هؤلاء ـ يعني الفُرْس ـ أجرأ على الموتِ منكم، وحَمَلوا وخالَطوا مَنْ بإزائهم، فاقتَتَلوا حتى قامَ قائمُ الظَّهيرة، فكان أوّل من زالَ الفَيْرُزان والهُرْمُزان، فتأخّرا وثَبَتا حيثُ انتَهيا، وانفرجَ القلبُ وركَد عليهم النَّقْعُ[2]، وهبَّتْ ريح عاصفٌ دَبُور[3]، فقلعتْ طيّار رُسْتم عن سَريره، فهوَى في العَتِيق، ومالَ الغبارُ على الفُرسِ، وانتهى القَعْقاع ومن معَه إلى السَّرير فعثَروا به، وقد قام رُستم عَنْه حين أطارت الرِّيحُ الطيّار، واستَظَلَّ بِظِلِّ بغلٍ من بغالٍ كانت قد قدِمتْ عليها حُمول، فضرب هِلالُ بنُ عُلَّفة حِمْل البَغْلِ الَّذي تَحت رُستم، فقطع حِبالَه وسَقطَ عليه، فأزاله رُسْتم عن ظَهْره، ثمّ ضربه هلالٌ ضربةً، ففرَّ نحو العتيق، وألقَى نفسَه فيه، فاقتَحمَه هِلالٌ عليه، وأخذ يرْجله[4] ثم خرج به، وضرب جَبينَه بالسَّيفِ حتَّى قتَله، ثم صَعد على السَّرير وقال: قتلتُ رستم وربِّ الكَعْبة؛ إليَّ إليَّ! فنفَله سعد سَلَبه، وكان قد أصابه الماءُ، ولم يظفر بقَلَنْسُوته[5]، وكانت بمائةِ ألفٍ.

---

(١) الحسرى: الذين أسفوا وتلهفوا. (٢) النقع: التراب.
(٣) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصّبا.
(٤) يرجله: أي يعلقه برجليه.
(٥) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

وقيل: إنَّ هلالَ بن عُلَّفة لمّا قَصَد رستم رماه بنُشابة أثبَتَتْ قَدمَه بالرِّكاب، فَحمَل عليه هلالٌ فضَرَبه فقَتَله، ثم احتزَّ رأسَه فعلَّقه ونادَى: قتلتُ رُسْتم! فانهزمَ قلبُ المشركين، وقام الجالينُوس على الردْم، ونادى الفرس إلى العبور، وانهزموا وأخذهم السيف والإسار، وأخَذَ ضِرارُ بنُ الخَطَّاب الدِّرَفْس، وهو العَلَم الأكبر الَّذي كان للفُرْس، فعوّض عنه بثلاثين ألفًا، وكانت قيمته ألف ألفٍ ومائتيْ ألفٍ، وجُعِل في بيتِ المال.

وقُتِل في هذه المعركة من الفُرسِ عشرةُ آلافٍ سِوَى من قُتل قبلَها، وأما المُقْترنُونَ فما أفْلَتَ منهم مخبِر، وهم ثلاثون ألفًا.

وقُتِل من المسلمين قبل ليلةِ الهَرير ألفان وخمسمائة، وقُتِل في ليلة الهَرَير ويومِ القادسيّة ستَّة آلاف، فدُفِنوا بالخَندق، ودُفِن من كان قبل ليلةِ الهَرير على مشرِّق[1].

* * *

وكان ممن استُشهد في حَرْب القادسيّة بنو خَنْساءَ الأربعة، وكان من خبرَهم أنَّ أمَّهم الخَنْساء الشاعرةَ بنتَ عمرو بنِ الشَّريد السُّلَميّة، حضرت القادسيَّة ومعها بنوها الأربعة، وهم رجالٌ، فقالت لهم مِنْ أوَّلِ اللَّيْل: يا بَنِيّ، إنكم أسلَمْتُم طائعين، وهاجَرْتُم مختارِين، ووالله الذي لا إله إلاَّ هو، إنّكم لبَنُو رَجُلٍ واحِدٍ، كما أنّكم بنو امرأة واحدةٍ، ما خُنْتُ أباكم، ولا فَضَحْت خالَكُم، ولا هجَّنْتُ[2] حَسَبكم، ولا غيَّرْتُ نَسَبكم؛ وقد تعلَمون ما أعدَّ الله للمُسلمين من الثَّوابِ الجزيلِ في حَرْب الكافرين، واعلَموا أنَّ الدارَ الباقيةَ، خيرٌ من الدَّار الفَانيةِ؛ يقول الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالِمين، فاغدُوا إلى قِتال عدوِّكم مُسْتَبْصِرين، وبالله على أعدائه مستَنْصِرين، فإذا رأيتم الحربَ قد شمَّرت عن ساقِها، واضطرمَتْ لظًى على سُبَّاقِها[3]، وجُلِّلتْ نارًا على أوْراقِها، فتيمَّموا وَطِيسَها[4]، وجالِدوا رئيسَها؛ عند احتِدام خَمِيسها[5]، تَظفَروا بالغُنْم والكرامة، في دار الخُلْدِ والمُقامة. فخرج بنوها قابلين لنُصحِها، عازمين على قَوْلها، فلمّا أضاء لهم الصّبحُ باكَروا مَراكزَهم، وأنشأ أوّلُهم يقول: [من الرجز]

يا إخوتي إنَّ العجوزَ النّاصِحهْ   قد نصحَتْنا إذ دعَتْنا البارِحَهْ

---

(١) المشرّق: بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الراء وكسرها: واد بين العذيب وعين شمس في عدوتيه الدنيا منهما إلى العذيب والقصوى منهما من العذيب ومن عين شمس، دفن فيهما شهداء يوم القادسية . . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) هجنت الحسب: جعلته هجينًا، والهجين: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية.

(٣) السّبّاق: الكثير السبق.

(٤) الوطيس: المعركة.

(٥) الخميس: الجيش.

مـقـالـةً ذات تـبـيَـانٍ واضِـحـهْ فباكِروا الحربَ الضَّروسَ الكالِحَهْ[1]
وإنَّـمـا تَـلْـقَـوْن عـنـد الـصَّـائـحـهْ مـن آل سـاسـان كـلابًـا نـابـحَـهْ[2]
قد أيْقَنُوا منكمْ بوقْعِ الجائحَهْ وأنـتـمُ بـيـن حـيـاةٍ صـالِـحَـهْ[3]
* أو مَـوْتَـةٍ تـورِثُ غُـنْـمًـا رابـحَـهْ *

وتقدَّم فقاتلَ حتّى قتِل، ثم حمَلَ الثّاني وهو يقول: [من الرجز]

إنَّ الـعـجـوزَ ذاتُ حَـزمٍ وجَـلَـدْ والـنَّـظـرِ الأوْفَـقِ والـرَّأيِ الـسَّـدَدْ
قـد أمـرَتْـنَـا بـالـسَّـدادِ والـرَّشَـدْ نـصـيـحـةً مـنـهـا وَبِـرًّا بـالـولَـدْ
فبادِروا الـحـربَ حُـماةً في الـعَـدَدْ إمَّـا لـفَـوْزٍ بـارِدٍ عـلـى الـكـبِـدْ
أو مـيـتـةٍ تُـورِثـكـم غـنـم الأبَـدْ في جَنَّةِ الفِرْدَوسِ والعيشِ الرَّغَدْ

وقاتل حتى استُشْهِدَ. ثم حَمَل الثالث وهو يقول: [من الرجز]

والله لا نَـعْـصِـي الـعـجـوزَ حَـرْفـا قـد أمَـرَتْـنـا حَـدَبًـا وعَـطْـفَـا[4]
نُـصْـحًـا وبـرًّا صـادقًـا ولُـطْـفَـا فـبـاكِـروا الـحَـرْب الـضَّـروسَ زَحْـفَـا
حـتـى تَـلُـفُّـوا آل كـسـرَى لَـفَّـا أو تَكشِفوهم عن حِماكم كَشفَا
إنَّـا نـرى الـتَّـقْـصِـيرَ مـنـكـمْ ضَـعْـفـا والـقـتـل مـنـكـمْ نـجـدةً وعُـرْفـا[5]

وقاتَل حتَّى استُشهِد. ثم حَمَل الرابع وهو يقول: [من الرجز]

لـسـتُ لـخَـنْـسـاءِ ولا لـلأخـرمِ ولا لـعَـمـرِو ذي الـسَّـنـاءِ الأقْـدَمِ[6]
إنْ لم أُرِدْ في الجيْشِ جَيْشِ الأعجمِ ماضٍ على الهوْلِ خِضَمٌّ خِضْرِمِ[7]
إمّـا لـفَـوْزٍ عـاجـلٍ ومَـغْـنَـمِ أو لـوَفـاةٍ فـي الـسَّـبـيـلِ الأكـرمِ

وقاتَلَ حتى قُتِلَ؛ رحمهم الله.

فبَلَغها الخبرُ، فقالت: الحمدُ للّهِ الذي شرَّفَني بقَتْلهم، وأرجو من رَبِّي أن يَجْمعني بهم في مستقرِّ رحمته.

---

(١) حرب ضروس: شديدة مهلكة. (٢) الصائحة: صيحة المناحة.
(٣) الجائحة: المصيبة تحل بالرجل فتجتاحه كله.
(٤) حدبت المرأة: امتنعت عن الزواج بعد أبي ولدها رأفة به.
(٥) العُرف: الصبر.
(٦) الأخرم: الذي انشق ما بين منخريه؛ أو الذي انشقت أذنه.
(٧) الخضرم: الكثير الواسع من كل شيء.

فكان عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يُعطي الخَنْسَاءَ أرزاقَ أولادِها الأربعةِ؛ لكلِّ واحد مائتَيْ دِرْهَم؛ حتى قُبِضَ رضي الله عنه.

حكاه أبو عُمر بنُ عبدِ البَرِّ في تَرْجَمة الخَنْسَاء.

* * *

نعودُ إلى بقيّة أخبار القادسيّة؛ قال:

وجُمِعَ من الأسلابِ والأمْوالِ ما لَم يُجمع قبلَه مِثلُه، وأمَر سعدٌ القعقاعَ وشرحبيلَ باتِّبَاعِهِمْ، وخرج زُهْرةُ بنُ الحويَّة التَّميميّ في آثارهم في ثلاثمِائة فارس، فلحق الجالينوسَ، فقتله زُهْرة وأخَذَ سَلَبَه، وقَتلوا أكثرَ الفُرْس وأسروهم.

قيل: رؤي شابٌ من النَّخَع وهو يَسُوق ثمانين أسيرًا من الفُرسِ، وكان الرجل يُشير إلى الفارسيّ فيأتيه فيَقْتُله؛ وربّما أخذَ سلاحَه فَقَتَلَه به؛ وربّما أَمِرَ الرجلُ فَقَتَلَ صاحبَه.

ولَحِقَ سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهِليّ وعبدُ الرحمٰن بنُ ربيعةَ بطائفة من الفُرْس قد نَصَبُوا رايةً وقالا: لا نَبْرح حتّى نموتَ. فقتَلَهُمْ سَلمانُ ومن معه، وكان قد ثَبتَ بعد الهزيمة بضعةٌ وثلاثون كَتِيبةً من الفُرْسِ، استحْيَوْا من الفِرارِ، فَقَصَدهم بضعةٌ وثلاثون من رؤساء المسلمين، لكلّ كتيبة منها رئيس، فَقَتَلهم المسلمون.

وكتب سعدٌ إلى عمرَ بالفَتْح، وبِعدّةِ مَنْ قُتِلوا، ومن أُصيب من المسلمين، وسَمَّى من يَعْرِف، وبعثَ بذلك سعدَ بنَ عُمَيلة الفَزارِيّ، واستأْذنه فيما يفعَل. وأقام بالقادسيّة ينتظر جوابَه، فأمَره بالمسير إلى المَدائن[1]، وأن يخلِّف النساءَ والصِّبيانَ بالعَتيق، ويجعل معهمْ جُنْدًا كَثِيفًا، ويَشرَكُهم في كُلِّ مغنم؛ ما داموا يَخلفُون المسلمين في عِيالاتهم؛ ففَعَل.

قيل: وكانت وقعة القادسيةِ في سنة ستّ عشرة. وقيل: في سنة خمسَ عشرةَ، وأوْرَدَها أبو جعفر الطَّبريُّ في سنة أربعِ عشرة، وأوْرَدَها أبو الحسن بنُ الأثير في تاريخه «الكامل»، في حوادث سنة أربعِ عشرةَ؛ وذكر الخلاف فيهما. والله سبحانه وتعالى أعلم. فلنذكر ما كان بعدَ القادِسية والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) المدائن: كانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون... ثم رومية... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ما كان بعد القادسية من الحروب والأيام
يوم بُرْس[١]، ويوم بابِل، ويوم كُوثَى[٢]

وهذه الوقائع والأيّام الّتي نذكرها في هذا الموضع تحت هذه التّرجمة، قد أورَدَهَا أبو الحسن عليّ بنُ الأثير - رحمه الله - في تاريخه (الكامل) في حوادثِ سنة خمسِ عشرة، كأنه رَجَّح قولَ أهلِ الكوفة: إنّ وقعة القادسيّة كانت في سنة خمس عشرة.

قال: لمّا فرغَ سعدٌ من القادسيّة أقامَ بها بعد الفتح شهرين، وكاتَبَ عمرَ فيما يفعل، فكتَبَ إليه بالمسير إلى المدائن كما قدَّمنا، فسار من القادسيَّةِ لأيّامٍ بَقين من شوّال، وكُلُّ الناسِ فارس، قد نَقَل الله إليهم ما كان في عَسْكر الفُرسَ، فوصلتْ مقدِّمة المسلمين بُرس وعليها عبدُ الله بن المعتمّ، وزهرة بن الحَوِيَّة وشُرَحبيل بن السِّمْط، فلقيَهم بها بصبهرى في جمع من الفرس، فهزمهم المسلمون إلى بابل، وبها رؤساء القادسية: النَّخِيرجان، ومهران الرَّازيّ، والهُرْمزان وأشباههم.

وقد استعملوا عليهم الفَيْرزان، وقدم عليهم بصبهرى منهزمًا من بُرْس، فوقع في النهر، ومات من طعنة، كان طعنه زُهْرة، ولما هُزِمَ بصبهرى أقبل بِسْطام دِهْقان بُرْس، فصالح زُهْرة، وعَقَدَ للمسلمين الجُسور، وأخبرَهم بمن اجتمع ببابِل من الفُرْس، فأرسَل زهرة إلى سَعْد يعرِّفه بذلك، فقَدِم سعد إلى بُرْس، وسيَّر زُهرة في المقدِّمة، وأتبَعَه عبدَ الله وشُرَحْبيل وهاشمًا، فنزلوا على الفَيْرُزان ببابِل، واقتتلوا، وانهزَم الْفُرس، وانطَلَقوا على وَجْهَيْن:

فسار الهُرْمزان نحو الأهواز، فأخَذها، وأخرَج الفَيْرُزان نحو نهَاوَنْد، فأخذها وبها كنوزُ كِسرَى.

وسار النَّخيرجان ومِهْران إلى المدائن، وقَطَع الجِسْر، وأقام سعد ببابِلَ، وقَدّم زُهرةُ بين يديْه بُكَيْر بنَ عبد الله اللَّيْثي، وكَثِير بن شهاب السَّعديّ حين عَبَرا الصرَاة[٣]،

---

(١) برس: موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتلّ مفرط العلو يسمى صرح البرس. . .

(٢) كوثى: موضع في العراق، وكوثى العراق كوثيان: أحدهما كوثى الطريق والآخر كوثى ربي وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وبها مولده، وهما من أرض بابل. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الصراة: هما نهران ببغداد: الصراة الكبرى والصراة الصغرى، أحدهما يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ ويسقي ضياع بادوريا ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد فيمر بقنطرة العباس ثم قنطرة الصبيبات ثم قنطرة رحا البطريق. . . ولم يذكر صاحب معجم البلدان شيئًا عن النهر الآخر.

فلحقا بأُخْرَيَات القوم، وفيهم فيومان والفُرخان فقتلاهما، وجاء زُهْرة فجاز سُورًا، وتقدَّم نحوَ الفُرْس وقد نزلوا بين كُوثَى والدَّيْر، وقد استَخلَف النَّخِيرَجان ومهْران على جنودهما شَهْرَيار، فنازَلَهُمْ زُهرة، فبرَزُوا لقِتاله، وطلب شَهْرَيار المبارَزة، فخرَج إليه أبو نَباتة نايلُ بنُ جُعْشُم الأعرجيّ، وكان من شُجْعَانِ تَمِيم، فَظَفِر به وقَتَله، وأَخَذَ فَرَسه وسِوارَيْه وسَلَبَه، وانْهَزَم أصحابُه، وأقامَ زُهرَة بكُوثَى حتى قَدِم عليه سَعْدٌ، فقدّم إليه نايلاً وألبَسَه سِلاحَ شَهْريار وسَوارَيْهِ، وأركبه بِرْذَوْنَه، فكان أوّل عربيٍّ سُوِّر بالعِراق. وأقام سعدٌ بها أيّامًا.

وقيل: كانت هذه الوقائع في سنة سِتَّ عشرة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خبر بهرسير[1] وهي المدينة الغربية

قال: ثم مَضَى زُهْرة إلى بَهُرَسِير في المقدِّمات، فتلقَّاه شيرَزاد دِهْقان ساباط بالصُّلح، فأرسَلَه إلى سعد فصالَحَه على الجِزْية، ولقي سعد كتيبة كِسْرى الَّتي تُدْعَى بُوران، وكانوا يحلفون كلَّ يوم ألاَّ يَزولَ مُلك فارسَ ما عشنا، فهزمهم، فَقَتَلَ هاشمُ بنُ عتبةَ المقرِّط، وهو أسدٌ كان كسرى قد أَلِفَه، فقبَّل سعد رأسَ هاشم وبعَثه في المقدِّمة إلى بَهُرَسِير، ووَصَلها سعدٌ والمسلمون، فلمّا رأوا إيوانَ كسرى، كبَّر ضِرارُ بن الخَطَّاب، وقال: هذا ما وَعَدنا اللّهُ ورَسوله، وكبَّر النَّاسُ معه، فكانوا كلَّما وصلت طائفةٌ كبَّروا، ثم نَزَلوا على المدينة، وكان نزولُهم في ذي الحِجّة سنة خَمس عشرةَ. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الغربية وهي بهرسير

كان فتحُها في صفَر سنةَ ستّ عشرةَ. وذلك أنَّ سعد بنَ أبي وقّاص نزل عليها وحاصَرَها شهريْن، ونَصَب عليها عشرين مَنْجَنيقًا، وقاتَلَ أهلَها قِتالاً شديدًا، وأرسل سعدٌ الخيولَ، فأغارتْ على من ليس له عَهْدٌ، فأصابوا مائةَ ألفِ فلاَّح، فأرسلَ سعدٌ إلى عمرَ يستأذنه، فقال: مَنْ جاءكم ممّن يُعِين عليكم فهو أمانُهم، ومن هرب فأدرَكْتموه فشأنَكم به، فَخَلَّى سعدٌ عنهم، وأرسل إلى الدَّهاقِين ودعاهم إلى الإسلام أو الْجِزْية ولهم الذِّمّة؛ فتَراجَعوا.

---

(١) بهرسير: بالفتح ثم الضم، وفتح الراء وكسر السين المهملة، وياء ساكنة، وراء: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بهرسير الرومقان... (معجم البلدان).

قال: واشتدّ الحِصارُ على أهل المَدائن الغربيَّةِ، حتى أكلوا السَّنانيرَ[١] والكلاب، فبينما هم يحاصِرُونهم إذ أشرفَ عليهم رسولٌ، فقال: يقول لكم المَلِك: هل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا ما يَلِينا من دِجْلَة إلى جَبَلِنا، ولكم ما يليكم من دِجْلَة إلى جَبَلِكم؟ أما شَبِعْتم! لا أشبَعَ اللّهُ بطونكم! فقال له أبو مُفَزِّز الأسود بن قُطْبَة، وقد أنطَقَه اللّهُ عزَّ وجلَّ بما لا يَدري لا هو ولا مَنْ معه، فرجع الرّجُلُ، فقَطَع الفُرْس دجلةَ إلى المَدائن الشَّرقيّة الَّتي فيها الإيوان، فقال له مَن معه: يا أبا مفزِّر، ما قلتَ للرَّسول؟ قال: واللّهِ ما أدري، وأرجو أن أكونَ قد نَطقتُ بالَّذي هو خيرٌ، فنادى سعدٌ في النَّاس، فنهدُوا إليهم[٢]، فما ظَهَر على المدينة أحد ولا خَرجَ إلاَّ رجلٌ يُنادِي بالأمان، فأمَّنُوه؛ فقال لهم: ما بَقِيَ في المدينة أحدٌ يَمنعُكم؛ فدخلوا فما وَجَدوا فيها غيرَ الأسارى وذلك الرّجل، فسألوه: لأيِّ شيء هَرَبوا؟ فقال: بَعثَ إليكم المَلِك بالصُّلح فأجَبْتُموه: ألاَّ صُلْحَ بيننا وبينكم أبدًا حتى نأكلَ عَسَلَ أفريدون بأُتْرُج[٣] كُوثَى؛ فقال المَلِك: يا وَيْلَتِيَه، إنَّ الملائكة تكلَّم على ألسنتهم تَرُدُّ علينا، فساروا إلى المدينة القُصْوَى، ودَخلَ المسلمون المَدِينة، وأنزَلَهم سعد المَنازِلَ. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الشرقية التي فيها إيوان كسرى

قال: وأقام سعدٌ ببَهُرَسِير أيامًا من صَفَر، ثم قَصَد المَدائن، وقطع دِجلَة، وهي تقذف بالزَّبَد لكَثْرة المدِّ؛ وكان سَبَبُ عُبوره أنَّ عِلْجًا[٤] جاءه فقال: ما مُقَامُكَ؟ لا يأتي عليك ثالث حتى يَذهبَ يَزْدَجِرد بكلِّ شيءٍ في المَدائن، فهيّجه ذلك على العبُور، فقام وخطب النَّاس، وقال: إنَّ عدوَّكُم قد اعتصم منكمْ بهذا البَحْر، فلا

---

(١) السنانير: جمع السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم، من خير مآكله الفأر. ومنه أهلي وبري.

(٢) نهدوا: هموا.

(٣) أترج: معروف وباليونانية ناليطيسون، يعني ترياق السموم، ومنه يوناني، وبالعربية متكا أيضًا، والسريانية لتراكين؛ وهو ثمر شجر يطول، ناعم الورق والحطب ويدرك عند شمس القوس وأجوده الأملس الطوال الكبار النضيجة وأردؤه ما مال إلى استدارة ومنه ما في وسطه حماض وهو مركب القوى... مفرح ينفع الرئيسة ويزيل الخفقان والسود ويحلل الرياح الغليظة ويقوي المعدة ورماد قشره يذهب البرص طلاء ومجموعه يحلل الأورام والدبيلات... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٤) المراد بالعلج هنا: الرجل من كفار العجم.

تَخلُصون إليه معه، ويَخلُصون إليكم في سُفُنِهم إذا شاؤوا، وليس وراءَكم ما تخافون منه، فقد كفاكم اللّهُ أهلَ الأيّام، وقد رأيتُ من الرّأي أنْ تُجاهِدوا العدوَّ؛ إلاّ أنّي قد عزمتُ على قَطْع هذا البحرِ إليهم؛ فقالوا جميعًا: عزَمَ اللّهُ لنا ولك على الرُّشْدِ، فأفْعَل.

فَندب النّاسَ على العبُور، وقال: من يبدأ ويَحمِي لنا الفِراض[١] حتى تَتَلاحَق به النَّاسُ؛ لكَيْلا يمنعُوهم من العُبور؟ فأنتَدب له عاصمُ بنُ عَمرو ذو البأسِ في سِتمائة من أهل النَّجدَاتِ، فاستعمَلَ عليهم عاصِمًا، فتقدَّمهم عاصمٌ في سِتين فارسًا، قد أقتحموا دِجْلَة، فلمّا رآهم الأعاجم، وما صَنَعوا أخرَجوا للخيل الّتي تقدَّمت مِثْلَها، فأقتَحموا عليهم دِجْلة، فلقُوا عاصِمًا وقد دنا من الفِراض، فقال عاصم: الرِّماحَ الرِّماحَ! أشرِعوها، وتوخَّوا العُيون، فألتقَوْا، فطعنهم المسلمون في عيونهم، فولَّوْا ولحِقَهم المسلمون، فقَتَلوا أكثرَهم، ومَنْ نجا صار أعوَر، وتَلاحَق الستمائة بالسِّتين.

ولما رأى سعدٌ عاصمًا على الفِراض قد منَعها؛ أذِن للنّاس في الاقتحام، وقال: نستعين بالله، ونتوكَّلُ عليه، حَسبُنا اللّهُ ونعمَ الوكيل، ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله العليِّ العظيم. واقتَحَم النّاسُ دِجلَة يتحدَّثون كما يتحدَّثون في البَرِّ، وطَبَّقوا دِجْلَة حتَّى ما يُرَى من الشّاطئ شيء.

قال: ولم يكن بالمدائن أعجب من دُخول الماءِ، وكان يُدعَى يَوم الجَراثيم، لا يَبقَى أحدٌ إلاّ انتشَرَتْ[٢] له جُرثومة[٣] مِن الأرض يَستريحُ عليها؛ حتى مَا يَبلُغ الماءُ حزام فرسِه، فعَبَروا سالمين، لم يَعْدَم منهمْ أحَد، ولا عُدِم لأحد شيء إلاّ قدحٌ لمالِكِ بنِ عامر سَقَطَ منه فجرَى في الماء، ثم ألقَتْه الرِّيح إلى الشّاطئ، فأخذَه صاحبُه، فلمّا رأى الفُرْسُ عُبورَهم خرجوا هُرَّابًا نحو حلْوان، وكان يزدجرد قد قدِم عِيالَه إليها قبلَ ذلِكَ. ولمّا هَرَب حَمل أصحابُه من بيْت المالِ ما قَدَروا عليه مِمَّا خفّ، ومن النِّساء والذَّراريّ، وتركوا في الخزائن من المَتاع والثِّياب والألْطاف[٤] ما لا تُدرَك قيمتُه، وتركوا ما قد أعَدُّوه لِلحصار من الأطعمة والغَنَم والبقر، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسيّة النصفَ، وبقِيَ النِّصفُ.

---

(١) الفراض: جمع فرضة، وهي محطة السفن من النهر.

(٢) انتشرت: بمعنى خرجت.

(٣) الجرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجر؛ والمراد هنا المكان المرتفع عن الأرض مجتمع من تراب أو طين.

(٤) الألطاف: جمع اللطف، وهي الهدية.

وكان أوّل مَنْ دَخل المَدائنَ كتيبةُ الأهْوال، وهي كتيبة عاصم بنِ عَمرو، ثم كَتيبةُ الخَرْساء وهي كَتِيبةُ القَعْقَاع بنِ عمرو، فأخَذوا في سِكَكِها[١] وأحاطُوا بالقصر الأبيض وبه من بَقِيَ من الفُرْس، فأجابوا إلى الجِزْية والذِّمّة، فتَراجَع إليهم أهل المدائن على مِثلِ عهدهم، ونَزلَ سعدٌ القصرَ الأبيَض، وسرَّح زُهرةَ في آثارِهم إلى النَّهْرَوان، وسرّح مِقدار ذلك في كلِّ جهة.

وكان سَلْمان الفارسيُّ رائدَ المسلمين وراعيَهم. دعا أهلَ بُهَرَسِير ثلاثًا، وأهلَ القَصْر الأبيض ثلاثًا. واتَّخذ سعدٌ إيوانَ كِسرى مُصَلًّى، ولم يغيِّر ما فيه من التماثيل، ولمّا دَخل الإيوانَ، قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

وصَلَّى فيه صلاةَ الفَتْح ثماني رَكَعاتٍ لا يفصل بينهنَّ، وأتمَّ الصلاةَ لأنَّهُ نَوَى الإقامة، وكانت أوّل جُمعةٍ أُقيمتْ بالمَدائنِ في صفر سنة ستّ عشرة.

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

قال: وجعَل سعدٌ على الأقْباض عَمرو بنَ عمرِو بنِ مُقرِّن، وعلى القِسْمة سَلْمَان بنَ ربيعةَ الْبَاهليّ، فجمع ما في القَصر والإيوان والدور، وأحصَى ما يأتيه به أهلُ الطَّلب، ووَجَدُوا بالمدائن قِبابًا تُركيَّةً مَمْلوءَةً سلالاً مختومةً برَصاصٍ فيها آنيةُ الذهب والفِضّة، فكان الرجل يطوف ويبيعُ الذَّهبَ بالفضَّة مِثْلًا بمثلٍ، ورأوْا كافورًا كثيرًا فحسِبُوه مِلحًا فعَجَنوا به فوَجَدُوه مُرًّا. وأدركَ الطَّلَب مع زُهرةَ جماعةً من الفُرسِ على جِسْر النَّهرَوان فازْدحَموا عليهم، فوَقَع منهم بغْلٌ في الماء فأخذه المسلمون وفيه حِلْيَة كِسرَى وثِيابُه، وخَرَزاتُه ووِشاحه، ودِرْعه المُجَوْهَر. ولَحِق بعضُ المسلمين بَغلَيْن مع فارسيْن فقتَلهما، وأخذَ البَغْلَيْن فأوصَلهما إلى صاحب الأقْباض، وهو يكتب ما يأْتيه به النَّاس، فاستَوْقَفه حتَّى يَنظرَ ما جاء به؛ فإذا على أحدهما سَفَطانِ[٢] فيهما تاجُ كسرى مُفَسَّخًا، وكان حِملُه على أُسطُوانَتين، وفيه الجَوْهر، وعلى البَغل الثَّاني سَفَطان فيهما ثيابُ كِسرَى من الدِّيباج المَنْسوج بالذَّهب المنظوم بالْجَوْهر، وغير الدِّيباج منسوجًا مَنظومًا. وأدرَكَ القعقاعُ فارسِيًّا فَقتَله وأخذ منه عَيْبَتَيْن[٣] في أحدهما

(١) السلك: واحدتها سكة، وهي السطر المصطف من الشجر والنخيل.
(٢) السفط: وعاء كالجوالق.
(٣) العيبة: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع.

خمسةُ أسياف، وفي الأُخرى ستَّة أسْيافٍ، وأدْرع منها درْعُ كسرَى، ومَغافِرُه[١] وسَيْفُه، ودِرعِ هِرَقل وسَيفه، ودرع شُوبِين وسَيْفه، ودرعِ سياوْخش وسيفُه، ودرعُ النعمان وسَيْفه، وبقيّة السُّيوف لهُرْمز وقُباذ وفَيْروز.

وكان الفُرسُ قد استلبوا أدْراعَ مُلوكِ الهند والترك والرُّوم وسيوفَهم لمّا غَزَوْهم، فأحضر القعقاع ذلك إلى سَعد فخَيَّره في الأسياف فاختار سيفَ هِرَقْل، وأعطاه دِرْع بَهْرام، ونفَّل سائرَها إلاّ سيْفَ كسرى وسيف النعمان، فبعث بهما إلى عُمَر بن الخطاب؛ لتسمعَ العربُ بذلك بعد أن حَسَبَهمَا في الأخْماس، وبعَثَ بتاج كِسرى وحِلْيتِهِ وثيابِهِ إلى عمَر ليراه المسلمون.

قال: وأدرَكَ عِصمةُ بنُ خالدِ الضَّبيّ رجلَيْن معهما حماران، فقتل أحدَهما وهَرَب الآخر، وأخَذَ الحِمَارَيْن وأتى بهما إلى صاحب الأقْبَاضِ، فإذا على أحدِهما سَفطَان في أحدهما فَرَسٌ من ذَهبٍ بسَرْج من فِضَّةٍ على ثفره[٢] ولبَّته الياقوتُ والزَّبرجد، وَلجامٌ كذلك، وفارسٌ من فِضَّةٍ مُكلَّلةٍ بالجَوهر، وفي الآخر ناقةٌ من فضَّة عليها شلِيل[٣] من ذهَبٍ، وكلُّ ذلك منظومٌ بالياقوت، وعليها رَجُلٌ من ذَهب مكلَّلٍ بالجَوهر، كان كِسرَى يَصنَعُها على أُسْطُوانتَي التَّاج.

وأدَّى المسلمون الأمانةَ في المَغْنَم، ولما جُمِعَتْ الغنائم خمَّسها سعد، وقسَّم ما بقيَ من الخُمسِ والنَّفَل[٤] بين الناس، وكانوا ستِّين ألفًا كلُّهم فارس، أصابَ كُلاًّ منهم اثنا عشرَ ألفًا، ونَفَّلَ من الأخْماس في أهل البلاء، وقسَّم المنازلَ بين الناس، وأحضَر العِيالات فأنزلهم في الدُّور، فأقاموا بالمدائن؛ حتَّى نزلوا إلى الكوفة بعد فَراغهم من جَلُولاء[٥]، وتكْرِيت، والمَوْصِل.

قال: وأرسَل سَعد في الخُمس كلَّ شيءٍ يَتعجَّب منه العربُ، وأراد أنْ يُخْرِجَ خمس القَطِيف فلم تَعتَدِل قِسْمتهُ، فقال للمسلمين: هل تطيبُ نفوسُكم بأربعة أخماسِه، ونَبعَث به إلى أميرِ المؤمنين يضعه حيث يشاء؟ قالوا: نَعَمْ، فَبعث به إلى عمَر.

---

(١) المغافر: جمع المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٢) الثفر: سير في مؤخر السرج ونحوه يشد على عجز الدابة تحت ذنبها.

(٣) الشليل: مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرحل.

(٤) النفل: الغنيمة.

(٥) جلولاء: بالمد: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا. . . (معجم البلدان لياقوت).

والقَطِيف: بِساطٌ، واحدٌ طولُه ستُّونَ ذراعًا، وعَرضُه مِثلُ ذلك مِقدار جَرِيب[١]. كانت الأكاسرةُ إذا ذهبت الرَّياحِين بعد الشِّتاء شَربوا عليه، فكأنَّهم في رياض، فيه طُرُقٌ كالقصُور، وفصوصٌ كالأنهار، أرضُه مُذْهَبةٌ، وخِلالُ ذلك فُصوصٌ كالدرّ، وفي حافاتِه كالأرْض المَزروعة والمُبْقَلَةِ[٢] بالنَّباتِ والورقِ من الحرير على قُضْبانِ الذَّهب، وأزهارُه الذَّهبُ والفضَّةُ، وثمارُه الجوهَرُ وأشباهُ ذلك.

فلمّا وصلَ إلى عمَر استشار المسلِمين فيه، فأشاروا بقَطْعِه، فقَطَّعه بينهم، فأصابَ عليٌّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه قطعةٌ منه، فباعَها بعشرين ألفًا، ولم تكن أجوَدَ مِن غيرِها.

ذكر وقعة جلولاء وفتح حُلوان[٣]

كانت وقعةُ جلولاء في أول ذي القَعْدة سنة ستَّ عشرة، بينها وبين المدائن تسعةُ أشهُرٍ، وسببُها أنَّ الفُرْس لمّا هَرَبوا من المدائن انتهوْا إلى جَلُولاءَ، فافترقتْ الطُّرقُ بأهلِ أذْرِبيجانَ والباب، وأهل الجبال وفارِس، فقالوا: إن افترقْتُم لم تجتَمعوا أبدًا، وهذا مكانٌ يُفَرِّقُ بيننا، فِهلُمُّوا فلنجتمع للعربِ به، وَقاتِلْهم فإنْ كانت لنا فهو الَّذي نحبّ، وإن كانت الأُخرى كُنَّا قد قضيْنَا الَّذِي علينا، وأبْلَيْنا عُذْرًا. فاجتمَعوا واحتفَروا خَنْدقًا، واجتمَعُوا فيه على مِهْران الرازيّ، وتقدَّم يَزْدَجِرْد إلى حُلْوان، فبلغ ذلك سعدًا، فأرسَل إلى عمر، فبعث إليْه أنْ سَرِّحَ هاشمَ بنَ عُتْبَةَ بن أبي وَقَّاص إلى جَلولاء، واجعلْ على مقدِّمته القعقاعَ بنَ عمرو، وإن هَزمَ اللّهُ الفُرسَ فاجعل القَعقاعَ بين السَّوادِ والجَبَل، وليكن الجندُ اثني عَشَر ألفًا. ففعل سعدٌ ذلك.

وسار هاشمٌ من المدائن في وجوه المهاجِرين والأنصار وأعلام العَرَب، فمرّ ببابل مهرُوذ، فصالَحه دِهْقانُها؛ على أن يُفرَش له جَريبُ الأرضِ دراهمَ ففعل، ثم قَدِم جَلُولاءَ فحاصَرَهم في خنادِقهم، وأحاط بهم، وطاوَلهم الفُرس وجَعَلوا لا يَخرُجون إلاَّ إذا أرادوا، وراجعهم المسلمون نحو ثمانين يَوْمًا، كلُّ ذلك يُنْصَر المسلمُون عليهم، وجعلت الأمدادُ تَرِد من يَزدَجِرْد إلى مِهْران، ومن سَعْدِ إلى المسلمين.

---

(١) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة. (٢) المبقلة من الأرض: التي تنبت البقل.

(٣) حلوان: وهي في عدة مواضع: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد... قيل: أكثر ثمارها التين... وربما يسقط بها الثلج... وفيها رمان ليس في الدنيا مثله... وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء... (معجم البلدان).

وخرج الفُرسُ يومًا فقاتَلوا قتالاً شديدًا، وأرسل اللّهُ عليهم ريحًا حتى أظلمتْ عليهم البِلاد، فسَقَط فُرسانُهم في الخندقِ، فجعلوا فيه طُرُقًا تَصعَد منها خَيلُهم، ففسد الخندقُ، فنهض المسلمون وٱقتَتَلوا قِتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله، ولا لَيْلةَ الهَرِير، إلاّ أنّه كان أعْجَل. وٱنتهى القَعْقَاع من الوجه الذي زَحَف منه إلى باب الخَنْدقِ، وأمَرَ مناديًا فنادَى: يا معشر المسلمين، هذا أميرُكم قد دخل الخندقَ، فأقبِلوا إليه، ولا يمنعكم مَنْ بينكم وبينَه من دخوله، فَحملوا وهم لا يَشكُّون أنّ هاشمًا في الخندقِ، فإذا هم بالقَعْقاع، فٱنهزم الفُرْس يَمْنة ويسْرة، وٱتّبعهم المسلمون، فلم يُفْلِتْ منهم إلاّ القليل، وقُتِلَ منهم يومئذٍ مائةُ ألفٍ، فجلّلت[1] القَتْلى المجال، وما بَيْن يديه وما خلفَه، فسمِّيتْ جَلولاء بما جلّلَها من قَتْلاهم، وسار القَعقاعُ في الطلبِ حتى بلغ خانقين، فأدْرَكَ مِهرانَ الرازيّ فقَتَله، وأدرك الفَيْرُزان، فنزل وتوقّل[2] في الجبل فنجا، وأصابَ القعقاعُ سَبايَا فأرسَلَهُنّ إلى هاشم فقسَّمهُنَّ، فٱستولَدَهُنّ المسلمون، وممَّن يُنسب إلى ذلك السّبْي أُمّ الشّعبيّ.

قال: ولمّا بلغت الهزيمةُ يزدَجْرد سار من حُلوان نحو الرَّيّ، واستخلفَ على حُلوانَ خُسْرشنوم، فلمّا وصل القعقاعُ قصرَ شيرين خرج إليه خسرشنوم، وقدم إليه الزِّينبِيُّ دِهْقَانُ حُلْوان، فقتله القَعْقاع، وهَرَب خسرشنوم، وٱستولَى المسلمون على حُلْوان، وكان فتْحها في ذي القَعْدة، وبقيَ القعقاعُ بها إلى أن تحوّل سعدٌ إلى الكوفةِ، فلحِقَه، وٱستخلَف على حُلوانَ قُباذ، وكان أصلُه خُراسانيًا، وكتبوا إلى عمَر بالفتح، واستأْذَنوه في العُبور فأبَى، وقال: لوَدِدتُ أنّ بين السَّواد والجبل سدًّا لا يَخلُصُونَ إلينا ولا نَخلُصُ إليهم، حَسْبُنا من الرِّيفِ السَّواد، إنّي آثرتُ سلامةَ المسلمين على الأنفال.

قال: وجُمِعَتْ الغنائمُ وقُسِمتْ بعد الخمسِ، فأصاب كلَّ فارسٍ تسعةُ آلاف، وتسعةٌ من الدّوابّ، وقُسِّم الفَيءُ على ثلاثين ألفًا.

وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألفٍ، وبَعث سعدٌ بالخمْس إلى عمرَ، وهو ستّةُ آلافِ ألفٍ، وبَعث الحساب مع زِياد ابن أبيه، فكلّمه عمرُ فيما جاء له، فوَصفه له، فقال له عمر: هل تستطيع أن تقومَ في النّاسِ بمثل ما كلّمْتَني؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيَبَ في صَدْري منك، فكيف لا أقوَى على هذا مع غيرك! فقام في النّاس فتكلّم بما أصابُوا وبما صَنعُوا، وبما يستأْنفون من الانسياح في البلاد.

---

(١) جلّل: عمّ. (٢) توقل في الجبل: صعد.

فقال عمر: هذا الخطيبُ المِصْقَع[١]، فقال: إنَّ جُندنا بالفعال أطلقوا ألسِنَتَنا.

قال: ولمّا قَدِم الخمسُ على عمرَ قال: واللهِ لا يُجِنُّه[٢] سَقْفٌ حتى أقسِمَه، فبات عبدُ الرحمٰن بنُ عوفٍ وعبدُ الله بنُ الأرقم يَحرُسانه في المَسْجِدِ، فلمّا أصبحَ عمرُ جاء في النَّاس فَكَشَفَ عنه، فلمّا جاء ونظر إلى ياقوتِه وزَبَرْجَدِه وجوهرِه بكى، فقال عبد الرحمٰنُ بنُ عوفٍ: ما يُبكيكَ يا أميرَ المؤمنين؟ فوالله إنَّ هذا لَمَوْطن شُكْرٍ. فقال عمر: والله ما ذاك يبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قومًا إلاَّ تَحاسَدوا وتَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا إلاَّ ألقى اللّهُ بأسَهُمْ بينهم.

ومَنَعَ عمرُ رضي الله عنه مِن قِسمةِ السَّواد لتعذُّر ذلك بسبب الآجام والغِياض، ومَفِيضِ المِياه، وما كان لبُيوتِ النَّار، ولسِكَك البُرُدِ[٣]، وما كان لكِسْرى ومَنْ معه، وخاف الفتنةَ بين المسلمين فلم يُقَسِّمه، ومنع من بيعِه، فلا يحلُّ بيعُ شيءٍ من أرْضِ السَّوادِ ما بين حُلوان والقادسيَّةِ.

قال: وٱشترى جَريرٌ أرضًا على شاطىء الفُراتِ، فردَّ عمرُ ذلك الشراء وكَرِهه. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحه الأُبُلَّة

قد اختلف المؤرِّخون في وقتِ ولايته البَصْرة، وهل كانت من قِبَلِ عمرَ بن الخطَّابِ أو من قِبَلِ سعدِ بن أبي وقَّاص بأمرِ عُمَر. فأمّا من يقول: إنَّ وِلايَتَه من قِبَل عُمر، فإنَّه جعَلَها في سنة أربعَ عشرة، وأنَّ نزوله البَصْرة كان في شهر ربيع الأوّل أو الآخر، بعَثَه عمرُ إليها، وكان بالبَصْرة قُطْبَة بنُ قَتادةَ السَّدُوسيّ يُغِير بتلك النَّواحي، كما يُغيرُ المثنَّى بالحِيرة، فكتب إلى عمرَ يُعلِمُه مَكانَه؛ وأنه لو كان مَعه عَدَدٌ يسيرٌ لظفِر بمَن قِبَله مِنَ العَجَم، فنَفَاهمْ عن بِلادهم. فكَتَب إليه عمرُ يأمره بالمُقام والحذَر، ووجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر أحدَ بني سَعدِ بن بكر، فأقبَل إلى البَصْرةِ ونزل بها قُطْبَةُ، ومضى إلى الأهْواز حتى ٱنتهى إلى دارِس، وفيها مَسلحةُ[٤] الأعاجم، فقَتَلوه.

فبعثَ عمرُ عُتبةَ بنَ غَزْوان، وقال له: إنِّي قد استعملتُكَ على أرضِ الهندِ وهي حَوْمةٌ[٥] من حَوْمات العدُوّ، وأرجو أن يكفيَكَ اللّهُ ما حولَها، ويعينَكَ عليها. وقد

---

(١) المصقع: البليغ يتفنن في مذاهب القول. (٢) يجنّه: يستره.
(٣) البُرُد: جمع البريد. (٤) المسلحة: موضع السلاح.
(٥) الحومة من القتال: أشد موضع فيه.

كتبتُ إلى العَلاء بنِ الحَضرَميّ أن يُمِدَّك بعرفَجة بنِ هرْثمة، وهو ذُو مُجاهَدة ومكايَدة للعدو، فإذا قَدِم عليك فاستَشِرْه وادْعُ إلى الله، فمَن أجابَكَ فاقْبَلْ منه، ومن أبى فالْجِزْية، وإلاَّ فالسَّيف، وأوْصاه ثم قال له: انطلِقْ أنت ومَنْ معكَ؛ حتى إذا كنتم في أقْصَى أرض العَرَب، وأدْنَى أرضِ العَجَم فأقيموا.

فسار عُتبةُ ومَن معه حتى إذا كانوا بالمربد[1] تقدَّمُوا حتَّى بلغوا حِيالَ الجِسْر، فنزلُوا، فبلغ صاحبَ الفراتِ خبرُهم، فأقبَل في أربعة آلاف، فالْتقَوْا فقَاتَلَهم، عُتبةُ بعد الزَّوالِ وهو في خُمْسمائة، فقَتَلَهم أجمعين، ولَم يَبقَ إلاَّ صاحبُ الفُراتِ، فأُخِذَ أسيرًا.

وأمَّا من يقول: إنَّ سعدَ بنَ أبي وقَّاص أرسله، فقال: إنَّ البَصْرة مُصِّرَتْ في سنة ست عشرةَ بعد جَلولاءَ وتكْريت، فأرسله سعدُ إليها بأمْرِ عُمَر، وإنَّ عُتبةَ لمّا نزل البَصرةَ أقامَ بها نحو شَهْر، فخرج إليه أهلُ الأُبُلَّة، وكان بها خمسمائة أُسْوار[2] يَحْمُونها، وكانت مَرْفأ السُّفُنِ مِنْ الصِّين، فقاتَلَهم عُتبةُ فهَزَمهم؛ حتَّى دخلوا المدينة، ورجَعَ عُتبة إلى عسكرِه، وألْقَى الله الرُّعْبَ في قلوب الفُرسِ، فخَرَجوا عن المدينة وحَمَلوا ما خفَّ، وعَبَروا الماء، وأخْلوا المدينة ودخَلَها المسلمون وأصابُوا متاعًا وسِلاحًا وسَبْيًا، فاقْتَسموه بعدَ أنْ خَمَّسَهُ عتبةُ، وكان المسلمون ثلاثمائة، وكان فَتْحُها في شهر رجب أو شعبان، ثم نَزَل موضع مَدينة الرِّزق، وخَطَّ موضعَ المَسجدِ، وبناه بالقَصَبِ. وكان أوّلَ مولود وُلِدَ بالبَصرةِ عبدُ الرحمٰن بنُ أبي بَكْرة، فلمَّا وُلِدَ نَحر أبوه جَزُورًا فَكَفتْهم لقلَّة الناس، ثم جمعَ اللَّهُ أهلَ دَستُميسان، فلقيهم عتبةُ فهزَمهم وأخذ مَرْزُبانُها أسيرًا، وأخذَ قَتادةُ مِنطقَتَه فبَعَث بهَا إلى عمَر مع أنَس بن حُجَيَّة. فقال له عمر: كيفَ النَّاس؟ فقال: انهالتْ عليهم الدُّنيا، فهم يَهيلون الذَّهب والفِضَّةَ، فرغَّبَ النَّاسَ في البَصْرةِ فأَتَوْها، واستعمل عتبةُ مجاشِعَ بنَ مسعود على جماعة وسيَّرهم إلى الفُراتِ واستخلفَ المغيرة بنَ شُعبةَ على الصَّلاةِ؛ إلى أن يَقدَمَ مُجاشِعٌ فإذا قَدِم فهو الأمير.

وسار عتبةُ إلى عُمرَ، فظَفِر مجاشعُ بأهلِ الفُراتِ. وجمع الفيلكان (عظيم من الفُرْس)، فخرجَ إليه المغيرةُ بنُ شعبةَ، فلقِيه بالمَرْغاب فاقتَتَلوا. فقال نِساءُ المُسلِمين: لو لحِقْنا بهم، فَكنَّا مَعَهم؛ فاتَّخَذْن من خُمُرهِنَّ رَايات، وسرن إلى المسلمين.

---

(١) المربد: سوق بالبصرة.

(٢) الأسوار: جمع الأساورة، وهم فرسان العجم.

وكتب المغيرةُ إلى عمَر بالفتح، فقال عمر لعُتبةَ: من استعملتَ بالبَصْرةِ؟ فقال: مجاشعَ بنَ مسعود. قال: أتَسْتَعْمِل رَجُلاً من أهل الوَبَرْ على أهْلِ المدَر! وأخبَرَه ما كان من المُغيرةِ، وأمَرَه أن يَرجع إلى عَملِه، فمات بالطَّريق. وقيل في وفاته غيرُ ذلك.

وكان مِمَّن سُبِيَ من مَيْسان يَسار أبو الحَسَن البَصْري، وأرْطَبان جدّ عبد الله بن عَوْنِ بنِ أرْطَبان. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ذكر فتح تكريت والموصل

وفي سنة ستّ عشرةَ في جُمَادَى فُتِحَتْ تَكْرِيت؛ وذلك أنَّ الأنْطاق سار من المَوْصِل إلى تَكْريت، وخَنْدَقَ عليه ليَحميَ أرضَه ومعه الرُّوم وإيَاد، وتَغلِب، والنَّمِر، والشَّهارِجة، فبَلَغ ذلك سَعْدًا فكتب إلى عمرَ، فأمَره: أنْ سَرِّحْ عبدَ الله بنَ المُعْتمّ، واستعمِلْ على مقدِّمته رِبْعيَّ بنَ الأفْكَل، وعلى الخيل عَرْفَجَةَ بنَ هَرْثَمة.

فسار عبدُ الله إلى تكْريت، وحصر الأنطاق ومن معه أربعين يَوْمًا، وتَزاحَفوا في المدّة أربعةً وعشرين زَحْفًا، ثم أرسل عبدُ الله إلى العَرب الَّذين مع الأنْطاق يَدْعُوهم إلى الإسلام، فأسلَموا، وأُعلِمُو أنَّ الرُّومَ قد نقلوا متاعَهم إلى السُّفُن، فأرسل إليهم: إذا سمِعْتم التكبيرَ فأعلموا أنَّا على أبواب الخندقِ، فخذوا الأبوابَ التي تَلِي دِجْلَة، وكبِّروا، واقتلُوا من قَدرتُم عليه، ففعلوا ذلك، وأخذت الرُّومَ السيوفُ من كلّ جانب.

وأرسل عبدُ الله رِبْعيَّ بنَ أفْكَل إلى الحِصنين وهما نينوَى[1] وهو الحِصْن الشَّرقيّ، والموصِل وهو الحِصْن الغربيّ، وقال: اسْبِق الخبرَ، وسَرَّح معه تَغْلِب، وإياد، والنَّمِر، فأظْهَرُوا الظَّفَر والغَنِيمةَ، وبشروهم، ووقَفُوا بالأبوابِ. وأقبلَ ابنُ الأفْكل فاَقتَحَم الحِصن فسألُوا الصُّلْحَ، وصارُوا ذِمَّةً، وقُسِّمَتْ الغنيمة، فكان سهم الفارسِ ثلاثةَ آلاف، وسهمُ الرَّاجل ألفَ درهم، وبعثوا بالأخماسِ إلى عمرَ، وولَّى الموصلَ ربعيَّ بنَ الأفْكَل، والخَرَاج عَرْفَجَة بنَ هرثمة.

---

(١) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو: هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه... (معجم البلدان).

وقيل: إنّ فَتْحَ المَوْصِل كان في سنةِ عشرين لمّا استعمَل عمرُ عتبةَ بن فَرْقَد لقَصْدِها، وأنه فَتَح الْمَرْج، وبانهذرا، وباعذرا، وحِبْتون، وداسن وجميع معاقل الأكراد، وقَرْدى وبازَبْدى، وجميع أعْمال المَوْصِل.

وقيل: إنَّ عِياض بنَ غَنْم لمَّا فتح بلَد أتَى المَوْصِلَ ففتح أحَد الحِصْنَين، وبَعثَ عُتبةَ بنَ فَرْقد إلى الحِصْن الآخر، فَفَتحه على الْجِزية والخَراج، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر فتح ماسيذان

لما رجع هاشمُ بنُ عتبةَ بن أبي وقَّاص من جَلولاءَ إلى المَدائن بلغ سَعْدًا أنَّ آذيْن بن الهُرمُزان قد جمع جَمْعًا وخرج بهمْ إلى السَّهْلِ، فأرسل إليهم ضِرارَ بنَ الخَطَّاب في جيْش، فالْتقَوْا بسَهْلِ ماسَبذَانَ وٱقْتتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخَذ ضِرار آذِين أسيرًا فقَتَله، ثم خرجَ في الطَّلَبِ حتى ٱنتهى إلى السَّيرَوان، فأخذ ماسَبَذان عَنْوَةً، وهرب أهلُها في الجبال، فدعاهم فٱستجابوا له، وأقام بها حتى تَحَوَّلَ سعدٌ إلى الكوفة، فسار إليه، وٱستَخلف على ماسَبذَانَ ٱبنَ الهُذَيل الأسَديّ، فكانت أحدَ فُروجِ الكُوفة.

وقيل: إنَّ فتحها كان بعد وَقعةِ نَهاوَنْد، والله أعلم.

ذكر فتح قرقيسيا

وفي سنة ستّ عشرةَ أيضًا، أرسل سعدُ بن أبي وَقَّاص عمرَ بن مالك بن عُتبة في جند، وجَعَلَ على مقدِّمته الحارثَ بنَ يزيدَ العامرِيّ، فخرج نحو هِيت، فنازل مَنْ بها، وقد خندقوا عليهم، وكان أهلُ الجزيرة لمّا أمَدُّوا هِرقْلَ على أهلِ حِمْص كما ذكرنا، بَعَثُوا جُنْدًا إلى أهلِ هِيتَ، فلمّا رأى عُمر ٱعْتصامَهُمْ بخندَقهم، تَرَكَ الأخْبِيَةَ على حالِها، وخلَّف عليهم الحارث في نصف النَّاس، وسار بالنِّصف الثاني إلى قَرْقِيسيا، فجاءها على غِرَّةٍ فأخذَهَا عَنوةً، فأجابوا إلى الجِزْية. وكتب إلى الحارث: إنْ هم ٱستجابوا فخلِّ عنهم فلْيخرجوا وإلا خَنْدِق على خَنْدَقِهِم خَنْدَقًا، وٱجعَلْ أبوابَه ممّا يليك حتى أرى رَأْيِي. فراسلهم، فأجابوا إلى العَوْد إلى بلادهم، فتَرَكهم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر فتح الأهواء ومناذر[١] ونهر تيرى[٢]

وفي سنة سبع عشرةَ فُتِحَتْ الأهْواز، ومنَاذِر ونَهر تِيرَى، وقيل: كان في سنة ستّ عشرة، وكان سببُ هذا الفتح: أنَّ الهُرْمُزان، وهو أحد البيُوتاتِ السَّبْعَةَ من أهلِ فارس لمَّا انهزمَ يومَ القادسيَّة قصد خُوزِسْتان فمَلَكها، وكان يُغِيرُ على أهل بَيْسان، ودَسْتُمِيسان من مَناذِر، ونهر تِيرَى، فاسْتَمدَّ عُتبةُ بنُ غزوان أميرُ البصْرة سَعْدًا، فأمدَّه بنُعيم بنِ مُقَرِّن ونُعَيْمِ بنِ مسعود، وأمرهما أن يأتيَا أعلى مَيْسان ودَسْتُمِيسانَ حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى، ووجَّه عتبةُ بنُ غَزْوان سُلْمى بنَ الْقَين، وحَرْملةَ بنَ مُرَيْطة - وكانا من المهاجرين - فنزلا على حدُودِ مَيْسان، ودَسْتُمِيسان بينهم وبين مَناذِر، ودَعَوا بني العَمِّ، فخرج إليهما غالب الوائليّ، وكُلَيْب بنُ وائل والكُلَيْبيّ، تواعَدوا في يوم، أنَّ سُلمى وحَرْملة يخرجان إلى الهُرْمُزان، وأنَّ غالبًا وكُلَيْبًا يَثُور أحدُهما بمَناذِر، والآخر بنَهر تِيرَى، فلمّا كان في ليلة الموْعِدِ خرج سُلمَى وحَرْملة صبيحتها، وأنهضا نُعيمًا ومن معه، والتقَوْا هُمْ والهرمزان بين دُلْث ونَهر تِيرَى، واقتتلوا؛ فبينما هم على ذلك أقبل المددُ من قبل غالبٍ وكُلَيْبٍ، وأتَى الهُرْمُزانَ الخبرُ بأخْذ مَناذِر ونهر تِيرَى، فانهزم بمَنْ معه، فقتَل المسلمون منهم ما شاؤوا، واتَّبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دُجَيل، وأخذوا ما دونَه، وعسكَروا بجِبال سُوق الأهواز، وصار دُجَيْل بين الهُرْمزان والمسلمين، فعندها طلب الهُرْمزان الصُّلْحَ، فاستأمروا عتبةَ، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلِّها ومِهْرجان قذق ما خلا نهرَ تِيرَى ومَناذر، وما غَلبوا عليه من سُوق الأهواز؛ فإنه لا يردّ عليهم، وجعل عتبةُ سُلمى بن القَيْن على مَناذر مَسْلحةً، وأمْرُها إلى غالبٍ، وجعل حَرْمَلَة على نهر تِيرَى، وأمرها إلى كُلَيْب، فكان سُلمَى وحرملة على مَسالح البصرة، ثم وقع بين غالبٍ وكُلَيْب وبين الهُرْمُزان اختلافٌ في حدود الأرضِين، فَحضر سلمى وحَرْملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا الحقَّ بيدِ غالبٍ وكليبٍ فحالا بيْنَه وبينهما، فكفر الهرمزان ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد وكَثُف جنْدُه.

---

(١) مناذر: بالفتح، والذال معجمة مكسورة: مناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، وهي كورتان من كور الأهواز...

(٢) نهر تيرى: بكسر التاء المثناة من فوقها، وياء ساكنة، وراء مفتوحة، مقصور: بلد من نواحي الأهواز حفره أردشير الأصغر بن بابك، ووجدت في بعض كتب الفرس القديمة أن أردشير بهمن بن أسفنديار وهو قديم قريب من زمن داود النبي عليه السلام... (معجم البلدان لياقوت).

فكتب سُلمى ومن معه إلى عُتبة بذلك، فكتب إلى عمرَ فأمره بقَصْده، وأَمَدَّ المسلمين بحُرْقُوص بنِ زُهير السَّعديّ، وكانت له صُحْبةٌ، وأمَّره على القتال، وما غلبَ عليه.

وسار الهُرْمزان ومَنْ معه، وسار المسلمون إلى جِسْر سُوق الأهواز وأرسلوا إليه: إمّا أن تعبر إلينا أو نَعبُر إليك. قال: اعبُرُوا إلينا، فعَبَرُوا فوق الْجِسْرِ، وٱقْتَتَلوا ممّا يلي سُوق الأهواز، فانهزَم الهرمزان وسار إلى رَامَهُرْمُز، وفتح حُرْقُوص سوقَ الأهواز ونزل بها، واتّسقَتْ له بلادُها إلى تُسْتَر، ووَضَع الجزيةَ، وكتب بالفتح إلى عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه وبعث إليه بالأخماس.

ذكر صلح الهرمزان وأهل تُسْتَر[1] مع المسلمين

ولما ٱنهزم الهرمزان من سُوقِ الأهوازِ، جَهَّزَ حُرْقُوص جَزء بن معاوية في أثره، فاتَّبعه وقَتَل مِنْ أصحابِه حتى ٱنْتهَى إلى قرية الشغْر، فأعْجَزه الهرمزان، فمالَ جَزْء إلى دَوْرَق، وهي مدينة سُرّق، فأخَذَها صافيةً، ودَعَا مَنْ هَربَ إلى الجِزْية، فأجابوه.

وكتب إلى عمرَ وعتبة بذلك، فكتب عمرُ إليه وإلى حُرْقُوص بالمُقَامِ فيما غَلَبَا عليْه حتى يأمرَهما بأمره، فعَمَّر جَزْءُ البلادَ، وشَقَّ الأنهار، وأحْيَا الموات، وراسَلَهم الهرمزانُ في طَلب الصُّلح، فأجاب عمرُ إلى ذلك، وأن يكون ما أخَذه المسلمون بأيديهم، فٱصطلحوا على ذلك.

ونزل حُرقوص جبلَ الأهْوازِ، فشقَّ على النَّاسِ الاخْتِلافُ إليه، فبلغ ذلك عمرَ، فأمره بنزولِ السَّهلِ، وألا يَشُقَّ على مسلمٍ ولا مُعَاهِدٍ، وبقِيَ حُرْقوص إلى يومِ صِفِّين، ثم صار حَرُوريًا وشَهِدَ النَّهْروانَ مع الخوارجِ. والله تعالى أعلَم بالصَّواب، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) تُستَر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان اليوم، وهو تعريب شوشتر... قيل معناه: النزه والحسن والطيب واللطيف... وهي مختطة على شكل فرس... (معجم البلدان).

ذكر فتح رامهرمز[١]

قد اختلف النّاسُ في وقتِ هذا الفَتْح، فقيل: كان في سنةَ سبعَ عشرة. وقيل: سنة تسعَ عشرةَ. وقيل: في سنة عشرين.

وكان سببُه أن يَزْدَجِرد وهو بمَرْو لَم يَزَل يُثِيرُ أَهْل فارِس، أسَفًا على ما خرج من مُلْكِهم، فتحرّكُوا وتكاتبوا هم وأهل الأهوازِ وتعاقَدوا على النُّصرة، فنُمِيَ الخبر إلى حُرْقوص بنِ زُهَير، وجَزْء وسُلْمى وحَرْملة، فكَتَبوا إلى عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه بذلك.

فكتب عمرُ إلى سعدٍ: أن ٱبعثْ إلى الأهواز جندًا كَثيفًا مع النُّعمان بن مقرّن وعَجِّلْ، فليَنْزِلوا بإزاء الهرمزان ويتحقّقوا أمرَه.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرةِ: أن ٱبعثْ إلى الأهواز جُنْدًا كَثِيفًا، وأمِّر عليهم سهلَ بنَ عَديّ، أخا سهيل، وٱبْعَثْ معه البراءَ بنَ مَالِك وعَرْفَجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرةِ جميعًا أبو سَبْرة بن أبي رُهْم.

فخرج النُّعمانُ بنُ مقرّن في أهل الكُوفة، وسار إلى الأهْواز على البغال، يجنُبون[٢] الخيل، فخلّف حُرْقوصًا وسُلمَى وحرملة، وسار نحو الهرمزان وهو بِرامَهُرْمُز. فلمّا سَمِع الهرمزان بمَسير النعمان إليه، بادَرَ رَجاءَ أنْ يقتطعه، فٱلتقيَا بأرْبُك (موضع عند الأهوازِ)، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزم اللّهُ عزَّ وجلَّ الهُرْمزان، فتَرَك رامَهُرْمُز، ونزل تُسْتَر، وسار النعمان إلى رامَهُرْمُز فنزلها وصَعِد على إيذج فصالحه تِيرَوْيه عليها ورجع إلى رامَهُرْمُز، وأقام بها، ووصَلَ أهلُ البَصْرة فنزلوا سوقَ الأهوازِ، وهم يُرِيدُون رامَهُرْمُز.

فأتاهم خبر الوقعةِ ومسير الهُرْمزان إلى تُسْتَر، فساروا نحوَه، وسار أيضًا النُّعمانُ وحُرْقوص وسُلمَى وحَرْملة وجَزء، فٱجتَمعوا على تُسْتَر، وبها الهرمزانُ وجنودُهُ من أهل فارسَ والجِبال والأهواز، وهم في الخنادق، وأمدّهم عمرُ رضي الله عنه بأبي موسى الأشعريّ، وجعَلَه على أهلِ البصرة، وعلى جميع النَّاسِ أبو سَبْرة، فحاصروهم أشهرًا، وأكثروا فِيهم القَتْل.

---

(١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان... وهي من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: جنب الدابة: إذا قادها إلى جنبه.

وقَتَل البراءُ بنُ مالك في هذا الحصارِ مائةَ مُبارزٍ سِوَى من قُتِل في غير المبارزة، وقتل مثله مجزأة بن ثور وكَعْب بن ثور، وزاحَفَهم المسلمون أيام تُسْتَر ثمانين زَحْفًا يكون مَرّةً لهم ومَرّةً عليهم، فلمّا كان آخرَ زحْفٍ فيها، واشتَدَّ القتالُ، قال المسلمون: يا بَراء، اقسِم على ربِّك ليهزمنَّهم، وكان مُجابَ الدَّعوة فقال: اللهُمَّ اْهزِمْهم لنا، واستَشْهِدْني، فهزَموهم حتى أدخلوهم خنادقَهم، ثم اْقتحموها عليهم، فدخلوا مدينتَهم، وأحاط بها المسلمون، فضاقت المدينة بهم. فبينما هم كذلك إذْ خرج إلى النعمان رجلٌ يَسْتَأْمِنهُ على أنْ يَدُلَّه على مَدْخَلٍ يَدْخُلون منه، ورُمِيَ في ناحية أبي موسى بِسَهْم مكتوبٍ عليه: إنْ أمَّنْتموني دَلَلْتُكُم على مكانٍ تأتون منه المدينة، فأمَّنُوهُ في سَهْم، ورُمي إليهم بسَهم آخر وقال: اسلكوا مَنْ قِبَل مَخرَجِ الماءِ؛ فإنّكم ستفتحونها. فندب أبو موسى النّاسَ فانتدبوا، وندبَ النُّعمانُ أصحابَه مع الرّجل الّذي جاءَهُم، فالْتقوْا هم وأهلُ البصرةِ على مَخرج الماء، فدخلوا في السّرب، ولمّا دخلوا المدينة كبَّروا وكبَّرَ المسلمون من خارج، وفُتِحت الأبوابُ فاجْتَلَدوا فيها، فأناموا كل مُقاتِل.

وقَصَد الهرمزان القَلْعة، فتحصَّنَ بها، ولحقَ به جماعةٌ، وطافَ به الّذين دخلوا البلد، فنزل إليهم على حُكْم عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، فأوْثَقُوهُ واْقتسموا ما أفاءَ اللّهُ عليهم، فكان قسمُ الفارس ثلاثةَ آلافٍ، والرَّاجلِ ألفًا.

وجاء صاحبُ السَّهمِ والرَّجل الذي خرج بِنفسِهِ فأمَّنُوهُمَا، ومن أغْلَقَ بابَه معهما.

وخرج أبو سبرة في أثرِ المنهزِمين إلى السُّوس، فنزل عليها، ومعه النُّعمانُ وأبو موسى، وكتبوا إلى عُمَر، فكتب بِرَدّ أبي موسى إلى البَصْرة، فانْصَرَف إليها، وأرسل أبو سَبْرة وفدًا إلى عُمَر رضي الله عنه، فيهم: أنسُ بنُ مالكٍ والأحنفُ بنُ قيسٍ، ومعهم الهُرْمزان فقدِموا به المدينةَ وألبَسوه كُسوتَهُ من الدِّيباجه المُذهَّبِ، وتاجُهُ كان مُكَلَّلًا بالياقوتِ وعليه حِلْيَتُه؛ ليَراه عمرُ والمسلمون. فوجدوا عمرَ في المسجدِ مُتوسِّدًا بُرْنُسه، وكان قد لَبِسَه لِوفدٍ قَدِم عليه من الكوفة، فلمّا انْصرفوا تَوسَّدَه ونام، فجلسوا وهو نائم والدِّرة[١] في يَدِه.

فقال الهُرْمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا، فقال: أين حرسُه وحُجّابه؟ فقالوا: ليس له حارسٌ ولا حاجبٌ ولا كاتب. فقال: ينبغي أن يكون نَبيًّا، قالوا: بل يعملُ بعمل الأنبياء وكثر الناس.

---

(١) الدرة: السوط يضرب به.

فأستيقظَ عمرُ واستوَى جالسًا، ثم نظر إليه، وقال: ألْهُرْمُزان؟ قالوا: نعم، فقال: الحمدُ لله الذي أذَلَّ بالإسلام هذا وأشباهه، فأمَرَ بنَزْعِ ما عليه، فَنَزَعُوه وألبَسوه ثوبًا صَفيقًا[١]. فقال له عمر: كيف رأيتَ عاقبةَ الغَدْرِ، وعاقبةَ أمرِ اللّهِ! فقال: يا عمر، إنَّا وإيَّاكم في الجاهليّة، كان الله قد خلَّى بينَنا وبينكم فَغَلَبْناكم، فلمّا كان الأمرُ معكم غَلَبْتُمونا. ثم قال له عمر: ما حُجّتُك وما عُذْرك في أنتقاضِك مرّةً بعد أُخرى؟ قال: أخافُ أنْ تَقْتُلَني قبلَ أنْ أُخبِرك. قال: لا تخفْ ذلك، وأسْتَسْقى ماءً، فأُتِيَ به في قَدحٍ غليظٍ. فقال: لو متُّ عطَشًا لم أسْتَطِعْ أنْ أشربَ في مثلِ هذا، فأُتِيَ به في إناءٍ يَرْضاه. فقال: إنِّي أخاف أن أُقْتَل وأنا أشْرَبُ. فقال له عُمرُ: لا بأسَ عليكَ حتى تشربَهُ، فأكْفَأَه[٢].

فقال عمر: أعِيدُوا عليه ولا تجمعُوا عليه بَيْنَ القَتْلِ والعطشِ. فقال: لا حاجةَ لي في الماءِ؛ وإنما أردتُ أن أستأمِنَ به. قال: فإنِّي قاتِلُكَ، قال: قد أمَّنْتَنِي. قال: كَذَبْتَ، قال أنسُ: صدقَ يا أميرَ المؤمنين، قد أمَّنْتَهُ. فقال: يا أنسُ، أنا أُؤَمِّنُ قاتلَ مجزأةَ بنَ ثور والبرَاء بن مالك!

وكان الهرمزان قَتَلهما بيَدِه في هذه الوقعةِ، ثم قال: والله لتأتيَنِّي بمَخْرجٍ أو لأعاقبَنَّك، قال: قد قلتَ لا بأسَ عليك حتى تُخبِرَني وحتى تشربَ، فقال عمر رضي الله عنه: خَدَعْتَنِي، والله لا أنْخَدِعُ إلاَّ أن تُسْلِمَ، فأسلَمَ، ففرَضَ له في الفيْن في كلِّ سنةٍ، وأنزَلَه المدينةَ. والله أعلم.

ذكر فتح السوس[٣]

ولما نزلَ أبو سَبْرة على السُّوسِ في سنة سبع عشرةَ بعد فتح تُسْتَر كان بها شَهْرَيار أخو الهُرْمُزان، فأحاط المسلمون بها وناوشُوهم[٤] القتالَ مَرَّاتٍ، كل ذلك يُصيب أهلُ السوس في المسلمين، فأشرَفَ عليهم الرُّهبانُ والقِسِّيسون، فقالوا: يا معشر العربِ، إنَّ مِمَّا عَهِدَ إلِيْنَا علماؤُنا أنَّ السُّوس لا يَفتحها إلاَّ الدَّجَالُ، أو قومٌ فيهم الدَّجَال، فإنْ كان فيكم فسَتَفْتَحونَها، وكان صافُ بنُ صَيّادٍ مع المسلمين في

---

(١) ثوب صفيق: ثخين كثير الغزل.

(٢) أكفأ الإناء: كبه وقلبه.

(٣) السّوس: بلدة بخوزستان، فيها قبر دانيال النبي عليه السلام.. قيل: أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور سوس وتستر ولا يدرى من بناهما... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) تناوش القوم في القتال: أي تناول بعضهم بعضًا بالرماح ولم يتدانوا كل التداني.

خَيْل النُّعمان. ثم ناوشَ أهْلُهَا المسلمين مرَّةً، وصاحوا بهم وغاظوهم، فأتى صاف بابَ السُّوسِ فَدَقَّهُ برجْلِهِ، فقال: انفتِحْ، وهو غضبان فتقطَّعَت السلاسِلُ، وتكسَّرت الأغْلاَقُ، وتفتَّحت الأبوابُ، ودَخلَ المسلمونَ، وألقى المشركون بأيديهم، وتَنادَوْا: الصُّلْحَ الصُّلْحَ! فأجابهم المسلمون إلى ذلك بعد أنْ دخلوها عَنْوةً، واقتسموا ما أصابوا، ثم افْتَرَقُوا.

فسارَ النعمان حتى أتى أهلَ نَهَاوَنْد، وكان كِتابُ عمرَ قد ورد بصرفِه إليها لمّا تجمّعت الأعَاجمُ بها، وسار المقترِب، فنزل على جُنْديسابُور. والله سبحانه وتعالى أعلَم، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

ذكر مصالحة جنديسابور[١]

قال: وسار المسلمون عن السوس في سنة سبعَ عشرة، فنزلوا جُنْدَيْسابُور وزرّ بنُ عبد اللّهِ يحاصرهم، فأقاموا بها، فلَم يَفجأُ النَّاسَ إلاَّ وقد فُتِحَتْ الأبوابُ، وأخرجوا أسواقهم، وخرجَ أهلُهَا، فسألهم المسلمون، فقالوا: أرْسَلْتم إلينا بالأمان فقبلْناه وأقرَرْنا بالجِزْيةِ على أن تمنعونا فقالوا: ما فَعَلنا، فإذا عبد يُدْعَى مُكنِفًا كان أصلُه منها، فعل هذا، فقال المسلمون: هو عَبْدٌ؟ قالوا: نعم، قالوا: نحن لا نعرفُ العبدَ من الحرِّ، فإن شئتم فٱغْدِرُوا، فكَتبوا بذلك إلى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فأجاز ذلك، وٱنصرفوا عنهم. والله تعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الفرس

وفي سنة سبع عشرةَ أذن عمرُ رضي الله عنه للمسلمين في الانسياح في بلادِ الفُرْس، وكان سبب ذلك أنَّ عمرَ لما أُتِي بالهُرْمزان قال للوفدِ: لعلَّ المسلمين يُؤْذُونَ أهل الذِّمّةِ، فلهذا يَنتقِضون بكم! قالوا: ما نَعلم إلاَّ وَفاءً. قال: فكيف هذا! فلم يشفه أحدٌ، قال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إنَّك نهيْتَنا عن الانسياح في البلاد، وإنَّ مَلِكَ فارس بين أظهرُهم، ولا يزالون يُقَاتلونَنَا ما دام مَلِكهم فيهم، ولم يجتمعْ مَلِكانِ متفقان حتى يُخْرِج أحدُهما صاحِبَه، وقد رأيتُ أنا لَم نأخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبِعاثهم وغَدْرِهم، وأنَّ مَلِكَهم هو الذي يَبْعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا

---

(١) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده... وهي مدينة خصبة وواسعة الخير، بها النخل والزروع والمياه... (معجم البلدان).

فنَسيحَ في بلادهم، ونُزيل مُلكَهم، فهناك ينقطع رجاءُ أهلِ فارسَ. فقال: صَدَقْتَني واللّهِ، ورجع إلى قوله، وانتهى إلى رأيه، وأذِن للمسلمين في الانسِياح. فأمَرَ أبا موسى الأشعريّ أن يسير من البَصْرَةِ إلى منقطع ذِمّة البَصْرة، فكيون هنالك حتى يأتِيَهُ أمْرُهُ، وبعث بألوِيَة من وَلاَّهُ مع سُهَيْلِ بنِ عَدِيّ، فدفع لواء خُراسانَ إلى الأحْنف بن قيس، ولواء أردشير خُرَّة وسابُور إلى مُجاشِع بن مسعود السُلميّ، ولواء إصْطَخر إلى عثمانَ بن أبي العاص الثَّقَفِي ولواء فسَا ودرابجرد إلى سارية بن زُنَيْم الكِنانيّ، ولواء كِرْمان إلى سُهَيْل بنِ عَدِيّ، ولواء سِجِسْتان، إلى عاصمِ بنِ عَمرو، ولواء مُكْرانَ إلى الحكم بن عُمَيْر التَّغْلَبيّ، فخرجوا ولم يتهيّأْ مسيرُهم إلى سنة ثماني عشرة، وأمدَّهم عمرُ بنفَرٍ من أهل الكوفة، فأمدّ سُهيلَ بنَ عَدِيّ بعبدِ الله بن عبدِ الله بن عِتْبان، وأمدّ الأحْنَف بعَلْقَمة بن النَّضر وبعبد الله بن عَقِيل وبرِبْعيّ بنِ عامر، وأمَدَّ عاصمَ بن عمرو بعبد الله بن عُمَير الأشْجَعيّ، وأمدَّ الحَكَم بن عُمَير بشهاب بن المُخارِق.

وقيل: كان ذلك في سنة إحدى وعشرين. وقيل: في سنة اثنتين وعشرين، وسنذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لِفتُوحِ هذه الجهات والمَسير إليْها، والله تعالى أعلَم.

ذكر غزوة فارس من البحرين

كات هذه الغَزْوة في سنة سبعَ عشرةَ، وكان عمرُ رضي الله عنه يقول لمّا أُخِذت الأهوازُ وما يليها: وددْتُ أنَّ بيننا وبَيْن فارسَ جبلاً من نارٍ لا نَصِل إليهمْ منه، ولا يصِلُون إلينا.

وكان العلاءُ بنُ الحَضْرميّ على البحريْن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فَعزَله عمر، ثم أعاده، وكان يناوىء سعدَ بنَ أبي وَقَّاص، ففاز العَلاَء في قتال أهلِ الرِّدَّةِ بالفَضْلِ، فلمّا ظفِر سعد بأَهْل القادسيَّةِ، وأزاحَ الأكاسرةَ جاء بأعظمَ ممّا فعله العَلاء. فأراد العَلاء أن يَصْنَع في الفُرسِ شيئًا، فلم يَنظُر في الطاعةِ والمعصية بجدّ، وكان عمر رضي الله عنه نهاه وغيرَه عن الغزو في البحْرِ.

فندب العلاء الناسَ إلى فارس، فأجابوه، وفرَّقهم جُنْدًا، فجعل على أحدها الجارُود بن الْمُعَلَّى، وعلى الآخر سَوّار بن همّام، وعلى الآخر خُلَيد بن المُنذِر بن ساوَى، وخُليد على جميعِ النَّاسِ، وحَمَلهم في البحر إلى فارس، فخرجوا من البحر

إلى إصْطَخر[١]، وبإزائهم أهلُ فارس، وعليهم ٱلهربِذ، فحالت الفُرْس بين المسلمين وبين سُفُنِهِمْ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا بمكانٍ يُدْعَى طاوُس[٢]، فَقُتِلَ ٱبن السَّوّار والجارُود، وكان خليد أمر أصحابَه أن يقاتلوا رجّالةً، فقتلُوا من الفُرْسِ مَقتلةً عظيمة، ثم خرجوا يريدون ٱلبَصْرَةَ، ولم يجدوا في الرجوع إلى ٱلبَحْر سبيلاً، وأخذت الفرسُ عليهم طريقَهُمْ، فعسكَرُوا وامتَنَعوا.

فلمَّا بلغ عمرَ ما صَنَعَ العَلاءُ، أرسَل إلى عُتبةَ بنِ غَزْوان يَأْمُرُهُ بإنفاذ جيشٍ كثيفٍ إلى المسلمين بفارسَ قبل أن يَهلِكوا، وقال: إنِّي قد أُلقِيَ في رُوعي كذا وكذا، نحو الَّذي وَقَع، وأمَرَ العلاء بأثقلِ الأشياءِ عليه، وهو تأميرُ سَعْدٍ عليه.

فشخصَ العلاءُ إلى سعد بمن معه، وأرسل عتبةُ ٱثني عشر ألفَ مقاتلٍ، فيهم: عاصمُ بنُ عمرو، وعَرْفَجة بن هَرْثَمة، والأحنف بن قَيْس وغيرهم، فَخَرجوا على البِغال يجنُبون الخَيْلَ، وعليهم أبو سَبْرة بنُ أبي رُهْم حتى ٱلتَقَى بخُليد، وتوالت الأمدادُ، ففتَح الله على المسلمين، وأصابُوا من المشركين ما شاؤُوا. والله تعالى أعلم.

ذكر وقعة نهاوند وفتحها

كانت هذه الوقعةُ في سنة إحدى وعشرين. وقيل: في سنة ثماني عشرةَ. وقيل: في سنة تسع عشرةَ.

وكان الذي هَيَّجَ أمرَ نَهاوَند أنَّ المسلمين لمّا خلَّصُوا جُنْدَ العَلاء، وفتحوا الأهوازَ، كاتب الفرسُ مَلِكَهُمْ، وهو بمَرْو، وَحَرَّكُوهُ، فكاتبَ الملوكَ ما بين الباب والسِّند وخُراسان وحُلْوَان، فاجتمعوا بنَهاوَنْد، ولمّا وصلها أوائلهُم بلغ سعدًا الخبرُ، فكتَبَ به إلى عمرَ، وثار بسعدٍ أقوامٌ ووشَوْا بِهِ، وألَّبُوا عليه، وسعَوْا إلى عمرَ ولم يَشْغَلْهم ما نزل بالنَّاسِ عنه.

فقال عمر: والله لا يَمنعُني ما نزل بكم من النَّظَر فيما لديكم، وكان من عزلِ سَعْد ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السِّنين.

---

(١) إصطخر: هي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور... بها مسجد سليمان عليه السلام... وقيل: إن أكبر كور فارس كورة إصطخر، وبها كانت قبل الإسلام خزائن الملوك... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) طاوس: موضع بنواحي بحر فارس...

وقدم سعد على عمرَ، وقد استخلفَ عَلى الكوفةِ عبدَ اللّهِ بنَ عبد اللّهِ عُتْبان، فأقرَّهُ عُمَر.

قال: ونفرتْ ملوكُ الأعاجم لكتابِ يَزْدَجِرْد، واجتمعوا بِنَهاوند على الفَيْرزان في خمسين ومائةِ ألف مقاتلٍ. وكان سَعْدٌ قد كاتب عمر بالخبرِ كما ذكَرْنَا، ثم شافهه به لمّا قدِمَ عليه، وقال له: إنَّ أهل الكُوفَةَ يَسْتَأْذِنُونَكَ في الانسياحِ، وأنْ يبدؤُوهم ليكون أهيبَ لهم على عدوِّهم.

فجمع عمرُ النَّاسَ واستشارهم، وقال: هذا يومٌ له ما بعدَه، وقد هَمَمْتُ أن أسيرَ فيمن قبَلي ومَن قدرتُ عليه، فأنزِلَ منزلاً وسطًا بين هذين المِصْرَيْنِ، ثم أستنفرهم فأكون لهم رِدْءًا؛ حتى يفتحَ اللّهُ عليهم ويقضيَ ما أحَبّ؛ فإنْ فتحَ الله تعالى عليهم صَبَبْتُهُمْ في بلدَانِهِمْ.

فقال له طلحةُ بنُ عبيد الله: يا أميرَ المؤمنين، قد أعلمتْك الأمورُ، وعَجَمْتْك[1] البلايا، واحتنكَتْك التَّجاربُ، وأنتَ وشأنُكَ، وأنتَ ورأيُكَ، لا نَنْبُو[2] في يديْك، ولا نَكِلّ[3] عليكَ، إليك هذا الأمر، فمرْنا نُطِعْ، وادعُنَا نُجِب، واحمِلْنَا نَرْكَب، وقُدْنا ننقدْ؛ فإنَّك وليُّ هذا الأمر؛ وقد بلوْتَ وجرَّبْتَ واختَبَرْتَ، فلم ينكشف شيءٌ من عواقبِ قضاء اللّهِ لك إلا عن خِيار. ثم عاد فجلس.

فعاد عمرُ لمَقالته، فقام عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه، فقال: أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتبَ إلى أهلِ الشَّامِ فيَسيروا من شامهم، وإلى أهل اليَمَنِ فيَسيروا من يَمَنِهِمْ، ثم تسير أنت بأهل الحَرَمين إلى الكوفَة والبَصْرة، فتلْقى جَمْعَ المشركين بجمعِ المسلمين؛ فإنَّك إذَا سِرْت قلَّ عِنْدَك ما قد تكاثرَ من عدد القومِ. وقد كنتَ أعزَّ عِزًّا، وأكثرَ. يا أميرَ المؤمنين إنَّك لا تَستبقِي بعدَ نفسِكَ من العَربِ باقية، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحَريز. إنّ هذا يومٌ له ما بَعْدَهُ من الأيّامِ، فاشْهَدْهُ برأيِكَ وأعوانِكَ، ولا تغبْ عنه. وجلس.

فعاد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لمقالَتِهِ، فقام إليهِ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فقال: أمّا بعدُ، يا أمير المؤمنين، فإنَّكَ إن أشْخَصْتَ أهلَ الشّام من شامهم، سارتْ الرُّومُ إلى ذراريّهم، وإنْ أشْخَصْتَ أهل اليمن من يَمَنِهم، سارت الحبشة إلى ذراريِّهم، وإنْ شخصْتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليْك العربُ من

---

(١) عجمتك البلايا: اختبرتك وامتحنتك. (٢) لا ننبو: أي لا نجاوز الغرض.
(٣) كلّ: ضعف؛ تعب.

أطرافها، وأقطارِهَا، حتى يكون ما تَدَعُ وراءَك أهمَّ إليك ممَّا بين يديك من العَوْرات، والعِيالات. أَقْرِرْ هؤلاء في أمصارهم، واكتُبْ لأهلِ البَصْرةِ أن يتفرّقوا ثلاثَ فِرَقٍ، فرقة في حَرَمِهم وذراريِّهم، وفرقةٌ في أهل عَهْدِهم؛ حتى لا ينتَقِضوا، ولتَسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكُوفة مَددًا لهم. إنَّ الأعاجِمَ إنْ ينظروا إليك قالوا: هذا أميرُ العَرَب في أصلها، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهِم[1] عليك. وأمّا ما ذكرت من مسير القومِ فالله هو أكرَهُ لِمَسِيرهم منك، وهو أقْدَرُ على تغيير ما تكرَهُ.

وأمّا عَدَدُهُمْ، فإنّا لم نكُنْ نقاتِلُ فيما مضى بالكثرةِ؛ ولكن بالنَصْرِ. فقال عمر: هذا هو الرأْيُ، وكنتُ أُحبُّ أن أُتابعَ عليه.

وقيل: إنَّ طلحةَ وعثمانَ أشارَا عليه بالمُقام، والله تعالى أعلم.

ثم قال عُمَرُ: أشيرُوا عليّ برجل أولِّيهِ ذلك الثَّغْرِ، وليكن عراقيًّا. فقالوا: أنتَ أعلَمُ بجُنْدِكَ، وقد وَفَدوا عليكَ. فقال: واللّهِ لأُوَلِّيَنَّ أمرَهم رجُلًا ليَكونَنَّ أوّلَ الأسِنَّة إذا لقيَها غدًا. فقيل: مَنْ هُوَ؟ قال: النُّعمان بن مُقرِّن المُزَنيّ. فقالوا: هُوَ لها.

وكان النُّعمان يومئذ معه جَمْعٌ من أهلِ الكوفةَ قد افتَتَحوا جُنْدَيْسابور والسُّوس كما قدّمنا، فكتَب إليه عمرُ رضي الله عنه يأمره بالمَسير إلى ماه[2]، فيَجمَع الجيوشَ عليه، فإذا اْجتمعوا سارَ بهم إلى الفيرزان ومن معه.

وقيل: بل كان النُّعمان بكَسْكَر، فسأله أن يَعزِله ويَبعثَه إلى جيش من المسلمين، فكتب إليه عُمَرُ يأمره بنَهاوَنْد، فسارَ، وكتَبَ عمرُ إلى عَبدِ اللّهِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ عِتْبان أن يَستنفِرَ الناسَ مَعَ النُّعمان.

فندَبَ النَّاس، فخرجوا وعليهم حُذيفةُ بنُ اليمان، ومعه نعيمُ بنُ مقرِّن، فقَدِموا على النُّعمان، وتقدَّم عمرُ إلى الجُنْد الَّذِين كانوا بالأهوازِ أن يَشْغَلُوا الفُرْسَ عن المسلمين، وعليهم المقترِب، وحَرْمَلة، ووَزْقاء، فأقاموا بتُخومِ أصفَهان، وقطعوا أمْدَادَ فارِسَ عن أهْلِ نَهاوَنْد، واجتمعَ النَّاسُ على النُّعمانِ، وفيهم حذيفةُ بن اليمَانِ، وابنُ عمر، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليّ والمغيرةُ بن شُعْبة، وغيرُهم.

فَرَحل النُّعمان وعَبَّى أصحابَه وهم ثلاثون ألفًا، فجعَل على مقدِّمته نُعَيْمَ بنَ مقرِّن، وعلى مجنِّبته حُذَيفة وسُوَيْد بن مقرِّن، وعلى المجرّدة القَعْقَاع بن عمرو،

---

(١) كلب عليه: غضب وسفه.

(٢) ماه: الماه بالهاء خالصة: قصبة البلد، ومنه قيل ماه البصرة، وماه الكوفة، وماه فارس، ويقال لنهاوند وهمذان وقم ماه البصرة... (معجم البلدان لياقوت).

وعلى السَّاقَة مُجاشع بنُ مسعود. وقد توافتْ إليْه أمْداد المَدينةِ، فيهم المغيرةُ بنُ شعبة، فانتهوا إلى الأسْبِيذهان، والفرسُ وقوفٌ على تعبيتهم، وأميرُهم الفَيْرُزان، وعلى مجنِّبته الزرْدق وبَهْمَن جاذَوَيْه، وقد تَوافَى إليه بنَهَاوَنْد كلُّ من غاب عَنْ القادِسيَّةِ. فلمّا رآهم النعمانُ كبَّر وكبَّر معه النَّاس، فتزلزلتْ الأعاجمُ، وحَطَّتِ العربُ الأثقالَ، وضُرِبَ فُسطاط النُّعْمانِ، فابتَدَره أصحاب الكوفة، من كان من أشْرَافِهَا، فضَرَبوه، منهم: حذيفةُ بنُ اليَمان، وعُقْبَة بنُ عَمرو، والمغيرةُ بنُ شُعْبَة، وبَشِير ابنُ الخَصاصِيّة، وحنظلة الكاتب، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليّ، والأشعثُ بنُ قيس الكندي، وسعيدُ بنُ قَيْس الهَمْداني، ووائلُ بن حُجر وغيرهم، فلم يُرَ بُناةُ فسطاطٍ بالعِراقِ كهؤلاء، وأنشب النُّعمانُ القتالَ بعد حَطِّ الأثقالِ فاقتتلوا يومَي الأربعاء والخميسِ، والحَرْبُ بينهم سِجَالٌ[1]، ثم انْجَحَروا[2] في خَنَادِقِهم يومَ الجُمْعَة، وحصَرهم المسلمون، وأقاموا عليهم ما شاء الله، والفُرْسُ بالخيار إنْ شاؤوا خرَجوا، وإن شاؤوا أقاموا، فخاف المسلمون أن يطولَ أمْرُهُم؛ حتى إذا كان يوم الجمعة تجمَّعَ أهْلُ الرأي من المسلمين، وقالوا: نراهم علينا بالخيار، وأتَوا النعمان في ذلك، وهو يروِّي في الَّذِي رأوْا فيه، فأخبَروه، فبعث إلى مَنْ بقيَ من أهل النَّجَداتِ والرأي، فأحضَرَهُمْ، وقال: قد ترَوْن المشركين واعتصامَهم بخَنادِقهم ومُدُنهم، وأنَّهم لا يخرجون إلَيْنَا إلاَّ إذَا شَاؤوا، ولا يَقدِر المُسْلِمُون على إخراجهم، وقد تَرَوْن الَّذي فيه المسلمون من التَّضايق، فما الرأيُ الذي به نستخرجُهُمْ إلى المناجزة، وتَرْك التطويل؟

فتكلَّم عَمْرُو بنُ ثُبَيّ، وكان أكبر النَّاسِ يومئذ سنًّا، وكانوا يتكلَّمون على الأسْنَان، فقال: التَّحصُّن عليهمْ أشدُّ من المُطاوَلة عليكم، فَدَعْهُم وقَاتِلْ مَنْ أتاكَ منهم، فرَدّوا عليه رأيه جميعًا.

وتكلَّمَ عَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبَ فقال: ناهِدْهُم[3] وكاثِرْهم ولا تَخَفْهُم، فردُّوا جميعًا عليه رأيَه، وقالوا: إنَّما تُناطح بنا الجُدْران، وهي عوان[4] علينا.

فقال طُلَيحةُ بنُ خُوَيْلد الأسَديّ: أرى أن تَبْعَث خَيْلًا مؤدية لينشبوا الْقِتَالَ، فإذا اخْتَلَطُوا بهم رَجَعُوا إلَيْنَا استطرادًا، فإنَّا لم نستطرِد لهم في طُولِ ما قاتَلْنَاهم، فإذا رَأَوْا ذلك طمِعُوا وخَرَجوا إلينا. فقاتَلْناهم حتَّى يقضيَ الله فيهم وفينا ما أحَبَّ، فأمَرَ

---

(١) الحرب بينهم سجال: نصرتها بينهم متداولة سجل (نصيب) منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء.

(٢) انجحروا: أي لجأوا.

(٣) ناهدهم: انهض إليهم.

(٤) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.

النعمان القعقاعَ بنَ عَمْرٍو، وكان على المجرَّدةِ، فأنْشَبَ القتالَ، وأخرجَهُمْ من خنادِقِهم كأنَّهم جبالٌ مِنْ حَديد، وقد تواثقوا ألاَّ يفرّوا وقرن بعضهم ببعضٍ، كُلُّ سبعة في قِرَانٍ، وأَلْقَوْا حَسَكَ[1] الحديد بينهم؛ لَئِلاَّ ينهزِمُوا، فَلمَّا خَرَجُوا نَكَص[2] القَعْقَاعُ، فاغتنمتها الأعاجِمُ ففعلوا كما ظنَّ طلَيْحة. وقالوا: هي هي.

ولحقَ الْقَعْقَاعُ بالنَّاسِ، وانقطعَ الفُرْسُ عن حِصْنهم، وأمر النُّعمانُ أصحابَه أنْ يَلْزَمُوا الأرضَ ولا يُقاتِلوا حتى يأذنَ لهم، فَفَعَلوا، وٱستَتَروا بالحَجف[3] من الرَّمْي، وأقبل المشركون يرمونهم حتى أفْشَوا فيهم الجِراح، والنُّعمانُ ينتظر بالقتالِ أحبَّ السَّاعاتِ كانت إلى رسول الله ﷺ؛ وذلك عند الزَّوالِ، فلمَّا كان قريبًا من تلك الساعةِ ركب النُّعمانُ فَرَسَهُ، وسار في النَّاس يُحَرِّضهم على القتالِ، ويذكِّرهم ويُمَنِّيهم الظَّفرَ، وقال: إنِّي مكبِّرٌ ثلاثًا، فإذا كبَّرتُ الثالثة فإنِّي حَامِلٌ، فٱحمِلوا، فإنْ قُتِلْتُ فالأمير بَعْدِي حُذَيفة، فإنْ قُتِلَ ففُلان، حتى عَدَّ سبعةً آخرهم المغيرةُ، ثم قال: اللهمَّ أعزِزْ دِينَك بنصرِ عِبادِك. وقيل: بل قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألك أنْ تُقِرَّ عيني اليومَ بفتحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام، وٱقْبِضني شهيدًا. فبكى النَّاسُ ثم رجع إلى موقفه، فكبَّر ثلاثًا، والنَّاسُ سامِعُونَ مُطِيعُونَ مستعِدُّون للقتال، وحَمَل وحَمَلَ النَّاسُ، وانْقَضَّتْ رايتُه نحوَهم انقضاضَ العُقَاب، فٱقتَتَلوا قِتالاً شديدًا لم يُسمَع بوقْعةٍ كانت أشدَّ منها، وصَبَر المسلمون صبرًا عظيمًا، وٱنهزَمَ الأعاجم، وقُتِلَ منهم ما بين الزَّوالِ والإعتَام ما طَبَّق أرضَ المَعْرَكة حتى زَلِق النَّاسُ والدَّوابُّ في الدماء، فلمّا أقرّ اللّهُ عينَ النُّعمانِ بالفتحِ ٱستُشْهد، زَلِقَ[4] به فَرسُه فَصُرِع. وقيل: بل رُمِيَ بسَهْمٍ في خاصِرَته فمات، فسجَّاه أخوه نعيم بنُ مقرِّن بثوب، وأخذ الرّايةَ وناوَلَها حُذيفة، وتقدّم إلى موضعِ النُّعمان.

وقال المغيرة: اكتموا مُصابَ أميركم، لئلا يَهِنَ الناس، ودام القتال في الفُرْسِ حتى أظلم اللَّيل، فانهزموا، ولزِمَهم المسلمون وعَمِيَ عليهم قَصْدُهم، فأخذوا نحوَ اللِّهْب[5] الَّذي كانوا دونَه، فوقعوا فيه، فكان الواحدُ منهم يقع فيقع عليه ستَّةٌ، بعضُهم على بعض في قيادٍ واحدٍ فَيُقْتَلُونَ جميعًا، وعَقرَهُم حَسَكُ الحديد، فمات منهم في اللِّهْب مائة ألفٍ أو يَزِيدُون سِوَى من قُتِلَ منهم في المعركة.

---

(١) حسك الحديد: ما يعمل على مثال الحسك.

(٢) نكص: أحجم، أو رجع عما كان قد اعتزمه وأحجم عنه.

(٣) الحجف: التروس من جلود بلا خشب. (٤) زلقت القدم: زلّت ولم تثبت.

(٥) اللهب: شق في الجبل.

وقيل: قُتِلَ في اللَّهَبِ ثمانون ألفًا، وفي المعركة ثلاثون ألفًا سوى من قُتِلَ في الطَّلبِ، ولم يُفلِتْ إلاَّ الشَّريد، ونجا الفَيْرُزان مِن الصَّرْعَى، فَهَرَب نحو هَمَذان، واتَّبعه نُعَيْم بنُ مقرِّن، وقَدِمَ القعقاعُ أمامَه، فأدرَكه بثنيَّة هَمَذَن، وهي إذ ذاك مشحونةٌ من بغالٍ وحُمُر مُوقَرة عَسَلاً.

فحبَسَه الدّوابّ فلمّا لم يجدْ طريقًا نزلَ عن دابَّتِهِ، وصعِدَ في الْجَبلِ، فأدرَكَهُ القعقاعُ، فقتَلَهُ المسلمونَ على الثَّنيَّة، وقالوا: إنَّ لِلَّهِ جنودًا منها العَسَل، واستاقوا تلك الدَّوابّ بأحْمَالِهَا، وسُمِّيتْ الثَّنِيَّةُ ثنيَّةَ الْعَسَلِ، ودخَلَ المنهزمون همَذان، والمسلمون في آثارهم، فنزلوا عليها، وأخذوا ما حولَهَا، فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم[1].

ولمّا تمّ الظَّفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النُّعمان، فقال لهم أخوه مَعقِل: قد أقَرَّ اللّهُ عينَه بالفتح وختَمَ له بالشَّهادة، فاتَّبعُوا حذيفة، ودَخَلَ المسلمون نَهَاوَنْد يومَ الوقعة بعد الهزيمة واحتَووْا على ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسْلاَبِ والأثاث وجمعوه إلى صاحب الأقباض، وهو السائب بنُ الأقْرع.

وانتظروا إخوانَهمُ الَّذين على هَمَذَان مع نُعَيم والقعقاع، فأتاهم الهِرْبِذُ صاحبُ بيت النَّار، وقال لحذيفة: أتُؤمِّنني وَمَنْ شئتَ، على أنْ أُخْرِجَ لكَ ذخيرةً لكسرى تُركَتْ عندي لنوائب الزَّمان؟ قال نعم، فأحضَر جَوْهَرًا نفيسًا في سَفَطَيْن[2]، فأرسلوهما مع الأخماس إلى عمر رضي الله عنه بعد أن نَفَّل حذيفة منها، وأرسلَ ما بقِيَ مع السائِبُ بن الأقرع الثَّقفِيّ.

قال السائب: فلمّا فرغت القسمةُ احتملْتُ السَّفَطيْن، وجئت بهما إلى عمر، فإذا هو قد خَرجَ يتوقَّعُ الأخبارَ، وكان قد رأى الواقعة فباتَ يتَمَلْمَل، فقال ما وراءَك؟ فقلتُ: فتح اللّهُ على المسلمين، واستُشهد النُّعمانُ بنُ مقرِّن، فأعظم الفتحَ، واستَرجَعَ على النُّعمانِ وبَكى حتى نَشَج[3]، ثمّ أخبرته بالسَّفَطين فقال لي: أدْخِلْهُمَا بيتَ المالِ حتَّى ننظرَ في شأنِهما، والْحقْ بجُنْدكَ.

قال: ففعلت، وخرجت مسرعًا إلى الكوفةِ، وباتَ عمرُ، فلمَّا أصبح بعث في أثري رسولاً، فما أدركني حتى دخلْتُ الكوفة، فأنختُ بعيري، وأناخَ بعيرَهُ على عرقوب بعيري، وقال: الحق بأمير المؤمنين.

---

(١) استأمنه: استجاره وطلب حمايته، والمراد هنا: طلب منه الأمان.
(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.
(٣) نشج: غصّ بالبكاء من غير انتحاب.

قال: فركبتُ معه، وقدِمتُ على عمرَ، فلمَّا رآني قال: ما لي وللسائب! قلت: وماذا؟ قال: ويْحك، والله ما هو إلاَّ أنْ نمتُ اللَّيلةَ التي خرجْتَ فيها، فأتت الملائكة تستحثُّني إلى السَّفَطيْن يشتعلان نارًا، يقولون: لنَكْوينَّك بهما، فأقول: إني سأَقْسِمُهما بين المسلمين، فخذهُما عنّي فبِعْهما في أعْطيةِ المسلمين وأرزاقِهم.

قال: فخرجتُ بهما فوضعتهما في مسجدِ الكوفةِ، فابتاعهما منِّي عمرُو بن حُرَيْث المَخْزوميّ بألفَيْ ألف درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلافِ ألف، فما زال أكثرَ أهلِ الكوفة مالاً.

قال: وكان سهمُ الفارس بنَهاوَنْد ستَّةَ آلافٍ، والرَّاجل ألفين. ولمّا قدم سَبْيُ نهاوند المدينة، جعَل أبو لؤلؤة غُلامُ المغيرةِ بنِ شُعبَةَ لا يَلقَى منهم صغيرًا إلاّ مَسَح رأسَه وبَكى، وقال: أكلَ عمرُ كَبِدي، وكان مِن نَهاوَنْد، فأسرتْه الرُّوم، وأسَرَهُ المسلمونَ.

وكان المسلمون يسمُّون فَتْحُ نَهَاوَنْد فَتْحَ الفُتوح؛ لأنَّه لم يكن لِلفُرْسِ بعدَه اجتماعٌ، ومَلَك المسلمون بلادهم. والله سبحانه وتعالى أعلَم والحمد لله وحده.

ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرهما

لما انْصَرَف أبو موسى الأشعريُّ من نَهاوَنْد، وكان قد جاء مَدَدًا على بعث أهْلِ البصرةِ، فمَرَّ بالدِّينَور[١]، فأقام عليها خمسةَ أيَّام، وصالَحه أهلُهَا على الجِزْيَةِ، ومَضَى، فصالحه أهل الشَّيروان على مِثْل صُلْحِهم، وبعث السائب الأقرع إلى الصَّيْمرَة وهي مدينةُ مهرجان قذق ففتحها صُلْحًا، والحمد لله وحدَه، وصلَّى الله على سيّدنا محمّد.

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما انْهَزَم المشركون من نَهاوَنْد دخَلَ مَن سَلِم منهم هَمَذَان، فحاصَرَهم نُعَيمُ بنُ مقرِّن والقعقاعُ بنُ عمرو، فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأْمَنَهم، وقَبِلَ الْجِزْية على أن يَضمَنَ هَمَذَان ودَسْتَبي، وألاَّ يُؤتى المسلمون منهم، فأجابوه إلى ذلك وأمَّنُوه هُوَ ومن

---

(١) دينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين دينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان، وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف، وأهلها أجود طبعًا من أهل همذان... (معجم البلدان).

معه من الفُرْس، وأقبل كلُّ من كان هَرَب، وبلغَ الخبرُ أهلَ الماهيْن، فاقتَدَوْا بخسرشنوم، وراسلوا حُذَيْفَةَ، فأجابهم، ودخل مَاه دِينار، وَبَهْرَاذان على مثل ذلك. وكان قد وَكَّل النُّسَيْر بنَ ثَوْرٍ بقلعةٍ قد لجأ إليها قومٌ، فحَاصَرَهم وافْتَتَحها، فنسبت إلى النُّسَيْر.

ولمّا رجع نُعَيْمٌ والقَعْقَاع، كَفرَ أهلُ هَمَذَان مع خسرشنوم، فخرج نعيمُ بنُ مقرِّن إليها في سنة اثنتين وعشرين، واستولى على جميع بلادها وحاصرها، فسأله أهلها الصلح ففعل، وفتحها الثانية، وقبل منهم الجزية. وقيل إن فتحها كان في سنة أربع وعشرين، بعد وفاة عمرَ بستَّةِ أشهرٍ. والله أعلم.

قال: وبينما نُعَيم بهَمَذَان في الفتح الثّاني، وهو في اثْنَيْ عَشَرَ ألفًا من الجند، فكاتب الديلم، وأهلَ الرَّيّ، وأذْرَبِيجَان، إذ خرج مُوتَى في الدَّيْلَم، ونَزَلَ بواج الرُّوذ، وأقبل الزَّينبيّ أبو الفَرُّخان في أهلِ الرَّيّ وأقبل إسفنْدِيار أخو رُسْتُم في أهلِ أذْرَبِيجان، فاجتمعوا وتحصَّن منهم أمراء المَسالِح، وبعثوا إلى نُعيم بالْخَبَرِ، فاستخْلف يزيدَ بنَ قيسٍ الْهَمَذَانيّ، وخرج إليهم، فاقتتلوا بَواج الرُّوذ قِتالاً شَديدًا، وكانت وقعةً عظيمةً تعدلُ وقعَةَ نَهَاوَنْد، فانهزم الْفُرْسُ أقْبَحَ هَزِيمة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأرسل نُعَيم إلى عمرَ بقصد الرَّيّ، وقتالِ مَنْ بِهَا، والمُقَامِ بها بعد فَتْحِها.

وقيل: إنّ المغيرةَ بنَ شُعْبة، وهو عامل الكوفة أرسل جريرَ بن عبدِ اللّهِ إلى هَمَذَان، فقاتَلَه أهلُهَا، وأُصِيبَ بسهمٍ في عَيْنِهِ، فقال: أحْتَسِبها عند اللّهِ الّذي زَيَّن بها وَجْهي.

وقيل: كان فَتَحَهَا على يد المغيرة نفسهِ. وقيل: فَتَحَهَا قَرَظَةُ بنُ كَعْبٍ الأنْصَاريّ رضي الله عنه، والله تعالى أعلَمُ وهو حَسْبُنَا ونعمَ الوكيل.

ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان(١)

وفي سنةِ إحدى وعشرين بَعث عمرُ رضي الله عنه عبدَ اللّهِ بنَ عبد الله بن عِتْبَان إلى أصْبَهَان، وكان شجاعًا من أشرافِ الصَّحابة، ووجوهِ الأنصارِ، وأمدَّه بأبي موسى الأشعريِّ، وجعل على مجنَّبَتَيْهِ عبدَ الله بنَ وَرْقاء الرّياحيّ وعصمة بن عبد الله، فسار إلى

(١) قاشان: بالشن المعجمة، وآخره نون: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني، والعامة تقول القاشي، وأهلها كلهم شيعة إمامية... وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخًا، وبين قاشان وأصبهان ثلاث مراحل... (معجم البلدان لياقوت).

نهَاوَنَدَ ورجعَ حذيفةُ إلى عمله على ما سَقَتْ دِجلةُ وما وراءَها. وسار عبدُ الله فيمن كان معه ومن تَبِعه من جُنْد النُّعمانِ الَّذين بِنَهَاوَنْد نحو أصبهان، وعلى جُنْدِها الأَسْبِيذان، وعلى مقدِّمَته شَهْريارُ بْنُ جَاذَويه (شيخٌ كبيرٌ) في جمعٍ عظيم، فالتقى المسلمون ومقدِّمة المشركين بُرسْتاقٍ لأصبَهان، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فبرزَ الشيخُ ودعَا إلى البِراز، فَبَرَز له عبد اللّهِ بن وَرْقاءَ فقَتَلَهُ عبدُ اللّهِ، وانهزمَ الفرسُ؛ فسُمِّي ذلك الرُّسْتاقُ برستاقِ الشَّيْخ، وصالَحهم الأسبيذان على الرُّستاق، وهو أوّل رُسْتاق أُخِذ مِن أصبَهان.

ثم سار عبدُ الله إلى مدينة جَيّ، وهي مدينةُ أصبِهَان، والمَلِك بأصبهان الْفَاذُوسفان، فَنَزَل بها، وحاصَرها، فصالَحَهُ الملِكُ عليها، على الْجِزية على من أَقَامَ، وأن يُجْزَى مَنْ أُخِذَتْ أرضُه عنوةً مجزاهم ومَنْ أبى وذَهَبَ كانتْ أرضُه للمسلمين.

وقدم أبو موسى على عبدِ اللّهِ من ناحيةِ الأهْوازِ، وقد صالح القوم، فَدَخَل القومُ في الذمَّة إلا ثلاثين رجلًا من أهل أصبَهَانَ لحقوا بكَرْمان، ودخل عبدُ اللّهِ ومَن معه المدينة، وكَتَب بذلك إلى عمرَ، فكتب إليه: أن سِرْ حَتّى تقدم على سُهَيْلِ بنِ عدِيّ؛ حتى تكونَ معه على قتالِ مَنْ بِكَرْمان. فاَسْتَخْلَف على أصبَهَان السَّائِبَ بن الأقْرَع، ولَحِق بسُهَيْل قبل وصولِهِ إلى كَرْمان، وافْتتح أبو موسى قمّ وقاشان.

ذكر فتح قزوين وأبهر وزنجان[١]

وفي سنة اثنتين وعشرين بعث المغيرة بن شعبة وهو أميرُ الكوفة البراءَ بنَ عازب في جيْشٍ إلى قَزْوينَ، وأمَرَه إنْ فَتَحَها أن يغزُوَ الدَّيلم.

فسار حتَّى أتى أبْهَرَ، وهو حصنٌ، فقاتَلُوه، ثم طَلَبُوا الأمان، فأمَّنَهُمْ وصالَحَهم، ثم غزا قَزْوِينَ، فأرسَل أهلُها إلى الدَّيْلَمَ يطلبون النُّصْرَةَ منهم، فَوَعَدوهم، فَوَصَل المسلمون إليهم، فخرجوا لِقتالهم والدَّيْلَم وقوفٌ على الجَبَل لا يَمُدُّون يدًا، فلمَّا رأى أهْلُ قزوين ذلك طلبوا الصُّلْح، فصالحهم على مِثل صُلْح أبْهَرَ. وغزا الدَّيْلَمَ حتَّى أدَّوْا إليه الإتاوة، وغزَا جِيلانَ والطَّيلَسَان، وفَتَحَ زَنْجَانَ عَنْوَةً.

ولـمّا وُلِّيَ الوليدُ بنُ عُقْبة الكوفةَ، غزا الدَّيْلَمَ، وجيلانَ، ومُوقانَ، والبير والطَّيْلَسَان، والله سبحانه وتعالى أعْلَمُ.

---

(١) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير من نواحي الجبال بني أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون زنكاف؛ وقد خرج منها جماعة من أهل الأدب والحديث. . . (معجم البلدان).

ذكر فتح الرَّي[1]

قال: وسار نُعيمُ بنُ مقرّن من وَاج الرُّوذ بأمرِ عمرَ حتَّى قدِمَ الرَّيّ، وخرج الزِّيْنَبيّ أبو الفَرُّخان منها، فلقي نُعَيمًا طالبًا ومسالِمًا ومحالفًا لملك الرَّيّ وهو سِياوخْش بن مهرانَ بن بَهْرام بن جُوبين، فاستمدَّ سياوخش أهلَ دُنْباوَنْد وطَبَرِسْتان وقُومِس، وجُرْجان، فأمدُّوه، والتقوْا مَعَ المسلمين في سَفْحِ جبلِ الرَّيّ الَّذي بجانب مدينَتِها، فاَقتَتَلوا.

وكان الزينَبيُّ قال لنُعَيم: إنَّ القوم قد كَثُرُوا وأنت في قِلَّة، فابْعَثْ معي خيلاً لأُدخل بها مدينتهم مِنْ مَدْخَلٍ لا يَشعرون به، وَنَاهِدْهم أنت، فإذا خرجْنا نحن عليهم فإنَّهم لا يَثبتون لك. فبعثَ معه خيلاً من اللَّيْلِ، عليهم اَبنُ أخيه المُنذرُ بنُ عَمرو، فأدخلهم الزينبيّ المدينةَ، والقومُ لا يَشعُرُون، وبيّتَهم نعيمٌ، فشَغَلَهم عن مَدِينتهم، واقتَتَلوا وصَبَروا حتى سَمِعوا التكبيرَ من ورائهم، فاَنهزَموا، وقتِلَ منهم مقتلة عظيمة، وأفاء الله تعالى على المسلمين بالرَّيّ نحوًا مما في المَدائن، وصالحهم الزينبيّ على الرَّيّ، وأخربَ نُعيمٌ مدينتَهُمْ، وهي الَّتي يُقَال لها: العَتِيقة. فأمر الزينبيّ فبَنَى مدينةَ الرَّيّ، وكتب نعيم إلى عمرَ بالفَتْح، وبعث بالأخْماسِ، وراسله المَصْمُغان في الصُّلح على شيءٍ يُفتدَى به منه على دُنْبَاوَنْد، فأجابه إلى ذلك.

وقد قيل: إنَّ فتح الرَّيّ كان على يد قَرَظَةَ بن كعب بن ثعلبةَ الخَزْرجيّ في سنة ثلاثٍ وعشرين، حكاه أبو عمرَ بنُ عبد البرّ.

وقيل: في سنة إحدى وعشرين. وقيل غيرُ ذلك، والله تعالى أعلم بالصَّواب، وإليه المَرجع والمآب.

ذكر فتح قومس[2] وجرجان وطبرستان

قال: لمَّا أرسل نُعيمُ بنُ مقرّن إلى عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه بالفتح والأخماس كَتَب إليه عمرُ رضي الله عنه بإرسال سُوَيْد بنِ مقرّن ومعه هند بنُ عمرو

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: . . هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) قومس: هي كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور، ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار. . .

وغيره إلى قُومِس، فسارَ سُويْدٌ نحوَها، فلم يَقم له أحد، فأخذها سِلْمًا، وعَسْكَرَ بها، وكاتَبَه الَّذين لَجؤوا إلى طَبَرِستان مِنهم، والَّذين أخذُوا المفاوِزَ، فأجابهم إلى الصّلحِ والْجِزْيةِ، وكتب لهم بذلك.

ثم سار سُويد إلى جُرجانَ، فَعسكَرَ بِبِسْطام، وكتب إلى مَلِك جُرْجانَ وهو رُزْبَان صُول، فصالَحه على الْجِزية وكفاية حَرْبِ جُرْجان، وأن يعينَه سُوَيد إنْ غُلِب، فأجابَه سويدٌ إلى ذلك، وتلقَّاه رُزْبَان قبل دخوله جُرْجان، ودخل معه، وعَسْكَرَ سُوَيْدٌ بها حتّى جَبَى الخراجَ، وسَدَّ فُروجَها بتُرْكِ دِهِسْتان، ورفَع الجزية عَمَّن قامَ معه بمنعِها، وأخَذَهَا من الْبَاقِين.

وقيل: كان فَتْحُهَا في سنةِ ثماني عشرةَ. وقيل: في سنة ثلاثين في خلافة عثمان.

قال: وأرسل الإصبهبذ صاحب طَبَرِسْتان إلى سُويْد في الصُّلْح، على أن يتوادَعا بها ويَجعَل له شيئًا على غير نَصْرٍ ولا مَعُونةٍ على أحد، فقبل ذلك منه، وكتب له كتابًا، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب، وإليه المَرجع والمآب.

ذكر فتح أذربيجان(١)

كان عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه، بعثَ بُكَيْرَ بنَ عبدِ اللّهِ إلى أذْرَبِيجان، وأمَرَ نُعيم بنَ مقرّن أن يمدّهُ بسِماكِ بنِ خَرَشَةَ، فأمدَّه به بعد فتح الرَّيّ، فسار بُكَيْر حتى طلع بجبالِ جَرْمِيذان، فطلعَ عليه إسفنديار بن الفرّخزاذ مهزومًا من واج الرُّوذ، فاْقتَتَلوا، فهَزَم اللّهُ الفُرْسَ وأُخِذَ إسفِنْدِيار أسيرًا، فقال له إسفنديار: الصُّلح أحبُّ إليكَ أم الحربُ؟ قال: بل الصُّلح. قال: أمْسِكْنِي عندكَ؛ فإنّ أهل أذْرَبيجان إنْ لم أصالحْ عليهم، أو أجيء لهم لم يقوموا لك، وجَلَوْا إلى الجبال الَّتي حولَها، ومن كان على التحصين تحصَّن ليوم ما، فأمسَكَه عنده وصارتْ إليه البلاد إلاّ ما كان من حِصْنٍ. وقدِمَ عليه سِماكُ بنُ خَرَشة، وإسفنديار في أسرِه، وقد افتتح ما يليه، وافتتح عُتبةُ بنُ فَرْقَدٍ ما يليه.

---

(١) أذربيجان: حدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز... وخوي، وسلماس، وأرمية، وأردبيل، ومرند، وغير ذلك. وهو صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال؛ وفيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمة... (معجم البلدان).

وكتب بُكَير إلى عمرَ يستأذنه في التَّقدّم، فأذن له أن يتقدَّمَ نحو البابِ، وأن يستخلفَ على ما افْتَتَحه، فاستخلفَ عتبةَ بنَ فرقد، فأقرَّ عتبةُ سماكَ بنَ خرشةَ على عمل بُكَير الَّذي كان ٱفتَتَحه، وجمع عمرُ أذربيجَانَ كلَّها لعُتْبَة بن فَرْقد. وكان بهرام بن الفرُّخزاذ قصد طريقَ عُتْبَةَ، فاقتتلوا، فٱنهزمَ بهرامُ، فلمَّا بلغ خبره إسفنديار وهو في الإسار عند بُكَير، قال: الآن تمَّ الصُّلح، وطُفِئَتْ نيران الحربِ، فصالَحه وأجاب أهلُ أذْرَبيجانَ إلى ذلك، وعادتْ سِلْمًا، وكتب بكيرٌ وعتبةُ بذلك إلى عمرَ، وبَعثَا بالخُمْس.

ولمّا جمع عمرُ لعُتْبَةَ عَمَلَ بُكَيْرٍ، كَتَب لأهْلِ أذْرَبيجانَ كتابًا بالصُّلْحِ.

ذكر فتح الباب[1]

كان فتح الباب في سنة اثنتين وعشرين، وكان عمرُ رضي الله تعالى عنه ردَّ أبا موسى الأشعريَّ إلى البَصْرة، وبعثَ سُراقةَ بنَ عَمرو، وكان يُدعَى ذا النُّور إلى الباب، وجعل على مقدِّمته عبدَ الرحمٰن بن ربيعة، وكان يُدعَى ذا النُّور أيضًا، وعلى مجنِّبَتَيْه حذيفة بن أُسَيد الغِفاريّ وبُكَير بن عبد الله اللَّيثيّ، وكان بكير قد سَبَقه إلى الباب عند منصرَفه من أذْرَبِيجان، وجعل على المقاسِم سَلْمَانَ بنَ ربيعة الباهليّ.

وكان عمر قد أمدّ سُرَاقةَ بحبيب بنِ مَسلمةَ من الجزيرة، وجعل مكانَه زياد بن حنظلةَ، فسار سُراقةُ وعبدُ الرحمٰن بن أُمَامة، فلمَّا أطَلَّ عبدُ الرحمٰن على الباب كاتبَه ملِكُها شهرِيار، (من ولد شهريَار المَلِك)، واستأْمَنَهُ على أنْ يأتيَه، ففعل، فأتاه فقال له: إنّي نازلٌ بإزاءِ عدوٍّ كَلِب، وأُمَم مختلفةٍ ليس لهم أحساب، ولا ينبغي لذي الحَسَب والعَقْل أن يعينَهم على ذِي الحَسَب، وأنتم قد غلبتمْ على بلادي وأنا منكم، ويدي في أيديكم، وجِزْيَتي إليكم، والنَّصرُ لكم، والقيام بما تُحبّون، فلا تَسُومُونا الْجِزيَة، فتوهِّنُونا لعدوّكم، فسيَّره عبد الرحمٰن إلى سُراقة، فلقيَه بِمثل ذلك، وقال: لا بدَّ من الجِزْيَةِ مِمَّنْ يقيمُ ولا يحاربُ العدوّ، فٱتَّفقا على ذلك، وأجازَه عمرُ رضي الله عنه وأرضاه وٱستحسَنَه.

---

(١) الباب: أو باب الأبواب: وهو الدربند دربند شروان؛ قال الإصطخري: هي مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وفي وسطها مرسى السفن، وهذا المرسى من البحر قد بني على حافتي البحر سدين، وجعل المدخل ملتويًا، وعلى هذا الفم سلسلة محدودة فلا مخرج للمركب ولا مدخل إلا بإذن، وهذا السدان من صخر ورصاص، وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر... (معجم البلدان).

ذكر فتح موقان[١]

ولما فَرغَ سُراقةُ من الباب أرسل بُكيرَ بنَ عبد الله، وسلمانَ بنَ ربيعة، وحبيب بنَ مسلمة وحذيفة بن أَسِيد إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرْمِينِيَةَ، فوجَّهَ بُكَيْرًا إلى مُوقان، وحَبيبًا إلى تفليس، وحذيفة إلى جبال اللاَّن، وسَلْمانَ إلى الوَجْه الآخَر، وكتب سراقة بالفتح وبإرسالهم إلى عمر، فَسُرَّ بذلك.

ثم مات سُراقةُ بعد أنْ استَوْثقَ له الأمرُ، وٱستُخلِفَ عبدُ الرحمٰن بن ربيعة، ولم يَفتتحْ أحدٌ من القوّاد إلا بكيرَ بنَ عبدِ اللّهِ؛ فإنَّه صالح أهلَ مُوقانَ على الجِزْيةِ؛ على كل مُحْتَلم[٢] دينارٌ، وذلك بعد أن فَضَّ أهلَ مُوقان، ثم تَراجَعوا.

وقيل: كان الفتح في سنةِ إحدى وعشرين، وأقرّ عُمرُ عبدَ الرحمٰن على فَرَجِ الباب، وأمَرَه بغَزْوِ التُرك. والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

ذكر غزو الترك

قال: ولـمّا أمرَ عُمر رضي الله عنه عبدَ الرحمٰن بنَ ربيعةَ بغَزْو التُّرك خرج بالنّاس حتى قطع الباب فقال له شَهْرَيار: ما تريد أن تَصْنَع؟ قال: أُريد بلَنْجَر والترك. قال: إنَّا لنرضَى منهم أنْ يَدَعُونَا مِنْ دون البابِ. قال عبد الرحمٰن: لكنَّا لا نَرضَى حتى نَغزُوَهم في ديارِهم، وتاللّهِ إنَّ معنا أقوامًا لو يأذن لنا أميرُنا في الإمعان لبلغت بهم الرّوم. قال: وما هم؟ قال: أقوامٌ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ، ودَخَلوا في هذا الأمرِ بنيَّةٍ فلا يوالُ النَّصْرُ معهم، فغزَا بَلَنْجَر، فقالوا: ما ٱجترأ علينا إلاَّ ومعه الملائكة تمنعهم من الموْتِ، فهربوا وتحصَّنوا، ورجعَ بالغنيمة والظَّفر. وقد بلغتْ خيْلُه البيضاءَ على رأْسِ مائتيْ فرسخٍ[٣] من بَلَنْجَر، وعاد ولم يُقْتل منهم أحدٌ، ثم غزاها أيّام عثمان بن عفّان رضي الله عنه غَزَواتٍ، فَظَفِر كما كان يَظفَر.

---

(١) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال...

(٢) المحتلم: الذي بلغ مبلغ الرجال.

(٣) الفرسخ: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعًا، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض... (معجم البلدان).

ثم غزاهم بعد أنْ كان من أهْلِ الكوفةِ في حَقِّ عثمانَ رضي الله عنه ما نَذكُره، فتذامَرتِ التُّرك واجتمَعوا في الغياضِ، فرمَى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين بسَهْم عَلَى غِرَّةٍ، فقَتَله، وهرب الرَّامي عن أصحابه، فلمّا نظر التُّركُ إلى المسلم وقد قُتِلَ خرجوا على عبد الرحمٰن ومَن معه، واقتَتلوا أشَدَّ قتالٍ، ونادى مُنَادٍ من الجوّ: صَبْرًا عبدَ الرَّحمٰن، وموعِدُكم الجنَّة! فقاتلَ حتى قُتِلَ، وانكشف أصحابُه، وأخَذَ الرايَةَ أخوه سَلمانُ بنُ ربيعة، فنادى منادٍ من الجوّ: صَبْرًا سَلْمان. فقال سَلْمان: أو تَرَى جَزَعًا! وخرج بالنَّاسِ على جِيلان إلى جُرجان، ولم تمنعهم هذه الحَرْب من اتخاذ جسد عبدِ الرَّحْمٰنِ، فهم يَستَسْقُون[١] به حتَّى الآن. والحمد لله وحدَه، وصلَّى اللّهُ على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

ذكر غزو خراسان

وفي سنة اثنتين وعشرين غزا الأحنفُ بنُ قيْس خُراسانَ، على قول بعضهم. وقيل: بل كان في سنة ثمان عشرةَ، وسببُ ذلك أنَّ يَزْدَجرد لمّا سار إلى الرَّيّ بعد هزيمة أهلِ جَلُولاءَ، انْتهى إليها، وبها أبان جَاذَوَيْه، فوثب أبان عليه وأخَذَه. فقال يَزْدَجِرد: يا أبان، تَغدِر بي! قال: لا؛ ولكن قد تركْتَ مُلْكَكَ، فصار في يد غيْرِكَ، فأحببتُ أنْ أكتتب على ما كان لي من شيءٍ، وأخذ خاتَمَ يَزْدَجِرد واكتَتب الصِّكاك بكلّ ما أعجَبَه، وخَتَم عليها ورَدَّ الخاتَمَ، ثم أتى بعد ذلك سعدًا فردَّ عليه كلَّ شيءٍ في كتابه. وسار يَزْدَجِرد من الرَّيّ إلى أصبهَان، ثم إلى كَرْمَانَ والنَّار معه، ثم قصدَ خُراسانَ والنَّارُ معه، فنزل مَرْوَ، وبَنَى للنَّارِ بيتًا، واطمأنَّ وأمِنَ أنْ يُؤْتَى، ودَانَ لَهُ مَنْ بَقِيَ من الأعاجم.

وكاتَبَ الْهُرْمزان، وأثار أهْلَ الجبالِ والفيرزان، فنَكَثوا، فأذِنَ عمرُ رضي الله عنه للمسلمين فدَخَلوا بلادَ الفُرْسِ، فسار الأحنفُ إلى خُراسان فدخلها من الطَّبَسَين[٢]، فافتتح هَراةَ عَنْوَةً، واستخلفَ عليها صُحَار بن صَخْر العَبْدِي. وقيل فيه: صُحارُ بنُ عبَّاس بن شراحبيلٍ، ثم سار نحو مَرْوِ الشاهِجان، فأرسل إلى نَيسابور مطرِّفَ بنَ عبد اللّهِ بن الشِّخِّير، وإلى سَرَخس الحارث بن حَسَّان.

---

(١) استسقى: طلب السقيا.

(٢) الطبسان: قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، إحداهما طبس العناب، والأخرى طبس التمر... (معجم البلدان).

فلمّا دنا الأحنفُ مِن مَرْو، خرجَ يَزْدَجِرد منها إلى مَرْوَ الرُّوذ[١]، ونزل الأحنفُ مَرْوَ الشَّاهِجان.

وكتب يزدجرد إلى خاقانَ مَلِك التُّرك وإلى مَلِك الصُّغْد وإلى مَلِك الصِّين يستمدُّهم.

وخرج الأحنفُ من مَرْوِ الشاهجان، وٱستخلَف عليها خالدَ بن النُّعمان البَاهليّ بعد أنْ لحقتْه أمدادُ الكُوفَةِ. فلمّا سمع به يَزْدَجِرد سار من مرو الرّوذ إلى بَلْخ، ونزلها الأحنف، والتقى أهلُ الكُوفَةِ وَيَزْدَجِرد ببَلْخ، فٱنهَزَم يَزْدَجِرد، وعَبَر النَّهْرَ، ولحق الأحنفُ بأهل الكُوفَةِ، وقد فتح الله عليهم، وٱفتتَحَ ما بين نَيْسابور إلى طَخَارِسْتَان، وعاد إلى مَرْو الرُّوذ، واستخلفَ على طَخَارِسْتانَ رِبْعيَّ بنَ عامرٍ، وكتبَ إلى عمرَ بالفتح. فقال عمر: وددت أنَّ بيننا وبينها بحرًا مِنْ نارٍ. فقال عليٌّ: ولِمَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لأنّ أهلها سينقضُون منها ثلاثَ مرَّاتٍ، وكتب إلى الأحنف أن يقتصرَ على ما دون النَّهْرِ ولا يَجوزه.

قال: ولمّا عَبَرَ يَزْدَجِرد مهزومًا، أنجَده خاقانُ التُّرْكِ، وأهل فَرْغانَةَ والصُّغد، فرجَعَ يَزْدَجِردُ وخاقان إلى خُراسان، فَنَزَلا بَلْخَ. ورجع أهلُ الكوفة إلى الأحنف بمرْو الرُّوذ، فنزل المشركون عليه بها، وكان الأحنف لما بلغه خبرُ عُبور يزدجرد وخاقان النَّهرَ إليه، خرج ليلاً يتسمَّعُ؛ لعلَّه يسمَعُ برأيٍ ينتفعُ به، فمرَّ برجلَيْن يُنقِّيان عَلَفًا، وأحدهما يقولُ لصاحبه: أسندَنا الأميرُ إلى هذا الجبلِ؛ فكان النَّهرُ بيننا وبين عدوِّنا خَنْدَقًا، وكان الجبلُ في ظُهورِنا، فلا يأتونا من خَلْفِنا، وكان قتالُنا من وجهٍ واحدٍ رجَوْتُ أن يَنْصرَنَا اللّهُ عزَّ وجَلَّ. فرجع، فلمَّا أصبح جمَعَ النَّاسَ ورحَلَ بهمْ إلى سَفْح الجبل، وكان معه من البَصْرةِ عشرةُ آلافٍ، ومن الكُوفةِ نحوٌ منهم.

وأقبلتْ التُّركُ ومَنْ معها فنزلُوا بهم، وجعلوا يُنادُونَهم ويراوِحونَهُم ويَنْجَحِرون في اللَّيْلِ. فخرج الأحنفُ ليلةً طليعةً لأصحابه؛ حتَّى إذا كان قريبًا من عَسْكَرِ خاقانَ وقَفَ، فلمّا كان وجه الصُّبح خرج فارسٌ من التُّركِ وهو مُطَوّق[٢]، فضربَ بِطَبْله، ثم وقف، فحمل عليه الأحنفُ، فٱقتَتلاَ، فقتَلَهُ الأحنفُ، وأخذَ طَوْقه، ووقف واحد آخر وآخر بعده، ففعل بهما كذلك، ثم ٱنصَرف إلى عسكره.

---

(١) مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى؛ خرج منها خلق من أهل الفضل مروروذيّ، ومروذي... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المطوق: الذي يلبس الطوق.

وكانت عَادَةُ التُّركِ أنّهم لا يخرجون حتى يخرجَ ثلاثةٌ من رجالهم أكفاء، كلُّهُم يضرِبُ بطبْلَه، ثم يخرجُونَ بعدَهم، فلمّا خرجوا وجَدُوا فُرْسَانهم، فتطيّر خاقان من ذلك، وقال: قد طال مُقامُنَا، وأُصيبَ فُرسانُنَا، وليس لنا في قتالِ هؤلاء القومِ خيرٌ، ورجع.

وارتفع النَّهارُ ولم يَرَ المسلمون أحدًا، وأتاهم الخبرُ بأنصِراف التُّركِ إلى بَلْخ، وكان يَزْدَجِرْد ترك خاقانَ يُقَاتِلُ بمَرْو الرُّوذِ، وانصرف إلى مَرْو الشّاهجان، فلمّا وصلها تحصَّن حارثة بن النُّعْمان ومن معه، فحصرهم، واستخرَجَ خزائنَه من مَوْضِعَها.

وأراد أن يلحقَ خاقان لمَّا بلغه انصرافُه عن مَرْو الرُّوذِ إلى بَلْخ؛ فأشار عليه أهْلُ فارسَ بمصالحَة المسلمين، فأبَى ذلك، فاعتزَلُوه وقاتَلوهُ، فانهزَمَ، واستولَوْا على خزائِنِه، وتوجَّه هو نحوَ خاقان وعبرَ النَّهْر إلى فَرْغانة[1]، وأقام ببَلَد التُّرْكه مدَّةَ خلافةِ عمر رضي الله عنه إلى أن كَفَرَ أهلُ خراسان في زمنِ عُثْمان، فكاتَبُوهُ وكاتَبَهُمْ، ثم قُتِل على ما سنذكره - إن شاء اللّهُ تعالى - في خلافةِ عثمان.

قال: ثم أقبل أهل فارس بعد انهزامِ يَزْدَجِرْد على الأحنف، وَصَالَحُوه ودفعوا له الخزائن، وتراجعوا إلى بلادهم، واغتبَطوا بالمسلمين، فأصابَ الفارسَ يومَ يَزْدَجِرْد كسهمه يومَ القادسيَّة.

وسار الأحنفُ إلى بَلْخ ونزلَها، ثم رجع إلى مَرْو الرُّوذ، وكتب بهذا الفتح إلى عمر.

قال: ولمّا عَبَر خاقانَ ويَزْدَجِرْد إلى النَّهرِ، لَقِيا رسولَ يزدجرد الَّذي كان أرسلَهُ إلى مَلِك الصِّين، فأخبرَه أن مَلِكَ الصِّين قال له: صِفْ لي هؤلاءِ القَوْمَ الَّذين أخرَجُوكم من بلادِكُمْ، فإنِّي أراك تذكُرُ قلَّةً منهم، وكثرةً منكم، ولا يبلغُ أمثالُ هؤلاء القليل منكم مع كَثْرتكم إلاّ بخيرٍ عندهم وشرٍّ فيكم. فقال: سَلْني عمَّا أحببتَ. فقال: أيُوفُون بالعَهْدِ؟ قال: نعم. قال: وما يقولون لكم قبلَ القتال؟ قال: يَدْعُونَنَا إلى واحدةٍ من ثلاثٍ: إمَّا دِينُهم فإنْ أحبَبْنَا أجرَوْنَا مَجراهم، أو الجِزْية، أو المُنابَذةُ. قال: فكيف طاعَتُهُمْ في أُمرائِهِمْ؟ قلت: أطوَعُ قومٍ لرَشِيدهم[2]. قال: فما يُحِلُّون وما

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق... (معجم البلدان).

(٢) رشيد القوم: مرشدهم.

يحرِّمون؟ فأخبره. قال: هل يُحِلُّون ما حُرِّمَ عليهم، أو يحرِّمون ما أُحِلَّ لهم؟ قال: لا. قال: هؤلاء القوم لا يزالون على الظَّفَرِ حتى يُحِلُّوا حَرَامَهم ويُحَرِّموا حلالَهُم، ثم قال: أخْبِرْني عن لِباسِهم، فأخبره، وعن مَطاياهُم. قال: الخَيْل العِراب، ووصَفها لهم. قال: نِعْمَ الحُصون! ووصف له الإبلَ وبَرْكها وقِيامَها. فقال: هذه صِفةُ دوابِّ طِوالِ الأعناقِ.

وكتب معه إلى يَزْدَجِرد: إنَّه لم يمنعْني أن أبعثَ إليكَ بِجُنْدٍ أوّلُه بمَرْوَ وآخِرُهُ بالصِّين الجهالة بما يحقّ عليّ، ولكنّ هؤلاء القوم الَّذين وَصَفَ لي رسولُكَ لو يحاوِلونَ الجبالَ لهَدُّوها، ولو خلا لهم سِرْبُهُم[1] أزالوني ما داموا على ما وصفَ، فَسَالِمْهُم وارضَ مِنهم بالمُسالَمَةِ، ولا تَهْجِهمُ ما لم يَهيجوكَ..

فأقامَ يَزْدَجِردُ بفَرْغانةَ ومعه آلُ كسرى بعهدٍ من خاقان.

قال: ولمّا وصل كتابُ الفَتْح إلى عمرَ رضي الله عنه، جَمَع النَّاسَ وخطَبَهم، وقرأه عليهم، وحمِدَ اللّهَ على إنجازِ وعْدِه، ثم قال: ألا وإنّ مَلِك المجوسيّةِ قَدْ هلك، فليسوا يَملِكون من بلادهم شِبرًا يَضُرُّ بمُسلِم، ألا وإنَّ الله تعالى قد أورثكم أرضَهم وديارَهُمْ وأموالَهُم وأبناءهم، ليَنْظُرَ كيف تعملون، فلا تبدّلوا فيَستبدِل اللّهُ بكم غيرَكم؛ فإنّي لا أخافُ على هذه الأُمّة إلاَّ مِن قبَلِكم.

وقيل: إنَّ فتْحَ خُراسانَ كان في زمنِ عثمانَ رضي الله عنه، وسنذكره إن شاء الله سبحانه وتعالى في موضعِه.

ذكرُ فتح شهرزور[2] والصامغان[3]

وفي سنة اثنتين وعشرين كان فتحُ شَهْرَزُور؛ فتحها عُتْبَة بنُ فَرْقَد صُلْحًا على مِثل صُلْح حُلوانَ بعد قِتالٍ، وصَالَح أهل الصَّامَغَانِ، ودارِاباذ على الجِزْيةِ والخراج، وقَتَلَ خلْقًا كثيرًا من الأكرادِ، وكتب إلى عمر: إنَّ فُتُوحي قدْ بلغتْ أَذْرَبيجان، فولاَّهُ إيّاها، ووَلّى هَرْثَمةَ بنَ عَرْفَجة المَوْصِل، ولم تزلْ شَهْرَزور وأعْمَالُهَا مضمومةً إلى الموصل حتى أُفْرِدَتْ عنها في آخر خلافةِ الرّشيد. والله تعالى أعلم وحسبُنَا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النَّصِير، والحمد لله وحدَه.

---

(١) الشّرب: الطريق والوجهة.

(٢) شهرزور: مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها... يقال لها نيم أزراي وأهلها عصاة على السلطان... وقيل: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد... (معجم البلدان).

(٣) صامغان: كورة من كور الجبل في حدود طبرستان، واسمها بالفارسية بميان.

ذكرُ فتح تُوَّج[١]

كان فَتْحها في سنة ثلاثٍ وعشرين؛ وذلك أنّه لمّا خرجَ أهلُ البَصْرةِ الَّذِين توجَّهُوا إلى بلادِ فارسَ أُمراءَ عليها، كان معهم ساريةُ بنُ زُنَيم، فساروا، وأهْلُ فارسَ مجتمعون بتوَّج، فلم يَقْصدهم المسلمون، وتوجَّه كُلُّ أميرٍ إلى الجهةِ التي أُمِرَ بها، وبلغَ ذلك أهْلَ فارسَ، فافترقُوا إلى بُلْدانِهم، كما آفترقَ المسلمون، فكانت تلك هزيمتهم وتشتُّتُ أُمُورهم، فقصدَهم مجاشعُ بنُ مسعودٍ بسابورَ وأَرْدَشير فالتقَوْا بتَوَّج، وآقْتَتَلُوا ما شاء الله، ثم آنهزم الفُرْسُ وقتَلَهم المسلمون شرَّ قِتلةٍ، وغَنِموا ما في عسكرهم، وحصَروا تَوَّجَ فآفتَتَحوها، فَقَتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وغَنِمُوا ما فيها.

وتوّج هي التي استنقَذَتْها جيوش العَلاءِ بن الْحَضْرَمِيّ أيّامَ طاوُس، ثم دُعُوا إلى الجِزْيةِ فَرَجَعوا وأقرُّوا بها، وأرسلَ مجاشع بنُ مسعودٍ بالبشارة والأخْماسِ إلى عمرَ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح اصطخر وجور وكازرون[٢] والنوبندجان[٣] ومدينة شِيراز وأرّجان وسينيز وجنابا وجَهْرَم

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين قصد عثمان بن أبي العاصِ إصْطَخر فالْتَقَى هو وأهْلُهَا بجور، فاقْتَتَلُوا، وآنهزمَ الفُرسُ، وفَتَح المسلمون جُور، ثمَّ إصْطَخْر، وقتلوا ما شاء الله، وفرَّ منهم مَنْ فَرَّ. فدعاهم عثمانُ إلى الجِزْيةِ والذِّمَّةِ، فأجابَه الهِرْبِذُ إليها، وتَراجَعوا.

وكان عثمانُ قد جمعَ الغنائمَ وخمَّسَها، وبعثَ الخمسَ إلى عمرَ، وفتح كازَرُون والنُّوبندَجان وغلب على أرْضِها.

---

(١) توّج: مدينة بفارس قريبة من كازرون شديدة الحر لأنها في غور من الأرض ذات نخل، وبناؤها باللبن، بينها وبين شيراز اثنان وثلاثون فرسخًا، ويعمل فيها ثياب كتان تنسب إليها، وأكثر من يعمل هذا الصنف بكازرون. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) كازرون: بلدة عامرة كبيرة وهي دمياط الأعاجم، وذلك أن ثياب الكتان التي على عمل القصب وشبه الشطويّ وإن كانت حطبًا تعمل بها وتباع بها إلا ما يعمل بتوج. . . (معجم البلدان).

(٣) نوبندجان: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، بينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا. . .

وفَتَح هو وأبو موسى مدينةَ شِيراز، وأرَّجان، وفتحا سِينِيز على الجِزْيةِ والخَراج. وقصد عثمانُ أيضًا جنابا ففتحها، وفتح هو وأبو موسى مدينةَ شِيرازَ، ولقِيَهُ جَمْعٌ من الْفُرسِ بناحية جَهْرَمَ فهزمهم وفتحها.

وقيل: إنَّ فَتْحَ إصْطَخْر كان في سنة ثمان وعشرين، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر فتح فسا ودرابجرد

وفي سنة ثلاث وعشرين أيضًا قصد سارية بن زُنيم الدُّيليّ فَسَا ودَرابِجرْد، وانتهى إلى عسكرهم وحاصَرَهم ما شاء الله تعالى. ثم استمدُّوا وتجمَّعوا، وتجمَّعت إليهم الأكراد من فارسَ، فدَهَم المُسلمين أمرٌ عظيمٌ، وأتاهم الفُرْس من كلّ جانب، فرأى عمرُ رضي الله تعالى عنه فيما يَرَى النَّائمُ تلك الليلةَ معركَتَهُمْ وعددهم في ساعةٍ من النَّهار، فنادى من الغَدَاة: الصَّلاة جامعةٌ، حتى إذا كان في السَّاعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليْهم، وكان قد رآهم والعدُوّ في صحراء، إن أقام المسلمون فيها أُحيطَ بهم، وإن أستَنَدوا إلى الجَبَل لم يُؤْتَوْا إلاَّ مِنْ وجْه واحدٍ.

فقام عمر فقال: يأيُّهَا النَّاس، إنِّي رأيتُ هَذَيْن الْجَمْعَيْنِ... وأخْبَرَ بِحالهما، وصاحَ عمرُ رضي الله عنه وهو يخطبُ: يا سارية، الجَبَلَ الجَبَلَ! ثم أقبل عليهم وقال: إنَّ لِلّهِ جُنودًا؛ ولَعَلَّ بعضهم أن يُبَلِّغَهم.

فسَمِع ساريةُ ومن معه الصَّوْتَ، فلجؤوا إلى الجَبَل، ثم قاتلوهم فهَزَمَهم الله. وأصاب المسلمون مغانم، وأصابوا سَفَطًا فيه جوهر، فاستوهبه منهم سارية، وبعثَ به وبالفتحِ مع رجلٍ إلى عمرَ، فقدِمَ عليه، وأخْبَرَه الخبر، وقصة الجوهر، فصاح به عمر وقال: لا ولا كَرامة! اقْسِمه بين الجُنْدِ، وطردَهُ، ورَدَّ السَّفَطِ.

وسأل أهلُ المدينةِ الرَّسُولَ، هلِ سمعوا يومَ الوقعة شيئًا؟ قال: سمِعْنا: «يا ساريَةُ الجَبَلَ». وقد كدنا نَهْلِك، فلجأنا إليه، ففَتَحَ الله سبحانَه وتعالى علينا. والله أعلمُ بالصّواب، وصلَّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ذكر فتح كَرْمَان(١)

وفيها قَصَد سُهَيْلُ بن عَدِيٍّ كَرْمان، ولحقه عبدُ الله بنُ عبد الله بن عَتْبَان، وحُشِدَ له أهلُها واستعانوا بالقُفْص، فاَقتَتَلوا في أدنى أرضِهم، فقَتَلَ النُّسَيرُ بنُ عَمرو العِجْليّ مَرْزُبانَها، وفتَحَها المسلمون.

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان...

وقيل: إنَّ الَّذي فَتحها عبدُ اللَّهِ بنُ بُدَيْل بنِ وَرْقاءَ الخُزاعيّ في خلافة عمرَ، ثم أَتى الطَّبَسَين مِن كَرْمان، ثم قدِمَ على عمرَ فقال: أقطِعْني الطَّبَسَين، وأراد أن يفعل. فقيل: إنَّها رُسْتَاق، فامتنَع.

ذكرِ فتح سجستان[1]

في سنة ثلاث وعشرين أيضًا قصَدَ عاصم بن عمرو سجستان، ولحقه عبدُ اللّهِ بنُ عُمَير، فاستقبَلَهم أهلُهَا فالتَقَوْا في أدنى أرْضِهم، فَهَزَمهم المسلمون واتَّبَعُوهم حتى حاصَروهم بزَرَنْج، فطلبوا الصُّلْح على زَرَنْج وما سادوا عليه من الأَرَضين، واصْطلحَوا على الخَراج، فكانت سِجْستانُ أعظَمَ من خُراسان وأبعدَ فُروجًا، يُقَاتِلُون القُنْدهارَ والتُّرْكَ، وأُممًا كثيرةً.

وقيل في فتح سِجْسَتَان غيرُ هذا، وسنذكره إن شاء الله تعالى في موضعه.

ذكر فتح مُكران[2]

وفيها قصدَ الحكمُ بنُ عمرو التغلَبيّ مُكْرانَ، ولحقَ به شهابُ بنُ المخارق وسهيلُ بنُ عديّ وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عِتْبان، فانتهوْا إلى دُوَيْن النَّهرِ، وأهلُ مُكرانَ على شاطئه، فاستمدَّ مَلِكُهم ملكَ السِّندِ، فأمدّه بجيشٍ كَثيفٍ، فالْتَقَوْا مع المسلمين فَهُزِمُوا، وقُتِلَ منهم في المعركةِ مَقتلةٌ عظيمةٌ، واتّبعهم المسلمون يقتُلونهم أيامًا؛ حتى انتَهَوْا إلى النَّهرِ، ورجع المسلمون إلى مُكْرَان فأقاموا بها، وكتبَ الحكمُ إلى عمرَ بالفتح، وبعث إليه بالأخماس مع صُحار العَبْديّ. فلمَّا قَدِمَ المدينةَ سأله عُمَرُ عن مُكْران، فقال: يا أمير المؤمنين، هي أرضٌ سَهْلُها جَبَلٌ، وماؤُها وشَلٌ[3]، وتمرُها دَقَل، وعدوُّها بطل، وخيرُها قليل، وشرُّها طويل، والكثيرُ منها قليلٌ، والقليل بها ضائع، وما وراءَها شرٌّ منها.

فقال عمر: أسجّاعٌ أنت أم مُخْبِر! لا والله لا يَغْزُوها لي جَيْشٌ أبدًا، وكتب إلى سُهيْل والحكم ألاَّ يَجُوزَنَّ مُكرانَ أحدٌ من جُنودِكما، وأمرهما ببَيْع الفِيَلَةِ الَّتي غَنِمها المسلمون، وقَسْم أثمانِها على الغانمين.

---

(١) سجستان: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة... أرضها سبخة ورمال حارة، بها نخيل ولا يقع بها الثلج، وهي أرض سهلة لا يرى فيها جبل، وأقرب جبال منها من ناحية فره...

(٢) مكران: ... وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي معدن الفانيد ومنها ينقل إلى جميع البلدان وأجوده الماسكاني أحد مدنها... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.

ذكر فتح بيروذ من الأهواز

وهي بفتح الباء الموحدة، وسكون الياء المثنّاة من أسفل، وضمّ الراء وسكون الواو وذال معجمة.

قال: لمّا فصلت الخُيولُ إلى الكُوَر اجتمع ببيْرُوذ جمعٌ كثير من الأكرادِ وغيرِهم، وكان عمرُ رضي الله عنه قد عهد إلى أبي موسى أن يسيرَ إلى أقصى ذمة البصرة كما ذَكَرنا؛ حتى لا يُؤتَى المسلمون في أعقابِهِم. فسار أبو موسى وٱلتَقَى معهم في شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين ببَيْرُوز من بَين نَهْرِ تِيرى ومَنَاذِر، فقام المهاجرُ بنُ زياد وقد تحنط[1]، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، وٱشتَدَّ جزعُ الربيعِ بنِ زِياد على أخيه المُهاجِر، وعَظُم عليه فَقْدُهُ، فرقَّ له أبو موسى وٱستخلَفَه على جُنْده.

وخَرج أبو موسى حتى بلغ أصْبَهَان، وكان مع المسلمين بها حتى فُتِحَتْ، ثم رجع إلى البَصْرة، وفتح الربيعُ بنُ زياد بَيْرُوذ، وغَنِم ما كان تجمَّع بها.

وأَوْفَدَ أبو موسى وَفْدًا إلى عمرَ بالأخماس، وطلبَ ضَبَّة بنُ مِحَصن الغنويّ أن يكون في الوفد، فلَم يُجِبْهُ أبو موسى، وكان أبو موسى قد اختار مِنْ سَبْي بَيْروذ ستِّين غُلامًا. فانطَلَقَ ضبَّةُ إلى عمَر شاكيًا، وكتب أبو موسى إلى عمرَ يُخْبره، فلمّا قدم ضَبَّةُ على عُمَر سلَّم عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبَرَه، فقال: لا مرحبًا ولا أهْلًا! فقال: أما الرَّحْبُ فمن اللّهِ، وأمّا الأهْلُ فلا أهْل. ثم سأله عمرُ عن حاله فقال: إنَّ أبا موسى ٱنتقى ستِّين غلامًا من أبْناءِ الدَّهَاقين لنفسه، وله جارية تُغَدّي جَفْنة[2]، وتُعَشّي جَفْنة تُدعَى عقيلة، وله قفيزان[3]، وله خاتمان؛ وفوَّض إلى زياد بن أبي سُفيان أُمورَ البَصْرة، وأجازَ الحطيئة بألف.

فٱستدعى عُمر أبا موسى، فلمّا قَدِم عليه حجَبَه أيَامًا، ثم ٱستدعاه، فسأل عُمرُ ضَبَّةَ عمَّا قال: فقال: أخذ ستِّين غلامًا لنفسه. فقال أبو موسى: دللتُ عليهم، وكان لهم فداء، ففديتُهم وقسَّمتُهُ بين المسلمين، فقال ضبة: ما كَذَب ولا كَذَبْتُ، وقال: له قَفِيزان، فقال أبو موسى: قفيزٌ لأهلي أقوتُهُمْ به، وقفيزٌ للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم. فقال ضَبَّة: ما كَذَب ولا كذبْتُ.

---

(١) تحنط: أي جعل عليه المنوط، وهو كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذريرة وصندل وعنبر وغير ذلك.

(٢) الجفنة: القصعة.

(٣) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جرامًا.

فلمّا ذَكَرَ عَقيلة سكَتَ أبو موسى ولم يعتذر، فعلمَ أنَّ ضبّةَ قد صَدقه. قال: ووَلَّى زيادًا، قال: رأيتُ له رأيًا ونُبلًا فأسنَدْت إليه عملي. قال: وأجَاز الحطيئة بألفٍ، قال: سَدَدْتُ فمَه بمالي أن يشتِمني، فردّه عمرُ، وأمره أن يُرْسِلَ إليه زيادًا وعَقِيلة، ففعَلَ.

فلمّا قَدِم عليه زيادٌ سأله عن حاله وعطائه والفرائضِ والسُّنن، والقرآن، فرآه فقيهًا، فرَدَّه، وأمرَ أُمَراءَ البَصرةِ أن يسيروا برأيه، وحَبس عقيلة بالمدينة، وقال عُمر: ألاَ إنَّ ضَبَّةَ غَضب على أبي موسى ورَدَّه مُراغمًا، أن فاتَه أمرٌ من أمرِ الدنيا يصدق عليه، وكَذَب فأفسد كذبُه صدقَه. فإيّاكم والكَذِب! فإنّه يهدي إلى النّارِ.

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

قال: كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه إذا اجتمع إليه جيشٌ من المسلمين، أمّر عليهم أميرًا من أهل العِلم، فٱجتمع إليه جيشٌ، فبعث عليهم سَلَمَةَ بنَ قيس الأشْجَعيّ وقال له: سِرْ بٱسم الله تعالى، وقاتِلْ في سبيلِ الله من كَفَر بالله؛ فإذا لَقِيتم عدوَّكم فٱدعُوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وأقاموا بِدَارهم فعليهم الزَّكاةُ، وليس لهم من الفَيْءِ نصيب، وإن ساروا معكم فلهم مِثلُ الَّذي لكم، وعليهم مثلُ الَّذي عليكم، فإن أبَوْا فٱدعوهم إلى الجِزْية، فإنْ أجابوا فاقبَلوا منهم، وإن أَبَوْا فقاتِلوهم، وإن تحصَّنوا منكم وسألوا أن يَنزلوا على حُكم الله ورسولِه، أو ذِمَّةِ اللّهِ ورسوله، فلا تجيبوهم؛ فإنكم لا تدرون ما حكمُ الله رسوله، وذمّتهما فيهم، ولا تَغْدِروا، ولا تَقْتُلوا وَليدًا، ولا تُمثِّلُوا.

فساروا حتَّى لقوا عدوًّا من الأكراد المشركين، فدَعَوْهم إلى الإسلام أو الجِزية، فأبَوْا فقاتَلوهم وهَزَموهم، وقَتَلوا المُقَاتِلة، وسَبَوُا الذُّريّة فقسَّمَهَا بينهم، ورأى سَلَمَةُ جوهرًا في سَفَط، فٱسترْضَى عنه المسلمين وبَعَثَه إلى عمَر، فغضب ووجأه[1] في عُنُق رسوله وأعادَه، فباعه سَلَمَة، وقَسَمَ ثمنَه في المسلمين، فكان الفَصّ يباع بخمسةِ دراهمَ، وقيمته عشرون ألفًا.

ذكر فتوح مصر وما والاها

كان فتحُ مصرَ على يد عمرَو بنِ العاص والزُّبَير بنِ العوّامَ رضي الله عنهما، وقد ٱختلِف في السَّنةِ ٱلتي فُتحتْ مصرُ فيها، فقيل: في سنةِ عشرين. وقيل: سنةَ سِتَّ عشرةَ. والصحيح أنها فُتِحَتْ قبل عام الرَّمادة، وكان عامُ الرَّمادة في سنة ثمانِيَ

(١) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق. أو ضربه.

عشرةَ؛ فإنّ عَمرَو بنَ العاصِ حمل منها الطَّعامَ إلى المدينة في بَحْرِ القُلْزُم على ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السِّنين.

وقد اْختُلف أيضًا في سببِ مَسيرِ عَمرِو إليها، واْختُلف في كيفيّة الفتح، وكيف كان.

وقد رَوَى الشيخُ أبو القاسم عبدُ الرحمٰن بنُ عبدِ الله بنِ عبد الحَكَم[1] - رحمه الله - في فُتوحِ مصرَ أخبارًا بأسانيدَ متَّصلةً إلى جماعةٍ ممَّنْ شَهِدوا الفتحَ وغيرهم، اختصَرْنا ذِكرَها، مَدارُها على ابنِ لَهِيعة عن عبد الله بن أبي جعفر وعيّاش بن عبّاس العَتَبانيّ وعليّ بن يزيدَ بن أبي حبيب، واللَّيْث بن سعد وغيرهم، دخل حديثُ بعضهم في حديثِ بعض. والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله وحده.

ذكر مسير عمرو إلى مصر

قالوا: لمّا قدم عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى الجابية، قام إليه عمرُو بنُ العاصِ رضي الله عنه، وخلاَ بهِ فقال: يا أميرَ المؤمنين، أتأذَنْ لي أنْ أسيرَ إلى مصر، وحرَّضه عليها وقال: إنَّك إنْ فتَحتَها كانتَ قوّةً للمسلمين وعَوْنًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجَزُ عن القتال والحَرْبِ. فتخوَّفَ عمرُ على المسلمين وكَرِهَ ذلك، فلم يَزَل عَمرو يعظِّم أمرها عنده، ويهوِّنُ عليه فتحَها، حتَّى رَكَن لذلك، فَعقَد له على أربعةِ آلافِ رجلٍ كلُّهم من عَكّ[2]، ويقال: ثلاثة آلافٍ وخمْسمائة. وقيل: ثلثهم من غافق[3]، وقال له: سِرْ وأنا مستخيرٌ الله في مَسيرِكَ، وسيأْتِيكَ كِتَابِي سريعًا إن شاء الله تعالى، فإذا أدْرَكَكَ كِتابي بالانْصراف عن مصرَ قبلَ أن تَدخُلَها، أو شَيْئًا مِنْ أرضِها فانصرفْ، وإن أنتَ وصلتها قبل ذلك فامضِ لوَجْهك، واْستعِنْ بالله واسْتنصِرْهُ.

فسار عَمروٌ من جَوْفِ اللَّيل، ولم يشعُرْ به أحدٌ من النَّاسِ، واستخار عمرُ اللّهَ تعالى، فكأنّه تَخوَّفَ على المسلمين في وَجْهِهم ذلك.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري، المالكي (أبو القاسم) محدث، مؤرخ فقيه، من أهل مصر توفي في المحرم من سنة ٢٥٧ هجرية.. من مؤلفاته: فتوح مصر وأخبارها.. (وفي هدية العارفين فتوح مصر والمغرب) (معجم المؤلفين ٥: ١٥٠).

(٢) عك: بفتح أوله: هي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك...

(٣) غافق: حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط..

فكتب إلى عَمرٍو أن يَنصرفَ بمن معه، فأدرَكَه الكِتاب وهو برَفَح[١]، فتخَوَّف إنْ هو أخَذَ الكتاب، وفتحه أن يَجِد فيه الأنصرافَ، فلَم يأخذه من الرّسول، ودافَعه حتَّى أنتهى إلى قريةٍ فيما بين رَفَح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنَّها من أرضِ مصرَ، فأخذ الكتابَ وقرأهُ على المسلمين، وقال لمن معه: ألستُم تَعلمُون أنّ هذه القَرْيَة مِن مِصْرَ؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرَني إنْ لحقني كتابُهُ ولم أدْخُلْ مصرَ أنْ أرجعَ؛ ولمْ يَلْحَقْني كتابُه حتى دخلْنا أرضَ مصرَ، فسِيروا وأمْضُوا على بَرَكة اللّهِ عزَّ وجلّ.

وقد قيل: إنَّ عَمرو بنَ العاص كان بِفلَسطينَ، فقَدِمَ بأصحابه إلى مصرَ بغيرِ إذنِ عُمَرَ، وكتب إليه يُعْلِمُهُ، فكتب عَمرُ إليه، فأتاه كتابُه وهو دُونَ العَريش، فلَمْ يَقْرَأْ كتابَه حتَّى بلغ العَريش فقرأه، فإذا فيه:

مِن عُمرَ بنِ الخطّابِ إلى عمرو بنِ العاص: أمَّا بعد، فإنَّك سِرْتَ إلى مصرَ ومَنْ معك، وبها جُموعُ الرُّوم؛ وإنَّما معك نفرٌ يسيرٌ، ولعَمْري لو كانوا بكلّ أُمّتك ما كانوا لذلك، وما سِرْتَ بهم، فإن لم تكُنْ بلغتَ مِصْرَ فأرجعْ.

فقال عَمرو: الحمدُ للّهِ، أيَةُ أرضٍ هذه؟ قالوا: مِنْ مصر. فتقدَّمَ كما هو.

ويقال: بل كان عمروٌ في جنده بقَيْسَارِيَّة، فكتب إلى عمرَ بن الخطّاب، وعمرُ إذ ذاك بالجابية، وهو يستأذنه على المَسِير إلى مصرَ، وأمر أصحابَهُ فتنحَّوْا من منزلتهم كأنّهم يريدون أن يتحوّلوا مِن منزلٍ إلى منزل، فسارَ بهم ليلاً، فلمّا فَقَده أُمراءُ الأجناد أستَنْكَروا فعلَه، ورأوْا أنْ قد غرَّرَ، فرفَعوا ذلك إلى عمرَ، فكَتَبَ إليه:

إلى العاصِي ابنِ العاص، أمّا بعد، فإنَّكَ قد غرَّرتَ[٢] بمَن معك، فإنْ أدرَكَكَ كتابي ولَم تَدخُل مصر فأرجع، وإن أدرَكك وقد دخلْتَ فأمضِ، وأعلمْ أنّي مُمِدُّكَ.

ويقال: إنَّ عمرَ رضي الله عنه كتب إلى عَمْرو بعد فتح الشّام: أن أندُب النَّاسَ إلى المَسيرِ معكَ، فمن خفَّ معك فسِرْ به. وبعث بالكتابِ مع شَرِيك بن عَبْدة، فندبَهم عَمرو، وأسرَعَ في الخروج، ثم دخل عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه على عمرَ، فأخبَرَه عمرُ بذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ عَمْرًا فيه إقدامٌ وحُبٌّ لِلْإمارة، فأخشى أن يخرجَ في غيرِ ثقةٍ ولا جماعةٍ؛ فيعرِّض المسلمين للتهلُكةِ رجاءَ فرصةٍ لا يَدرِي تكون أم لا!

---

(١) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد من مصر، وهو أول الرمل، ضرب الآن، تنسب إليه الكلاب، وله ذكر في الأخبار... وقيل: رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) غرّر به: عرضه للهلكة.

فندِمَ عمرُ على كتابه إلى عَمرٍو، وكتب إليه أنْ ينصرفَ إنْ كان لم يدخل أرضَ مصرَ على ما تقدَّم.

قالوا: ونفرَتْ راشدةُ وقبائلُ مِنَ العربِ مع عَمرو، فسارَ بهم، فأدركَه عِيدُ النَّحرِ بالعَرِيش، فضحّى هناك. ولمّا بلغ المقوقِسَ مسيرُ عَمرٍو إلى مصرَ، توجَّهَ إلى الفُسْطاط، وكان يجهِّزُ الجيوشَ على عمرٍو، وكان على القصْرِ رجلٌ من الرُّومِ، يقال له: الأَعيْرِج واليًا تحتَ يد المقوقس.

وتقدَّمَ عمروٌ فكان أوّلَ موضعٍ قُوتِلَ به الفَرَما[١]، قاتَلَهُ الرُّومُ هناك قتالاً شديدًا.

قال: وكان بالإسكندريةِ أُسْقُفٌ لِلْقِبْطِ يقال له: أبو ميامين، فلمّا بَلَغه قدومُ عَمرٍو كَتَبَ إلى القِبْط يُعْلِمُهُم أنّه لا يكونُ لِلرُّومِ دولةٌ، وأنَّ مُلكَهُمْ قد انقطع، ويأمرهم بتلَقّي عَمرو.

فيقال: إنّ القِبطَ الّذين كانوا بالْفَرَمَا كانوا يومئذٍ لعمرٍو أعوانًا، ثم سار عَمرٌو من الفَرَما لا يدافِعُ إلاّ بالأمرِ الخفيف، حتّى نزل بِلْبِيس[٢] فقاتَلُوه بها نحوًا من شَهرٍ حتّى فتح الله عليه، ثم مضى حتّى أَتى أُمَّ دُنَيْن[٣] فقاتَلُوه بها قِتالاً شديدًا، وأبطأ عليْه الفتحُ، فكتب إلى عمرَ يستمدُّهُ، فأمَدَّهُ بأربعةِ آلافٍ تمامَ ثمانيةِ آلافٍ، فقاتلهم، وجاء رجل من لَخْمٍ ـ قيل: هو خارجةُ بنُ حُذافَةَ ـ إلى عمرَ، فقال له: أَنْدُب معي خيلاً حتَّى آتِيَ من ورائهم عند القتال فأخرَج معه خَمسِمائة فارسٍ، فسار بهم من وراء الجَبَل حَتّى دَخَلوا مُغارَ بني وائلٍ قُبَيل الصّبحِ، وكانت الرّومُ قد خَنْدَقوا خَنْدَقًا، وجعلوا له أبوابًا، وبثُّوا في أَفْنِيَتِها حَسَكَ الحديدِ، فٱلْتَقى القومُ حين أَصْبَحُوا، وخرجت الخيلُ من ورائهم فٱنْهَزَموا حتّى دخلوا الحصنَ، وهو القَصْر الّذي يقال له: بابليون.

---

(١) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر... وقيل: الفرما حصن على ضفة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء وخمه لأنه من كل جهة حوله سباخ تتوحل فلا تكاد تنضب صيفًا ولا شتاء وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر يخزن في الجباب... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، يسكنها عبس بن بغيض..

(٣) أم دنين: هي قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة...

ذكر حصار القصر وما قيل في كيفية الاستيلاء عليه وانتقال الروم والقبط إلى الجزيرة

قال: ولـمّا انهزَمُوا إلى القصر حَصَرهم عمرُو بن العاصِ ومن معه حِينًا، وقاتَلَهم قِتالاً شديدًا صَباحًا، ثم كتب إلى عمرَ يستمدُّهُ، فأمدَّه بأربعةِ آلافِ رَجُلٍ، على كلِّ ألفٍ منهم رجلٌ وكتب إليه: قد أمددْتك بأربعة آلافٍ على كلِّ ألف رجل: الزُّبيرُ بن العوَّامِ والمقدادُ بن عَمرو، وعُبادة بن الصَّامتِ، وسَلَمَةُ بن مَخلد، ومنهم من جَعَلَ بَدَلَ سَلَمَة خارجةَ بن حُذافَة.

وقال عُمَر له في كتابه: اعلم أنَّ مَعَكَ اثني عشر ألفًا، ولا يُغلب ٱثنا عشَرَ ألفًا من قِلَّةٍ. وقيل: إنَّه لمّا أشْفَقَ عمرُ، أرسل الزُّبيرُ في اثني عشر ألفًا، فلمّا قدم تلقَّاه عَمرو، ثم أقْبَلا، فركبَ الزُّبيرُ وطاف بالخَنْدَقِ، وفرَّقَ الرِّجالَ حولَه، وألَحَّ عَمْرو إلى القَصْر، ونَصَب عليه المَنْجَنِيقَ، وأبطأ الفتحُ. فقال الزُّبيرُ: إنِّي أهبُ نفسي لِلّهِ وأرجو أن يفتحَ اللّهُ بذلك على المسلمين، فوضع سُلَّمًا إلى جانب الْحِصْنِ من ناحية سُوقِ الحمَام، ثمَّ صَعِدَ، وأمَرهم أنَّهم إذا سمِعُوا التَّكْبِيرَ أن يجيبُوهُ جميعًا، فلَم يَشعر الرُّومُ إلاَّ والزُّبيرُ على الحِصن يكبِّر وبيَدِهِ السَّيْفُ، وتحامل النَّاس على السُّلَّم حتى خشيَ عمرو أن ينكسِرَ بهم، فنهاهم، ولمَّا صاروا بأعلى الحصن كبَّروا جميعًا، وأجابهم المسلمون من خارجِ الحِصْنِ، فمَا شكَّ أهلُ الحصنِ أن العربَ قد ٱقتَحَمُوا جميعًا، فهربوا، فعَمَد الزُّبيرُ وأصحابهُ إلى باب الحِصنِ ففَتَحُوه، واقتحمه المسلمون؛ فحينئذٍ سأل المقوقسُ الصُّلْحَ على نفسِه ومَن معه؛ على أن يَفْرِض للعَرَبِ على القِبط دينارَيْن على كُلِّ رجلٍ منهم، فأجابهم عمروٌ إلى ذلك.

وكان مُكْثُهم على بابِ القصرِ حتَّى فتحوه سبعةَ أشهرٍ، والله تباركَ وتعالى أعلم.

قال ابن عبدِ الحَكَم: وقد سمعتُ في فَتْحِ القَصْرِ وجْهًا آخرَ، ورواه بِسَنَدِهِ إلى خالدِ بنِ يزيد، عن جماعة من التَّابعين، يَزيدُ حديثُ بعضهم على حَدِيث بعضٍ، قالوا: لـمّا حَصَر المسلمون بابِليون، وبه جماعةٌ من الرُّومِ، وأكابرِ القِبطِ وعليهم المقوْقَس، فقاتلهم شهرًا، فلمّا رأى القوم الجِدَّ من المسلمين تنحَّى المقوقِس وجماعةٌ من أكابر القبط ورؤسائهم، وخرجوا من باب القَصْرِ القِبليّ، ودونَهم جماعةٌ يقاتِلون العَرَب، فلحِقُوا بالجَزيرة.

قال: وهي موضعُ الصِّناعةِ اليوم، وأمروا بقطْعِ الجِسْرِ، وذلك في زَمَن زيادة النِّيلِ، وتخلَّف الأعَيْرِج بالقَصْرِ بعدَ المقوقِسِ، ثم تحوَّلَ إلى الجزيرة في السُّفُن. والله أعلم.

ذكر إرسال المقوقس إلى عمرو في طلب الصلح وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصّامت وما وقع بينهما من الكلام وقبول المقوقس الجزية

قال: وأرسَل المقوقسُ إلى عَمرو يقول: إنَّكم قد وَلَجتُمْ[1] بلادَنا، وألححتم على قِتالِنَا، وطالَ مُقامُكم في أرضنا؛ وإنَّما أنتم عُصْبَةٌ يسيرةٌ، وقد أظلَّتْكم الرّومُ ومعهم من العُدَد والسّلاح، وقد أحاط بكم هذا النِّيل، وإنما أنتم أُسارَى في أيْدِينا، فأبعثوا إلينا رجالاً منكم نَسمَعْ منهم؛ فلعله أنْ يأتِيَ الأمرُ فيما بيننا وبينكم على ما تُحِبُّون ونُحِبّ، وينقطعَ عنَّا وعنكمْ هذا القِتالُ قبل أن تغْشَاكم جُموعُ الرُّومِ؛ فلا يَنفعنَا الكلام ولا نَقدِر عليه، ولعلَّكُمْ أنْ تَندَمُوا.. ونحو ذلك من الكلام.

فلما أتتْ رُسُلُ المقوقِسِ عَمرًا حبَسَهم عنده يومين وليلتين؛ حتى خافَ عليهم المقوقِسُ وقال لأصحابه: أتَرَوْنَ أنَّهم يَقتلُون الرُّسُلَ ويحبِسونهم، ويستحلُّونَ ذلك في دينهم؟ وإنَّما أراد عَمرو بذلك أن يَرَوْا حال المسلمين، ثم ردَّهُمْ عَمرو. وأجابَه مع رُسُله: إنَّه ليس بيني وبينكمْ إلاَّ إحدى ثلاث خِصال: إمَّا أن دخلتُم في الإسلامِ وكنتُمْ إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكمْ ما علينا، وإنْ أبَيْتُمْ فأعْطَيْتُمْ الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وأنتم صاغِرُون. وإما أن جاهَدْناكم بالصبْر والقتالِ حتى يحكُمَ اللّهُ بيننا وبينَكم، وهو خيرُ الحاكمين.

فلمّا جاءتْ رُسُل المقوقِسِ إليه، قال: كيْفَ رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنَا قَوْمًا، ألموتُ أحبُّ إلى أحدِهم من الحياةِ، والتَّواضُعُ أحبُّ إليهم من الرِّفعةِ، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبةٌ ولا نَهْمَة[2]؛ إنَّما جلوسهم على التُّرابِ، وأكْلُهُم على الرُّكَبِ، وأميرُهم كواحدٍ منهم، ما يُعْرفُ رفيعُهُمْ مِنح وضيعِهم، ولا السَّيِّدُ فيهم من العبْدِ، وإذا حضرتِ الصَّلاةُ لم يتخلَّف عنها منهم أحدٌ، يَغسلون أطرافَهم بالماءِ، ويتخشَّعُون في صلاتهم.

---

(١) ولجتم بلادنا: دخلتموها.

(٢) النهمة: الحاجة؛ أو الشهوة في الشيء.

فقال المقوقس: والَّذي يُحلَف به، لو أنَّ هؤلاء ٱستقبَلوا الجبالَ لأزالوها، وما يَقْوَى على قتالِ هؤلاء أحَد؛ ولئن لم نَغْتَنِمْ صُلْحَهم اليومَ وهم مَحصُورون بهذا النِّيلِ لم يُجيبُونَا بعد اليوم، إذا أمْكَنَتْهم الأرضُ وقَوُوا على ٱلْخُروج مِن موضعهم. ثم ردَّ رُسَلَه إلى المسلمين، أن ٱبعثوا إلَيْنَا رُسُلاً منكم، نُعامِلهم ونَتَداعى نحن وهمْ إلى ما عساه أنْ يكونَ فيه صَلاحَ لنا ولكم.

فبعث عَمرُو بنُ العاصِ عشرةَ نفر، أحدهم عبادةُ بنُ الصَّامِتِ، وأمرِ أن يكون متكلِّمَ القومِ، وألاَّ يُجيبَهم إلى شيءٍ دَعَوْه إليه إلاَّ إلى إحْدَى هذه الثَّلاث خصال.

فلمّا دخلوا على المقوقِس تقدَّمَ عُبادةُ، فَهابَه المقوقس لِسوادِه، فقال: نحُّوا عنِّي هذا الأسوَدَ، وقدِّموا غيرَه يكلِّمُني، فقالوا جميعًا: إنَّ هذا الأسْوَدَ أفضلُنا رأيًا وعِلْمًا، وهو سَيِّدنا وخَيْرنا، والمقدَّمُ علَيْنا، وإنَّما نرجعُ جميعًا إلى قَولِهِ ورأْيِهِ، وقد أمَره الأميرُ دُونَنَا بما أمَرَهُ به، وأمَرَنا ألاَّ نخالفَ رأْيَه وقولَه، قال: وكيف رَضِيتُمْ أنْ يكونَ هذا الأسْوَدُ أفضلَكُمْ، وإنَّما ينبغي أن يكون دُونَكم. قالوا: إنَّه وإنْ كان أسوَدَ كما تَرى، فإنَّه مِنْ أفضلِنَا موْضِعًا، وأفضلِنا سابقةً وعَقْلاً ورأْيًا، وليس يُنْكَرُ السَّوادُ فينا.

فقال المقوقسُ لِعُبَادَة: تقدّمْ يا أسْود وكلِّمْني برفقٍ، فإنِّي أهابُ سَوادَك، وإن اشتدّ كلامُكَ عليَّ ٱزدَدْتُ لِذلك هَيْبَةً، فتقَدَّمَ إليه عُبَادَةُ فقال: قد سمعْتُ مَقالَك، وإنَّ فيمن خلَّفْتُ من أصحابي ألفَ رجلٍ كلُّهم أشدُّ سوادًا مني، وأفْظَعُ مَنْظَرًا؛ ولو سمعتَهم ورأيتَهُمْ لكنتُ أهيبَ لهم منك لي، وأنا قد وَلَّيْتُ وأدبَر شبابي، وإنِّي بحمد اللّهِ مع ذلك ما أهابُ مائةَ رجلٍ من عدوِّي لو ٱستقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ وذلك إنَّما رغبتُنَا وهِمَّتُنَا الْجِهَادُ في سبيل الله وٱتّباع رِضْوانه، وليس غزونا ممَّن حارب الله لرغبةٍ في دُنيا ولا طلبًا للاستكثار منها؛ إلا أن الله عزَّ وجلّ أحَلَّ ذلك لنا، وجَعَل ما غَنِمْنَا من ذلك حَلالاً، وما يُبَالي أحدُنا أكان له قِنطارٌ مِنْ ذهب أم كان لا يَمْلُك إلاَّ دِرْهَمًا؛ لأنَّ غايةَ أحدِنا من الدُّنيا أكْلة يأْكُلها يَسُدُّ بها جوعته لليلة ونَهارِه، وشَمْلَةٌ[1] يلتَحِفُها. فإن كان أحدُنا لا يَملكُ إلاَّ ذلك كفَاهُ؛ وإنْ كان له قنطارٌ من ذهبٍ أنفقَهُ في طاعة الله تعالى، وٱقتَصر على هذا الَّذي بيَدِهِ، وبَلَّغه ما كان في الدُّنيا؛ لأنَّ الدُّنيا ليست بنعِيم، ورَخَاؤُها ليس برَخاء، وإنّما النَّعيم والرَّخَاءُ في الآخرة؛ وبذلك أمَرنا ربُّنَا عزَّ وجلَّ، وأمرَنا به نبيُّنَا، وعهِدَ إلَيْنَا ألاَّ تكون همّةُ أحدُنا من الدُّنيا إلاَّ ما يمسك جَوْعَتَهُ، ويَستُر عورَتَه، وتكونَ هِمَّته وشُغْلُه في رضا رَبِّه، وجهادِ عدوِّه.

---

(١) الشَّملة: كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به.

فلمَّا سَمِعَ المقوْقِسُ ذلك منه، قال لمن حَوْلَه: هل سمعتمْ مِثْلَ كلامِ هذا الرَّجلِ قطّ؟ فقد هِبْتُ مَنظَره، وإنَّ قولَه لأهْيَبُ عندي مِن مَنْظَرِ، إنَّ هذا وأصحابَهُ أخرجَهم الله لخَرابِ الأرضِ، ما أظنُّ ملْكَهُم إلاَّ سيغْلِبُ على الأرضِ كُلِّها.

ثم أقبلَ على عُبادة فقال: أيّها الرجلُ الصّالحُ، قد سمعتُ مقالتَكَ، وما ذكرتَ عَنْك وعن أصحابِكَ، ولعَمرِي ما بلغْتُم ما بلغْتُم إلاَّ بما ذكرتَ، وما ظهرتُم على من كان إلاَّ لحبِّهم الدُّنيا وَرَغبتِهم فيها، وقد توجَّه إلينا لقتالكم مِنْ جَمْع الرُّومِ ما لا يُحْصَى عددُه، قومٌ معروفون بالنَّجدةِ والشِّدَةِ، لا يُبَالِي أحَدُهم مَنْ لقيَ ولا من قاتَل، وإنَّا لنعلم أنَّكم لن تَقْوَوا عليهم ولَنْ تُطِيقُوهم لضَعْفِكم وقلَّتِكُمْ، وقد أقمتُمْ بين أظْهُرِنَا أشهُرًا، وأنتم في ضِيقٍ وشِدَّةٍ مِن معاشكم وحالِكم، ونحن نرقُّ عليكم لضَعْفِكُمْ وقلَّتِكُمْ، وقلَّةِ ما بأيديكم، ونحن تطيبُ أنفُسُنا أن نصالحكم، على أن نَفْرِض لكلِّ رجلٍ منكم دِينارَيْن، ولأميركم مائةَ دينار، ولخليفتِكُمْ ألف دينار، تقبِضُونَها وتنصرفون إلى بلادكم، قبل أن يغشَاكُمْ ما لا قِوام لكمْ به.

فقال عُبادة: يا هذا، لا تَغُرَّنَّ نفسَكَ ولا أصحابَك، أمَّا ما تخوِّفُنَا به مِنْ جَمْع الرُّومِ وعددِهم وكثرتِهم، وأنَّا لا نَقْوى عليهم؛ فلَعمْرِي ما هذا بالذي تخوِّفنا به، ولا بالَّذِي يَكْسرنا عمَّا نحن فيه؛ إنْ كان ما قلْتُمْ حقًا؛ فلذلك والله أرغَبُ ما يكون في قِتالهم، وأشدُّ تحريضًا عليهم؛ لأنَّ ذلك أعذَرُ لنا عند ربِّنا إذا قَدِمْنَا عليه؛ إن قُتِلْنَا عن آخرِنا كان أمكَنَ لنا في رِضوانِهِ وجَنَّتِهِ، وما من شيءٍ أقرَّ لأعيُنِنا ولا أحبَّ إلينا من ذلك، وإنَّا منكم حينئذٍ لَعَلَى إحدى الْحُسْنَيَيْن:

إمَّا أن تَعْظُم لنا بذلك غنيمة الدنيا إنْ ظَفِرنا بكم، أو غنيمةُ الآخرةِ إن ظَفِرتُم بنا؛ وإنَّها لأحَبُّ الخَصْلتيْنِ إلينَا بعد الاجتهادِ مِنَّا، وإنَّ الله عزَّ وجلّ قال لنا في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وما منَّا رجلٌ إلاَّ وهو يدعو ربَّه صَباحًا ومساءً أنْ يرزقه الله الشَّهادةَ وألاَّ يَرُدُّهُ إلى بلدِهِ، ولا إلى أرْضِهِ، ولا إلى أهلِه وولدِهِ، ولَيْسَ لأحدٍ منَّا هَمٌّ فيما خلَّفَه، وقد اَستوْدَعَ كلٌّ مِنَّا ربَّه أهلَه ووَلَده؛ وإنَّما همُّنا ما أمامَنا.

وأمّا قولُكَ: إنَّا في ضِيقٍ وشِدَّةٍ من معاشِنَا وحالِنَا، فنحن في أوسَع السَّعةِ؛ لو كانتْ الدُّنيا كلُّها لنا ما أردْنَا منها لأنْفُسِنَا أكثرَ ممَّا نحن عليه، فانْظرْ الَّذي تُريد فبيِّنه لنا؛ أفليس بيننا وبينكم خَصلةٌ نَقبَلها منك ولا نجيبكَ إليها إلاَّ خَصلة من ثلاثٍ، فاختَرْ أيَّها شئتَ، ولا تُطمِع نفسَكَ بالباطل؛ بذلك أمَرني أمِيري، وبها أمرَهُ أميرُ المؤمنين، وهو عهدُ رسولِ الله ﷺ مِنْ قَبلُ إلَيْنَا.

إمّا أجَبْتم إلى الإسلام الّذي هو ٱلدِّينُ الّذي لا يَقبلُ اللّهُ تعالى غيرَهُ، وهو دِينُ أنبيائه ورُسُله وملائكتِهِ. أمرَنا اللّهُ أن نقاتِلَ مَنْ خالفَه ورَغِب عنه؛ حتى يَدخُلَ فيه، فإن فعل فإنّ له مالَنا، وعليه ما عَلَيْنا، وكان أخانا في دِين اللّهِ. فإنْ قبلْتَ ذلك أنتَ وأصحابُكَ فقد سعدتُمْ في الدنيا والآخرةِ، ورجَعْنَا عن قتالِكم، ولم نستحِلَّ أذاكُمْ، ولا التَّعرضَ لكم، وإن أبَيْتُمْ إلاّ الْجِزْيَةَ، فأدُّوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغِرون، نُعامِلكم على شيءٍ نَرضَى به نحن وأنتُم في كلِّ عام أبدًا، ما بقينا وبقيتم، ونقاتلُ من ناوَأكم وعَرَض لكم في شيءٍ من أرضِكم وبلادِكم وأموالِكم، ونقومُ بذلك إن كنتم في ذِمّتنا، وكان لكم به عهدُ اللّهِ إليْنَا، وإن أبَيْتُمْ فليس بيننا وبينَكم إلاّ المحاكَمة بالسَّيف حتى نَموتَ عن آخِرِنا، أو نصيبَ ما نريدُ منكم، هذا دِينُنا الّذي نَدينُ اللّهَ تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيرُه، فٱنظروا لأنفسكم.

فقال له المقوقِسُ: هذا مَا لا يكون أبدًا، ما تُرِيدُون إلاّ أنْ تتَّخِذُونَا خَوَلاً أو نكونَ لكم عبيدًا ما كانت الدّنيا.

فقال عُبادةُ: هو ذاك، فٱخترْ ما شئتَ. قال: أفلا تجيبوننا إلى خَصْلةٍ غير هذهِ الخِصالِ؟ فرفع عُبادةُ يديه فقال: لا وربِّ هذه السَّماءِ، وربِّ هذه الأرضِ، وربِّنا وربِّ كلِّ شيءٍ، ما لكم عندنا خصلةٌ غيرها، فٱختاروا لأنفسكم.

فٱلتفتَ المقوقِسُ عند ذلك إلى أصحابِه فقال: قد فرغَ القومُ، فما تُريدون؟ فقالوا: أو يَرضَى أحدٌ بهذا الذُّلِّ! أمّا ما أرادوا من دخولنا في دِينهم فهذا ما لا يكون أبدًا؛ أنْ نتركَ دينَ المسيح ابنِ مريم، وندخلَ في دينِ غيرِهِ ولا نعرفه وأمّا ما أرادوا مِنْ أن يَسْبُونا ويَجعلونا عبيدًا أبدًا، فالموْتُ أيسَرُ مِنْ ذلك، لو رضُوا مِنّا أن نُضْعِفَ[1] لهم ما أعطيْناهم مِرارًا كان أهْوَنَ علَيْنَا.

فقال المقوقِسُ لعُبادة: قد أبَى القومُ، فما تَرَى؟ فراجعْ صاحِبَكَ على أنْ نعطيَكُم في مرّتكم هذه ما تمنَّيْتُمْ وتنصرفون.

فقام عُبَادةُ وأصحابُه، فقال المقوقِسُ لمن حوله: أطِيعُوني وأجِيبُوا القومَ إلى خَصْلةٍ من هذه الثّلاثِ، فوالله ما لكم بهم طاقةٌ، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبُنّهم إلى ما هو أعظمُ كارِهين.

قالوا: وأيّ خَصْلةٍ تجيبهم إليها؟ قال: إذًا أُخْبِركم؛ فأمّا دخولكم في غيرِ دينكم فلا آمُرُكم به، وأمّا قتالُهم فأنا أعلَم أنّكم لن تَقْوَوْا عليهم، ولن تَصبِرُوا صَبْرَهم،

---

(١) ضعف الشيء: جعله ضعفين.

ولا بُدَّ من الثَّالثةِ. قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا! قال: نعم، تكونون عبيدًا مسلَّطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم، وأموالِكم وذراريِّكم، خيرٌ لكم من أن تَموتُوا عن آخركم، وتكونوا عبيدًا تُباعون وتُمزَّقون في البلاد، مستعبَدِين أبدًا في البلاد. أنتم وأهلُوكم وذراريُّكم.

قالوا: فالموتُ أهوَنُ علينا. فأمَروا بقَطْع الجِسْر بين الفُسْطاط والجيزةِ[1]، وبالقَصْر من القِبط والرُّوم جمعٌ كثيرٌ، فألحّ عليهم المسلمون عند ذلك بالقِتال؛ حتى ظَفروا بمن في القَصْر، فقَتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأسَروا مَنْ أسَروا، وانحازَتْ السُّفُن كلُّها إلى الجَزيرةِ.

هذا والمسلمون قد أحدق بهم الماءُ من كلِّ وجهٍ، لا يَقْدِرون على أن يتقدَّموا نحوَ الصَّعيد ولا غيرِه من المَدائن والقُرَى، والمُقَوْقِس يقول لأصحابه: ألَم أُعلِمْكم هذا وأخافُه عليكم؟ ما تَنتَظرون؟ فواللّهِ لَتُجيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعًا، أو لنجيبنَّهم إلى ما هو أعظمُ مِنه كَرْهًا، فأطيعوني من قبلِ أنْ تَندَموا؛ فعند ذلك أذْعَنوا إلى الجِزية، ورَضُوا بها على صُلْحٍ يكون بينهم يَعرِفونه.

فأرسل المقوقِسُ إلى عمرو يقولُ له: إنّي لم أزَلْ حَريصًا على إجابتك إلى خَصْلةٍ من تلك الخِصالِ التي أرسلْتَ إليَّ بها، فأبى ذلك عليَّ مَنْ حَضَرَني من الرُّوم والقِبْط، فلم يكن لي أن أفتَاتَ[2] عليهم في أموالهم، وقد عَرَفوا نُصْحِي لهم، وحبّي صَلاحَهم، ورَجَعوا إلى قَوْلي، فَأَعْطِني أمانًا أجتمعُ أنا وأنت في نفرٍ من أصحابي وأصحابِك؛ فإن ٱستقام الأمرُ بيننا تَمَّ ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتمَّ رجعْنا إلى ما كُنَّا عليه.

فٱستشار عَمرو أصحابَه في ذلك فقالوا: لا تُجبْهم إلى شيءٍ من الصُّلح ولا الْجِزْيةِ حتى يَفتحَ الله علينا، وتَصيرَ كلُّها لنا فَيْئًا وغنيمةً كما صار القصرُ لنا وما فيه.

فقال عَمرو: قد علمتمْ ما عهد إليَّ أميرُ المؤمنين في عهده، فإنْ أجابُوا إلى خَصْلةٍ من الخِصالِ الثّلاثِ الّتي عَهِدَ إليّ فيما أجبتهم إليها، وقبلتُ منهم مع ما قد حال هذا الماءُ بيننا وبين ما نُريدُ من قتالهم. فٱجتَمَعُوا على عهدٍ بينهم، واصطلَحوا على أن يُفْرِضَ على جميع مَنْ بمصر أعلاها وأسفلها من القبطِ دينارَيْن عَنْ كلِّ نفسٍ:

---

(١) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر...

(٢) يقال: افتات عليه فيه: إذا لم يفعل الأمر دون مشورته.

شريفهم ووضِيعهم وضعيفهم، ومَنْ بلغَ الحُلُمَ منهم، ليس على الشَّيخ الفاني، ولا على الصَّغير الذي لم يبلغ الحُلُم، ولا النساء شيءٌ، وعلى أنّ للمسلمين عليهم النُّزُل بجماعتهم حيث نزلوا، ومَنْ نزلَ عليه ضَيفٌ واحدٌ من المسلمين، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثةِ أيّامٍ، مُفْتَرَضٌ ذلك عليهم، وأنّ لهم أرضَهم وأموالَهم لا يُتَعرَّض لهم في شيءٍ منها، فَشُرِط هذا كلُّه على القِبْطِ خاصَّةً، وأحْصَوْا عددَ القِبْطِ يومئذٍ خاصَّةً مَنْ بلغَ منهم الجزية، وفُرِضَ عليه الديناران، رَفَعَ ذلك عرفاؤُهم بالأيْمان المؤكَّدةِ، فكان جميعُ من أُحصِيَ منهم بمصر أكثر من ستَّةِ آلاف ألفِ نَفْس، فكانت فَرِيضتهم يومئذٍ اثْنَيْ عشرَ ألفِ ألف دينارٍ في كلِّ سنةٍ.

ورُوِي عن يحيى بن مَيْمُون الحَضْرَمِيّ، قال: بلغتْ عِدَّتُهم ثمانية آلافِ ألفٍ.

قال: وشَرطَ المُقَوْقِس للرُّوم أن يُخَيَّروا، فمن أحَبَّ منهم أنْ يقيمَ على مِثْلِ هذا المُقامِ أقامَ على ذلِكَ لازمًا له، مفترَضًا عليه مِمَّن أقامَ بالإسكَنْدَرِيَّةِ، وما حولَها من أرضِ مصرَ كلِّها، ومَنْ أرادَ الخروجَ منها إلى أرض الرُّوم خرجَ، وعلى أنّ للمقوقِس الخيارَ في الرُّوم خاصَّةً، حتى يكتبَ إلى مَلِك الرومِ يُعلِمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيَه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعًا عليه، وكتبوا به كتابًا، وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابًا يُعَلِمُهُ بالأمرِ كلِّه. فكَتَب إليه يقبِّح رأيَه ويعجِّزه ويردّ عليه ما فَعَلَ، وأمَرَهُ بقتالِ المسلمين بالرُّومِ إنْ أَبَى القِبْطُ القتال، وكتبَ إلى جماعةِ الرُّوم بمِثل ذلك.

فجمَعَ المقوقِسُ الرُّومَ وقال: اعلمُوا يا معشر الرُّوم أنّي والله لا أخرجُ ممّا دخلتُ فيه، بعد أنْ ذَكَر لهم شجاعةَ العَرَبِ وصبْرَهم وجلَدَهم وحُبَّهم الموْت وغيرَ ذلك مِنْ حالهم، ثم قال: واللّهِ إنّي لأعلم أنَّكُمْ ستَرجِعُونَ غدًا إلى قَولي ورأيي، وتتمنَّوْنَ أن لو كنتم أطعْتُمُوني؛ وذلك أنّي قد عاينتُ ورأيتُ، وعرفتُ ما لم يُعَايِن المَلِكُ، ولمْ يَرَهُ ولم يَعْرِفْهُ. أمَا يَرضَى أحدُكم أن يكون آمِنًا في دَهْرِه على نفسِه ومالِه وولدِه بدينارَيْنِ في السّنة!

ثم أقْبَلَ المقوقِسُ على عَمرِو بنِ العاصِ فقال له: إنَّ المَلِكَ قد كَرِه ما فعلْتُ، وعجزَّني، وكتب إليّ وإلى جماعة الرُّومَ ألاّ نرضَى بمصالَحتكَ، وأمَرَهُمْ بقتالِك حتى يَظفروا بك، أو تَظفرَ بهم، ولم أكُنْ أخرُجُ ممّا دخلت فيه، وعاقدْتُكَ عليه؛ وإنّما سُلطاني على نفسي ومن أطاعني، فقد تمّ صُلح القِبْطِ فيما بينَك وبينهم، ولم يأتِ من قِبَلهم نقضٌ.

وأمَّا الرُّومَ فأنا منهم بريءٌ، وأنا أطلبُ إليكَ أنْ تُعطِيَني ثلاثَ خِصَالٍ، قال عمرو: وما هي؟ قال:

لا تنقض بالقِبْط، وأدخِلْني معهم، وألْزِمْنِي ما ألزَمْتَهم، وقد اجتمعتْ كلمَتِي وكَلمَتُهُمْ على ما عاهدتُكَ عليه، فهم مقيمون لك على ما تُحِبُّ.

وأما الثانية، فإن سألَكَ الرّومُ بعد اليوم أن تصالحَهُمْ فلا تصالِحْهُمْ حتَّى تجعلَهم فَيْئًا[1] وعبيدًا؛ فإنَّهم أهلُ ذلك؛ فإنِّي نصحتُهُمْ فاستَغَشُّونِي.

وأمَّا الثَّالثةُ: فأطلبُ إليكَ إنْ أنا مِتُّ أن تأمرهم يدفنونني في أبي يُحَنِّس بالإسكندَرِيَّة.

فأجابه عَمرو إلى ما طَلب على أن يقيمُوا له الجِسْرَيْن جميعًا، والجسُورَ ما بين الفُسْطَاط إلى الإسكَنْدريّة، ويقيموا لهم الأنْزالَ والضِّيافةَ والأسواق، ففعلوا ذلك، وسارت القِبْط أعوانًا للمسلمين على الرُّوم.

ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان من الحروب بينهم إلى أن فتحت الإسكندرية

قال: واستَعدّتْ الرُّومُ واستَجاشتْ، وقدمتْ عليهمْ مَراكبُ كثيرةٌ من أرضِ الرُّومِ، فيها جمعٌ من الرُّوم عظيمٌ بِالعُدَّة والسِّلاح، فخرج إليهم عمرُو بنُ العاص، ومَن معه، وذلك حين أمكَنه الخروجُ، وخرجَ معه جماعةٌ من رؤساء القِبْطِ وقد أصلَحوا لهم الطُّرُقَ، وأقامُوا الجسُورَ والأسواقَ، وخرجَ عَمرو فلم يَلقَ من الرومِ أحدًا حتَّى بلغ تَرْنوط[2]، فلقِيَ بها طائفةً منَ الرُّوم، فقاتلوه قتالاً خفيفًا، فهزَمَهم، ومضى بمَن معه حتى لقيَ جمع الرُّومِ بكوم شَرِيك، فاقْتتلوا به ثلاثةَ أيّامٍ، ثم فتح اللّهُ على المسلمين، وانهزم الرُّوم.

وقيل: بل لمّا انهزموا مِنْ تَرْنوط، بعثَ عمرُو بنُ العاصِ شَرِيك بن سُمَيّ في آثارِهم، وكان على مقدّمة عمرو، فأدرَكَهم شَرِيك عند الكوْم[3]، فقاتَلَهم، فمن النَّاسِ من يقول: إنَّه هزَمَهم، ومنهم من يقول: إنَّه قاتَلَهم إلى الكوْم، فاعتَصَم به، وأحاطتْ به الرُّوم، فأمر شَرِيكٌ أبا ناعمة مالِكَ بن ناعمةَ الصَّدَفي، وهو صاحب الفَرَسِ الأشْقَر

---

(١) الفيء: الغنيمة تنال بلا قتال. (٢) ترنوط: قرية بين مصر والإسكندرية.

(٣) الكوم: اسم لمواضع بمصر تضاف إلى أربابها أو إلى شيء عرفت به، منها كوم الشقاف.. وكوم علقام.. وكوم شريك أقرب الإسكندرية... (معجم البلدان لياقوت).

الذي يقال له: أشقر صَدِف، وكان لا يُجارَى، فأنحطَّ عليهم من الكوم، وطلبتْه الرُّومُ فلم تدرِكْهُ، فأتى عَمرًا فأخبَرَه، فأقبل عمرو نحوَ الروم فأنهزموا، وبالفَرَسِ الأشقر هذا سُمِّيَتْ خَوخةُ الأشقر الّتي بمصر؛ وذلك أنّه نَفقَ[1] فدفَنَه صاحبُه هناك، فسُمِّيَ المكان به.

قال: ثمّ ٱلْتقَى عَمرو والرُّوم بسُلَيْطِس، فأقْتَتلوا بها قتالاً شديدًا، ثم هزَمَهم الله. ثم التَقوْا بالكِرْيَوْن فأقْتَتلوا هناك بِضعةَ عشرَ يَومًا، وكان ابنهُ عبدُ الله بنُ عمرو على المقدِّمة، ففشتْ فيه الجِراحة وصَلَّى عَمرو بالنَّاسِ صلاةَ الخَوفِ، بكلِّ طائفةٍ ركعةً وسجدتين. ثم فتحَ اللّهُ على المسلمين، وقتلُوا من الرُّومِ مَقتلةً عظيمةً، واتَّبعوهم حتّى بلغوا الإسكندريةَ فتحصَّنَ بها الرّوم، وكانت عليهم حصون مَنيعةٌ، حِصْنٌ دونَ حصنٍ، فنزل المسلمون ما بين حُلْوَةَ إلى قَصْرِ فارس، إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤَساءُ القِبْط، يَمُدُّونهم بما ٱحتاجوا من الأطعمةِ والأعلاف.

هذا ورسلُ مَلِك الرُّومِ تختلِفُ إلى الإسكندرية في المراكبِ، والأمداد تأْتيهم من قِبَله، وكان يقول: لئن ظهرَتْ العربُ على الإسكندريَّةِ كان ذلك انقطاعُ مُلْكِ الرُّومِ وهلاكُهم؛ لأنّه ليس للرُّوم كنائس أعظمُ منْ كنائِس الإسكندريّة، ونجهّز المَلِك ليباشرَ القِتالَ بنفسه، وأمر ألاّ يتَخلَّفَ عليه أحدٌ مِنَ الرُّوم، وقال: ما بقاءُ الرّومِ بعدَ الإسكندريةِ! فلمّا فرغَ من جَهازِه أهلَكَه اللّهُ فماتَ وكَفَى الله المسلمين مؤنَتَه.

وكان موتُه في سنة تسعَ عشرةَ، فكسرَ اللّهُ بموتِهِ شوْكةَ الرُّومِ، ورجعَ جمعٌ كبيرٌ مِمّن كان توجَّه لإعانة أهلِ الإسكندرية، فاستأْسَدَتْ العَرَب عند ذلك، وألَحَّتْ بالقتالِ، فقاتلوا قتالاً شديدًا، فبرز رجلٌ من الروم، وبَرَزَ له مَسلَمة بن مَخلد، فصَرَعَه الرُّوميّ وألقاه عن فَرَسِهِ، وأهوَى إليه ليقتُلَه حتّى حَماه رجلٌ من أصحابِه، وكان مسلمةُ لا يُقام له؛ ولكن غلبتْهُ المقاديرُ، فشقَّ ذلك على المسلمين.

وكان مسلمةُ ثقيل البدن، كثير اللَّحم، فاشتدّ غضبُ عمرو، وقال: ما بالُ الرَّجلِ المستَه[2] الّذي يُشبِه النِّساءَ يتعرّض إلى مَداخِلِ الرجال ويتشبَّه بهم! فغَضِب مَسلمةُ من ذلك ولَم يراجعْه، ثم اشتدَّ القتالُ حتَّى ٱقتحم المسلمون حِصْنَ الإِسْكَندريّة، وقاتلوا فيه، ثم جاشَتْ الرُّوم حتّى أخرجوهم جميعًا من الحِصن، إلاّ أربعةً، منهم عمرُو بنُ العاص، ومَسلمةُ بنُ مَخْلَد، فأغلَقوا الحِصْنَ عليهم، والتجؤوا

---

(١) نفق الفرس: مات.

(٢) المسته: الذي عظم عجزه.

إلى ديماسٍ[١] من حمّامات الروم، فأنزل الرُّومَ رُوميًا يتكلَّمُ بالعربيّة، فقال لهم: إنَّكم قد سِرْتُم أُسارَى في أيدينا، فاستأْسِرُوا ولا تقتلوا أنفسَكُمْ.

ثم قال لهم: إنَّ في أيدي أصحابكم منَّا رجالاً أَسَرُوهم، ونحن نعطيكم العهودَ ونفادي بكم أصحابنا، ولا نَقْتلكم، فأَبَوْا عليهم.

ثم قال لهم الرّوميّ: فهل لكم إلى خَصلةٍ وهي نَصَفٌ فيما بَيْنَنا وبينكُمْ، أن تُعطونا العهدَ ونعطيَكُمْ مِثلَه؛ على أن يَبرُز منَّا رجلٌ، ومنكم رجلٌ، فإنْ غلب صاحبُنَا صاحبَكم استأسَرْتم لنا، وأمكنتُمُونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبُكُمْ صاحِبَنَا خَلَّيْنا سبيلَكُمْ، فرضُوا بذلك وتعاهدوا عليه.

فبرَز رجلٌ من الرُّوم وقد وثقتِ الرُّومُ بنَجْدَتِهِ وشدَّته، فأراد عَمرو أن يَبْرُزَ فمنعه مَسلَمة وقال: أنا أكفيكَ إنْ شاء اللّهُ. فقال عمرو: دُونَك؛ فربَّمَا فرّجها الله بك. فبرز مَسلمةُ للرُّوميِّ فَتَجاوَلا ساعةً، ثم أعان اللّهُ مَسْلَمَة فقتله، وكبَّرَ وكبَّر أصحابُه، ووَفَى لهم الرُّومُ بما عاهَدوهم عليه، فَفَتَحُوا لهم بابَ الحِصْن، فخرجوا، والرُّومُ لا يَدْرون أن أميرَ القومِ فيهم، ثم بلغهم ذلك، فأسِفوا على ما فاتهم منه، ونَدِمَ عَمرو واستَحيَا من مقالتِهِ لمَسلَمة ما قال، فاستغفر له عمرو.

قال: ولمّا أبطَأَ الفتحُ على عمر، كتب إلى عمرو:

أمّا بعدُ، فقد عجبتُ لإبطائكم عن فتحِ مصرَ، وأنكم تقاتلونهم منذُ سنتين؛ وما ذاك إلاّ لما أَحْدَثْتُم وأحْبَبْتُمْ من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكُم، وإنَّ الله تعالى لا يَنصرُ قومًا إلا بصدق نِيَّاتهم. وقد كنتُ وَجَّهتُ إليك أربعةَ نَفَرٍ، وأعلمتُكَ أنَّ الرجلَ منهم مقام ألفِ رجلٍ على ما كنتُ أعرفُ؛ إلاّ أنْ يكونوا غيَّرهُم ما غيَّر غيْرَهم، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاخْطُب النَّاسَ وحُضَّهم على قتالِ عدوِّهم، ورغِّبهم في الصَّبرِ والنِّيَّةِ، وقدِّم أُولئك الأربعة في صدور النَّاسِ، ومُرِ النَّاسِ جميعًا أن تكون لهم صَدْمَةٌ كصدْمَةِ رجلٍ واحدٍ وليكُنْ ذلك عند الزَّوالِ يومَ الجمعةِ؛ فإنَّهَا ساعةُ نزول الرّحمةِ، ووقت الإجابةِ، ولْيَعِجَ[٢] النَّاسُ إلى اللّهِ ويسألوه النَّصر. ففعلوا ففتح الله عليهم.

قال: ويقال: إن عَمرو بنَ العاصِ استشار مسلمَةَ بنَ مخلد في قتال الرّوم، فقال له مسلمةُ: أرى أن تَنظرَ إلى رجلٍ له معرفةٌ وتجاربُ من أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فتَعقِد له على الناسِ، فيكون هو الَّذِي يُبَاشر القتالَ ويكفِيكَه. فقال عمرو: ومَنْ ذاك؟

(١) الديماس: الحمّام، جمع دياميس ودماميس.

(٢) عجّ: رفع صوته وصاح.

قال: عُبادةُ بنُ الصَّامت. فدعا عمرو عُبادةَ، فأتاه وهو راكبٌ على فرسه، فلمَّا دنا منه أراد النُّزول، فعزَمَ عَمرو عليه ألاَّ يَفْعَلَ، وقال: ناوِلْنِي سِنانَ رُمْحِكَ، فناوَلَه عُبادة إيّاه، فنزع عَمرو عمامَتَهُ عن رأسِهِ وعَقَد له ووَلاَّه قِتالَ الرُّومَ.

فتقدَّمَ عُبادةُ فصافَّ[1] الرّومَ وقاتَلَهُمْ، ففتح الله على يدَيْهِ الإسْكَنْدَرِيّة من يومِهِ ذلك، وكان حصارُهم الإسكندرية أربعَةَ عشر شَهرًا، خمسة أشهر في حياة هِرَقْلَ، وتسعةَ أشهرٍ بعد موته، وفُتِحَتْ يومَ الجمعةِ مستهلَّ المحرَّم، سنةَ عشرين، وقُتِلَ من المسلمين على الإسكندرية في طول هذه المدة اثنان وعشرون رجلاً.

ذكر الفتح الثاني وما وجد بالإسكندرية
وعدة من ضربت عليه الجزية

قال: ولمَّا فُتِحَت، الإسكندريّة هربَ الرّومُ منها في البرِّ والبحرِ، فخلَّف عَمرو من أصحابه بها ألفَ رجلٍ، ومضى في طلبِ من انهزم من الروم في البر، فرجع من كان هرب منهم في البحر إلى الإسكَنْدَرية، فقَتَلُوا من كان بها من المسلمينَ إلاَّ من هَرَبَ منهم، وبلغ ذلك عَمْرًا، فكَرَّ راجعًا إليها، فأتاه رجل يقال له ابن بَسَّامة، كان بوابًا بالإسكندريّة، فسأل عَمْرًا أن يؤمّنه على نفسِه وأرضِهِ وأهلِ بيتِهِ ويفتَح له البابَ، فأجابه عَمرو إلى ذلك، ففتحَ له ابن بَسَّامةَ، فدخل عمرو، وكان مَدْخله من ناحية القَنْطرة التي يقال لها قنطرةُ سُليمان، وكان مدخله الأوّل من باب المدينَةِ الذي من ناحية كنيسة الذَّهَب، ووَفَى عَمرو لأبن بَسَّامة.

وبعث عمرو إلى عمرَ بنِ الخطَّاب معاويةَ بنَ حُدَيج بشيرًا بالفتح، فقال معاويةُ: ألا تكتب معي كتابًا؟ فقال عمرو: وما أصنع بالكتابِ! ألستَ رجلاً عربيًا تُبلِّغُ الرسالة، وما رأيتَ وحضرتَ! فَقَدِمَ عَلَى عمر فأخبره الخبر، فخرَّ ساجِدًا، وجمع النَّاسَ وأخبَرَهُمْ، ثمَّ كَتب عَمرو بعد ذلك إلى عُمَر:

أمّا بعدُ، فإنِّي قد فتحتُ مدينةً لا أصفُ ما فيها؛ غير أنّي أصبْتُ فيها أربعةَ آلافِ بنية، بأربعة آلافِ حَمّام، وأربعين ألف يهوديٍّ عليهم الْجِزية، وأربعمائة مَلْهًى للمُلوك.

قال أبن عبد الحَكَم: لمّا فَتَحَ عَمرو الإسكندريّة وجد فيها أثني عشرَ ألف بَقَّالٍ يَبِيعونَ البقلَ الأخضرَ.

---

(١) صافّ الروم: قاتلهم صفوفًا.

قال: ورحل منها في اللَّيلة التي دَخلَ فيها عمرُو بنُ العاصِ، أو في اللَّيْلَةِ التي خافُوا فيها دَخُوله سبعونَ ألفَ يهوديٍّ.

قال: وقال حسين بن شُفيّ بن عبيد: كان بالإسكندرية فيما أُحْصِيَ من الحمّاماتِ اثنا عشر ديماسًا، أصغرُ ديماس منها يسعُ ألفَ مجلسٍ، كلُّ مجلسٍ منها يَسَع جماعة نفرٍ. وكان عدَّةُ مَنْ بالإسكندريَّة من الرّوم مائتي ألف من الرِّجال، فلحق بأرض الرُّوم أهلُ القوّةِ، ورَكِبوا السُّفُن، وكان بها مائةُ مَرْكَبٍ مِنَ المراكبِ الكبار، فَحُمِل فيها ثَلاثون ألفًا مع ما قَدَروا عليه من المال والمتاع والأهلِ، وبقيَ مَنْ بقيَ من الأُسارى مِمّن بلغ الخَراجَ، فأُحصِيَ يومئذٍ ستمائة ألفٍ سوى النساء والصِّبيان، فاختلفَ النَّاسُ على عمرٍو في قَسْمِهِمْ، وكانَ أكثرُ النّاسِ يريدون قَسْمَها.

فكتبَ عمرٌو إلى عمرَ يَستأْذِنه في ذلك، فكتَب إليه عمرُ: لا تَقْسِمها، وذَرْهم يكون خَراجُهم فَيْئًا للمسلمين وقوّةً لهم على جهادِ عدوِّهم، فأقرّها عَمرو، وكانت مصرُ كُلُّها صُلْحًا بفريضة دينارَيْن دِينَارَيْن على كلِّ رجلٍ لا يُزاد على أحدٍ مِنهم في جزيةِ رأسِهِ أكثر من ذلك؛ إلاّ أنّه يُلْزَمُ بقدر ما يتوسَّعُ فيه من الأرضِ والزَّرع، إلا الإسكندريّة، فإنَّهُمْ كانوا يؤدُّون الجِزيةَ والخَراجَ على قدر ما يُرَى من وليّهم؛ لأنَّ الإسكندريَّةَ فُتِحَتْ عَنْوَةً مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ ولا عَقْدٍ، ولم يكن لهم صُلْحٌ ولا ذِمّةٌ.

قال: وكانت قُرًى مِنْ مِصرَ قاتلت المسلمين، وظاهَرُوا الرُّومَ عليهم، وهي: بَلْهِيب[١]، وقرية الخيسُ[٢]، وسُلْطَيْس[٣]، وقَرْسَطا، وسَخا[٤]. فَسُبُوا، فوقعَتْ سَبَايَاهُمْ بالمدينةِ، فردَّهم عمرُ بنُ الخطَّابِ إلى قُراهم، وصَيَّرهُمْ وجماعةَ القِبْطِ ذِمَّةً، وكتب بردِّهم.

---

(١) بلهيب: بالفتح ثم السكون، وكسر الهاء، وياء ساكنة: من قرى مصر، ينسب إليها أبو المهاجر عبد الرحمٰن البليهبي من تابعي أهل مصر...

(٢) خيس: بفتح أوله ويكسر، وسكون ثانيه، وسين مهملة: من كور الحوف الغربي بمصر... وإليها ينسب البقر الخيسية...

(٣) سلطيس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الطاء، وياء ساكنة، وسين مهملة: من قرى مصر القديمة، وكان من أبناء السلطيسيات عمران بن عبد الرحمٰن بن جعفر بن ربيعة وأم عون بن خارجة القرشي ثم العدوي...

(٤) سخا: مقصور، بلفظ السخاء: كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي الآن قصبة كورة الغربية ودار الوالي بها، ذكر أن في جامع سخا حجرًا أسود عليه طلسم يعلم إذا أخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العصافير فإذا أعيد إلى الجامع خرجت منه كما ذكر... (معجم البلدان لياقوت).

وقيل: إنَّما كتب عمر في أهل سُلْطَيْس خاصّةً يقول: من كان منهم في أيديكم، فخيّروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن اختار دينَه فخلُّوا بينه وبين قَرْيته، وأن تُجْعَلُ القُرى الّتي ظاهرتْ مع الإسْكَندريّة ذِمّةً للمسلمين، يَضرِبون عليها الخَراج.

ذكر من قال إن مصر فتحت عنوة

قال: وقد ذَهب آخَرون إلى أنّ مصرَ فُتحتْ عَنوةً بغير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ.

رُوِيَ عن سُفيانَ بنَ وَهْبَ الخَوْلانيّ، قال: لمّا فتحْنَا مصرَ بغير عَهْدٍ قام الزُّبيرُ بنُ العوّام، فقال: اقْسِمها يا عَمرو، فقال عَمرو: والله لا أقْسِمُهَا حتى أكتبَ إلى أمير المؤمنين. فكَتَب إلى عُمَر، فأجابه أن أقِرَّها حتَّى يَغْزُوَ منها حَبَلُ الحَبَلَة[1].

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر صُولحَ على شيءٍ أُرْضِيَ به.

وَرَوَى ابنُ لِهيعةَ بسَنده إلى عَمرِو بنِ العاصِ أنّه قال: لقد قعدتُ مَقْعدِي هذا وما لأحدٍ من قِبْط مصرَ عليَّ عهدٌ، إنْ شئتُ قتلتُ، وإنْ شئتُ خمَّستُ، وإن شئتُ بعْتُ إلاَّ أهل أنطابُلُس[2]؛ فإنَّ لهم عهدًا نُوفِي لهمْ به.

وعن ربيعةَ بن أبي عبدِ الرّحمٰن أن عَمرو بن العاص فتحَ مِصرَ بغير عهدٍ ولا عَقْدٍ، وأنّ عمرَ بنَ الخطابِ حَبَسَ درَّها وضَرْعَهَا؛ أنْ يخرجَ منه شيءٌ نظرًا للإسلام وأهلِهِ.

وعن عُروة بنِ الزُّبير: أنَّ مصر فُتِحَتْ عَنْوَةً.

وعن عبدِ المَلِكِ بنِ جُنادةَ قال: كتب حَيّانَ بنُ شُرَيْح ـ وكان من أهل مصرَ من موالي قريش ـ إلى عمرَ بنِ عبد العزيز يسأله أن يجعلَ جزية مَوْتَى القِبْطِ على أحْيَائِهِمْ. فسأل عمر عِراكَ بنَ مالك، فقال عِراك: ما سمعتُ لهم بعهْدٍ ولا عَقْدٍ.

فكَتَب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى حيّان، أن يَجْعَلَ جِزْيةَ مَوتَى القِبْطِ على أحيائهم.

وعن عبد الله بن بُكَيْر قال: خرج أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمٰن يريدُ الإسكندرية في سَفينةٍ، فاْحتاجَ إلى رجل يُجذِّف به، فسخَّر رجلاً من القِبْطِ، فكُلِّمَ في ذلك فقال: إنَّهم بمنزلةِ العَبيد إن اْحتجتُ إليهم.

---

(١) حبلة: قرية من قرى عسقلان؛ ينسب إليها حاتم بن سنان بن بشر الحبليّ.

(٢) أنطابلس: معناه بالرومية خمس مدن؛ وهي مدينة بين الإسكندرية وبرقة؛ وقيل: هي مدينة ناحية برقة.

وعن ابن شهاب أنه قال: كان فتحُ مصر، بعضُها بِعهْدٍ وذمّةٍ، وبعضها عَنْوَةً، فجعَلهَا عمرُ بن الخطَّابِ جميعًا ذِمَّةً، وحَمَلهم على ذلك، ومضى ذلك فيهم إلى اليوم.

ذكر أخبار الإسكندرية وبنائها وما اتفق في ذلك من الأعَاجيب

لمّا رأيتُ جماعةً من المؤرِّخين اقتَصروا في أخبار الإسكندريّة عند ذكرهِمْ لفُتوحها على ما ذكرتُ أو نحوِه، ومنهم من ٱختَصَرَ ذلك، واقتصرَ على مجرَّد الفَتح، ولم يتعرّضوا إلى ما سِواه من أخبارها، آثرتُ أن أضمَّ إلى ما شرحْتُه من أخبار فتحِها ذِكرَ أخبار بنائِها، وسَبَبه وما شاهَدُوه بأبنيتِها من العَجائب، وكيفَ تُحيِّلَ على وَضْعِها حتَّى تمّتْ، ودفع ظلمة الضَّررِ عن سُكَّانِها لمَّا اذلَهمّت[1]، لأنّ مثل هذا الثَّغرِ العظيم الَّذي شاع في الآفاق ذِكْرُهُ وٱشتَهَرَ، وحَمِدَ من ٱلتجأ إليه ممَّن نبتْ به الْغُربةُ وعاقبةُ السَّفرِ، وحقَّقَ بٱختياره صِدْقَ الخبَرِ عنه وتيَقُّنَ الخَبَرِ، لا يُقتصر فيه على هذه النُّبذةِ التي ذكرناها، واللُّمعةِ الَّتي أوردْناها؛ بل يتعيَّنُ بسطُ القولِ فيه، وأنْ يتكلَّمَ المؤلِّفُ إذا ٱنتهى إليه بمِلء فيه. وربمّا اعترضَ عليَّ معترِضٌ لم يُطالِع مجموعَ ما أَلَّفْتُ، ولا وقفَ على جملةٍ ما صنَّفتُ، فيقولُ: كيف ٱقتصرَ على فتوح مصرَ على مُجرّدِهِ وهي أصْلُ بِلاده، وقاعِدةُ عباده، وبَسَط القولَ في الإسكندرية وهي على الحقيقة من مضافاتِها، وولايةٌ من جملة وِلايَاتها! وقد تَجول فيه خَيْلُ الاعتراضِ، ويعدلُ عن ٱلانْشراح إلى الانقباض، ويتوهّمُ أنّ ذلك عن عَجْزٍ أو قِصَرٍ، وإنْ بَسَط العُذْر فيقول: عن مَلالٍ وضَجَرٍ. وليس الأمْر ـ ولله الحمدُ ـ كذلك؛ لأنَّا ذكرنا أخبارَ مصرَ في كتابنا هذا في أربعة مواضعَ سَلَفَتْ منه، فذكرْنا خصائصَها وما فُضّلتْ به على غيرها في الباب الثاني من القِسم الخامس من الفنّ الأوّل، وكلُّ ذلك في السِّفْر الأوّل من كتابِنَا في خصائص البلاد، وذكرْنا أخبارَ نيلها في الباب السَّابع من القسم الرّابع من الفنّ الأوّلِ في الأنْهار، وذكرنا أخبارَ ما بها من المَباني القديمة والآثارِ العظيمة، في الباب الثَّالث من القسم الخامِس من الفنِّ الأوّل. وذكرنا أخبارَ مَنْ مَلَكَهَا من ملوكِ الأُمَم قَبل الطُّوفَانِ وبعدَه، وما بَنَوْه بها من المُدُن، وما أقاموه من المَنارات والأهرام

(١) ادلهمت الظلمة: كثفت؛ وادلهم الليل: اشتد ظلامه.

والبَرابي[١] وغيرِ ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائبِ والطِّلَّسْماتِ[٢] والحِكَم، وما أثارُوا من المَعادن وما دبَّروه من الصَّنعةِ وما شَقُّوه وأنبطُوه[٣] من الأنهار، وغير ذلك من أخبارِها وعجائبها، وذلك في الباب الثاني من القسم الرَّابعِ من الفنِّ الخامسِ، وهو في السِّفرِ الثَّاني عشر، والثالث عشر من هذا الكتاب، فلا اعتراضَ بعدَ ذلك عليّ ولا تقصيرَ تَنْتَسِب نسبتُه إليّ.

ولنأخذ الآن في أخبارِ الإسكندريةِ، قال أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِ الله المسعوديّ رحمه الله في كتابه المترجَمِ «بِمُروجِ الذَّهَبِ».

ذَكَرَ جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم أنَّ الإسكندر المَقْدُونيَّ لمّا استقامَ مُلكُه في بلاده، سار يختارُ أرضًا صحيحةَ الهواءِ، والتُّرْبةِ والماء، فانتهَى إلى موضعِ الإسكندريةِ، فأصاب في موضعها آثارَ بُنْيَان وعُمُدًا كثيرةً من الرُّخام، وفي وسَطِها عَمودٌ عظيمٌ مكتوبٌ عليه بالقَلَم المسنَدِ وهو القلمُ الأوّلُ من أقلام حِمْيَرَ ومُلوكِ عادٍ: «أنا شَدّادُ بنُ عادٍ، شَدَدْتُ بساعدَيّ البلاد، وقطعتُ عظيمَ العِمادِ، من الجِبال والأطوادِ[٤]، وأنا بنَيْتُ إرَمَ ذات العِمادِ، الَّتي لَمْ يُبْنَ مِثلُها في البلاد، وأردت أن أبنيَ هاهنا كإرَم، وأنقُلَ إليها كلّ ذي قدَم وكَرَم، من جميع العشائرُ والأُمَم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقَم، فأصابني ما أعجَلَني، وعمَّا أردْتُ إليه قطعني مَعَ وقوع ما أطالَ همِّي وشَجَني، وقَلَّ نَوْمي وسَكَني، فارتحلتُ بالأمس عن داري، لا لقَهْر مَلِكٍ جَبّارٍ، ولا خَوْفَ جَيْشٍ جَرّار، ولا عَنْ رغْبَةٍ ولا صَغارٍ[٥]؛ ولكن لتمامِ الأقْدار، وانقطاع الآثار؛ وسلطانِ العزيزِ الجبّارِ، فمن رَأى أثَري، وعَرَفَ خَبَرِي، وطُولَ عُمُرِي، ونفاذَ بصري، وشدّةَ حَذَرِي، فلا يغترَّ بالدُّنيا بَعْدِي».... وكلامٌ كثيرٌ يُرِي فيهِ فَناء الدُّنيا، ويَمنعُ من الاغترارِ بها، والسُّكون إليها، لَم يذكرْه المسعوديّ.

---

(١) البرابي: جمع بربا، كلمة قبطية، وأظنه اسمًا لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع الحسر... قيل: وبيوت هذه البرابي في عدة مواضع من صعيد مصر في إخميم وأنصنا وغيرها باقية إلى الآن والصور الثانية في الحجارة موجودة... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الطلّسم: (في علم السحر): خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي..

(٣) أنبطوه: استخرجوه.

(٤) الطود: الجبل العظيم الذاهب صعدًا في الجو.. أو الهضبة، أو المشرف من الرمل كالهضبة.

(٥) الصغار: الرضى بالذل والضّعة.

قال: فنَزَل الإسكندرُ مفكِّرًا يتدبَّرُ هذا الكلامَ ويَعتبِر، ثم بعثَ بحَشْر الصُّنَّاع من البلاد، وخطّ الأساس، وجعل طُولَها وعَرْضها أميالاً، وأمر بنقلِ الرّخام والمَرْمَرِ[١] والأحجارِ من جزيرةِ صِقلِّيَة، وبلادِ إفريقيَة، وأقْرِيطيش[٢]، وأقاصي بحر الرُّوم، وجزيرة رودس وغيرها، فنُقِلَتْ في المَراكِب، وأمرَ الصُّنَّاع والفَعَلة أن يَدُوروا بما رَسَم لهمْ من أساسِ المدينة، وعَمِلَ على كلِّ قطعةٍ من الأرضِ خشبةً قائمةً، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حِبالاً مَنوطَةً بعضُها ببعضٍ، وأوصلَ جميعَ ذلك بعمودٍ من الرّخام كان أمامَ مَضربِهِ، وعلّقَ على العمودِ جَرَسًا عظيمًا مُصَوِّتًا، وأمرَ النّاسَ والقُوَّام على الصُّنَّاع والبَنَّائِينَ والفَعَلَة، أنَّهم إذا سمعوا صوتَ ذلك الجَرَسِ أن يضعُوا أساس المدينة دَفْعَةً واحدة من سائرِ أقطارها. وأحَبَّ الإسكندرُ أن يجعلَهُ في وقتٍ يختاره، وطالعِ سَعْدٍ يأخذه، فَخَفَقَ[٣] الإسكندرُ يومًا برأسه، فأخذته سِنةٌ في حالِ ارْتقابِهِ للوقتِ. فجاء غرابٌ فجلس على حبل الجَرَس الكبيرِ فحرّكه، وخرج صوتُ الجَرَس، وتحرَّكَت الحِبال، وخَفقَ ما عليْهَا من الأجراس الصِّغار، وكان قد عُمِلَ ذلك بحركاتٍ فَلْسَفِيّة.

فلمّا سمع الصُّنَّاعُ حسَّ أصواتِ الجَرَس وصنعوا الأساسَ دفعةً واحدةً وارتفعَ الضَّجيجُ بالتَّحميد والتَّقديس، فاستيقظَ الإسكندرُ من رَقْدتِهِ، وسألَ عن الخبرِ، فأُخبرِ به، فقال: أردْتُ أمرًا واللّهُ أرادَ غيرَهُ، ويأبى اللّهُ إلاّ ما يُريدُهُ، أردتَ طولَ بقائها، وأراد اللّهُ سرعَةَ فَنائها وخَرابها، وتَدَاوُلَ المُلوكِ إيّاها.

قال: ولمّا أُحْكِمَ بِناؤُها، وثُبِّت أساسُها، وجَنَّ اللَّيلُ عليهم، خرجَتْ دوابُّ من البَحرِ أتتْ على جميعِ ذلك البُنيان؛ فقال الإسكندر حين أصبحَ: هذا بَدْءُ الخَرابِ في عُمْرانها، وتحقُّق مراد البارىء في زوالِهَا. وتطيَّر من فِعْلِ الدَّوابِّ، وتكرَّرَ ذلِكَ من فعلِ الدَّوابِّ في كلِّ يوم، والإسكندر يوكِّل به من يحرسُهُ، وهو يُصْبِحُ خرابًا، فقَلِق لذلك، وراعَه ما رأى، ففكَّر ما الَّذي يَصْنع! وأيّ حِيلةٍ يَعمَلَ في رفع أذى الدَّوابِّ عن المدينة، فسنَحَتْ له الفكرةُ ليلةً، فلمّا أصبحَ أمر الصُّنَّاعَ أنْ يتَّخذوا تابوتًا من الخَشَب طولُه عشرة أذرُعٍ في عرض خمسةِ أشْبارٍ، وجعل فيه جاماتٍ[٤] من الزُّجاجِ،

---

(١) المرمر: الرخام.

(٢) إقريطيش: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من برّ إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء...

(٣) خفق: مال.

(٤) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة، جمع جامات.

وطُلِيَتْ بالقَارِ وغيرِهِ من الأطْلِيَة التي تَمنَعُ الماءَ أن يَدخل التّابوت، وجعلَ فيه مواضعَ للحِبالِ، ودخل فيه ومعه رجلان من كُتّابه ممّن له علم بإتقان التّصْوير، وأمر أنْ يستر عليه، وعليهم باب التّابُوتِ، ويُطلَى بتلك الأطْلِيةِ، وأمَرَ بمَرْكَبين، فعُلّق التّابُوتُ بينهما وجعل في أسفله من الخارج مثْقَلات الرّصاصِ والحديدِ، وشعدَّ حبالَه إلى المَرْكبيْن، وأخرَجَهما إلى اللُّجّةِ[١]، وسمّر بعضَها بخشبٍ إلى بعضٍ لئلاً يَفترِقا، وأرْخَوا التّابوتَ في البحْرِ، فاستقرّ بقرارِه، فنظر من تلك الجاماتِ إلى دوابِّ البحرِ وحَيواناتِه؛ فإذا بِصُورِ شياطينَ على أمثال النّاس، رؤوسُهم كرؤوس السّباع، وفي أيديهم الفُؤوس والمَقامع[٢] والمَناشير، يُحاكُون بذلك صُنّاعَ المدينةِ، فأثبتَ الإسكندر ومن معه تلك الصُّوَر، وأحكَمُوها في القراطيس على هيئاتها وأشكالِها وقُدودِها، ثم حَرّك الحِبَالَ، فرفعه مَنْ بالمركب.

فلمّا خرج أمرَ المصوِّرين بتصوير تلك الصُّوَر، وصُنعِها من النُّحَاسِ والحديد والحِجارة، فعُمِلتْ تماثِيلُها، ثم نصبها على الأعمدة بشاطىء البحر، وأمر بالبِناء فبُنِي، فلمّا جَنَّ اللّيْلُ، وظهرتْ تلك الدّوابُّ من البحر، نظَرتْ إلى أشْكَالِ صُوَرِها على الْعُمُدِ فرجعتْ إلى البحر ولم تَعُد، فتمَّ بناءُ الإسكندريّة، وشُيِّدتْ، فأمَرَ أنْ يُكْتَبَ على أبوابها: «هذه الإسكندرية، أردتُ أنْ أبنِيَهَا على الفَلاح والنَّجاح، واليُمْنِ والسُّرور، والثّبَاتِ على الدُّهورِ، فلم يُرِد البارِي ملِك السّمٰواتِ والأرض ومُفْني الأُمَم أن أبنِيَهَا كذلك، فبنيتُهَا وأحْكَمْتُهَا، وشيّدْتُ سُورَهَا، وآتاني اللّهُ من كُلِّ شيءٍ عِلْمًا وحكمًا، وسهّل لي وجوه الأسباب، فلم يتعذّر عليّ في العالَم شَيء مِمّا أردْتُهُ، ولا أُمتَنَع عليّ شيءٌ ممّا طلبتُهُ، لطفًا من اللّهِ عزَّ وجلّ وصُنْعًا لي، وصَلاحًا لعبادهِ من أهلِ عصري، والحمدُ لله ربّ العالمين، لا إله إلاّ الله هو ربُّ كلِّ شيءٍ. ورسم بعد هذه الكتابة كلَّ ما يَحدُثُ من العُمرانِ والخرابِ، وما يؤول أمرُها إليه إلى آخِر وقْتِ دُثورِ العالَم.

وكان بناؤُها طَبقاتٍ، وتحتَها قناطرُ مقنطَرةٌ تُدَوِّرها، ويسير تحتها الفارسُ، وبيَده رُمْحٌ لا يُطْبَقُ به حتّى يدورَ جميع أبراجِها وقناطِرِهَا، وعمل لتلك العقودِ والأبْرَاجِ مخاريقَ[٣] للضّياء، ومَنافِذَ للهواء.

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

(٢) المقمعة: خشبة أو حديدة معوجة الرأس يضرب بها رأس الفيل ونحوه ليذل ويهان.

(٣) مخاريق: ممرات للهواء.

قال: وكانت الإسكندريَّةُ تضِيءِ باللَّيل من غير مِصْباحٍ لشدَّة بياضِ الرّخامِ والمَرْمَرِ، وأسواقُهَا وأزِقَّتُهَا وشوارعُهَا مقنطرةٌ بها لئلاً يُصيبَ أهلَهَا المطرُ.

قال: وكان عليها سبعةُ أسوارٍ من أحجارٍ مختلفةِ الألوانِ، بينها خَنادقُ، بَيْنَ كلِّ خَنْدَقٍ وسُورٍ فَصْل[1].

قال: وربّما عُلِّقَ فيها شِقاقُ الحرير الأخضرَ لاَختطاف بياضِ السُّورِ أبصارَ النَّاسِ لشدّةِ بياضِه، فلمّا سكنَها أهلُها كانت آفات البحْرِ تخطفُ أهل المدينة باللَّيْلِ، فيصبِحُون وقد فُقِدَ منهم العددُ الكثيرُ، فأهمَّ ذلك الإسكندر، فاتَّخذ الطِّلَّسْماتِ على أعمِدةٍ هُنالِك، تدعَى المَسالّ[2]، وهي باقيةٌ إلى هذا العَصْر، فاَمتنع الدّوابُّ من التَّعرُّضِ إلى أهلِها بعد ذلك، فأَمِنوا.

وأمّا المَنارة فقد ذكرناها في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنِّ الأوّلِ في السفرِ الأوّل، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها ثانيًا.

* * *

نعودُ إلى أخبار فُتوحِ مصرَ إن شاء الله تعالى.

ذكر تحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط واختطاطه

قال ابنُ لَهيعة: إنَّ عمروَ بنَ العاصِ لمّا فَتَح الإسكندريّة ورأى بيوتَهَا وبِنَاءَهَا، هَمَّ أن يسكُنَهَا، وقال: مساكن قد لَقِيناها. فكتب إلى عمرَ يستأذِنه في ذلك، فسألَ عُمرُ الرسولَ: هل يَحولُ بيني وبين المسلمين ماءٌ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ إذا جرى النِّيلُ.

فكتب عُمَرُ إلى عَمرو: إني لا أُحِبّ أن ينزِلَ المسلمون مَنزِلاً يَحُول بيني وبينهم الماء في شتاءٍ ولا صيْفٍ. فتَحَوَّل عَمرو من الإسكندريّة إلى الفسطَاط؛ وإنما سمِّيت الفُسْطاط لأنّ عَمروَ بنَ العاص لمّا توجه إلى الإسكندرية، أمر بنَزْع فُسْطاطِهِ، فإذا فيه يمامٌ[3] قد فَرّخَ. فقال عمرو: لقد تَحرَّم منّا بمُتَحَرَّم، فأمر بِهِ فأُقِرَّ في

---

(١) الفصل: المسافة بين الشيئين.

(٢) المسالّ: واحدتها المسلّة: الإبرة الضخمة؛ وتطلق على حجر مستطيل على هيئة المسلّة، عليه كتابة أثرية للفراعنة.

(٣) اليمام: جنس طير من الفصيلة الحمامية ورتبة الحماميات: الحمام البري، واحدته يمامة.

موضعه، وأوصَى به صاحبَ القصْرِ. فلمّا قَفَلَ المسلمون من الإسكندريّة قالوا: أين ننزِلُ؟ قالوا: الفُسْطاط ـ يريدون فُسْطاط عَمرو، وكان مضروبًا في موضعِ دار عمرو ابنِ العاصِ الّتي عُمِرّتْ بعدُ ـ واختطَّ عمرٌو المسجدَ الجامعَ العمْرِي، وكان ما حَوْله حدائقُ وأعناب، فنصَبُوا الحبالَ حتى استقامتْ لهم، ووضعُوا أيديَهم، فلم يزلْ عمروٌ قائِمًا حتّى وضعوا القِبْلَةَ، واتّخذ عَمروٌ في المسجدِ مِنْبَرًا.

فكتبَ إليه عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه:

أمّا بعدُ، فإنَّهُ بلغني أنك اتَّخذْتَ منبرًا تَرْقَى به على رِقاب المسلمين، أو ما بِحسْبِك أن تقومَ قائمًا، والمسلمون تحتَ قدمَيْك! فعزمتُ عليك لَما كسرتَه.

قال: واختطّ الناسُ بعد ذلك. فكَتب عَمرو إلى عُمر: إنا قد اختططْنَا لك دارًا عند المسجد الجامع.

فكتب إليه عمر: أنّى لرجلٍ بالحجازِ تكون له دارٌ بِمصر! وأمره أن يَجعلَها سُوقًا للمسلمين، فَفَعَلَ، فكان يباع بها الرَّقيق.

قال: ولمّا اختطَّ المسلمون تَرَكوا بينهم وبين البحر والحِصْن فَضَاءً لتغريق دوابِّهم وإبادَتِها، فلَم يزَل كذلك حتّى وليَ معاوية بن أبي سفيان، فاشترى دُورَ قوم منهم، وأقْطعهم من ذلك الفَضَاءِ، فسمِّيت القطائعَ، وبناها أُولئك دُورًا لهم بدلَ دُورِهم.

قال: واختطّتْ هَمْدان ومَنْ والاها الجيزةُ، فكتب عمرو إلى عمرَ يعرِّفه أمرَ الخطط.

فكتب إليه عمرُ يقولُ له: كيف رضيتَ أنْ تُفَرِّقَ أصحابَك! ولم يكن ينبغي لك أنْ تَرْضَى لأحدٍ من أصحابِكَ، أنْ يكون بينك وبينه بحرٌ لا تَدري ما يَفْجَؤهم. فلعلَّك لا تقدِرُ على غياثِهِمْ حتّى ينزل بهم ما تَكرَهَ، فأجمعهم إليك، فإن أبَوْا عليك وأعجَبَهُمْ موضِعُهُمْ، فابنِ عليهم مِنْ فَيْءِ المسلمين حِصْنًا.

فعرضَ عمروٌ ذلك عليهم، فأبوْا، وأعجبهم موضِعُهمْ بالجزيرةِ، فبنى لهم عمرُو بن العاصِ الحصْنَ الّذي بالجيزة، في سنة إحدى وعشرين، وفرغَ مِنْ بنائه في سنةِ اثْنتين وعشرين. والله سبحانه وتعالى أعلمُ وحسبُنَا اللّهُ ونعم الوكيل.

ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط وإبطال عمرو تلك العادة

قال ٱبنُ لَهِيعة: لمّا فتح عمرُو بنُ العاصِ مصرَ أتاه أهلُها حين دخل بَؤُونَةَ[١] من أشهرُ القِبْط، فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلنا هذا سنَّةً لا يَجرِي إلاَّ بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لِثنتيْ عشرةَ ليلةً تَخلُو من هذا الشّهر، عَمَدْنا إلى جاريةٍ بكرٍ من أبويْها فأرضَيْناهما، وجَعَلْنا عليها من الحُلِيِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناهَا في هذا النّيل. فقال لهم عَمرو: إنَّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنّ الإسلام يهدمُ ما كان قَبلَه.

فأقاموا بَؤُونة وأبيب[٢] ومسرى[٣]، لا يجري كثيرًا ولا قليلاً؛ حتَّى هَمّوا بالجَلاء، فلمّا رأى عَمرو ذلك كتب إلى عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه: قد أصبتَ، إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه، وقد بعثْتُ إليك ببِطاقةٍ فَألقِها في داخلِ النّيلِ إذا أتاك كتابي. فلمّا قَدِمَ الكتابُ على عمرو فَتَحَ البِطاقَةِ؛ فإذا فيها: من عبدِ الله عمَر أمير المؤمنين، إلى نِيلِ أهل مصرَ:

أمّا بعدُ، فإن كنتَ تَجْري من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإن كان اللّهُ الواحدُ القهّارُ الّذِي يُجريكَ، فنسألُ اللّهَ الواحدَ القهارَ أن يُجرِيَكَ.

فألقَى عَمرو البِطاقَةَ في النّيلِ قبل يوم الصَّلِيبِ بيَوْم، وقد تَهيَّأ أهلُ مصرَ للجَلاَء، فأصبحُوا وقد أجرَى الله عزّ وجل النيلَ ستةَ عشر ذراعًا في ليلةٍ، وانقطعتْ تلك السُّنَّة السَّيِّئة عن أهلِ مِصرَ.

ذكر ما قرر في أمر الجزية من الخراج

قال: وكانت فَريضةُ مصرَ لحَفْر خُلْجَانها، وإقامة جسورِها، وعمارة قناطِرِها، وقطع جزائرِها مائةَ ألفٍ وعشرين ألفًا، معهم الطُّور والمَساحِي والأداة يَعتقبون[٤] ذلك لا يَدَعونه شِتاءً ولا صَيْفًا.

ثمّ كتبَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه إلى عَمرٍو أنْ يُختم على رقاب أهل الذِّمَّةِ بالرَّصاصِ، ويُظْهِرُوا مَناطِقَهُمْ، ويَجزُّوا نَواصِيَهم، ويُرْكَبوا على الأكُفِّ عرضًا،

---

(١)و(٢)و(٣) بؤونة وأبيب ومسرى، هي الشهور الثلاثة الأخيرة من التقويم القبطي الذي يتبع النظام المصري القديم... (الموسوعة العربية الميسرة ـ تقويم ـ).

(٤) اعتقب القوم عليه: تعاونوا. واعتقب القوم الشيء: تداولوه وتناوبوه.

وألاّ يَضرِبوا الجِزيةَ إلاّ على من جَرَت عليه المَواسِي، ولا يَضرِبوا على النساءِ، ولا على الوِلْدَانِ، ولا يَدعَوهم يتشبّهون بالمسلمين في لَبُوسِهم.

قال: ولمّا ٱستَوْسَقَ[١] لعَمرو بنِ العاصِ الأمرُ، وأقرَّ قِبْط مصرَ على جِباية الرُّوم، وكانت جبايتُهُمْ بالعَدْلِ: إذا عُمِرت القريةُ، وكَثُر أهلُهَا زِيدَ عليهم، فإذا قَلَّ أهلُهَا وخَرِبَتْ نُقِصوا. فكانوا يَجمَعون خرَاجَ كلِّ قريةٍ وما فيها من الأرضِ العامِرةِ. فيبدرون[٢] فيُخرِجون من الأرض فَدادِينَ لكَنائسهم وحَمّاماتهم، ثم يُخرَجُ منا عددٌ لِضيافةِ المسلمين، ونزولِ السُّلطانِ، فإذا فَرَغُوا، نظروا إلى ما في كُلِّ قريةٍ من الصُّنَّاع والأُجَراءِ فقسَّمُوا عليهم بقدر ٱحتمالِهم؛ فإن كانت فيها جالية قسَمُوا عليها بقدر ٱحتِمالها، وقلَّما كانت تكون إلا للرجل المُنْتَاب[٣] أو المتزوِّج، ثم يُنظرُ ما بقيَ من الخراجه فيقسِّمُونه بينهم على عدد الأرضِ، ثم يقسِّمون ذلك بين من يريد الزَّرع منهم على قَدْر طاقتِهم، فإنْ عجز أحدٌ وشكا ضَعفًا عن زرع أرضِهِ، وزَّعُوا ما عجز عَنْه على الاحتمالِ، وإنْ كان منهم من يريدُ الزِّيادة، أُعطِيَ ما عَجَزَ عنه أهلُ الضَّعفِ؛ فإنْ تَشاحُوا قَسَموا ذلك على عدّتهم، وكانت قسْمَتُهم على قَرارِيطَ، الدينار بِأربعة وعشرينَ قيراطًا، يقسِّمون هذه الأرض على ذلك.

قال: وكذلك رُوِي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قاْل: «إنَّكُمْ سَتفتَحون أرضًا يُذكَرُ فيها القِيراطُ، فاسْتَوْصُوا بأهلِها خَيْرًا».

قال: وجَعَلَ عَليهِمْ لكلِّ فدّانٍ نصف إردبٍّ[٤] قمحًا، ووَيْبَتَيْن من شعيرٍ إلاّ القُرْط فلمْ تكن عليه ضريبة، والوَيْبَة يومئذٍ ستَّة أمْدادٍ كأنَّه يريد بذلك البِدارَ.

قال: ورُوِي عن اللَّيْثِ بنِ سعد رحمه الله، أنّ عَمرو بنَ العاص جَبَى مصر اثني عشر ألف ألف دينار.

وقال غَيْرُ اللَّيْثِ: جباها المُقَوْقِسُ قَبْلَه بسَنة عشرين ألف ألف دينار. قال اللَّيْثُ: وجباها عبدُ الله بنُ سَعْدٍ حين استعْمَله عليها عثمانُ أربعةَ عشرَ ألف ألف دينار.

فقال عثمانُ لعمرو: يا أبا عبدِ اللّهِ: درَّتْ بَعدَكَ اللَّقحةُ[٥] بأكثر مِنْ دَرِّها الأوّل. فقال عمرو: أضْررتُم بوَلَدها.

---

(١) استوسق الأمر: انتظم.

(٢) يقال: بدر إلى الزرع: أي بكر به أول الزمان. وبدر فلانًا بالشيء: إذا عاجله.

(٣) المنتاب: الزائر.

(٤) الإردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعًا.

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

وكتبَ عمرُ إلى عُمرٍو أن يسأل المقوقِسَ عن مصرَ، من أيّ شيءٍ تأتي عِمارتُهَا وخرابُهَا؟ فسأله عَمرو، فقال: تأتي عِمارتُها وخَرابُها من وجوه خمسة، أن يُسْتَخْرج خراجها في إبَّانٍ واحدٍ، عند فَراغ أهلها مِن زَرْعهم، ويُرْفع خراجُهَا في إبّانٍ واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كُرومِهم، وتُحفرَ في كلّ سنة خُلُجُها، وتُسَدّ تُرَعُها وجسُورُها، ولا يُقْبَل محلُ أهلها، يريد البَغْي، فإن فُعِلَ هذا فيها عَمِرت، وإن فُعِلَ بخلاف هذا خربتْ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر المقطم(١)

رُوِي عن اللَّيْثِ بنِ سعْدٍ، قال: سأل المقوقِسُ عَمروَ بن العاص أن يَبِيعَه سفحَ المقطَّم بسبعين ألفَ دينار، فعَجِب عَمرو من ذلك. وقال أكتب في ذلك إلى أميرِ المؤمنين، فكَتَب بذلك إلى عمرَ، فكتب إليه، اسأله لِم أعطاكَ به ما أعْطاك وهي لا تُزْرَعُ ولا يُسْتَنْبَط بها ماء ولا يُنتفَع بها؛ فسأله، فقال: إنَّا لنجدُ صِفَتَهَا في الكتبِ، أنَّ فيها غِراسَ الجَنَّةِ. فكتبَ بذلك إلى عُمَرَ فكتب عمر إلى عمرو: أنَّا لا نعلم غراسَ الجنَّةِ إلاَّ للمؤمنين، فأقبرْ فيها من مات قِبلَكَ من المسلمين، ولا تبعْه بشيء، فكان أوّل رجلٍ دُفِن فيها رجلٌ من المعَافِرِ يقال له: عامر.

قالوا: والمقطَّم ما بين القُصَيْر إلى مَقْطِع الحجارةِ، وما بعد ذلك فمِنَ اليَحْمُوم.

وقد اختُلِفَ في القُصَير، فقال ابنُ لَهِيعة: ليس بقُصَير موسى النبيّ عليه السلام؛ ولكنّه موسى السّاحر.

وقال كعبُ الأحبارِ: هو قُصَير عَزيزِ مصرَ، كان إذا جرى النيلُ يترفَّع فيه. ويقال: بل كان موقدًا يُوقَدُ فيه لفرعون إذا هو رَكب مِنْ مَنْف(٢) إلى عيْنِ شمسٍ، وكان على المقطَّم مَوقِدٌ آخر؛ فإذا رأوا النارَ عَلِموا برُكوبه، فأعَدُّوا له ما يُريدُ، وكذلك إذا انصرَفَ.

والله تعالى أعلَم، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المقطم: هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى... (معجم البلدان).

(٢) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر.

ذكر خبر خليج أمير المؤمنين

وهذا الخليج كانت السُّفُن تسير فيه مِنْ مصرَ إلى بحرِ القُلْزُم[١]، تحملُ الطَّعامَ والأصنافَ إلى مكَّةَ والمدينة.

وكان من خبره على ما رُوِيَ عن اللَّيْثِ بن سعدٍ أنَّ النَّاسَ بالمدينة أصابَهم جَهْدٌ شديدُ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّاب في عامِ الرَّمَادَةِ، فكَتَبَ إلى عَمرو:

من عبدِ الله أميرِ المؤمنين، إلى العاصِي ابنِ العاص.

سلامٌ عليك، أمّا بعد؛ فلَعَمري يا عَمرو ما تُبالي إذا شبعتَ أنت ومَنْ معك أنْ أهلِكَ أنا ومَنْ معي، فيا غَوْثاه، ثم يا غَوْثاه! يردِّدُ قولَه.

فكتَبَ إليه عمرو:

لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين، من عَمروِ بنِ العاصِ.

أمّا بعد. فيا لبَّيْكَ ثمّ يا لبَّيْك، وقد بعثْتُ إليك بِعَيرٍ أوّلُها عندَك وآخرُها عندي، والسّلامُ عليك ورحمةُ اللّهِ.

وبعثَ إليه بعيرٍ عظيمةٍ، فكان أوّلُها بالمدينةِ، وآخرُها بمِصر يَتْبعُ بعضُها بعضًا، فلمّا قَدِمَتْ على عُمَر وَسَّعَ بها على الناسِ، ودفع إلى أهل كُلِّ بيتٍ بالمدينةِ وما حولَها بَعيرًا بما عليه من الطَّعامِ. وبعثَ عبدَ الرحمٰن بنَ عَوْف والزُّبيرَ بنَ العوّام وسعدَ بنَ أبي وَقَّاص أن يقسِّمُوها على النَّاسِ، ويَدْفَعُوا إلى أهلِ كُلِّ بيتٍ بعيرًا بما عليه، وأنْ يَأكلوا الطَّعَامَ، ويَنحَرُوا البعيرَ فيأكلوا لحمَه، ويأتَدِموا شَحمَه، ويَحْتَذُوا جِلدَهُ، وينتَفِعوا بالوِعاء الذي كان فيه الطَّعام لِمَا أرادُوا. فوسّع الله بذلك على النَّاس، فلمّا رأى ذلك عمرُ حَمِدَ الله، وكتَب إلى عَمرو أن يَقْدَمَ عليه، هو وجماعة أهل مصرَ، فقَدِمُوا عليه.

فقال عُمَر: يا عَمرو، إنّ اللّهَ تعالى قد فَتَحَ على المسلمين مصرَ، وهي كثيرة الخيرِ والطَّعام، وقد أُلْقِيَ في رَوْعِي لما أحببتُ من الرِّفقِ بأهلِ الحرمَيْن والتَّوسِعةِ عليهم، أن أَحْفُرَ خليجًا من نيلِ مصرَ حتَّى يَسيلَ في البحر؛ فهو أسهَل لما نريد مِنْ حَمْلِ الطَّعامِ إلى المدينة ومكَّة، فإنّ حَمْلَه على الظَّهر[٢] يتعذَّر، ولا نَبلغ منه ما

---

(١) بحر القلزم: يعرف الآن بالبحر الأحمر. قيل: سمي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه من ركبه وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله...

(٢) الظهر: الدابة التي تحمل الأثقال، أو يركب عليها.

نريد. فأنطلِق أنتَ وأصحابُك، فتَشاوَروا في ذلك حتَّى يَعتدلَ فيه رأيُكم، فأنطلق عَمرو فأخبرَ مَنْ كان معه من أهلِ مصر، فَثَقُل ذلك عليهم، وقالوا: نتخوّفُ أنْ يدخُلَ في هذا ضررٌ على مصر، فنَرَى أن تُعظِّم ذلك على أميرِ المؤمنين وتَقولَ له: إنَّ هذا الأمرَ لا يعتدلُ ولا يكونُ، ولا نجدُ إليه سبيلاً.

فرجع عمرو بذلك إلى عُمَر، فلمّا رآه ضَحِك وقال: والَّذي نَفْسِي بيدِه لكأنّي أنظرُ إليكَ يا عَمرو، وإلى أصحابِك حين أخبرتَهُمْ بما أمرتُ به، فثقُلَ ذلك عليهم، وقالوا لك كذا وكذا. لِلَّذي كان منهم. فقال: صدقتَ والله يا أميرَ المؤمنين، لقد كان الأمرُ على ما ذكرت.

فقال عمرُ: يا عَمرو، انطلقْ بعزيمةٍ منِّي حتى تجدَّ في ذلك، ولا يأْتي عليكَ الْحَوْلُ حتَّى تفرُغَ منه إنْ شاءَ الله تعالى. فانصرفَ عَمرو، ثمَّ احتَفَرَ الخليجَ الَّذِي كان في حاشيةِ الفُسطاط الَّذِي يُقَالُ له: خليجُ أميرِ المؤمنين، فساقَه من النِّيل إلى القُلْزُم، فلم يأْتِ الحولُ حتَّى جرَتْ فيه السُّفُنُ، فحَمَلَ فيه ما أراد من الطَّعام إلى المدينة ومكَّة، فنَفَعَ اللّهُ بذلك أهلَ الحرميْن، وسُمِّي خليجَ أمير المؤمنين، ثمَّ لم يزلْ يُحمَلُ فيه الطَّعامُ إلى زَمَنِ عمرَ بنِ عبد العزيز، ثمَّ ضَيّعه الوُلاةُ بعد ذلك فترِك وغَلَب عليه الرَّملُ، فانقطع، فصارَ مُنتهاه إلى ذَنَبِ التِّمْسَاحِ من ناحيةِ طَحَا القُلْزُم.

قال: ويقالُ: إنَّ عمروَ بنَ العاص قال لعمرَ بنِ الخَطَّاب. لمّا قَدِمَ عليه: يا أميرَ المؤمنين، قد عرفتَ أنَّه كانت تأْتينا سفنٌ فيها تجارٌ من أهلِ مصرَ قبلَ الإسلام، فلمّا فتحْنا مصرَ انقَطَع ذلك الخليج، وٱسْتَدّ، وتركتْه التُّجارُ؛ فإن شئتَ أن تَحفِرَهُ فنُنشِيءَ[1] به سُفُنًا يُحمَل فيها الطعامُ إلى الحِجاز فعلتُه. فقال له عُمَر: نعم، فأفعل.

فلمّا ذكرَ عَمرو ذلك لأصحابه كرهوه على ما تَقدَّمَ، فعزَم عمرُ على عَمرِو أن يَحْفِره فَحَفَره.

ويقال: إنّ عمر بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه لـمّا كَتَب إلى عَمرو بما كَتَب واستَغاثَه، كَتَب عمرو إليه:

أمّا بعد، فيا لبَّيك ثمّ يا لبَّيك، أتتْك عِيرٌ أوّلها عندَك وآخرها عندي، مع أنّي أرجو أن أجِدَ السَّبيلَ إلى أن أحْمِلَ إليك في البحْرِ. ثم إنّ عمرًا نَدِم على كتابه في الحَمْل إلى المدينة، وقال: إنْ أمكنتُ عمرَ من هذا خرَّب مِصرَ ونقلَها إلى المدينة، فكتب إليه: إنّي نظرتُ في أمرِ البَحْر، فإذا هو عَسِرٌ لا يُلْتَأم ولا يُستطاع. فكتب إليه

---

(١) ننشيء: نحدث ونوجد.

عُمَرُ: إلى العاصي ابنِ العاص: قد بَلَغَني كتابُكَ، تعتلُّ في الَّذي كنتَ كتبْتَ إليَّ به من أمرِ البحرِ، وأَيْمُ الله لتَفعَلَنَّ أو لأقلَعنَّك بأذُنك ولأبْعَثَنَّ من يَفعَل ذلك.

فعرفَ عَمرو أنه الجدّ من عُمَر، ففعل، فبعث إليه عُمَرُ ألا تدع بمصرَ شيئًا من طعامِهَا وكِسْوتِها وبَصلِهَا وعَدَسِها وخَلِّها إلاَّ بَعَثْتَ إلينا منه.

ويقال: إنَّما دَلّ عَمروَ بنَ العاصِ على الخليج رجلٌ من قبطِ مصر، أتاه فقال له: أرأيْتَ إنْ دللتُكَ على مكانٍ تجري فيه السُّفُنُ حتى تنتهيَ إلى المدينة ومكَّةَ، أتَضَعُ عنِّي الْجِزيَةَ. وعن أهلِ بيتي؟ قال: نَعَم، وكَتَبَ إلى عمر، فقال: افعلْ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الخبر عن فتح الفيوم[1]

روي عن سَعيد بن عُفَيْرٍ وغيرِه، قالوا: لما تمّ الفتحُ للمسلمين، بعثَ عمرُو بنُ العاص جَرائدَ الخيْلِ إلى القُرَى الَّتي حَوْلَها، فأقامت بالفيّوم سنةً لم يَعلَم المسلمون بمكانها؛ حتى أتاهم رجلٌ فذَكَرَها لهم، فبَعث عَمرٌو معه ربيعةَ بنَ حُبَيش بن عُرفطة الصَّدفيّ، فلمّا سلكوا في المجابة لَم يَرَوْا شيئًا، فهَمُّوا بالانصراف فقال: لا تَعجَلوا، سِيروا، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى طَلَع لهم سوادُ الفيُّومِ، فَهَجموا عليها، فلَم يكن عند أهلِها قِتال، وألْقَوْا بأيْدِيهِم.

قال: ويقالُ: بل خَرَجَ مالكُ بن ناعمة الصّدفي ـ وهو صاحبُ الفَرَس الأشقَر على فرسِه ـ ينفُضُ[2] المابة، ولا عِلْمَ له بما خلفها من الفيّوم، فلمّا رأى سوادَها رَجَع إلى عَمرو، فأخبَرَه بذلك.

ويقال: بل بعثَ عمرُو بنُ العاصِ قيسَ بنَ الحارثِ إلى الصَّعيد، فسار حتَّى أتى القَيْسَ، فنَزَلَ بها، وبه سُمِّيتْ، فذكر ذلك لعمرو.

فقال ربيعةُ بنُ حُبيش: كُفِيت، فركِبَ فرسَه، فأجاز عليه البحرَ، وكانت أُنثى، فأتاه بالْخَبَرِ، ويقال: إنَّه أجازَ من ناحيةِ الشَّرقيّةِ حتى انْتَهَى إلى الفَيُّوم. والله تعالى أعلَم، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل.

---

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين وهي في منخفض الأرض كالدارة...

(٢) ينفض المكان: ينظر جميع ما فيه حتى يعرفه.

ذكر فتح زويلة[١] وطرابلس الغرب وبرقة[٢] وحصن سبْرت

كان فتحَ زَوِيلةَ في سنة إحدى وعشرين؛ وذلك أن عمروَ بنَ العاصِ بعثَ عُقبةَ بنَ نافعِ الفِهْريَّ إليها، فافتَتَحَها صلْحًا، وما بين برقةَ وزويلة سلْمًا للمسلمين. وقيل: فَتَحَها في سنة عشرين، والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمدُ للّهِ وحدَه.

ثم سار عمرُو بنُ العاصِ من مِصْرَ في سنة اثنتين وعشرين إلى بَرقة، فصالَح أهلَها على الْجِزية، وأن يبيعُوا مِنْ أبنائهم من أرادوا بَيْعَه، فلمّا فرغ من بَرْقة سَار إلى طَرَابُلس الغَرْب، فحاصَرَها شَهْرًا، فلم يظفَرْ بها، وكان قد نزل شرقيَّها، فخرج رجلٌ من بني مُدْلِج يتصيّد في سبعة نفرٍ فسَلَكوا غربَ المدينة، فلمّا رجعوا ٱشتدّ عليهم الحرُّ، فأخذوا على جانب البحرِ ولم يكن السّورُ متَّصلاً بالبحر، وكانت سُفُن الرُّوم في مَرساها تُقَابِلُ بيوتَهم، فَرَأى المُدْلجيُّ وأصحابُهُ مسلَكًا في البحر إلى البلدِ، فدخَلوا منه، وكبَّروا، فَلَجأ الرُّومُ إلى سُفُنِهم؛ لأنَّهم ظنُّوا أنّ المسلمين قد دخلوا المدينةَ، فنظر عَمرو ومن معه، فرأى السُّيوفَ في المدينة، وسَمِعوا الصِّياح، فأقبلَ الجشُ حتَّى دخل المدينة، فلَمْ يفلتْ من الروم إلاَّ بما خفَّ حملُهُ في مراكبهم.

وكان أهلُ حصنِ سبْرت قد اطْمَأنُّوا، فجهَّزَ إليهم جيْشًا كثيفًا، فصبّحوها وقد فَتَح أهلها الباب، وسرَّحوا مَواشِيَهم فدخلها المسلمون مغالبةً وغنموا ما في الحصن، وعادوا إلى عَمْرو.

ثم سار عمرو إلى برْقة وبها لُواتة، وهم من البَرْبَر، فصالَحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينارٍ يؤدُّونها جِزيةً، وشرطوا أن يَبِيعوا مَنْ أرادُوا بَيْعَه من أولادهم في جِزْيَتِهِمْ.

قال المؤرِّخ: وكان سببُ مَسيرِ البَرْبر إليها وإلى غيرِها من بلاد الغرب؛ أنَّهم كانوا بنواحِي فِلَسْطِين، فلما قتِلَ مَلِكهم جالوت، ساروا نحوَ الغرب، وتفرقوا، فسارت زناتَة ومَغيلة، وهما قبيلتان من البَرْبرِ، فسكنوا الجبال، وسكنتْ لُواتةُ برقةَ،

(١) زويلة: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان، وفيها جامع وحمام وأسواق تجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم... وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن..

وتُعْرَفُ قديمًا بأنطابُلس ـ وقيل فيها: أَنْطَابُلس ـ وانتَشَرُوا فيها حتى بلغوا السُّوس، ونزلوا ونزلتْ هَوَّارةُ مدينةَ لَبْدة، ونزلتْ نَفُوسة مدينة سَبَرْت، وجلا مَنْ كان بها من الرُّوم من أجْل ذلك كذلك، وأقام الأفارقُ وهم خدَم الرُّومِ على صلحٍ يؤدّونَه لمن غَلَبَ على بلادهم.

* * *

انتهتْ الفُتوحاتُ في خلافةِ عمرَ رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا اللّهُ ونعم الوكيل.

ذكر الغزوات إلى أرض الروم

كان أوّلَ منْ غَزَا أرضَ الروم من المسلمين أبو بحريّة عبدُ الله بنُ قيس في سنة عشرين، وقيل: أوّلُ من دَخَلها ميسرةُ بنُ مسروقٍ الْعَبْسي، فسَلِم وغَنِم، ثمّ غزاها مُعاويةِ بنُ أبي سُفيانَ في سنةِ ٱثنتين وعشرين، ودخلها في عشرةِ آلافِ فارسٍ من المسلمين.

وفي سنة ثلاث وعشرين غزا معاويةُ الصائفة، ومعه عُبَادةُ بنُ الصّامتِ وأبو أيّوب الأنْصاري وأبو ذَرّ وشدَّادُ بنُ أوس.

وفيها فَتَح معاويةُ رضي الله عنه عَسْقَلاَنَ على صُلْحٍ.

ذكر ما اتفق في خلافة عمر بن الخطاب غير الفتوحات والغزوات

سنة ثلاث عشر

في هذه السّنة، تُوفيَ الأرقمُ بنُ أبي الأرقَمِ يومَ مات أبو بكر الصِّديق رضي الله عنهما، وهو الَّذي كان رسولُ الله ﷺ مستخفيًا بداره بمكَّة أوّلَ ما أُرسِل ﷺ.

* * *

سنة أربع عشرة

في هذه السنة أمَرَ عُمر رضي الله عنه بالقيام في شهر رمضانَ في المساجدِ، وجمَعَهم على أُبيّ بنِ كعبٍ، وكتَبَ إلى الأمصارِ بذلك.

وفيها، ضرب عمرُ رضي الله عنه ٱبنه عبدَ الله وأصحابه في شرابٍ[١] شَرِبوه، وضربَ أيضًا أبا مِحْجَن الثَّقفيّ في الشَّراب.

وفيها حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاسِ.

وكان العمّال على مَكّة: عَتَّابُ بنُ أَسِيد في قولٍ، وعلى اليَمَن يَعلَى بن مُنْيَةَ، وعلى الكُوفةِ سعد بن أبي وَقَّاص، وعلى الشام أبو عُبيدة بن الجرَّاح، وعلى البحر عثمانُ بنُ أبي العاص. وقيل: العلاءُ بنُ الحَضْرميّ، وعلى عمارةَ حُذَيْفَةُ بنُ مِحْصَن.

وفيها مات أبو قحافة، والد أبو بكرِ الصِّديق رضي الله عنهما، ومات سعدُ بنُ عُبادةَ الأنصاريّ، وكان أسنَّ مَنْ أسلمَ من بني هاشمٍ رضي الله عنه.

* * *

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

سنة خمس عشرة

وفي هذه السنة فَرَض عمرُ رضي الله عنه للمسلمين الفُرُوضَ، ودوَّن الدّواوِين، وأعطى العطايا على السَّابقة في الإسلام لا عَلَى البيوتِ.

قال: ولمّا فرض العطايا أعطَى صفوان بنَ أُميّةَ والحارثَ بنَ هشام وسُهَيْل بنَ عَمرو في أهل الفتحِ أقلَّ ممّا أعطى مَنْ قبلهم، فٱمتَنَعوا من أخذِه، وقالوا: لا نَعترِفُ أن يكونَ أحدٌ أكرمَ منّا، فقال: إنّي إنّما أعطيتُهمْ على السَّابقة في الإسلام لا في الأحساب، فقالوا: نَعَم إذْن، وأخَذُوا.

وخرج الحارثُ وسُهيل بأهليهما نحوَ الشّام، فلم يَزَالاَ مجاهدَيْن حتَّى أُصِيبا في بعض تلك الدُّروبِ. وقيل: ماتَا في طاعون عَمْواس.

وقيل: لمّا أراد عمرُ وَضْع الدِّيوان، قال له عليُّ بنُ أبي طالبٍ، كرّمَ الله وجْهَهُ وعبدُ الرَّحمٰن بنُ عوفٍ رضي الله تعالى عنهم: ابْدَأْ بنفسِك. فقال: لا، بل أبدأُ بعَمِّ رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمّ الأقْرَب فالأقرب، ففَرَض للعبّاسِ، وبَدَأ به، وجعَلَ له خمسةً وعشرين ألفًا، وقيل: فرض له اثني عشر ألفًا ثم فرض لأهل بدْرٍ لكلٍّ منهم خمسة آلافٍ، وألحق بهم أربعةً لم يكونوا منهم، وهم: الحَسَن والْحُسَيْن وأبو ذَرّ وسَلْمَان رضي الله تعالى عنهم.

(١) الشراب: ما شرب من أي نوع والمراد هنا الخمر.

وفَرَض لمَن بعد بدر إلى الحُدَيْبِيَة لكلٍّ منهم أربعة آلافٍ، وفرض لمن بعد الحُدَيْبِيَة إلى قِتال الرِّدَّة، لكل منهم ثلاثة آلافٍ، كان منهم من شهد الفَتْح.

وفرض لأهل الأيّام قبل القادِسيَّةِ، وأهلِ الشَّام، في ألفين ألْفين.

وفَرَض لأهل البلاء منهم في ألفين وخَمْسَمائة، فقيل له: لو ألْحقْتَ أهلَ القادسيّة بأهل الأيام! قال: لم أكن لأُلحقَهُم بدرجةٍ من لم يُدْرِكوا. وقيل لَهُ: قد سوَّيْتَ من بَعُدتْ دارُهُ بمَنْ قرُبَتْ داره، وقاتَلَهم عن فنائه، فقال: مَنْ قَرُبَتْ داره أحقُّ بالزِّيادةِ، لأنَّهم كانوا رِدْءًا للحُتوف، وشَحَى[1] للعدوّ، فهلاَّ قال المهاجرون مِثْلَ قولِكُمْ حين سَوَّيْنَا بين السابقين منهم والأنصار! فقد كانتْ نصرةُ الأنصارِ بفنائِهم، وهاجرَ إليهم المهاجرون من بعدُ. والله أعلمُ.

وفَرَضَ لمَنْ بعْدَ القادِسيّةِ واليَرْمُوك ألفًا ألفًا.

وفرض للرَّوَادفِ الَّتي في خمسمائةٍ خمسمائة، وللرَّوادف الثلث في ثلاثمائة، سَوَّى كلَّ طبقة في العطاءِ، قويَّهم وضعيفَهم، عربيَّهم وعجميَّهم. وفرضَ للرّوادف الربع فيها في مائتين وخمسين.

وفرض لمَنْ بعدَهم وهم أهلُ هَجَر والعِباد على مائتين.

وأعْطَى نساءَ رسولِ الله ﷺ رضي الله عنهن عشرة آلافٍ عشرة آلافٍ إلاَّ مَنْ جرى عليها المِلْك. فقال نسوةُ رسولِ اللّهِ ﷺ: ما كان رسولُ الله ﷺ يُفَضِّلُنَا عليهنّ في القِسمةِ، فسوِّ بيننا؛ فَفَعَلَ، وفضَّل عائشةَ رضي الله عنها بألفيْنِ لمحبّة رسولِ الله ﷺ إيّاهَا، فلم تأْخُذْهَا.

وجعل لنساءِ أهلِ بدرٍ خمسمائة خمسمائة، ونساء مَنْ بعدَهم إلى الحُدَيْبِيَة أربعمائة أربعمائة، ونساءِ مَنْ بَعدَهم إلى الأيّام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسيّة مائتين مائتين، ثم سَوَّى بَيْنَ النِّساء بعد ذلك.

وجَعَل الصبيان سواءً على مائةٍ مائةٍ، ثم جمع ستِّين مِسْكِينًا وأطعمَهم الخبز، فأحصَوْا ما أكلوا، فوجُدوهُ يخرج من جَرِيبَيْن، ففرَض لكلّ إنسانٍ منهم ولعِياله جَرِيبَيْنِ في الشَّهرِ.

وقال عمرُ رضي الله عنه قبل موتِهِ: لقد هَمَمْتُ أنْ أجعل العطاءَ أربعة آلافٍ أربعَة آلافٍ، ألْفٌ يجعَلها الرجلُ في أهلهِ، وألف يَتزوّدُها معه، وألف يتجهَّزُ بها، وألفٌ يَرْتفِقُ[2] بها، فمات قبل أنْ يَفْعَل.

---

(١) شحى: أوسع في الخطو وأسرع. (٢) ارتفق به: انتفع واستعان.

وقال له رجل عند فرْضِ العطاء: يا أميرَ المؤمنين، لو كُنْت تركْتَ في بيوتِ الأموال عدَّةً لكَوْنٍ إنْ كان فقال: كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فِيك، وَقانِي اللّهُ شرَّها، وهي فتنةٌ لمَنْ بعدي، بل أُعِدَّ لهم ما أعدَّ الله ورسوله، طاعة الله ورسوله، هما عُدّتنا الّتي بها أفْضَيْنَا إلى ما تَرَوْنَ؛ فإذا كان المال ثَمَنَ دِينِ أحدِكُم هَلَكْتم.

وقال عمرُ رضي الله عنه للمسلمين: إنّي كنتُ أمرأً تاجرًا يُغْنِي الله عِيالي بتجارتي، وقد شغلْتُموني بأمرِكم هذا، فما تَرَونَ أنّه يَحِلّ لي في هذا المال؟ فأكثرَ القومُ، وعليٌّ رضي الله عنه ساكِتٌ، فقال: ما تقولُ يا عليّ؟ فقال: ما أصلَحَك وأصلَحَ عِيالَك بالمعروف، ليس لك غيرُه. فقال القومُ: القولُ ما قال عليّ. فأخَذَ قُوتَهُ، واشتدتْ حاجةُ عُمرَ رضي الله عنه. فاجتمعَ نفر من الصَّحابةِ منهم عثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزبير، فقالوا: لو قلْنَا لعمرَ في زيادةِ يزيدها إيّاه في رِزْقه؟ فقال عثمانُ رضي الله عنه: هلمُّوا فلنستبرىء ما عنده مِن وَراء وراء. فأتَوْا حفصةَ ابنته فأعلَموها الحالَ، واستَكْتَموها ألاّ تُخبِر بهِمْ عُمَر. فلقيتْ عمرَ في ذلك، فغَضِب وقال: مَنْ هؤلاء لأسُوْتهم؟ قالت: لا سبيلَ إلى عِلْمهم. قال: أنت بيني وبينهم، ما أفضلُ ما اقتَنَى رسولُ اللّهِ ﷺ في بَيتِكِ من الْملبَس؟ قالت: ثوبيْن ممشَّقَين[(١)] كان يَلبَسهما للوَفْد والجُمع، قال: فأيّ الطعام نالَه عندَك أرفَع؟ قالت: خَبَزنا خُبْز شَعيرٍ، فَصَبَبْنَا عليه وهو حارٌّ أسفل عُكّة[(٢)] لنا، فجعلتها دَسِمةً حُلْوة، فأكل منها. فقال: أيّ بسط كان يُبسَطُ عندَكِ كان أوطَأ؟ قالت: كساءٌ ثخينٌ كنّا نرقَعُهُ برُقْعةٍ في الصَّيفِ فإذا كان الشتاء بسَطْنَا نصفَهُ، وَتَدَثَّرْنا[(٣)] بنصفِه، قال: يا حفصةُ، فأبلغيهم أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قَدَّر فوضعَ الفضولَ مواضعَها، وتَبلَّغ[(٤)] بالتَّزجِية، فوالله لأضعنّ الفُضولُ مواضعَها، ولأتبلَّغنَّ بالتزجية؛ وإنّما مَثَلي ومثلُ صاحِبيّ كثلاثةٍ سلكُوا طريقًا، فمضى الأولُ وقد تزوّدَ فَبَلَغ المنزل، وتَبِعه الآخرُ فسَلَكَ طريقَه فأفضَى إليه، ثم اتّبعه الثالث؛ فإن لزِمَ طريقَهُمَا ورَضِيَ بزادِهما لحق بهما، وإن سَلَكَ غيرَ طريقِهما لم يُجَامِعْهما.

* * *

(١) الثوب الممشق: الذي فيه أثر يشبه أثر الاحتراق. أو الثوب الممزق.

(٢) العكّة: إناء يوضع فيه السمن.

(٣) تدثر: لبس الدثار، أو تغطى به؛ والدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار، أو الغطاء.

(٤) تبلّغ بكذا: اكتفى به. وتبلغ الشيء: تكلف البلوغ إليه حتى بلغه.

سنة ست عشرة

وفي هذه السّنة حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاس، وفيها غَرَّبَ[١] عمر رضي الله عنه أبا مِحْجن الثَّقَفِيَّ إلى ناصع[٢].

وفيها حَمَى الرَّبذَةَ بخيل المسلمين.

وفيها ماتت ماريةُ أُمُّ إبراهيمَ ابنِ رسول الله ﷺ، وصلَّى عليها عُمَر، ودَفَنَهَا بالبَقيعِ؛ وذلك في المحرّم.

وفيها كتب عمرُ التَّاريخَ بمشورة عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

وفيها حجَّ عمرُ بالنَّاس، واستخلفَ على المدينةِ زيدَ بنَ ثابت. والله تعالى أعلمُ بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

ذكر بناء الكوفة والبصرة

سنة سبع عشرة

في هذه السنةِ اختُطَّت الكوفةُ والبصرةُ، وتحوّل سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ من المَدَائن إلى الكوفةِ، وكان سببُ ذلك أنّ سعدًا أرسَل إلى عمر بما فتح الله عليه، فلمّا رأى الوفْدَ سألهم عن تغيُّرِ ألْوانهم وحالِهِمْ؛ فقالوا: وُخومَةُ[٣] البِلاد غيّرتْنا، فأمَرَهم أنْ يرتادوا مَنزِلاً يَنزِله النَّاسُ.

وقيل: بل كتَبَ حُذيفةُ إلى عُمر: إنَّ العربَ قد نزَفتْ[٤] بُطونُها، وخَفَّت أعضاؤُها، وتغيّرتْ ألوانُها. وكان مع سعدٍ، فكتب عمر إلى سَعْدٍ: أخبرني ما الَّذِي غَيّر ألوانَ العَرَبِ ولحُومَهم؟ فكتب إليه: إنَّ الَّذِي غيَّرهم وُخومةُ البلادِ، وأنّ العربَ لا يوافِقُهَا إلاَّ ما وافق إبِلَها من البُلْدان. فكتب إليه، أن اْبعثْ سَلْمانَ وحذيفَةَ فلْيرتَادَا منزلاً برِّيًا بَحْريًا، ليس بيني وبينكم بحر ولا جِسر، فأرسَلَهما سعد.

---

(١) غرّب: أبعد.

(٢) ناصع: والناصع من كل لون: ما خَلص ووضح، وأكثر ما يستعمل في البياض. والمراد هنا موضع من بلاد الحبشة.

(٣) وخومة البلاد: أي أنها غير ملائمة لأن تسكن.

(٤) نزفت البطن: سال منها الدم من جرع أو علة.

فخرج سَلمانُ حتَّى أتَى الأنبارَ، فسار في غربيِّ الفُراتِ لا يَرضَى شيئًا حتَّى أتَى الكوفَة، وخرج حذيفةُ في شرقيِّ الفُراتِ لا يَرضَى شيئًا حتى أتى الكُوفة ـ وكلّ رملة وحَصْباءَ مختلِطيْن فهو كُوفة ـ فأَتَيَا عليها وفيها دِيرَاتٌ ثلاثة: دَيْرُ حرقة، ودَيْر أمِّ عَمرو، ودَيْر سِلْسِلة وخصاصٌ[1] خِلال ذلك، فأعجبتْهُمَا البقعةُ، فنَزَلاَ وصَلَّيا، ودَعَوا الله تعالى أنْ يَجعلَها منزلاً مُبَاركًا. فلمّا رَجَعا إلى سعدٍ بالخَبَر، وقدم كتابُ عمَر أيضًا عليه، كتب سعدٌ إلى القَعْقَاعِ بن عمرٍو وعبدِ اللّهِ بن المعْتمِرِ، أن يستخلِفا على جندهما ويَحضُرَا عنْده، ففعَلاَ. فأرتحل سعدٌ من المَدائن حتَّى نَزل الكوفة في المحرّم سنة سبع عشرةَ، فلمّا نزلها سعدٌ كتبَ إلى عمرَ: إنِّي قد نزلْتُ بكُوفة، منزلاً بين الحِيرة والفُرات، بَرِّيًا بحريًا، يُنبتُ الحَلْفاء[2] والنَّصِيّ[3]، وخيّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبَهُ المقامُ بالمدائنِ تركتُه فيها كالمَسْلحة. ولمّا استقرُّوا بها عرفوا أنفسَهم، ورجع إليهم ما كانُوا فَقَدوا مِنْ قُوَّتِهِمْ. واستأذَن أهلُ الكوفةِ في بُنْيَانِ القَصَبِ، واستأْذَنَ فيه أهلُ البَصْرةِ، فأستقرَّ منزلُهم فيها في الشهر الَّذي نَزَل أهلُ الكوفة بعد ثلاثِ نَزَلات فيها قَبْلَها. فكتبَ إليهم عمر: إنَّ العسكرةَ أشدُّ لَحَرْبكم، وأذكَر لَكم، وما أُحِبّ أنْ أخالِفَكُمْ، فأبتنى أهل الْمِصرين بالقَصَبِ.

ثمَّ إنَّ الحريقَ وَقَعَ بالكوفةِ والبصرةِ، وكانتْ الكوفةُ أشدَّ حريقًا، وكان الحريقُ في شوَّالٍ. فبعثَ سعْدٌ نفرًا منهم إلى عمر يستأْذِنُهُ في البنيان باللَّبِن، فقدمُوا عليه بخبرِ الحريق، واستأْذنوه، فقال: افعَلوا، ولا يزيدُ بناءُ أحدِكم عن ثلاثةِ أبياتٍ، ولا تَطَاوَلوا بالبُنْيان، وألزَمُوا السُّنَّة تَلزَمكم الدّولة.

فرجع القومُ إلى الكوفةِ بذلك، وكتب عمرُ إلى أهلِ البصْرَةِ بمثلِ ذلك، وكان على تَنزيلِ[4] الكوفةِ أبو هياج بن مالكٍ، وعلى تنزيلِ البَصْرةِ عاصم بن الدّلف أبو الجرْباء، وقَدّر المناهجَ[5] أربعين ذراعًا، وما بَيْنَ ذلك عشرين ذراعًا، والأَزِقَّة سبعةَ أذرُع، والقطائعَ سبعين ذراعًا. وأوّلُ شيءٍ خُطَّ فيهما مَسْجِداهما، وقام في وسطهما رجلٌ شديدُ النَّزْع[6]، فرَمَى في كلِّ ناحيةٍ بسَهْمٍ، وأمر أن يُبْنى ما وَراء ذلك. وبنَى

---

(١) الخصاصة: الفرجة أو الخلل، جمع خصاص.

(٢) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.

(٣) النصيّ: نبت سبط من أفضل المراعي؛ واحدته نصيّة.

(٤) التنزيل: إحلال المنازل وترتيبها.

(٥) المناهج: واحدتها المنهج، وهو الطريق.

(٦) النزع: الإفساد وحمل بعض القوم على بعض، أو الطعن.

ظُلَّة[١] في مقدِّمةِ مسجدِ الكُوفة على أساطينَ رُخام من بناءِ الأكاسرةِ في الحِيرة، وجعلوا على الصَّحْنِ خَنْدقًا لئلاً يقتحِمَه أحدٌ ببنيان، وبنوْا لسعدٍ دارًا بحياله، وهي قصرُ الكوفة، بناه رُوزْبه من آجُرِّ بُنْيَانِ الأكاسرةِ بالحِيرة، وجعل الأسواقَ على سُنة المساجِدِ، مَنْ سبقَ إلى مَقْعَدٍ فهوَ له، حتَّى يقومَ منه إلى بيتِهِ، ويَفْرُغَ من بَيْعه.

قال: وبلغ عمرَ أنَّ سعدًا قال: وقد سمع أصواتَ النَّاسِ من السُّوقِ: سَكِّتوا عنِّي التَّصْويتِ، وإنَّ النَّاس يُسمُّونَه قصرَ سَعْدٍ. فبعثَ محمد بنَ مَسلمةَ إلى الكُوفةِ، وأمره أن يُحْرِقَ بابَ القصْرِ، ثم يَرجع، ففعل. وبلغ سعدًا ذلك، فقال؛ هذا رسولٌ أرسل لهذا! فاستدعاه، فأبَى أن يَدخُلَ إليه، فخرج إليه سعدٌ، وعرض عليه نفقةً، فَأَبَى أن يأخذَها، وأبْلَغَهُ كتابَ عمرَ إليه وفيه:

بلغني أنَّكَ اتَّخَذْتَ قصرًا جعلْتَهُ حصنًا، ويُسَمَّى قصرَ سَعْدٍ، وبينك وبين النَّاسِ بابٌ، فليس بقَصْرِك؛ ولكنَّه قصرُ الخبالِ[٢]، انزِلْ منه ممّا يلي بُيوتَ الأموالِ، وأغلِقْهُ، ولا تَجْعَل على القصرِ بابًا يُمنَع النَّاسُ من دخوله.

فحلَفَ له سَعْدٌ ما قال الَّذي قالوا، ورجعَ محمدٌ، وأبلغَ عمرَ قولَه، فصدَّقه.

وكانت ثُغورُ الكوفةِ أربعةً: حُلْوان وعليها القعقاعُ بنُ عمرو، وماسَبَذانُ وعليها ضِرارُ بنُ الخطَّابِ، وقرقِيسِياء وعليها عَمرُو بنُ مالك، أو عمرو بن عُقْبة بن نَوْفل، والمَوْصِل وعليها عبدُ اللهِ بنُ المعتمِر. وكان بها خلفاؤُهُم إذا غابوا عنها.

ووَلِيَ سعدٌ الكوفةَ بعدما اختُطَّت ثلاث سنين ونصفًا، سِوَى ما كان بالمَدائِن قَبلَها. والله تعالى أعلمُ.

ذكر عزل خالد بن الوليد

وفي هذه السَّنَةِ عُزل خالدُ بنُ الوليد عمّا كان عليه من التَّقدُّم على الجُيوشِ، وسببُ ذلك أنَّه أدْرَبَ[٣] هو وعياضُ بنُ غنم، فأصابا أموالاً عظيمةً، وكانا توجَّهَا من الجابِيةِ بعد رجوعِ عمرَ إلى المدينة.

وقيل: إنَّ مسيرَ خالدٍ معَ عياض كان لفتح الجزيرةِ، فبلغ النَّاس ما أصابَ خالدٌ، فانْتَجَعه رِجالٌ وكان فيهم الأشعثُ بنُ قيسٍ، فأجازه بعشرةِ آلافٍ، ودخل خالدٌ الحمَّامَ؛ قيل: حمّام آمِد، فتدلَّكَ بغسل فيه خَمْرٌ، فكتبَ إليه عمرُ:

---

(١) الظلة: ما أظلك من شجر وغيره. (٢) الخبال: الهلاك. أو صديد أهل النار.
(٣) أدرب القوم: أي دخلوا أرض العدو من بلاد الروم.

بلغني أنّك تدلّكْتَ بخمرٍ، واللّهُ قد حَرَّمَ ظاهرَ الخمْرِ وباطِنَهُ منه، فلا تمسُّها أجسادكم. فكَتَب إليه: إنَّا قتلْنَاهَا فعادَتْ غَسُولاً غيرَ خَمْرٍ. فكتب إليه عمر: إنّ آل المغيرة ابْتُلوا بالْجفاءِ، فلا أماتكُم اللّهُ عليه.

فلمّا فَرَّقَ خالدٌ في الّذِين انتَجعُوه الأموالَ، سمِع بها عُمر، فكتب إلى أبي عُبيدةِ بنِ الجرّاح مع البريد أن يُقِيمَ خالدًا ويَعقِلَه بعمامته، ويَنزِع عنه قَلَنْسُوَتَه حتَّى يُعْلِمَكُم من أيْنَ أجاز الأشعثَ، أمِنْ مالِهِ أمْ مِنْ إصابةِ أصابَها؟ فإنْ زعم أنّها من مالِهِ فقد أسرَفَ، وإنْ زَعَمَ أنّها مِنْ إصابةٍ، فقد أقرّ بخيانةٍ. وٱعْزِلْهِ على كُلِّ حالٍ، واضْمُمْ إلَيْكَ عَملَه.

وكان خالدٌ على قِنَّسْرِينَ من قبَلِ أبي عبيدة، فكتبَ أبو عُبيدةَ إلى خالد، فقدِم عليه، ثمّ جمعَ النَّاسَ وجلسَ علَى المنبرِ، وقامَ البريدُ قُبالةَ خالدٍ، فسألَ خالدًا من أيْن أجاز الأشعث؟ فلم يجبْه، وأبو عُبَيْدَة ساكتٌ لا يتكلّم.

فقال بلالٌ: إنَّ أميرَ المؤمنين أمرَ فيك بكذا وكذا، ونَزَعَ عمامَتَهُ فلم يَمنَعْه، ووَضَع قَلْنسُوَته، وأقامَه وعَقَله بعمامَتِهِ، وقال له: أمِن مالِك أجزت؟ أم مِنْ إصابةٍ أصبْتَها؟ فقال: لا، بل مِنْ مَالي، فأطْلَقهُ، وأعاد قَلَنْسُوَته، ثمَّ عَمَّمَهُ بيَدِهِ، ثم قال: نسمعُ ونطيعُ لُولاتِنا، ونفخِّم ونخدِمُ مَوالِينا.

قال: فأقام خالدٌ متحيِّرًا لا يَدْرِي: أمعزولٌ هو أم غير معزولٍ! ولم يشافِهْه أبو عُبيدة بذلك تكْرِمَةً له.

فلمّا تأخّرَ قدومُهُ على عمرَ ظنَّ الّذي كان، فكَتبَ إلى خالدٍ بالإقبال إليه، فرجعَ خالدٌ إلى قِنسْرِين فخطبَ النَّاسَ، وودَّعهم، ثم رجعَ إلى حِمْص ففعل مِثْلَ ذلك، ثم سارَ إلى المدينة. فلمَّا قدِم على عمرَ شكَاهُ وقال: شكوتُكَ إلى المسلمين، وباللّهِ إنَّك في أمري لغيْرُ مُجْمِلٍ، فقال له عمرُ: من أيْن هذا الثَّراءُ؟ فقال: من الأنْفَالِ والسُّهْمان، ما زاد على ستّين ألفًا فَلَك.

فقوَّم عمرُ مالَه، فرَآهُ عشرين ألفًا، فجعلها عمر في بَيْتِ المالِ، ثمّ قال: يا خالدُ، واللّهِ إنّك عليَّ لَكَرِيمٌ، وإنَّكَ إليَّ لَحَبِيبٌ.

وكتب إلى الأمصار: إنّي لم أعزلْ خالدًا عن سَخْطَةٍ ولا خِيانَةٍ، ولكنَّ النَّاسَ فخَّمُوهُ وفُتِنُوا به، فخفتُ أنْ يوكلوا إلَيْهِ، فأحبَبْتُ أنْ يَعلَموا أنَّ الله هو الصانع، ولا يكونوا بعَرَضِ فِتْنَةٍ، وعوَّضَه عمَّا أخَذ منه. والله تعالى أعلمُ، وحَسْبُنَا الله ونعم الوكيل.

ذكر بناء المسجد الحرام

وفي هذه السنة اعتمر عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وبَنى المسجد الحرام، ووَسَّع فيه، وأقام بمكَّة عشرين ليلة، وهدم على أقوام أبوْا أن يبيعوا، ووضَعَ أثمان دُورِهم في بيتِ المالِ حتى أخذوا، وكانت عُمْرتُه في شهر رجب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، واستأذنه فأذن لهم وشرط عليهم، أنَّ ابن السبيل أحقُّ بالظلّ والماء.

ذكر عزل المغيرة بن شعبة

وفي هذه السَّنةِ عَزَلَ عمرُ رضي الله عنه المغيرة بنَ شُعْبَة عن البَصْرة، واستعمل عليها أبا موسى الأشْعَريّ، وكان سببُ ذلك أنَّه كان بينه وبين أبي بَكْرة مُنافرةٌ، وكانا مُتجاوِريْن بينهما طريق، وكانا في مشربَتيْن، في كل واحدة منهما كُوَّةٌ مقابِلةٌ للأُخرى، فأجتمعَ إلى أبي بَكْرة نفرٌ يتحدَّثون في مَشْرَبَتِهِ، فهبَّتْ الرِّيحُ، ففتحتْ بابَ الكُوّةِ، فقام أبو بَكْرَة ليَرُدّه، فبَصُر بالمغيرة، وقد فَتَحت الريحُ بابَ كُوَّتِهِ، وهو بين رِجْلَي اَمْرأَةٍ، فقال للنَّفيرِ: قُومُوا وانْظُرُوا، فَنَظَرُوا، وهم: أبو بَكْرة ونافعُ بنُ كَلَدة، وزيادُ ابنُ أبِيه، وهو أخو أبي بَكْرَةَ لأمّهِ، وشبلُ بنُ مَعْبَدٍ البَجَليّ، فقال لهم: اشهَدُوا. قالوا: ومَنْ هذه؟ قال: أمّ جَمِيل بنت الأفْقَم، وكانت من بني عامِرِ بن صَعْصَعَة، وكانتْ تَغْشَى المُغيرةَ والأُمراءَ، وكان بعضُ النِّساءِ يَفْعَلْن ذلك في زَمانها، فلمَّا قمتْ عَرَفوها. فلمّا خرج المغيرةُ إلى الصَّلاةِ منعه أبو بَكْرة.

وروى أبو الفَرَج الأصبهانيّ صاحبُ الأغاني في كتابه بسند رفعه إلى أَنس بن مالك وغيره: أنَّ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ كان يخرجُ مِنْ دار الإمارة وسط النَّهار، وكان أبو بكْرةَ يلقاه فيقول: أينَ يذهبُ الأمير؟ فيقول: آتي حاجة. فيقولُ له: حاجةُ ماذا! إنَّ الأميرَ يُزَارُ ولا يَزُورُ. قال: وكانت المرأةُ التي يأتيها جارةً لأبي بكْرة. قال: فبيْنَا أبو بكْرةَ في غرفةٍ له مع أخويه نافعٍ، وزيادٍ، ورجل آخرَ يقال له: شبلُ بنُ معبدٍ، وكانت غرفة جارته تحتَ غُرْفَة أبي بَكرة، فضربت الرِّيحُ بابَ المرأةِ ففتحَتْهُ، فنظر القوْمُ؛ فإذا هُمْ بالمغيرة يَنْكِحُهَا، فقال أبو بَكْرة: هذه بَلِيّةٌ ابتُليتُم بها، فانظروا، فَنَظَروا؛ فإذا أبو بَكْرَةَ نزَل، فجلسَ حتَّى خرج إليه المغيرةُ مِنْ بيْتِ المرأةِ، فقال له: إنَّه قد كان من أمرِك ما قد علمتَ، فاَعتزِلْنا.

قال: وذهب ليُصلّيَ بالنَّاسِ الظُّهرَ، فمنعه أبو بَكْرَة، فقال: واللّهِ ما تُصَلّي بنا وقد فعلْتَ ما فعلْتَ. فقال النَّاسُ: دَعُوه فليصلِّ، فإنَّه الأميرُ. ثم تَقارَبوا في الرِّوايةِ فقاموا: وكَتَبوا إلى عمر، فبعث أبا موسى أميرًا على البَصْرةِ، وأمره بلزوم السُّنَّةِ، فقال: أعِنّي بعِدَّةٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فإنَّهم في هذه الأُمّةِ كالملْحِ. قال: خُذْ مَنْ اخترتَ، فأخذ تسعةً وعشرين رجُلًا، منهم أنسُ بنُ مالِكٍ، وعمرانُ بنُ حُصَيْن، وهشامُ بنُ عامرٍ، وخرج بهم فقدِم البصْرةَ، ودفعَ كتابَ إمْرَتِهِ إلى المغيرةِ وفيه:

أمَّا بعدُ: فإنَّه بلغني نبأٌ عظيمٌ، فبعثتُ أبا موسى أميرًا، فسلِّم إليه ما في يَدِكَ، والعَجَل.

فرحَلَ المغيرةُ ومعه أبو بَكْرة والشّهود، فقَدِموا على عُمَر، فقال له المغيرة: سَلْ هؤلاء الأعْبُد كيف رأوْني، أمستقبِلَهم أم مستدبِرَهم؟ وكيف رأوا المَرأةَ فعَرَفوها؟ فإنْ كانوا مُسْتَقْبِلِيَّ فكيفَ لم أستَتِر! وإن كانوا مستَدْبِرِيَّ فبأيِّ شيءٍ استحلُّوا النَّظَرَ في منزِلي على آمرأتي! واللّهِ ما أتيتُ إلاَّ آمرأتي، وكانت تُشْبِهُهَا.

فشهد أبو بَكْرة أنَّه رآه على أُمِّ جميلٍ، يُدْخِلُه كالمِيلِ[1] في المُكْحُلَةِ، وأنَّه رآهما مستدبِرَيْن، وشهد شِبل ونافع مثلَ ذلك.

وأمّا زِياد فإنَّه قال: رأيتُه جالسًا بيْن رِجْلَي آمْرأةٍ، فرأيت قدميْن مخضُوبَتيْن تَخفِقان، وآستَيْن مكشوفتَيْن، وسمعتُ حَفَزَانًا[2] شديدًا.

قال: هل رأيت كالمِيل في المَكْحلَةِ؟ قال: لا، قال: هل تعرِفُ المرأة؟ قال: لا، ولكنْ أشبِّهُهَا.

قال: ففتح، وأمَرَ بالثَّلاثةِ فجُلِدوا الحدَّ، فقال المغيرةُ: اشْفِنِي من الأعْبُدِ. قال: اسْكُتْ، أسكتَ الله نَأْمَتَكَ[3]، أما واللّهِ لو تَمَّتِ الشَّهادةُ لرَجمتُكَ بأحجارِكَ.

وفي هذه السنةِ تزوّجَ عمرُ أُمَّ كُلثوم بنتَ عليِّ بن أبي طالبٍ، وهي بنتُ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القَعْدة.

وحجّ عُمَرُ رضي الله عنه بالنَّاس في هذه السنة.

وفي هذه السنة أسلم كعبُ الأحبار.

وفيها، في ذي الحجةِ حَوَّل عمرُ رضي الله عنه المقامَ إلى موضعِه اليوم، وكان ملصقًا بالبيْتِ.

* * *

(١) الميل: ما يجعل به الكحل في العين.

(٢) حفزه حفزانًا: دفعه من خلفه بالسّوْق أو غيره.

(٣) النأمة: الصوت الخفيّ أيًا كان.

سنة ثمان عشرة

وفيها استقضى عمرُ شُريحَ بن الحارثِ الكِنْديّ على الكوفةِ، وكعبَ بن سورٍ على البَصْرةِ، وكعْب هذا مِمَّن أسلم على عَهْدِ النَّبيّ ﷺ ولم يَرَه، وكان لولايته القضاءَ سببٌ نذكُرُه.

سبب ولاية كعب بن سور قضاء البصرة

حُكِي عن الشّعبيّ[1]، أنّه كان جالسًا عند عمرَ بن الخطّابِ رضي الله عنه، فجاءت امرأةٌ فقالت: ما رأيتُ رجُلاً قطُّ أفضلَ مِن زوجِي، إنّه لَيَبيتُ ليلَهُ قائمًا، ونهارَه صائِمًا في اليوم الحارّ ما يُفطِر، فاستغفرَ لها عمَر، وأثنى عليها، وقال: مِثْلُكِ أثنى بالخيْرِ وقاله، فاستحيَتْ المرأةُ وقامت راجعةً.

فقال كعبُ بنُ سور: يا أميرَ المؤمنين، هَلاَّ أعدَتَ المرأة على زوجِهَا إذْ جاءتك تستعْدِيك[2]! فقال: أكذلك أرادتْ؟ قال: نعم، قال: رُدُّوا عليّ المرأة، فرُدّت. فقال لها: لا بأْسَ بالحقِّ أن تقُولِيه، إنَّ هذا زعَم أنّكِ جئْته تشتكين أنّه يجتنِب فراشكِ، قالت: أجَلْ، إنّي امرأةٌ شابّةٌ، وإنّي أبتغِي ما تبتغِي النّساء، فأرسل إلى زوجها فجاء، فقال لكعب: اقضِ بينهما، فقال: أميرُ المؤمنين أحقُّ أنْ يقْضِيَ بينهما، فقال: عزمْتُ عليك لتقضِيَنَّ بينهما؛ فإنّك فهمْت من أمرِهما ما لم أفْهَم! قال: فإنّي أرى أنّ لها يومًا من أربعةِ أيّام؛ وكان زوجُها له أربعُ نسوة، فإذا لم يكن له غيرُها فإنّي أقضي لها بثلاثة أيّام ولياليهنّ يتعبَّدُ فيهِنّ، ولها يومٌ وليلةٌ.

فقال عمر: واللّهِ جاءَ رأيُكَ الأوّلُ أعجبَ إليَّ من الآخر، اذهبْ فأنت قاضٍ على أهلِ البصرةِ. فلم يزلْ قاضيًا على البَصْرةِ إلى أنْ قتِلَ يومَ الجملِ؛ وذلك أنّه لمّا اصطفّ النّاسُ للقتال خرج وبيده المُصْحَف فنشرَه، وجَال بين الصَّفيْنْ يُناشِد النّاسَ في دمائهم، فأتاه سهْمٌ غرْبٍ[3] فقتله.

وقد قيل: إنَّ المُصحفَ كان في عُنُقه، وعليه بُرنُس وبيَدِهِ عَصًا وهو آخِذٌ بخِطام[4] الجَمَلِ، فأتاه سَهمٌ فقتله.

---

(١) الشعبي: هو أبو عامر بن شراحيل (٦٤٠م ـ ٧٢٨م): محدث ومؤرخ وأحد شيوخ التابعين، يمني الأصل، ولد بالكوفة لأحد القراء، واتصل بالحجاج حين ولي الكوفة ٦٩٤م واختاره عارفًا لقبيلته همدان. . . (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) استعداه: استعانه واستنصره.

(٣) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

(٤) الخطام: الزمام؛ أو ما وضع على خطم الجمل ليقاد به.

وروى أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرّ رحمه الله بسنده إلى محمد بن سِيرين، قال: جاءتْ امرأةٌ إلى عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه، فقالت: إنَّ زوْجِي يصومُ النهارَ، ويقومُ اللَّيل، فقال: ما تُريدين؟ أتُريدين أنْ أنْهَاهُ عن صِيامِ النَّهارِ، وقيامِ اللَّيل! قال: ثم رجَعتْ إليه فقالت مِثل ذلك، فأجابها بمِثلِ جوابِهِ، ثم جاءت الثالثة فقالت له كما قالتْ، فأجابها بمِثلِ جوابِهِ. وكان عنده كعب بن سُور، فقال كعبٌ: إنَّها امرأةٌ تشتكِي زوجَها.

فقال عُمر: أمّا إذا فطِنْت لها فأحكم بينهما، فقام كعْب: وجاءت بزوجها فقالت:

يـأيُّـهـا الـقـاضِـي الـفـقـيـهُ أرْشِـدُهْ … ألهَى خَلِيلي عن فِراشِي مسجِدُهْ[1]
زهـدُه فـي مَـضْـجَـعِـي وتـعَـبُّـدُهْ … نـهـارَه ولـيـلـه مـا يَـرْقُـدُهْ
ولـسـتُ مـن أمـرِ الـنّـسـاءِ أحْـمُـدْه … فـأمـضِ الـقـضـا يـا كـعـبُ لا تُـرَدِّدُهْ

فقال الزَّوْجُ:

إنِّـي امـرؤٌ قـد شـفَّـنِـي مـا قـد نـزلْ … في سُورةِ النُّورِ وفي السَّبْعِ الطِّوَلْ
وفـي كـتـابِ الله تـخـويـفٌ جَـلـلْ … فـرُدَّهـا عـنِّـي وعـن سُـوءِ الـجَـدَلْ

فقال كعبٌ:

إنَّ الـسـعـيـدَ بـالـقـضـاء مَـنْ فَـصَـلْ … ومـن قـضـى بـالـحـقِّ حـقًّـا وعَـدَلْ
إنّ لـهـا عـلـيـك حـقًّـا يـا بَـعَـلْ … مـن أربـعٍ واحـدةٌ لـمَـنْ عَـقَـلْ

* امـضِ لـهـا ذاك ودَعْ عـنـكَ الـعِـلَـلْ *

ثم قال: أيُّها الرجلُ إنَّ لك أن تتزوَّج من النِّساءِ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، فَلكَ ثلاثةُ أيّامٍ، ولامرأتِك هذه يومٌ، ومن أربعِ ليالٍ ليلة، فلا تُصَلِّ في ليلتها إلاَّ الفريضة.

فبَعثه عمرُ قاضيًا على البَصْرة. والله تعالى أعلم.

ذكر القحط وعام الرمادة

وفي هذه السَّنَة أصابَ النَّاسَ مجاعةٌ شديدةٌ وجَدْبٌ وقَحْط، وهو عام الرَّمادة، وكانت الريحُ تَسْفِي تُرابًا كالرّماد، فسُمِّيَ لذلك عامَ الرَّمادةِ، واشتدّ الجوعُ حتَّى كان

(١) الحليل: الجار؛ وحليل المرأة: زوجها.

الوحشُ يَأْوِي إلى الإنس، وكان الرجلُ يَذبَحُ الشَّاةَ فيعَافها من قَيْحِها[١]، وأقسَمَ عُمَر لا يذوقُ سمنًا ولا لبنًا، ولا لَحْمًا؛ حتَّى يَحيَا النَّاسُ.

وكتب إلى الأُمراءِ المقيمين بالأمصار يستغيثُهم لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَها، فكان أوّل مَنْ قَدِمَ عليه أبو عبيدة بنُ الجراح بأربعةِ آلاف راحِلة من طعَام، فولاَّه عمرَ قِسْمَتها فيمن حولَ المدينة، فقسَّمَهَا وانْصَرَف إلى عَمَله، وتتَابَعَ[٢] النَّاسُ، واستغنى أهلُ الحِجاز.

وأرسلَ عمرُو بنُ العاصِ الطَّعَامَ من مصرَ في البَرِّ والبحرِ، فصار الطعام في المدينة كسِعْرِ مصرَ.

واسْتَسْقَى عمر رضي الله عنه بالعبّاس بنِ عبد المطَّلِبِ عمِّ رسول الله ﷺ؛ وذلك أنَّ أهلَ بيتٍ مِنْ مُزَيْنة، قالوا لصَاحِبِهم وهو بلالُ بنُ الحارثِ: قد هلَكْنَا، فاذبح لنا شاةً، فقال: ليس فيهنَّ شيءٌ، فلم يزالوا به حتَّى ذبح فسَلَخَ عن عظْم أحمرَ، فنادَى: يا محمّداه! فأرِيَ في المنام أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاه، فقال: أبْشِرْ بالحياةِ، ائتِ عُمرَ فأقرأه منِّي السلام، وقلْ له: إنِّي عهدتُكَ، وأنت في العهدِ شديدُ العَقْدِ، فالكَيْسَ الكَيْس[٣] يا عمر.

فجاء بلالٌ حتَّى أتى بابَ عمر، فقال لِغُلامَه: استأْذِن لرسول الله ﷺ، فأتى عمر فأخْبَرَهُ ففزع وقال: رأيتَ مَسًّا[٤]؟ قال: لا. قال: فأدخِلْهُ، فأدْخَلَهُ، فأخبَرَهُ الخبرَ، فخرج عمرُ فنادَى في النَّاسِ، وصَعِدَ المِنبَرَ، قال: نَشَدْتكم الله الَّذِي هداكم للإسلام، هل رأيْتم شيئًا تكرهُون؟ قالوا: اللَّهُمّ لا، ولِمَ ذاك؟ فأخبرهُم فَفَطِنُوا ولم يفطِنْ عمر، فقالوا: إنَّمَا استبطأناك في الاستسقاءِ، فاستسقِ بنا. فنادَى في النَّاس، فخرج وخرج معه العبّاسُ ماشِيًا، فخطبَ وأوْجَزَ، وصلَّى، ثم جَثَا لركْبَتَيْهِ وقال: اللَّهم عجزَتْ عنَّا أنصارُنا، وعجزَ عنَّا حَوْلُنَا وقُوَّتُنَا، وعجزتْ عنَّا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قُوة إلاَّ بك، اللَّهم فاسقِنا، وأحْيِ العبادَ والبلادَ.

وأخذ بيد العبّاس، وإنَّ دموعَ العبَّاس تَتَحادَر على لِحيَته، فقال: اللَّهمّ إنَّنا نتقرّبُ إليك بعمِّ نبيِّك، وبقيَّةِ آبائه، وأكبرِ رِجاله، فإنَّكَ تقولُ، وقولُكَ الحقُّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، فحَفِظْتهما بصلاحِ أبيهمَا، فاحفظ اللَّهمَّ نبيَّكَ في عمِّه، فقد دَنَوْنا إليْكَ مستشفعِين ومستغفِرين، ثم أقبلَ على النَّاسِ؛ فقال: استغفروا ربّكُم إنَّه كان غفَّارًا.

---

(١) الفيح: انتشار الرائحة.

(٢) تتابع الناس: تباعدوا على حيرة وشدة.

(٣) الكيس: العقل.

(٤) المسّ: الجنون.

والعبّاسُ يقولُ وعَيْنَاه تَذْرِفانِ، ولِحيتُه تَجولُ على صَدْرِهِ: اللّهمّ أنتَ الرّاعي فلا تُهْمِلِ الضّالة، ولا تَدَعِ الكبيرَ بدارِ مَضِيَعة؛ فقد ضرع الصَّغيرُ، وَرَقّ الكَبير، وارتفعت الشَّكْوى، وأنت تعلَم السِّرَّ وأخفَى.

اللّهمَّ فأغْنِهِمْ بغِناك قبلَ أنْ يَقْنَطُوا فيَهلِكوا؛ فإنّه لا ييْئَسُ إلا القومُ الكافرون.

فنشأت طُرَيْرة[١] من سحاب، فقال النّاس: تَرَوْنَ، تَرَوْن! ثم مَشَتْ فيها ريحٌ، ثم هَدَرَتْ[٢] ودرّتْ، فوالله ما بَرِحوا حتّى اعتلَقُوا الحذاءَ، وقلَّصوا المآزِر، فَطَفِقَ[٣] النّاسُ بالعبّاسِ يَمْسَحون أركانه، ويقولون: هنيئًا لكَ ساقي الحرميْن!

فقال الفضل بنُ العباسِ بن عُتْبة بن أبي لَهبَ في ذلك: [من الطويل]

بعَمّي سَقَى اللّهُ الحجازَ وأهْلَه ... عشيَّةَ يستسقى بشيبتِهِ عُمَرُ

توجّه بالعبّاسِ في الجدْبِ راغبًا ... إليه، فما إنْ رامَ حتّى أتَى المَطَرُ

ومنّا رسولُ اللّهِ فينا تُراثُه ... فهل فوقَ هذا للمُفاخِرِ مُفتَخَرُ

ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه

وفي هذه السنةِ كان طاعون عَمواس بالشّام، وعَمواسُ قريةٌ بين الرَّمْلة وبيتِ المَقدسِ. قال ابنُ عبدُ البَرّ: وقيل: إنَّ ذلك لقولهم: عم واس. قال ذلك الأصمعيّ.

مات فيه خمسة وعشرون ألفًا، منهم: أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، واسمه عامرُ بنُ الجرّاح. وقيل عبدُ الله بنُ عامرِ بنُ الجرّاح.

قال أبو عُمَر: والصَّحيح أنَّ اسمَه عامرُ بنُ عبد اللّهِ بن الجرّاحِ بن هلالِ بن أهيب بن ضَبّة بن الحارث بن فِهْرِ بنِ مالك بن النَّضر بن كنانة القرشيِّ الفهريّ. شهد بدرًا وما بعدها من المشاهدِ كُلّها مع رسولِ اللّهِ ﷺ وهاجر الهِجْرة الثانية إلى أرض الحبشة، وكان نحيفًا معروقَ[٤] الوجه، طُوالاً أجْنأ[٥].

وهو أحد العَشْرةِ المشهود لهم بالجنَّةِ، وكان رضي الله عنه من كبار الصَّحابةِ وفُضَلائِهم، وأهل السَّابقةِ منهم.

قال رسولُ اللّهِ ﷺ: لكلِّ أُمّةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأُمّةِ أبو عُبَيدة بن الجَرّاح.

---

(١) الطريرة: الطريقة من السحاب.
(٢) هدرت: انتفخت، أو سقطت.
(٣) طفق: جعل.
(٤) المعروق: القليل اللحم.
(٥) رجل أجنأ: أشرف كاهله على صدره.

وقد تقدَّم في أثناءِ السِّيرة النَّبويةِ خبرُ وفد نجران، وسؤالُهم أنْ يبعثَ معهم مَنْ يَحكمُ بينهم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ائتوني العشيّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمينَ»، فبعثَه معهم.

ورُوِيَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ أهلَ اليَمَنَ قَدِموا على رسولِ الله ﷺ، فقالوا: ابعَثْ معنا رجلاً يعلِّمُنا. فأخَذَ بيَدِ أبي عُبَيدة، وقال: هذا أمينُ هذه الأمّةِ.

وقال أبو بكر رضي الله عنه يومَ السَّقيفة: قد رضيتُ لكُمْ أحَدَ هذين الرَّجُلَيْنِ، يعني عُمَرَ وأبا عُبَيْدَة.

وقال له عُمرُ رضي الله عنهما؛ إذ دخل عليه الشّام، وهو أميرها: كُلُّنا غيَّرتْهُ الدُّنيا غيرك.

وكانت سِنُّه يوم تُوفِّيَ ثمانيًا وخمسين سنة، وكانت وفاتُه رضي الله عنه بالأُرْدُنّ، وصَلَّى عليه مُعاذ بنُ جَبَل، ونزل في قبره هو وعَمرو بنُ العاصِ، والضَّحّاكُ بنُ قيسٍ.

وقبرُ أبي عُبيدَة بالقُربِ من قرية عَمْيَا مِن غَوْر الشّام معروفٌ هناكَ، قد زُرْته أنا غيْرَ مرَّةٍ رضي الله عنه.

ومنهم[1]: معاذُ بنُ جبلٍ، وهو أبو عبدِ الرّحمٰنِ معاذُ بنُ جبلِ بنِ عمرو بنِ أوسِ بن عائذِ بنِ عَدِيّ بن كعبِ بنِ عمرو بنِ إدّي بن سعد بن عليّ بنِ أسد بن شاردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاريّ الخزرجي ثم الجُشَميّ.

وقد نسبَهُ بعضُهم في نَسَبِ بني سلِمةَ بنِ سعد بن عليّ، قال ابن إسحاق: معاذُ بنُ جبلٍ من بني جُشَمِ بن الخزرج، وإنّما ادَّعته بنو سلِمة، لأنّه كان أخا سَهْل بن مُحمَّد بنِ الجدّ بنِ قَيْس لأمّه.

قال الواقديُّ وغيرُه: كان معاذُ بنُ جبلٍ طُوالاً، حَسَنَ الشَّعْرِ عظيمَ العينيْن، أبيضَ، بَرَّاقَ الثَّنايا، لم يُولَدْ له قطُّ.

وقال ابنُ الكلبيّ، عن أبيه: إنّه ولد له عبد الرّحمٰن بن مُعاذ. مات بالشام في الطّاعون أيضًا، فانقرض بنو إدّي بموْته.

---

(١) المراد بقوله: «ومنهم» أي وممن توفي في هذه السنة.

وقيل: إنّ عبدَ الرحمٰنِ قاتَلَ مع أبيه يومَ اليَرْموكِ. ومعاذ بن جبلٍ أحد السَّبعين الَّذين شَهِدُوا بَيْعةَ العَقَبةِ، وآخَى رسولُ اللّهِ ﷺ بينَه وبين عبدِ الله بنِ مسعود، قاله الواقديّ، وقال: هذا ما لا خلافَ عندنا فيه.

وقال ٱبن إسحاق: آخَى رسولُ الله ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالبٍ.

شهد مُعاذ بَدْرًا والمشاهِدَ كلَّهَا، وبعثَه رسولُ الله ﷺ قاضيًا إلى الجَنَدِ من أرضِ اليَمَنِ، يعلِّمُ النَّاسَ القرآن وشرائعَ الإسلام، ويَقْضِي بينهم، وجعل إليه قَبْضَ الصَّدقاتِ من العمَّالِ الَّذين باليَمَنِ، وكان رسولُ الله ﷺ قد قَسَّمَ اليمن على خمسةِ رجالٍ: خالد بن سعيد على صَنْعَاء، والمُهاجِر بن أبي أُمَيَّةَ على كِندة، وزياد بن لَبيد على حَضْرَمَوْتَ، ومعاذ بن جبلٍ على الجنَدِ، وأبي موسى الأشعري على زَبِيد وزَمعة وعَدَن والسّاحل.

وقال له رسولُ الله ﷺ حين وَجَّهَهُ إلى اليمن، بمَ تَقْضي؟ قال: بما في كتاب الله عزَّ وجلّ. قال: فإنْ لم تجده؟ قال: بما في سنّةِ رسولِ الله ﷺ، قال: فإن لم تجدْ؟ قال: أجتهدُ برأيي. فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمد لله الذي وفَّق رسولَ الله لما يحبُّ رسولُ الله».

وروى أبو عُمَر بن عبد البرّ بسنده عن كعب بن مالكٍ، قال: كان معاذ بنُ جبلٍ شابًا جميلًا، من أفضلِ شباب قوْمه، سَمْحًا، لا يُمْسِكُ؛ فلم يزلْ يَدّانُ حتَّى أغلق مالَه كلَّه من الدَّين، فأتى النَّبيَّ ﷺ، فطلبَ إليه أن يسأل غُرماءه أن يَضعوا له، فأبَوْا، ولو تركوا لأحدٍ مِنْ أجلِ أحدٍ لتركوا لمعاذ بن جبلٍ من أجْلِ رسول الله ﷺ، فباعَ رسول الله ﷺ ماله كلَّه في دَيْنِهِ، حتَّى قام معاذٌ بغير شيءٍ، حتى إذا كان عام فتح مكَّة، بعثه النبيُّ ﷺ إلى طائفةٍ من أهل اليمن ليجبر فمكث معاذٌ باليَمَنِ أميرًا.

وكان أوّل من اتَّجر في مالِ الله هو، فمكثَ حتَّى أصابَ وحتَّى قُبض رسولُ اللّهِ ﷺ. فلمّا قَدِم قال عمرُ لأبي بكرٍ: أرسلْ إلى هذا الرّجلِ فدعْ له ما يعيِّشُه، وخُذْ سائرَه منه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّما بعثَهُ رسولُ الله ﷺ ليجبره، ولستُ بآخذٍ منه شيئًا؛ إلاّ أنْ يُعْطِيَني. فانطلق عمر إليه إذ لم يُطعْه أبو بكر، فذكر ذلك لمعاذ، فقال معاذٌ: إنَّما أرسَلَني رسولُ الله ﷺ ليجْبرني، ولستُ بفاعل، ثمّ أتى معاذ عمرَ وقال: قد أَطَعْتُك، وأنا فاعِلٌ ما أمرتَني به، إنّي رأيتُ في المنامِ أنّي في حَوْمةِ ماءٍ؛ قد خشيتُ لغرقَ فخلَّصْتَني منه يا عمر.

فأتى معاذُ أبا بكرٍ، فذكر ذلك له، وحلف لَهُ أنَّه لا يكتُمهُ شيئًا فقال أبو بكر: لا آخذ منك شيئًا، قد وهبْتُه لك، فقال: هذا خير حَلٌ، وَطاب، فخرج معاذ عند ذلك إلى الشام. قال أبو عمر: كان عمر قد استعمله في الشام حين مات أبو عبيدة ولما مات أبو عبيدة، استعمل عمر بنُ الخطَّاب معاذَ بنَ جبلٍ على الشَّامِ، فماتَ مِنْ عامه؛ وذلك في الطَّاعون، فاستعمل موضِعَهُ عمرَو بنَ العاصِ.

وقال المدائنيّ[1]: ماتَ معاذٌ بناحية الأردنّ في طاعون عَمْواس في سنة ثماني عشرة، وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين.

وقال غيره: كان سِنُّهُ يوم مات ثلاثًا وثلاثين سنة.

وقبرُ معاذ بغوْرِ الشَّام، بالقربِ من قرية القُصَير من شرقيِّها معروف هناك، قد زُرْتَهُ غير مرّةٍ، وبينه وبين قبْرِ أبي عُبَيْدة نحو من مَرْحَلَة.

ومنهم يزيدُ بنُ أبي سُفْيان بن حَرْبِ بنِ أُميَّة بن عبد شمسٍ بن عبد مناف، كان أفضلَ بني أبي سُفْيان، وكان يقال له يزيدُ الخير. أسلَم يومَ فتح مكّةَ، وشهد حُنَيْنًا، واستعمَلَه أبو بكْرٍ رضي الله تعالى عنه وأوْصاه، وخرج يشيّعُه راجلًا.

وروى أبو بِشْر الدُّولابيّ[2]: أنّه مات سنة تسع عشرة بعد أن افتتح قِيسارية.

ومنهم الحارثُ بنُ هشام بن المغيرة بنِ عبد الله بن عمر بنِ مخزوم القرشيّ المخزوميّ، وهو أخو أبي جَهْلٍ لأبويه.

أسلَمَ يومَ الفتح، وحَسُن إسلامُه، وشَهد حُنَيْنًا، وأعطاه رسولُ اللّهِ ﷺ مائةً من الإبل، وأعْطى المؤلَّفةَ قلوبهم، ثم خرج إلى الشَّامه في خلافة عمرَ رضي الله عنه راغبًا في الرِّباطِ[3] والجهادِ فتبعه أهل مكَّةَ يبكون فِراقَه، فقال: إنَّها النُّقْلةُ إلى الله تعالى، وما كنتُ لأُوثِر عليكم أحدًا، فلم يزلْ بالشَّام يجاهد حتَّى مات في طاعون عَمواس.

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، المدائني (أبو الحسن)، مؤرخ، إخباري، راوية للشعر. ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، وروى عن الزبير بن بكار وغيره، وتوفي بها سنة ٢٢٥ هجرية وكانت ولادته سنة ١٣٥ هجرية.. (معجم المؤلفين لعمر كحالة).

(٢) الدولابي: هو أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعد، الأنصاري بالولاء، الوراق الرازي الدولابي، كان عالمًا بالحديث والأخبار والتواريخ، سمع الأحاديث بالعراق والشام وروى عن محمد بن بشار وأحمد بن عبد الجبار العطاردي وخلقًا كثير؛ وروى عنه الطبراني وأبو حاتم ابن حبان البستي... (وفيات الأعيان ٤: ٣٥٢).

(٣) الرباط: المواظبة على الأمر وملازمته.

وقال المَدائنيّ: إنَّه قُتِلَ يومَ اليَرْموك، في شهر رجب سنة خمس عشرة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومنهم سُهَيلُ بنُ عمرو بن عبدِ شمس بن عبد ودّ بنِ نصر بنَ مالك بن جبل بنِ عامر بنِ لؤيّ بنِ غالب القرشيّ العامريّ. يُكْنَى أبا يزيد، وكان أحد الأشراف من قريْش وسادتهم، وهو الَّذي عاقَدَ رسولَ الله ﷺ يوم الْحُدَيْبِيَة وقاضاه كما تَقدَّم.

أسلم يومَ الفتح وحَسُنَ إسلامُه، وقال رسولُ الله ﷺ لعمر بنِ الخطابِ في سُهَيل بنِ عمرو: «دَعْه فَعَسى أنْ يقومَ مقامًا نَحْمدَهُ»، فكان المقامَ الَّذي قامه في الإسلام أنَّه لما ماج[١] أهلُ مكَّة عند وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ من العرب، قام سُهيلٌ خطيبًا فقال: واللّهِ إنّي لأعلمُ أنَّ هذا الدِّينَ سيمتدُّ امتداد الشَّمسِ من طُلُوعها إلى غروبها، فلا يغرنّكم هذا عنْ أنفُسِكم، ـ يعني أبا سفيان ـ فإنَّه يَعلمُ مِن هذا الأمرِ ما أعلَم؛ ولكنه قد جَثَم على صَدْرِه بحَسدِ بني هاشم.

وأتى في خطبته بمِثل ما جاء به أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه بالمدينة.

وَرَوى ابنُ المُبارَكِ[٢] عن جريرِ بنِ حازم، قال: سمعتُ الحسن يقول: حضر النَّاسُ بابَ عمرَ بنِ الخطَّابِ، وفيهم سهيلُ بنُ عمرو، وأبو سُفْيان بن حَرب، وأُولئك الشيوخُ من قريشٍ، فخرجَ آذِنُه فجعل يأْذَن لأهلِ بَدْرٍ، لِصُهَيْب وبِلال. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم قطُّ؛ إنَّه ليؤذَن لهؤلاء العبيدِ ونحن جلوسٌ لا يُلتَفت إلَيْنا! فقال سهيلٌ: أيُّها القومُ: إنّي والله قد أرى الّذي في وُجوهِكم، فإن كُنْتُم غِضابًا فاغضَبوا على أنفسكم، دُعِيَ القومُ ودُعيتُم، فأَسْرَعُوا وأبطأْتُم.

أمَا والله لمَا سَبَقوكم به مِنَ الفَضْلِ أشدُّ عليكم فَوْتًا من بابِكُم هذا الَّذِي تَنافَسون عليه، ثم قال: أيُّها القومُ، إنَّ هؤلاء القومَ قد سبقوكم بما ترَوْنَ، ولا سبيل إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزَمُوْه، عسى أن الله يرزقَكُمْ شهادةً ثم نَفَض ثوبَه فقامَ ولَحِقَ بالشَّامِ.

وقال المَدائنيّ: إنَّه قُتِلَ باليَرْموك، والله تعالى أعلمُ.

---

(١) ماج القوم: اختلفت أمورهم واضطربت.

(٢) ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك (أبو عبد الرحمٰن) بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة كان قد جمع بين العلم والزهد، تفقه على سفيان الثوري ومالك بن أنس رضي الله عنهما، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محبًا للخلوة شديد التورع، وكذلك كان أبوه. . . (وفيات الأعيان ٣:٣٢).

ومنهم: عُتْبَةُ بنُ سُهَيْلٍ، وعامر بنُ غَيْلانَ الثَّقفي، مات وأبوه حَيٌّ، ومات غيرُ هؤلاء، رحمهم الله تعالى.

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطّاعون

قال: لمّا هلكَ النَّاسُ بالطاعون، كتب أُمراءُ الأجنادِ إلى عمر رضي الله عنه بما في أيدِيهم من المَواريث، فجَمَع النَّاسَ واستشارَهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوفَ على المسلمين في بُلْدانهم؛ لأنظرَ في آثارِهم، فأشِيروا عليَّ، وكان أراد أن يَبْدأ بالعِراقِ، فصرف كعبُ الأحبارِ رأيَه عن ذلك، فخرج إلى الشَّام، واستخلَفَ على المدينةِ عليّ بن أبي طالب، وجعل طريقه على أيْلة، فلما دنا منها رَكِبَ بعيره وعلى رَحْله فرْوٌ مقلوبٌ، وأعطى غلامَه مركَبَهُ، فلمّا تلقَّاه النَّاسُ قالوا: أين أميرُ المؤمنين؟ قال: أمامكم - يَعنِي نفسَه - فساروا أمامَه، وانتهى هو إلى أيْلَةَ فنزَلها.

وقيل للمتلقِّين: قد دَخَل أمير المؤمنين، فرجَعوا، وأعطى عُمَرُ الأسْقُفَّ[1] بها قَميصَهُ وقد تخرَّقَ ظهْرُه؛ ليغسِلَهُ ويرقَعَهُ، ففعل، وأخَذه ولَبِسه، وخاطَ له الأسقفُّ قميصًا غيرَه، فلم يأخذه.

فلمّا قدِم إلى الشام قسَّم فيها لأرزاق، وسَمّى الشَّواتي والصَّوائفَ، وسدّ فُروجَ الشام ومسالِحَها، وأخذ يَدُورُ بها، واستَعمل عبيد الله بن قيس على السَّواحلِ من كُلِّ كُوَرة، واستعمل معاوية على دِمَشْقَ وخَراجها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سُفْيان، وعزل شرحبيلِ ابنَ حَسَنة، وقام بعذره في النَّاس، وقال: إنّي لم أعزِلْه عن سَخْطَةٍ، ولكنّي أُريدُ رجلاً أقوى مِنْ رجلٍ، وكان شُرَحْبِيل على خَيْلِ الأردنّ، فضمّ ذلك إلى معاوية.

قال: ولمّا قَدِم عمر رضي الله تعالى عنه تلقَّاه معاوية في موكِب عظيم، فلما رآه عمر قال: هذا كِسْرَى العَرَب، فلمَّا دنا منه قال: أنت صاحبُ الموكِبِ العظيم! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: مع ما يَبْلُغُني مِنْ وقوفِ ذوي الحاجاتِ ببابِكَ! قال: مع ما يَبلُغُكَ من ذلك، قال: ولِمَ تفعل هذا؟ قال: نحن بأرض، جَوَاسِيسُ العدوّ بها كَثيرةٌ، فيجبُ أنْ نُظهِرَ مِن عِزِّ السلطان ما يُرْهِبُهم، فإنْ أمرتَني فعلْتُ، وإنْ نهيْتَنِي انتهيْتُ. فقال عُمر: يا معاوية، ما أسألك عن شيءٍ إلا تركْتَنِي في مثل

(١) الأسقف: هو عند النصارى القسيس، وهو دون المطران.

رواجِبِ[١] الفرس، لئن كان ما قلْتَ حقًّا، إنَّه لرأيُ لبيب، وإنْ كان باطلًا إنَّها لخدعةُ أرِيب. قال: فمرْنِي يا أمير المؤمنين. قال: لا آمُرُكَ ولا أنهاك.

قال عمرُو بنُ العاصِ: يا أمير المؤمنين، ما أحسنَ ما صدَر هذا الفتى عما أردتَه فيه. قال: لحُسن مَصَادِرِه ومواردِه جَشَّمْنَا[٢] ما جَشَّمْنَاه.

وَروَى أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ: أنَّ عمر بن الخطَّابِ رَزَق معاوية على عمله بالشَّام عشرَةَ آلافِ دينار في كُلِّ سنةٍ.

قال المؤرِّخ: واستَعمل عمرُ رضي الله عنه عمرو بن عنبسةَ على الأهراء، وقسم مواريث أهل عَمْواس، فورثَ بعضُ الورثَةِ من بَعْضٍ، وأخرجها إلى الأحْيَاءِ، من ورثةِ كلٍّ منهم، ورجع عمرُ إلى المدينة في ذي القَعْدة من السَّنَةِ.

قال: ولمّا كان بالشَّام وحضرت الصَّلاةُ قال له النَّاس: لو أمَرْت بِلالاً فأذَّن! فأمرَه، فأذَّن، فما بقيَ أحَدٌ ممَّن أدرك النبيَّ ﷺ وبلالٌ يؤذِّن إلاَّ بكى حتَّى بلَّ لِحْيَتَهُ، وعمرُ أشدُّهم بُكَاءً، وبكى مَنْ لمْ يدْرِكْهُ لبُكائهم.

وحجَّ عمرُ رضي اللّهُ عنه بالنَّاسِ في هذه السَّنَةِ.

* * *

سنة تسع عشرة

في هذه السنةِ سالتْ حرَّة[٣] ليلى وهي بالْقُرْبِ من المدينة نارًا، فأمرَ عُمرُ بالصَّدقةِ، فتصدَّقَ النَّاسُ، فانطفَأتْ. وفيها مات أُبيُّ بن كعْبٍ. وقيل: مات سنةَ عشرين، وقيل اثنتين وعشرين. وقيل: اثنتين وثلاثين، والله تعالى أعلم.

وحجَّ عمرُ رضي اللّهُ تعالى عنه بالنَّاس في هذه السَّنةِ.

* * *

---

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع. (٢) جشّمه أمرًا: كلفه إياه.

(٣) حرة ليلى: الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار... وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة... (معجم البلدان لياقوت).

سنة عشرين من الهجرة

في هذه السّنةِ عَزَل عمر رضي الله عنه قدامةَ بنَ مظعون عن البحريْن، ووَلَّى عثمان بنَ أبي العاص. وقيل: بل استعمَل أبا هُريرة على البحريْن، واليمامة، وقيل: استعمل أبا بكْرة على البحرين واليمامةَ.

وكان سببُ عزْلِ قُدامة، أنَّ الجارُودَ بنَ المعلّى سيّد عبد القيْسِ قدِمَ على عمرَ من البحرين، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ قدامةَ شَرِبَ فسَكِر، وإنِّي رأيْتُ حدًّا من حدُودِ اللّهِ حقًّا عليّ أن أرْفعه إليك. فقال عمرُ: مَنْ يَشْهَدُ معك؟ فقال: أبو هُريرة، فدعا أبا هريرة فقال: بِمَ تشْهَدُ؟ قال: لم أرَهُ يشْرَبُ، ولكنْ رأيتُه سَكران يَقِيء. فقال عمرُ: لقد تنطَّعْتَ[1] في الشَّهادةِ.

ثمَّ كَتب إلى قُدامة أن يَقْدَمَ عليْه من البحريْن، فقدم، فقال الجارودُ: أقِمْ على هذا حدَّ كتابِ اللّهِ. فقال عمرُ: أخصْمٌ أنت أم شهيد؟ فقال: شَهيد. فقال: قد أدّيْتَ شهادَتك.

فصَمَتَ الجارودُ، ثم غدا على عمرَ فقال: أقِمْ على هذَا حدَّ اللّهِ فقال عمرُ: ما أراك إلاَّ خَصْمًا، وما شهدَ أحدٌ بعدُ إلاَّ رجُلًا واحدًا.

فقال الجارودُ: إنّي أنشدُكَ اللّهَ! فقال عمرُ: لتُمسِكنَّ عنّي لسانَكَ وإلاَّ سُؤْتُكَ. فقال: يا عمرُ، أما والله ما ذَاكَ بالحقِّ أن يشْربَ ابنُ عمِّك الخَمْرَ وتسوءني! ثم قال: يا عمرُ، إنْ كنتَ تشك في شَهادَتِنا فأرسِلْ إلى ابنةِ الوليدِ فسلْهَا، وهي امرأة قُدامة.

فأرسَل عمرُ إلى هند ابنة الوليد ينشدها، فأقامتْ الشَّهَادَةَ على زَوجِهَا، فقال عمرُ لقُدَامة: إنّي حادُّك، فقال: لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تَحدّوني، فقال عمرُ: لِمَ؟ قال قدامةُ: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ...﴾ [المائدة: ٩٣] الآية.

فقال عمرُ: أخطأْتَ التأويلَ، إنَّك إذا اتَّقيْتَ الله اجتنبْتَ ما حرَّمه علَيْكَ، ثم أقبل عمرُ على النَّاس فقال: ما ترونَ في جَلْدِ قُدامَة؟ فقالُوا: ما نرى أن تَجلدَه ما كان مريضًا، فسكتَ على ذلكَ أيّامًا، ثم أصبحَ يومًا قد عزَمَ على جَلْدِه، فقال لأصحابه: ما ترون في جَلْدِ قدامة؟ فقالوا: ما نرى أن تَجْلِدَه ما كان وَجِعًا[2]، فقال عمر: لأنْ يَلْقَى الله تحتَ السِّياط أحبُّ إليّ من أنْ ألقاه وهُو في عُنُقي. ائتُونِي بسَوْطٍ تامٍّ، وأمَر

---

(١) تنطّع في الشيء: غالى وتكلف فيه. (٢) الوجع: الذي أحس بالألم.

بقُدامة فجُلِدَ، فغاضَبَ قدامةُ عمرَ وهَجَره، فلم يزل كذلك حتَّى حجّ عمر وقدامةُ معه، فلمّا قَفَلاَ مِنْ حَجِّهما، ونزل عمر بالسُّقْيَا[1] نام، فلمّا استيقَظَ قال: عجِّلوا عليَّ بقُدامة، فواللّهِ لقد أتاني آتٍ في مَنَامِي فقال: سَالِمْ قُدامةَ فإنّه أخوكَ.

فلمّا أتوْهُ أبَى أنْ يأْتِيَ، فأمر عمرُ به إنْ أبى أن يَجُرُّوه إليه، فجاءه فاستغفرَ له عمرُ وكلَّمَهُ، فكان ذلك أوّل صُلْحهما.

حكاه أبو عُمَر. قال: وكان قدامةُ خالَ عبد الله وحفصةَ ابنَيْ عمرَ رضي الله عنهم.

ذكر إجلاء يهود خيبر منها

وفي هذه السَّنَةِ أجْلَى عمرُ رضي الله عنه يهودَ خَيْبَر، وكان رسولُ الله ﷺ لمّا فتح اللّهُ عليه خيبر، دَعَا أهلَها فقال لهم: إنْ شئتم دفعْتُ إليكم هذه الأموال على أن تُعمِلوها، وتكون ثِمارُهَا بيْنَنا وبيْنكم، وأقِرُّكُمْ على ما أقرّهُ اللّهَ عزَّ وجلّ. فقَبِلوا ذلك واشترط عليهم، أنَّا متى شِئْنَا أنْ نخرجَكُم أخرجْنَاكُمْ، وقَدْ تقدَّمَ ذكرُ ذلك مستوفًى في السِّيرةِ النّبويّة، في غَزاةِ خَيْبر.

فلمّا قُبِضَ رسولُ اللّهِ ﷺ أقرَّهم أبو بكرٍ رضي الله عنه على ما أقرَّهم عليه رسولُ اللّهِ ﷺ، وأقرَّهُم عمرُ رضي الله عنه بعدَه إلى هذه السَّنةِ.

ثم بلغَهُ أنَّ رسول اللّهِ ﷺ قال في وجَعِه الَّذِي قبضَهُ اللّهُ فيه: «لا يجتمِعَنَّ في جَزيرة العربِ دِينانِ»، ففَحص عن ذلكَ حتَّى أتاه الثَّبْت، فأرسلَ إلى يهود، فقال: إنَّ الله قد أذِن لي في إجلائِكم، وقَدْ بلغَنِي أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ، قال: لا يجتمعَنَّ بجزيرة العربِ دينانِ، فمن كان عنده عَهْد من رسول الله ﷺ فليأْتِني به أُنْفِذه له، ومن لم يكُنْ عنده عَهدٌ فليتجهّز للجَلاء، فأجْلَى مَنْ لَمْ يكن عندَهُ عَهْدٌ مِنْ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وقال ابنُ إسحاق[2]: حدّثني نافعٌ مولَى عبد الله بنِ عُمَر، عن عبد الله بن عمر

---

(١) السّقيا: الحسيل الذي يفرغ في عرفة ومسجد إبراهيم... وقيل: السقيا بركة وأحساء غليظة دون سميراء للمصّعد إلى مكة، وبين السقيا وسميراء أربعة أميال.. وقيل السقيا: بئر بالمدينة... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ابن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوثان، المطلبي بالولاء، المديني، صاحب المغازي والسير... كان ثبتًا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته فيها... (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

قال: خَرجْتُ أنا والزُّبيرُ بنُ العوّامِ، والمقدادُ بنُ الأسْوَدِ إلى أموالنا بخَيْبَر نتعهَّدها، فلمّا قَدِمنا تفرقنا في أمْوالنا.

قال عبد اللّهِ: فعَدا عليَّ تحت الليل شيءٌ وأنا نائمٌ على فِراشي، فنزعْتُ يَداي مِنْ فرَقي[١]، فلمَّا أصبحْتُ استصْرختُ عليَّ صاحباي، فَأَتياني فسألاني: مَنْ صنع بك هذا؟ فقلتُ: لا أدري، فأصلَحاني ثم قَدِما بي على عمَر، فقال: هذا عمل اليهود.

ثمَّ قام في الناس خَطيبًا فقال: أيُّها النَّاس، إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان عامَل يهود خيْبَر على أنَّا نخرجُهُمْ إذا شِئْنَا، وقد عَدوْا على عبد الله بنِ عمر، فقدعوا[٢] يديْه كما بلغكم، مع عَدْوتِهم على الأنصارِيّ قَبْله، لا نشكُّ أنَّهم أصحابُه، ليس هناك عدوٌّ غيرُهُم، فمن كان له مال بخيبَر فليلحق به؛ فإنّي مخرجٌ اليهود، فأخرجهم.

قال: ورَكب عمرُ في المهاجرين والأنصار، وأخرج معه جبار بن صخرٍ بن أُميَّة ـ وكان خارِص[٣] أهلِ المدينة وحاسِبَهم. وزيدَ بنَ ثابت، وهما قسّما خيبرَ على أهلِها على أصلِ جماعةِ السُّهْمان التي كانت عليها.

وفيها أيضًا أجْلِيَ نصارى نَجْرانَ إلى الكُوفة.

وفيها بعث عمر علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة، وكانت تطرفت بلاد الشام، فأُصيبَ المسلمون، فجعل عمرُ على نفسه ألاَّ يحملَ في البحر أحدًا أبدًا ـ يعني للغَزْو ـ.

وقيل: كان ذلك في سنة إحدى وثلاثين في خلافة عثمانَ رضي الله عنه.

ذكر عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة ومن وليَ بعدَه في هذه السنة

سنة إحدى وعشرين

وفي هذه السنة عزلَ عمرُ بنُ الخطابَ رضي الله عنه سعدَ بنَ أبي وَقَّاص عن الكوفة؛ حين شكاهُ أهلُهَا، ووَلَّى عمَّار بنَ ياسِر الصَّلاة، وعبدَ اللّهِ بنَ مسعودٍ بيت المال، وعثمان بنَ حُنيف مساحةَ الأرضِ، ثم عَزَل عَمّارًا؛ لأنّ أهلَ الكُوفةِ شَكَوْه، فأستَعْفَى.

---

(١) الفرق: الجزع واشتداد الخوف. (٢) قدع: كفّ ومنع.
(٣) الخارص: الذي يقطع النخل.

وأعاد سَعْدًا على الكوفةِ ثانيةً، ثم عَزَله، وولّى جُبَيْر بْنَ مُطعِم، ثم عَزَله قبلَ أنْ يَخرُج إليها، وكان سببُ عزله أنّ عمرَ رضي الله عنه ولاه، وقال له: لا تذكُرْه لأحد، فسمع المغيرةُ بنُ شُعْبة أنّ عمرَ خلا بجُبَيرِ بنِ مُطعم، فأرسلَ امرأته إلى امرأةِ جُبَيْر لتَعرِضَ عليها طعامَ السَّفرِ، فقالت: نعم، جِيئيني به.

فلمّا علم المغيرةُ جاء إلى عمرَ، فقال: بارك الله لك فيمَنْ ولَّيْتَ. وأخبَرَهُ الخبرَ، فعَزَله، وولّى المغيرةَ بنَ شعبة الكُوفة، فلم يزلْ عليها إلى أن قُتِلَ عُمَر.

وقيل: إنّ عمر رضي الله عنه لمّا أراد أن يُعيدَ سَعْدًا إلى الكُوفَةِ أبى عليه، وقال: أتأمُرني أنْ أعودَ إلى قوم يزعمون أنّي لا أُحسِن أنْ أُصَلّيَ، فَتَركه وولّى خالد بنَ الوليد.

وقيل: في سنة اثنتين وعشرين، قيل: كانت وفاتُه بِحمْص، ودُفِن في قريةٍ على مِيلٍ منها. وقيل: بل تُوفّيَ بالمدينة.

ولمّا حضرتّه الوفاةُ قال: لقد شهدتُ مائةَ زحْفٍ أو زُهاءها وما في جَسَدي موضعُ شِبْرٍ إلاّ وفيه ضَربةٌ أو طَعْنةٌ أو رَمْيَةٌ، ثمّ هاأنذا أموتُ على فِراشي كما يموتُ العَيْرُ! فلا نامت أعيُن الجُبَنَاء.

حَكى أبو عمَر: أنّه لَم تَبقَ امرأةٌ من بَني المُغيرة إلاّ وضَعَتْ لِمَّتها على قبرِ خالدِ بنِ الوَليد، أي حلقَتْ رأْسَهَا.

قال المؤرّخ: وكان الأُمراءُ في هذه السّنةِ على الأمصار، عُمَير بن سَعْد على دِمَشق وحَوْران وحِمْص وقِنَّسْرِين والجَزيرة. ومعاوية بن أبي سُفيَان على البَلْقاء والأُرْدنّ وفِلَسْطِين والسَّواحل وأنطاكِيَة وقلقية ومَعرّة مصرين، والعمّال على بقية الأمصار مَنْ ذَكَرْنا.

وفيها وُلِدَ الحسنُ البَصْري[1] والشّعبيُّ. وفيها مات العلاءُ بنُ الحَضْرميّ أميرُ البحْرين، فاستَعْملَ عمرُ رضي الله عنه مكانَه أبا هُريرة.

وحجَّ عمرُ رضي الله عنه بالنّاس، وآستخلَفَ على المدينة زيدَ بنَ ثابت.

* * *

(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة... (وفيات الأعيان ٢:٦٩).

سنة اثنتين وعشرين

في هذه السنَةِ وُلِدَ يزيدُ بنُ معاوية، وعبدُ الملكِ بنُ مروان، وكان عمّالُه على الأمصار مَنْ ذَكَرْنا إلاّ الكوفةَ والبَصْرة؛ فإنّ عاملَه على الكُوفةِ المغيرةُ بنُ شعبةَ، وعلى البصْرةِ أبو موسى.

* * *

سنة ثلاث وعشرين

وفي هذه السَّنةِ حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاسِ، وحجّ معه أزواجُ رسولِ اللّهِ ﷺ، وهي آخر حجَّةٍ حجَّها.

وفيها كان مَقْتَلُ عمرُ رضي الله عنه وأرضاه بمنّه وكرمِه.

ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب
ومدة خلافته

قد اَختُلف في تاريخِ مَقْتَلِهِ رضي الله عنه، فقال الواقديُّ: لثلاثٍ بَقِين من ذي الحِجَّةِ سنةَ ثلاثٍ وعشرين. وقال الزُّبير: لأربع بَقِين من ذي الحِجّة.

ورويَ عَنْ مَعدانَ بن أبي طلحة اليَعْمُريّ، قال: قتِلَ عمرُ يومَ الأربعاءِ لأربعٍ بَقين مِنْ ذي الحِجّة.

وكانت خلافَتُهُ رضي الله تَعَالى عَنه عَشْرَ سنين ونصفًا وخمسَ ليالٍ، وعمرُهُ ثلاثٌ وسِتُّون سنةً على الصَّحيح.

وقتلَهُ أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةَ بنِ شُعبة؛ وذلك أنّ عمرَ رضي الله عنه خرجَ يومًا يطوفُ في الأسواق، فلقيَهُ أبو لؤلؤة فَيْرُوز ـ وكان نصرانيًا، وقيل: مَجُوسيًّا ـ وقد ذكرْنا ما كان يقوله لمّا قَدِم سَبْيُ نَهَاوَنْد: أكَل عمرُ كَبِدِي، فلمّا لقِيَه قال: يا أميرَ المؤمنين، أعْدِنِي[1] على المغيرة بنِ شعبة؛ فإنّه يكلّفُني خَراجًا كثيرًا، قال: كم يحمِّلك؟ قال: مائة درهم في الشّهر. وقيل: إنّه قال: درهمان في كلِّ يوم، قال: وما صناعتُكَ؟ قال: نجّارٌ نقّاش حدّادٌ. قال: فما أرى خراجَكَ كثيرًا على مَا تَصنَع من الأعمالِ، وقد بلغني أنّكَ تقولُ: لو أردتُ أنْ أصنَعَ رحًا تَطحنُ بالرِّيح لفعلْتُ. قال: نعم، قال: فاعمل لي رحًا. قال: إنْ سلِمْتُ لأعملَنّ لك رحًا يتَحدَّث بها أهلُ المَشْرقِ والمغربِ.

---

(١) أعدني: أعنّي.

فقال عمرُ: قد أوْعَدَني العِلْجُ الآن، ثم انصرفَ عُمر إلى منزله.

فلمّا كان من الغدِ جاء كعبُ الأحبارِ إلى عمرَ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، اعهَدْ فإنَّك ميّتٌ في ثلاثٍ، قال: وما يُدْريك؟ قال: أجدُهُ في كتابِ التوراة، قال عمر: إنَّك لتجدُ عمرَ بنَ الخطّابِ في التّوراة؟ قال: اللّهم لا؛ ولكنّي أجدُ صِفَتَكَ وحِلْيتك. قال: وعمر لا يَجِد وَجَعًا، ثم جاءه من الغدِ وقال: بقِيَ يومانِ، ثم جاءه من غَدِ الغَدِ وقال: قد مضى يومانِ، وقد بقي يومٌ.

فلمّا أصبحَ خرج عمرُ إلى الصَّلاةِ، وكان يوكِّل بالصفوف رجُلًا، فإذا استوَتْ كبَّر، ودخَل أبو لؤلؤة في النَّاس، وفي يدِهِ خنْجَرٌ له رأسان، نصَابُهُ في وَسَطِه، فضربَ عُمرَ سِتّ ضَرَباتٍ، إحداهُنَّ تحتَ سُرَّتِهِ، وهي الّتي قتلَتْهُ، وقتِلَ معه كُلَيْب بن البُكير اللَّيثيّ وجماعةٌ غيره.

رُوِيَ أنّه طُعِنَ معه اثنا عشرَ رجلًا، وقيل: ثلاثة عشر، ماتَ مِنْهم ستّةٌ، فلمّا وجَدَ عمر حَرّ السّلاحِ سقط، وأمَر عبدَ الرّحمٰنِ بنَ عوفٍ فصلّى بالنّاسِ وهو طريحٌ، فاحْتُمِلَ، فأُدْخِل بَيْتَه ودعا عبد الرّحمٰنِ، فقال: إنّي أُريدُ أنْ أعهدَ إليْك، قال: أتشيرُ عليَّ بذلك؟ قال عُمر: اللّهمَّ لا، فقال: واللّهِ لا أدخُلُ فيه أبدًا. قال: فهبْنِي صَمْتًا؛ حتّى أعهدَ إلى النَّفرِ الّذِين تُوُفّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهو عنهم رَاضٍ، ثم دعا عليًّا، وعُثْمانَ، والزُّبيرَ، وسَعْدًا، وقال: انتظروا أخاكُمْ طلحة ثلاثًا، فإنْ جاء وإلاّ فاقْضُوا أمرَكم.

أنشُدكَ الله يا عليّ، إن وليتَ من أمورِ النَّاسِ شيئًا على ألاّ تَحملَ بني هاشم على رقابِ النّاس.

أنشُدكَ الله يا عثمانُ، إن وليتَ من أُمورِ النَّاس شيئًا ألاّ تحمل بني أبي مُعَيْط على رقابِ النّاسِ.

أنشُدكَ الله يا سَعْد إن وَليتَ من أمورِ النَّاسِ شيئًا ألاّ تحمل أقاربكَ على رقابِ النّاسِ.

قُوموا فَتشاوَرُوا، ثم اقْضُوا أمرَكم، وليصَلِّ بالنّاسِ صُهَيبٌ، ثم دعا أبا طلحةَ الأنصاريَّ فقال: قُمْ على بابهم فلا تَدَعْ أحدًا يدخل إليهم، وَأوْصِ الخليفةَ مِنْ بعْدِي بالأنْصَار الّذِين تبوّؤوا الدّارَ والإيمانِ، أن يُحْسِن إلى مُحْسِنهم، وأنْ يعْفُوَ عن مُسيئِهم، وأوْصِ الخليفةَ بالعَربِ؛ فإنّهم مادّةُ الإسْلامِ، أن تؤخذ من صدقَاتِهم حَقُّها، فتوضَع فِي فُقَرَائِهم، وأوْصِ الخليفةَ بذِمّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ أن يُوفِيَ لهم بعَهْدِهم.

اللَّهُمَّ هَلْ بلَّغتُ! لقد تركتُ الخليفةَ من بَعْدِي على أنقى من الرَّاحةِ، ثم قال لابنهِ عبدِ الله: انظرْ مَنْ قَتَلني؟ فقال: قَتَلَكَ أبو لؤلؤة، فقال: الحمدُ للّهِ الَّذي لم يجعلِ منيَّتي على يَدِ رَجلٍ ما سَجَدَ لله سجدةً واحدةً، وأرسل عبدَ الله ٱبنَه إلى عائشةَ، فاستأذَنَهَا أنْ يُدفنَ مع النبي ﷺ وأبي بكرٍ رضي الله عنه، ثم قال: يا عبدَ اللّهِ، إن ٱختلفَ القومُ فكنْ مع الأكثرِ، فإنْ تساوَوْا فكُنْ مع الحِزْبِ الَّذي فيه عبدُ الرَّحمٰن بنُ عَوْفٍ.

يا عبدَ اللّهِ، ائذَنْ للنَّاسِ، فدخل عليه المهاجِرُونَ والأنصار، فجعلوا يسلِّمونَ عليه، فيقولُ لهم: هذا عن مَلأ مِنْكُمْ؟ فيقولون: معاذ الله! ودخل كعبُ الأحبارِ مع النَّاسِ، فلما رآه عمرُ رضي الله تعالى عنه قال: [من الطويل]

وأوْعَدَني كعبٌ ثلاثًا أعُدُّها ... ولا شكَّ أنَّ القولَ ما قالَهُ كَعْبُ
وما بي حذارُ الموتِ إنِّي لَميِّتٌ ... ولكن حذار الذَّنْبِ يَتْبَعُه الذَّنْبُ

قال: ولمّا طعنَ أبو لؤلؤة عمرَ، ومَنْ طُعن معه، رَمَى عليه رجلٌ من أهل العراقِ بُرْنسًا[1]، ثم نزل عليه، فلمّا رأى أنَّه لا يستطيعُ أنْ يتحرَّكَ، وجَأ نفسه فَقَتَلها.

قال أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرِّ: ومن أحسنِ شيءٍ يُرْوَى في مَقْتلِ عمرَ وأصحُّه ما رواه بسندِه إلى عمرو بن ميمونٍ، قال: شهِدْت عُمَر يومَ طُعِنَ ومات، ومَا منعَني أن أكونَ في الصَّفِّ المقدَّم إلاَّ هَيْبَتُه ـ وكان رجلاً مَهيبًا ـ فكنتُ في الصَّفِّ الَّذي يليه، فأقبلَ عمر، فعرَض له أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةِ بنِ شُعْبة، ففاجأ عمرَ قبل أن تَستَوِيَ الصُّفُوفُ، ثم طعَنَهُ ثلاثَ طَعَناتٍ، فسمعتُ عمرَ وهو يقولُ: دُونكم الكَلْبَ فإنَّه قد قَتَلَنِي، وماجَ النَّاسُ وأسرَعوا إليه، فجرح ثلاثة عشرَ رجُلًا، فانكفأ عليه رَجلٌ من خَلْفِه فاحتَضَنَهُ، وحُمِلَ عمرُ، فماج النَّاسُ بعضُهم في بَعْضٍ حتَّى قال قائلٌ: الصَّلاة يا عبادَ اللّهِ، طلعتِ الشمسُ.

فقدَّموا عبدَ الرَّحمٰنِ بنَ عوفٍ فصلَّى بنا بأقْصَرِ سورتَيْنِ في القرآن، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] و﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، واحتُمِلَ عمرُ، ودخلَ النَّاسُ عليه، فقال: يا عبدَ اللّهِ بنَ عبَّاسٍ، اخرج فنادِ في النَّاسِ: أعن مَلإٍ منكمْ هذا؟ فخرج ابنُ عبَّاسٍ، فقال: أيُّها النَّاسُ، إنَّ أميرَ المؤمنين يقول: أعن ملإٍ منكم هذا؟ فقالوا: معاذَ الله! والله ما علِمْنا ولا اطَّلَعْنا. وقال: ادْعُوا

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به؛ أو القلنسوة الطويلة؛ أو رداء ذو كمين يلبس بعد الاستحمام.

إليّ الطبيبَ فَدُعِي الطبيبُ فقال: أيُّ الشَّرابِ أحبُّ إليك؟ فقال: النَّبيذُ، فَسُقِيَ نبيذًا فخرج مِنْ بعضِ طعَناته، فقال النَّاسُ: هذا دمٌ، هذا صديدٌ[١]، فقال: اسْقوني لَبَنًا، فسُقِيَ لبنًا، فخرجَ مِنَ الطَّعْنَةِ، فقال له الطَّبيبُ: لا أرى أنْ تُمْسِيَ، فما كنتَ فاعلاً فافعل.

وروى أبو عمرَ أيضًا بسندِه إلى عَوْفِ بنِ عَوْفِ بنِ مالكِ الأشْجَعيّ: أنّه رأى في المنامِ، كأنَّ النّاسَ جُمِعُوا، فإذا فيهم رَجل فَرَعهم فهو فوْقَهم بثلاثةِ أذرعٍ.

قال: فقلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فقالوا: عمر. قلت: ولم؟ قالوا: لأنّ فيه ثلاث خصالٍ، لأنّه لا يخافُ في اللّهِ لوْمةَ لائمٍ، وأنّه خليفةٌ مستَخْلَف، وأنّه شهيدٌ مُسْتَشهَد.

قال: فأتى أبو بكر فقصَّها عليه، فأرسلَ إلى عمرَ فدعَاهُ ليبشِّرَه، فجاء عمرُ فقال لي أبو بكر: اقْصصْ، قال: فلمَّا بَلَغْتُ خليفة مستخلَفٌ، زَبَرَني[٢] عمرُ وانتَهَرَني، وقال: اسْكُتْ، تقول هذا وهو حَيٌّ!

قال: فلمّا كان هذا بعد، ووَلِي عمرُ، مَرَرْتُ بالمَسْجدِ وهو على المنبرِ، فدعاني وقال: اقصصْ عليَّ رؤياك، فقصَصْتُهَا، فلمّا قُلْتُ: إنَّه لا يخاف في اللّهِ لومةَ لائم قال: إنّي لأرجو أن يجعلَني اللّهُ منهم، قال فلمّا قلْتُ: «خليفةٌ مُسْتَخْلَفٌ» قال: قد استخلَفَني اللّهُ، وأسأله أن يعينَني على ما ولاّني، فلما أنْ ذكرتُ: «شهيدٌ مستشهَد»، قال: أنّى لي بالشّهادةِ وأنا بين أظْهرِكُمْ تَغْزُونَ ولا أغْزُو! ثم قال: بلى يأتي الله بها إن شاء، يأتي الله بها إن شاء.

وقد رَوَى مَعمَر عن الزُّهري، عن سالم، عن ابن عمرَ رضي الله تعالى عنهم: أنَّ النَّبيّ ﷺ رأى على عمرَ قميصًا أبيضَ، فقال: أجديدٌ قميصُكَ هذا، أم غسيلٌ؟ قال: بَلْ غَسِيلٌ. قال: «البسْ جديدًا، وعِشْ حميدًا، ومُتْ شهيدًا، ويرزُقُكَ الله قرَّة عَيْنٍ في الدُّنيا والآخرة»، قال: وإيّاكَ يا رسول الله.

ورُوِي عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: ناحت الجِنُّ على عمرَ قبلَ أنْ يُقْتَلَ بثلاثٍ، فقالتْ: [من الطويل]

أبعدَ قتيلٍ بالمدينةِ أظْلَمَتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأسْوُقِ[٣]

جَزَى اللّهُ خيرًا من إمامٍ وباركتْ ... يدُ الله في ذاك الأديمِ الممزَّقِ

---

(١) الصديد: القيح يفسد به الجرح.
(٢) زبره: منعه ونهاه وزجره.
(٣) العضاه: كل شجر له شوك صغر أو كبر.

فمن يَسْعَ أو يَرْكَبْ جناحَيْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما قدَّمْتَ بالأمْسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أمورًا ثم غادرْتَ بَعْدَها بَوائقَ من أكامِها لم تُفَتَّقِ[١]
وما كنتُ أخشَى أنْ تكونَ وفاتُه بكفِّ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطرِقِ[٢]

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر قصة الشّورى

قال: وقيل لعمَر: لو استخلفْتَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لو كان أبو عبيدةَ حَيًّا لاستخلفتُه، وقلتُ لربِّي إنْ سألني: سمعتُكَ وسمِعْتُ نبيّك يقولُ: إنَّه أمينُ هذه الأمّةِ، ولو كان سالمٌ مَولَى أبي حُذَيفَة حيًا لأستخلفتُه، وقلتُ لربِّي إن سَألَني: سمعتُ نبيَّك يقول: «إنّ سالمًا شديدُ الحبِّ لله».

فقال له رجلٌ: أدُلُّكَ على عبد الله بن عمر؟ فقال: قاتلَكَ اللّهُ! ما أردت بهذا ويحك! كيف أستخلف مَنْ عجز عن طلاق امرأته! لا أرَب لنا في أُموركم، ما حمِدْتُها فأرغَبُ فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيْرًا قد أصبْنا مِنه، وإنْ كان شرًّا قد صُرِفَ عنّا، بِحَسْب آلِ عمرَ أن يُحَاسَبَ منهم رجلٌ واحدٌ، ويُسأل عَنْ أُمّةِ محمَّدٍ! أما لقد جَهدتُ نفسِي، وحرَمْتُ أهلي، وإنْ نجوتُ كَفافًا لا أجْر ولا وِزْرَ، إنّي لَسعيد. أنظرُ فإن استَخلفْتُ، فقد آستخلَفَ مَنْ هو خيْرٌ منّي، وإنْ أتْرُكْ فقد ترك من هو خيرٌ مني، ولنْ يضيِّعَ اللّهُ دينَه.

فخرجُوا، ثم راحُوا فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، لو عهدتَ عهدًا! فقال: قد كنْتُ أجمعْتُ بعد مقالتي أن أنظرَ فأولّيَ رجلاً أمركم، وهو أحْراكم[٣] أنْ يحملكُم على الحقِّ - وأشار إلى عليٍّ - فرهِقَتْني غَشْيةٌ، فرأيتُ رجلاً دخل الجنَّةَ، فجعلَ يقطِفُ كل غَضَّةٍ ويانِعةٍ فيضمه إليه، ويُصَيِّره تحته، فعلمْتُ أنَّ الله بالغُ أمرِه، فما أردْتُ أن أتحمّلَها حيًا وميّتًا.

عليكم هؤلاء الرّهط الّذين قال رسول اللّهِ ﷺ: إنَّهُمْ مِنْ أهل الجنَّةِ، وهم: عليٌّ وعثمانُ وعبدُ الرَّحمٰن وسعد، والزُّبير بنُ العوام، وطلحةُ بنُ عُبيدِ اللّهِ، فلتختاروا منهم رجُلًا، فإذا وَلّوْا واليًا فأحْسِنُوا مُوازَرَته وأعِينوه، وخَرَجوا.

---

(١) الكم: برعوم الثمرة؛ أو وعاء الطلع. وتفتق: تشقق.
(٢) السبنتى: النمر.
(٣) الأحرى: الأفضل والأجدر.

فقال العبّاسُ لعليٍّ: لا تدخُلْ معهم، إنّي أكرَهُ الخلافَ، قال: إذَنْ ترى ما تكره، فلما أصبحَ عمرُ دعا عليًّا، وعثمانَ، وسعدًا، وعبدَ الرّحمٰن، والزبيرَ، فقال: إنّي نظرتُ فوجدتُكُمْ رؤساءَ النّاسِ وقادتَهم، ولا يكون هذا الأمرُ إلاّ فيكم، وقد قُبِضَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهو عنكم راضٍ. إنّي لا أخاف النّاسَ عليكم إن استَقَمْتُمْ؛ ولكنّي أخافكمْ فيما بينكم، فيختلف النّاس، فانهضُوا إلى حُجرةِ عائشة بإذنها، فتَشَاوروا فيها. ووضَعَ رأسه وقد نَزَفه الدَّمُ، فدخلوا فتناجَوْا[١]؛ حتى ارتفعتْ أصواتُهم.

فقال عبدُ اللّهِ بنِ عمر: سبحان الله! إنّ أميرَ المؤمنين لم يَمُتْ بعد، فسمعَهُ عمر: فأنتبَهَ، وقال: أعرِضُوا عن هذا، فإذا أنا مِتُّ فتشاورُوا ثلاثةَ أيّام، وليصلِّ بالنّاسِ صُهَيبٌ، ولا يأتِيَنَّ اليومُ الرابعُ إلاّ وعليكم أميرٌ منكم، ويحضُر عَبدُ اللّهِ بنُ عمرَ مُشِيرًا، ولا شيء له من الأمرِ، وطلحة شريككم في الأمرِ، فإنْ قدمَ في الأيّام الثّلاثةَ فأحْضِرُوه، وإنْ مضتْ الأيّام الثّلاثةُ قبل قدومه فأمضوا لأمْركم. ومَنْ لي بطلحة؟ فقال سعدُ بنُ أبي وقّاص: أنا لكَ بهِ، ولا يُخالِف إن شاء الله تعالى.

فقال عمرُ رضي الله عنه: أرجو ألاّ يخالِف إن شاء الله، وما أظن أنْ يليَ هذا الأمر إلا أحد هذيْن الرَّجُلين: عليّ أو عثمان.

فإن وُلّيَ عثمانُ، فرجل فيه لِين، وإن وُلّيَ عليّ ففيه دُعابة وأحْرِ به أن يَحمِلَهم على الحقّ، وإن تُولُّوا سعْدًا فأهْلُهَا هو وإلاّ فليستعن به الوالي؛ فإنّي لم أعزِلْه عن ضَعْفٍ ولا جِناية، ونِعْمَ ذُو الرأي عبد الرّحمٰن بن عوف! فاسمَعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إنّ الله تعالى طالما أعزَّ بكم الإسْلام، فاخترْ خمسينَ رجُلًا من الأنصارِ، فأستحِثَّ هؤلاء الرّهْطَ حتّى يختارُوا رجُلًا منهم.

وقال للمقدادِ بن الأسْودِ: إذا وضَعْتُموني في حُفْرَتي، فاجمعْ هؤلاء الرّهطَ في بيتٍ حتّى يختاروا رجُلًا.

وقال لِصُهَيب: صَلِّ بالنّاسِ ثلاثةَ أيام، وأدخل هؤلاء الرّهْط بيتًا، وقُمْ على رؤوسهم، فإن اجتمعَ خمسةٌ وأبى واحدٌ فاشْدَخ[٢] رأسَه بالسَّيفِ، وإن اتّفق أربعةٌ وأبى أثنان فأضربْ رأسيهما، وإنْ رضِيَ اثنان رجلًا، واثنان رجُلًا، فحكِّمُوا عبدَ الله بن عمرَ، فإن لم ترضَوْا بحكمِهِ فكونوا مع الّذِين فيهم عبد الرّحْمٰن بنُ عوْفٍ، واقتلوا

---

(١) تناجى القوم: تسارّوا.
(٢) شدخ: شجّ.

الباقين إنْ رغِبُوا عمَّا اجتمعَ فيه النَّاس، فخرجوا، فقال عليٌّ لقوم معه مِنْ بني هاشِم: أن أُطِعَ فيكم قومَكُم لم تؤمَّروا أبدًا، وتلقَّاه عَمُّه العبّاسُ فقال: عُدِلَتْ عنّا، قال: وما عِلْمُكَ؟ قال: قرن بي عثمانَ، وقال: كونوا مع الأكثرِ، فإن رضيَ رجلان رجُلاً، ورجُلانِ رجُلاً فكونوا مع الذين فيهم عبدُ الرَّحْمٰن، فسَعْدٌ لا يخالِفُ ابن عَمِّه، وعبدُ الرَّحمٰن صهرُ عثمان لا يَخْتلفان فيولِّيها أحدُهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم يَنفَعاني.

فقال له العبّاسُ: لم أدْفَعْكَ في شيءٍ إلاَّ رجعْتَ إليَّ مستأخِرًا لما أكْره، أشرْتُ عليك عند وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمرُ، فأبيتَ، وأشرتُ عليك بعد وفَاتِه أنْ تُعَاجِلَ الأمرَ فأبَيْتَ، وأشرتُ عليك حين سمَّاك عمرُ في الشّورى ألاَّ تدخُلَ معهم فأبَيْت.

احفظْ عنّي واحدةً، كلَّما عَرَضَ عليك القومُ، فقل: لا، إلاَّ أن يُوَلُّوكَ، واحذرْ هؤلاء الرَّهْطَ؛ فإنَّهم لا يبرحُونَ يدفعوننا عن هذا حتَّى يقوم به لنا غيرنا. وأَيمُ اللّهِ لا تناله إلاَّ بشر لا ينفعُ معه خيرٌ.

فلمّا مات عمر ودُفِن، جمعَ المقدادُ أهلَ الشُّورى في بيْت المسور بن مخرمة، وقيل: في بيت المال. وقيل: في حُجْرَة عائشةَ بإذنها، وطلحةُ غائبٌ، وأمروا أبا طلحة أن يَحْجُبَهُمْ.

وجاء عمرُ بنُ العاص والمغيرةُ بنُ شعبة فجلسا بالباب، فحصبَهما[1] سَعْدٌ وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا: حَضَرْنا وكنَّا في أهلِ الشُّورَى! فتنافسَ القومُ في امْرِ وكثر بينهم الكلامُ، فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأَنْ تَدْفعُوها أخوَف منِّي لأن تنافَسوها، لا وَالَّذِي ذَهَب بنفسِ عمرَ لا أزيدُكُمْ على الأيّامِ الثلاثةِ الَّتي أمر، ثم أجلسُ في بيتي فأنظرُ ما تَصْنعون.

فقال عبدُ الرّحمٰن: أيُّكُمْ يُخرِجُ منها نفسَه ويتقلَّدُها على أن نولِّيَهَا أفضلَكُمْ، فلم يجبْه أحدٌ، فقال: أنا أنخلِعُ منها.

قال عثمانُ: أنا أوّل مَنْ رضِيَ، قال القومُ: قد رضِينا، وعليٌّ ساكِتٌ، فقالَ ما تقول أبا الحَسَن؟ قال: أعْطِني مَوْثِقًا لتؤثِرَنَّ الحقَّ ولا تتَّبع الهوى، ولا تخصّ ذا رحِم لرحِمه، ولا تألوا الأُمّة، فقال: اعطُوني مواثقكم على أن تكونوا معي على من بدَّلَ وغيّر، وأن ترضوْا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله ألاّ أخصّ ذا رحِمٍ لرحمه ولا آلو المسلمين قال: فأخذ منهم ميثاقًا، وأعطاهم مِثْلَه.

---

(١) حصبه: رماه بالحصباء ونحوها.

فقال لعليّ: تقولُ: إنّي أحقُّ مَنْ حَضَرَ هذا الأمر، لِقَرابتك من رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وسابِقَتك وحُسْنِ أثَرِك في الدِّين، ولم تُبْعِد؛ ولكن أرأيتَ لو صُرِف هذا الأمرُ عنك ولم تحضُرْ إلى هؤلاء الرَّهْطِ، من تَراهُ أحقّ به؟ قال: عثمان، وخلا بعثمان فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل، فأين يُصرف هذا الأمر عنّي؟ ولكن لو لم تحضر، أيّ هؤلاء أحقُّ به؟ قال عليّ. ولقي عليّ سَعْدًا فقال: اتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءلون به والأرحامَ، أسألُك برحِمِ ٱبني هذا مِن رسولِ الله ﷺ وبرحِمَ عمّي حمزة ألا تكون مع عبد الرحمٰن ظهيرًا لعثمانَ عليّ. ودار عبد الرحمٰن ليلقى أصحابَ رسول الله ومَنْ وافَى المدينةَ من أُمراء الأجْنَادِ وأشرافِ النَّاسِ يشاوِرُهم؛ حتَّى إذا كانت اللَّيلة الَّتي صبيحتُها يُسْتَكمَل الأجل، أتَى منزلَ المسورَ بن مَخْرَمة فأيقظَه وقال له: لم أذُقْ في هذه اللَّيْلة كثيرَ غَمْضٍ، انْطَلِقْ فٱدعُ الزُّبيرَ وسعدًا؛ فدعاهما، فبدأ بالزُّبير فقال له: خلِّ عبد بني مَناف، وهذا الأمر، قال: نصيبي لعليّ. وقال لسعد: اجعلْ نصيبَك لي، فقال: إن ٱخْتَرْتَ نفسَكَ فنَعَم، وإنْ اخترْتَ عثمانَ فعليٌّ أحبُّ إليَّ، أيّها الرّجلُ، بايعْ لنفسك وأرِحْنا وارفعْ رؤُوسَنَا.

فقال: قد خلَعْتُ نفسي على أنْ أختارَ، ولو لَمْ أفعَل لم أُرِدْها، إنّي رأيتُ روضةً خضراء كثيرة العُشْبِ، فدخَلَ فحْلٌ ما رأيتُ أكرمَ منه، فمرَّ كأنَّه سَهْمٌ لم يلتفِتْ إلى شيءٍ منها؛ حتَّى قطعها، لم يُعَرِّجْ. ودخَلَ بعيرٌ يَتْلوه، فاتَّبع أثره حتَّى خرج منها، ثم دخل فحلٌ عَبْقَرِيٌّ يجُرُّ خِطامه ومَضَى قَصْدَ الأوَّلَيْن، ثم دخل بعيرٌ رابعٌ فوقع في الرَّوضةِ، ولا واللّهِ لا أكون الراتعَ الرابع، ولا يقوم مقامَ أبي بكر وعمرَ بَعدهما أحدٌ فيَرضى النَّاسُ عنه.

قال: وأرسلَ المسور، فٱستدعَى عليًا فناجاه طويلاً وهو لا يشكُّ أنّه صاحبُ الأمرِ، ثم نهضَ، ثم أرسَل إلى عثمان فتناجَيَا حتَّى فرّق بينهما الصُّبْحُ، فلمّا صلَّوا الصبحَ جمعَ الرّهطَ، وبعث إلى مَنْ حضره من المُهاجِرين وأهلِ السّابقةِ والفَضْلِ من الأنصار، وإلى أُمراء الأجنادِ، فٱجتمعوا حتى ٱلتحمَ المسجدُ بأهله، فقال:

أيّها النَّاس، إنَّ النَّاسَ قد أحبُّوا أن يرجعَ أهلُ الأمصارِ إلى أمصارِهم، وقد علموا مَنْ أمِيرهم، فأشيروا عليّ.

فقال عمّارُ بن ياسِر: إذا أرَدْتَ ألاّ يختَلفَ المسلمون فبايع عليًّا.

فقال المِقدادُ بنُ الأسودِ: صَدَقَ عمّارُ إنْ بايعت عليًا، قلنا: سمعْنا وأطعْنَا.

وقال ابن أبي سَرْح: إذا أردْتَ ألاّ تَختلفَ قريْشٌ فبايعْ عثمان.

فقال عبد اللّهِ بنُ أبي ربيعة: صدقْتَ، إن بايعْتَ عثمان قلْنَا: سمعنا وأطعْنَا.

فشَتَم عمّار بنَ أبي سَرْح، وقال: متى كنْتَ تنصَحُ المسلمين! فتكلَّم بنو هاشم وبنو أُميَّة، فقال عمّار: أيّها النَّاسُ، إنَّ الله أكْرَمنا بنبيّه، وأعزَّنا بدِينه، فأنى تَصرِفُونَ هذا الأمرَ عن أهل بيْتِ نبيّكم!

فقال رجلٌ من بني مخزومٍ: لقدْ عَدوْتَ طَوْرَكَ يا بْنَ سُميَّة، وما أنت وتأمير قُرَيْش لأنفسِها!

فقال سعدُ بنُ أبي وقَّاص: يا عبدَ الرّحمٰنِ، افرغْ قبلَ أنْ يفْتَتِنَ النَّاسُ، فقال عبدُ الرحمٰنِ: إنّي قد نظرْتُ وشاوَرْتُ، فلا تجعلُنَّ فيها أيّها الرّهطُ على أنفسِكم سبيلاً، ودعا عليًا، فقال: عليك عهدُ اللّهِ وميثاقُه، لتَعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسنَّةِ رسولِه، وسيرةِ الخليفتيْن مِنْ بعده؟ فقال: أرجو أن أفعلَ، فأعمَل بمَبلغِ علمي وطاقتي.

ودعا عثمانَ فقال له مِثلَ ما قال لعليّ، فقال: نعم، فرفع رأسَه إلى سقفِ المسجدِ ويدهُ في يد عثمان، فقال: اللّهمَّ اسمعْ واشهدْ، اللّهمَّ إنّي قد جعلْتُ ما في رقَبتي من ذاك في رقبةِ عثمانَ، فبايَعَهُ.

وقيل: وخرج عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفٍ وعليه عِمامتُه الَّتي عمَّمَهُ رسولُ الله ﷺ متقلِّدًا سيفه؛ حتَّى ركبَ المنبر، فوقف وقوفًا طويلاً، ثم دعا دعاءً لا يَسمعُه النَّاسُ، ثم تكلَّم فقال:

أيّها الناسُ، إنّي قد سألتُكُمْ سِرًا وجهرًا عن إمَامِكم، فلم أجِدْكُمْ تَعدِلونَ بأحدِ هذيْن الرّجليْن: إمّا عليّ، وإمّا عُثمان.

فقُمْ إليَّ يا عليُّ، فقام إليه فوقفَ تحت المنبرِ، وأخذَ عبد الرحمٰنِ بيَدِهِ فقال: هل أنتَ مبَايِعِي على كتابِ اللّهِ وسنةِ نبيّه محمدٍ ﷺ، وفعْلِ أبي بكر وعمر؟ قال: اللّهُمَّ لا، ولكن على جَهْدِي مِن ذاك وطاقَتي.

قال: فأرسَلَ يَدَه ثمّ نادى: قم إليَّ يا عثمان، فأخذ بيَدِهِ، وهو في موقفِ عليٍّ الّذي كان فيه، فقال: هل أنتَ مُبايِعِي على كتاب الله وسنَّةِ نبيّهِ وفعلِ أبي بكرٍ وعمر؟ فقال: اللّهُمَّ نعم، قال: فرفع رأسَه إلى سَقْفِ المسجدِ ويدُه في يدِ عثمان، فقال: اللّهُمَّ اسمَعْ واَشهَدْ ثلاثًا، اللّهُمَّ إنّي قد جعلْتُ ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، قال: فازدحم النَّاس يبايعون عثمانَ حتى غَشَوْهُ عندَ المِنبرِ، فقعد عبدُ الرحمٰن مَقعَدَ النبيِّ ﷺ من المنبر، وأُعقِد عثمانُ على الدّرجةِ الثّانية، فجَعَلَ النَّاس يبايعونه، وتلكّأ عليّ.

فقال عبدُ الرّحمٰن: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فرجع عليٌّ يَشُقّ النَّاسَ حتى بايعَ عثمانَ وهو يقول: خدعة، وأيّ خدعة!

وقيل: لمّا بايعَ عبدُ الرحمٰن عثمانَ قال عليٌّ: ليس هذا أوّلَ يوم تظاهرتُم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ، واللّهُ المستعانُ على ما تَصِفُون، والله ما ولَّيتَ عثمانَ إلا ليُردَّ الأمْرَ إليك، واللّهُ كلَّ يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمٰن: يا عليّ، لا تجعل على نفسِكَ حجّةً ولا سَبِيلًا، فخرجَ عليٌّ وهو يقول: سيبلغُ الكتابُ أجلَه.

فقال المقدادُ: يا عبدَ الرحمٰن، أما واللّهِ لقد تركْتَه، وإنّه من الذين يَقْضُون بالحقّ وبه يَعْدِلون.

فقال: يا مقدادُ، والله لقد ٱجتهدتُ للمسلمين، قال: إن كنتَ أردْتَ الله فأثابَكَ اللّهُ ثوابَ المحسنين.

وقال المقداد: ما رأيت مِثل ما أتى إلى أهْلِ هذا البيتِ بعد نبيِّهم، إنّي لأعجبُ من قُرَيش أنهم تركُوا رجلًا، لا أقولُ ولا أعلمُ أنَّ رجلًا أقْضَى بالعَدلِ، ولا أعلم منه، أما والله لو أجِدُ أعوانًا عليه!

فقال عبدُ الرحمٰن: يا مقدادُ، اتَّقِ الله؛ فإنِّي خائفٌ عليك الفتنةَ.

فقال رجلٌ للمقدادِ: رحمك اللّهُ! مَنْ أهلُ هذا البيت؟ ومَنْ هذا الرَّجل؟ قال: أهل البيت بنو عبدِ المطَّلبِ، والرجلُ عليُّ بنُ أبي طالب.

فقال عليٌّ: إنَّ النَّاسَ ينظرون إلى قريش، وقريشٌ تنظر بينها فتقول: إن وَلِّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا، وإن كانت في غيرِهم تداولْتُموها بينَكم.

قال: وقَدِم طلحةُ في اليوم الرّابع الذي بُويعَ فيه عثمان، فقيل له: بايعُوا لعُثمان، فقال: كلُّ قريش راضٍ به؟ قالوا: نعم. فأتَى عثمانَ فقال له عثمان: أنتَ على رأسِ أمْرِكَ، إن أبيتَ رددْتُها. قال: أتردُّها؟ قال: نعم. ثُم قال أكلُّ النَّاسِ بايَعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيتُ، لا أرغَبُ عمّا أجمَعوا عليه، وبايَعَه.

حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل، عن عَمرو بن ميمون. وفيه زيادةٌ عن الطَّبريّ.

ورَوَى أبو جعفر الطَّبَريّ رحمه الله في قصّة الشُّورَى، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة نحوَ ما تقدّم؛ إلاّ أنّه ذَكَر زِيادات ذكرْنا بعضَها في أثْناء هذه القصّة، ونَذْكر بقيَّتها الآن.

قال: لما دُفِن رضي الله عنه جَمَعهم عبدُ الرحمٰن وخَطبَهم، وأمَرَهم بالاجتماع وتَرْكِ التفرقِ.

فتكلَّم عثمانُ رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي اتخذ محمدًا نبيًّا وبَعثَه رسولاً، وصَدقَهُ وعْدَه، ووهَب له نصْرَه على كلِّ من بَعُد نسبًا، أو قَرُب رَحِمًا، صلَّى الله عليه، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو لنا نورٌ ونحن بأمره نقومُ، عند تَفرُّقِ الأهواءِ، ومُجادَلة الأعداءِ، جعلنا الله بفضلِهِ أئمةً، وبطاعته أمراء، لا يَخرجُ أمرُنا مِنَّا، ولا يدخُل علينا غيرُنا إلاَّ من سَفِه الحقَّ، ونَكَل عن القَصْدِ، وأحْرى بها يا بن عَوْف أن تُترَك، وأجْدِرْ بها أن تكون إن خُولِف أمرك، وتُرِك دعاؤُكَ، فأنا مُجيبٌ وداعٍ إليك، وكفيلٌ بما أقولُ زَعيم، وأستغفِر اللّهَ لي ولكم.

ثمّ تكلَّمَ الزبيرُ بعدَه، فقال: أمّا بعد، فإنَّ داعيَ الله لا يُجهَلُ ومُجيبَه لا يُخْذَلُ، عند تفرُّقِ الأهواءِ، ولَيِّ الأعناقِ، ولن يُقَصِّر عما قُلْتَ إلاَّ غَوِيٌّ، ولن يترك ما دعوتَ إليه إلاَّ شَقِيٌّ، ولولا حدودٌ للّهِ فرضتْ، وفرائضُ للّه حُدَّتْ، تراح على أهلِها، وتحيا لا تموتُ؛ لكان الموتُ من الإمارة نجاةً، والفِرارُ من الولاية عصمة، ولكنْ للّهِ علينا إجابةُ الدَّعوة، وإظهارُ السُّنَّةِ، لئلاَّ نَموتَ مَوْتَةً عميَّة، ولا نَعْمَى عَمَى جاهليَّة، فأنا مُجِيبُك إلى ما دعَوْتَ، ومُعِينُك على ما أمرْتَ ولا حول ولا قوَّةَ إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وأستَغْفِر الله لي ولكم.

ثم تكلَّم سعدٌ فقال: الحمد لله بديئًا، بمحمّد ﷺ أنارتْ الطُّرُقُ، واستقامتِ السُّبُل، وظهر الحقُّ، ومات كلُّ باطِل، إيّاكم أيُّها النَّفَرُ وقولَ الزُّورِ، وأمْنِيّةَ أهْلِ الغُرورِ! فقد سلَبَت الأمانيُّ قومًا قبلكم، وَرِثوا ما وَرِثْتُم، ونالوا ما نِلْتُمْ، فاتخَذوا الله عَدُوًّا، ولَعَنَهم لعنًا كثيرًا، قال اللّهُ تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

إنِّي نكبتُ قَرني[١] وأخذتُ سهمي الفالجَ[٢]، وأخذتُ لطلحة بن عبيْد الله ما ارتضيْتُ لنفْسِي، فأنا كفيلٌ به، وبما أعطيتُ عنه زعيمٌ، والأمر إليكَ يا بن عَوْفٍ، بجَهْد النَّفْسِ، وقَصْد النُّصْح، وعلى الله قَصْدُ السبيلِ وإليه الرُّجوعُ، وأستغفرُ اللّهَ لي ولكم، وأعوذُ باللّهِ من مخالَفتِكُمْ.

(١) المراد بالقرن هنا الجعبة، ونكب قرنه: نثر ما فيه من السهام.
(٢) الفالج: المنتصر.

ثم تكلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه، فقال: الحمدُ لله الذي بَعَث محمدًا منّا نبيًّا، وبَعثَه إلينا رسولاً، فنحن بيتُ النبوّة، ومعدن الحِكمة، وأمانُ أهلِ الأرض، ونَجاةٌ لمن طَلَب؛ لنا حَقٌّ إن نُعطَه نأْخُذه، وإنْ نُمْنَعْهُ نَرْكَب أعجازَ[1] الإبلِ، ولو طال السُّرىَ[2]. لو عهد إلينا رسولُ اللّهِ ﷺ عهدًا لأنفَذْنا عَهْدَهُ، ولو قال لنا قولاً لجادَلْنا عليه حتَّى نَموتَ، لن يسرع أحدٌ قَبْلي إلى دعوةِ حقٍّ، وصِلَةِ رحم، ولا قوّةَ إلاّ بالله.

اسمعُوا كلامي، وعُوا منْطِقي، عسَى أن تَرَوْا هذا الأمرَ بعد هذا المجتَمع تُنتَضَى فيه السُّيوفُ، وتُخان فيه الْعُهودُ، حتى تكونوا جماعةً، ويكون بعضُكم أئمةً لأهل الضَّلالَةِ، وشِيعةً لأهل الجَهالَةِ.

ثم قال:

فإنْ تكُ جاسِمٌ هلكتْ فإنّي ... بما فعلتْ بنو عبدِ بن ضَخْمِ
مطيعٌ في الهَواجِرِ كلَّ عيٍّ ... بصيرٌ بالنَّوَى من كلِّ نَجْمِ[3]

فقال عبد الرحمٰن: أيّكم يطيبُ نفسًا أن يخرج نفسه من هذا الأمر، ويولِّيه غيره؟ قال: فأمسكوا عنه. وذكر نحو ما تقدم.

* * *

فلنرجع إلى بقيَّة أخبارِ عمرَ رضي الله عنه.

قال: ومات عمرُ لأربع بقين من ذي الحجّة، قاله الواقِديُّ.

وقال غيرُه: يومَ الاثنين لليلتين بقِيتَا منه، وقيل: طُعِنَ يومَ الأربعاء لأربع بقين من ذي الحِجَّة، سنة ثلاثٍ وعشرين، ودُفِنَ يومَ الأحدِ هلالَ المحرّم، سنة أربع وعشرين في حُجْرة عائشةَ رضي الله عنها، ورأسُه قبالَة كتفَيْ أبي بكر رضي الله عنهما، وصلَّى عليه صُهَيب الرّوميّ. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب.

---

(١) ركب في الطلب أعجاز الإبل: أي ركب الذل والمشقة.

(٢) السّرى: عامة الليل. والمراد هنا احتمال المشقة والصبر.

(٣) العيّ: العاجز. والنوى: البعد.

ذكر أولاد عمر بن الخطاب
رضي الله عنه وعنهم وأزواجِه

تزوّج رضي الله عنه في الجاهليّةِ زينبَ بنتَ مَظْعون بنِ حبيب بنِ وَهْب بن حُذافة بن جُمَح، فولدَتْ له عبدَ اللّهِ وعبدَ الرحمٰن الأكبر وحفصةَ أُمَّ المؤمنين رضي الله عنهم.

وتزوّجُ مُلَيْكةَ بنت جَرْوَلِ الخُزَاعِيّ في الجاهليّةِ فولدت له عبيد الله ففارقها في الهدنة، وقيل: كانت أمّ عبد الله وأمّ زيد الأصغر أمّ كلثوم بنت جَرْوَل الخُزَاعيّ. وكان الإسلام فرّق بينها وبين عُمرَ.

وتزوّج قُرَيْبةَ بنت أبي أُميَّة المَخْزوميّ في الجاهليّة، ففارَقَها في الهُدْنة أيضًا، فتزوّجها بعدَه عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي بكرِ الصّديق رضي الله عنه. وقُرَيْبة أُختُ أمّ سَلَمة زوج النبيّ ﷺ.

وتزوّج أمَّ حكيم بنت الحارثِ بن هشامِ المَخْزوميّ في الإسلام، فولدتْ له فاطمةَ، فطلَّقَها، وقيل: لم يُطَلِّقْهَا.

وتزَّجَ جميلةَ بنت عاصم بن ثابت بنِ أبي الأقلح الأوسِيّ في الإسلام، فولدتْ له عاصمًا فطَلَّقَها، وقيل: لم يطلّقْها.

وتزوّجَ أمَّ كلثوم بنتَ عليّ بنِ أبي طالبِ رضي الله عنه، وأُمُّهَا فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ، وأصدَقَّها أربعين ألفًا فولدتْ رُقَيَّةَ وزيدًا.

وتزوّج لُهيَّة، امرأة من اليَمَن، فولدَتْ له عبدَ الرحمٰن الأوسط، وقيل الأصغر. وقيل: كانت أُمَّ ولدٍ، وكانت عنده فُكَيْهبة أمّ ولد فولدتْ له زَيْنب، وهي أصغرُ وَلَدِ عُمَر.

وتزوّج عاتكة بنتَ زيد بنِ عمرو بن نفيل، وقد تقدّمَ خبرُها عند ذكر عبدِ الله بن أبي بكر.

ومن أولاده رضي الله عنه: عبدُ الرّحمٰن، وكنيتُه أبو شَحْمة؛ وقيل: إنه كان له ولدٌ يقال له: مجبّر.

* * *

ولنفصّل هذا الفصلَ بذكرِ شيءٍ من أخبار مَنْ أدركَ رسول الله ﷺ من أولاد عمرَ، ومَنْ وُلِدَ في حياتِهِ أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فإنّه أسلم مع أبيه، وهو صغير لم يبلغ الحلُم وكان أول مَشاهِدِه الخَندق. وقيل: أحُد؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ردَّه يومَ بدْر لصغرِ سِنِّهِ، وشهدَ الحدَيْبية، وكان رضي الله عنه من أهل الوَرَع والعِلم، كثيرَ الاتّباع لآثارِ رسول الله ﷺ، شديدَ التَّحَرّي والاحتياطِ في فَتْواه. وكان لا يتخلَّفُ عن السَّرايا على عَهدْ رسولِ الله ﷺ، ثم كان بَعْدَ رسولِ الله ﷺ كثير الحَجّ. وقال رسولُ اللّهِ ﷺ لحفصةَ بنتِ عمر: إن أخاكِ عبدَ اللّهِ رجلٌ صالِحٌ لو كان يقومُ من اللَّيْل»، فما تَركَ بَعْدهَا قيامَ الليْلِ. وقعد عن حربِ عَلِيّ لمّا أشْكَلَتْ عليه لوَرَعِه، ثم نَدِم على ذلك حين حضرَتْهُ الوفاةُ، فقال: ما أجِدُ في نفسي من أمرِ الدُّنيا شيئًا إلا أنِّي لمْ أُقَاتِلْ مع عليٍّ الفئة الباغية.

قال ميمونُ بنُ مِهران: ما رأيت أورعَ من ابن عمر، ولا أعلَمَ من ابن عبّاس.

وأفتَى في الإسلام ستِّين سنةً، ونشرَ نافعٌ عنه عِلْمًا جَمًّا.

ورُوِيَ عن يوسفَ بن المَاجشون، عن أبيه وغيره: أنَّ مَرْوان بنَ الحَكَم دخل في نفرِ على عبد الله بن عمرَ بعدما قُتِلَ عثمان، فعَرَضوا عليه أن يبايعوا له، فقال: كيفَ لي بالنَّاس؟ قال: تقاتِلُهم ونُقاتل معك، قال: والله لو اجتمع عليّ أهلُ الأرض، إلا أهل فدَك ما قاتلتُهم فخرجوا من عندِه ومَروان يقول:

إنـي أرَى فـتـنـةً تَـغْـلِـي مَـراجِـلُـهـا والمُلك بعدَ أبي ليلى لمن غَلَبَا[1]

قال: وكانت وفاةُ عبد اللّهِ بمكّة سنة ثلاثٍ وسبعين، بعد قَتْلِ ابن الزُّبيْرِ بثلاثةِ أشهُر أو نحوِها، وقيل: ستَّة أشهُرٍ، وأوصى أن يُدْفَنَ في الحِلِّ، فلم يُقدَرْ على ذلك من أجْلِ الحجاج، فدُفِنَ بذِي طُوَى، بمقبُرةَ المهاجِرين.

وكان الحجاجُ قد أمرَ رجُلاً فَسَمَّ زُجَّ[2] رُمْحِه، وزَحَمَه في الطَّريقِ، ووَضعَ الزُّجَّ في ظهرِ قَدمِه؛ وذلك أنَّ الحجاجَ خَطَبَ يومًا، وأخَّر الصّلاة، فقال ابنُ عُمَر: إنَّ الشَّمْسَ لا تَنْتظِرُك، فقال الحجّاج: لقد همَمْتُ أن أضربَ الذي فيه عَيْناك. فقال: إنْ تفعَلْ فإنَّك سفيةٌ سَلِطٌ[3]. وقيل: إنّه أخفَى قوله ذلك عن الحجَّاج فلم يُسْمِعْهُ.

---

(١) المرجل: القدر من الطين المطبوخ؛ والمراد بقوله: تغلي مراجلها: أي تشتد الفتنة.

(٢) الزجّ: الحديدة في أسفل الرمح. (٣) السلط: الطويل اللسان.

وكان عبدُ الله يتقدّم في المواقفِ بعرفةَ وغيرِها إلى المواضع الَّتي كان رسولُ اللّهِ ﷺ يقف فيها، فكان ذلك يَعِزُّ على الحَجَّاجِ، فأمر الحجّاج رجلاً معه حَرْبَةٌ مسمومةٌ، فلما دفع النَّاس من عَرفةَ، لصق به ذلك الرَّجل، فأمَرَّ الحربةَ على قَدَمِه وهو في غَرْزِ[1] راحلتِهِ، فمَرِض منها أيَّامًا، فدخلَ عليه الحجَّاجُ يَعودُه، فقال: مَن فَعل ذلك بك يا أبا عبد الرَّحمٰن؟ قال: وما تصنَعُ به؟ قال: قتلني اللّهُ إن لم أقتُلْه. قال: ما أراكَ فاعِلًا، أنت الذي أمرتَ الَّذي نَخَسَني بالحَرْبة. قال لا تَفعَل يا أبا عبد الرحمٰن وخرجَ عنه. وقيل: إنَّه قال للحجَّاج: إذ قال له: مَنْ فَعَلَ ذلك بك؟ قال: أنت الَّذي أمرتَ بإدخال السّلاح في الحَرَمِ، فلبثَ أيَّامًا ثم مات رضي الله عنه، وصَلَّى عليه الحجَّاج.

وأما عبدُ الرّحمٰن الأكبر، فإنَّه أدرك لسنِّهِ رسولَ اللّهِ ﷺ ولم يَحفَظْ عنه.

وعبد الرحمٰن الأوسط وهو أبو شَحْمة هو الذي ضَرَبه عمرُو بنُ العاصِ بمصرَ في الخمر، ثم حَمَله إلى المدينة فضربه أبوه أدَبَ الوالدِ، ثم مَرض وماتَ بعدَ شهر.

كذا رواه مَعمَر عن الزُّهريّ[2]، عن سالم، عن أبيه، وأهلُ العراق يقولون: إنَّه مات تحت سِياطِ عُمر.

قال ابن عبد البَّر: وذلك غلط. وقال الزُّبيْر: أقام عليه عمر حدّ الشراب، فمرض ومات.

وعبد الرحمٰن الأصغرِ، هو أبو المجبّر، واسم المجبَّر عبد الرحمٰن بن عبد الرحمٰنِ بن عمر، سُمِّي المجبَّر لأنَّه وَقَع وهو غُلامٌ فتكسَّر، فأتى به إلى عمته حَفصة أُمِّ المؤمنين، فقيل لها: انظري إلى ابن أخيكِ المكسَّر فقالت: ليس بالمكسَّر ولكنَّه المجبَّر.

وقال الزُّبيرُ: هَلَك عبدُ الرحمٰن الأصغر، وترك ابنًا صغيرًا، أو حَمْلًا، فسمَّتْه حفصةُ: عبد الرحمٰن، ولقَّبَتْه المجبَّر، وقالت: لعلَّ الله يجبُره.

---

(١) غرز الراحلة: ركابها، وهو مصنوع من جلد محزوز، يعتمد عليه في الركوب.

(٢) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين في المدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة: منهم مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري... وتوفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ١٢٤ هجرية... (وفيات الأعيان ٤:١٧٧).

وعبيْد الله بن عمر وُلِدَ على عهد رسولِ اللّهِ ﷺ، ولم يُنقل أنَّه رُوي عنه، ولا سُمِع منه، وهو الَّذي حدَّهُ عمرُ في شُرْبِ الخَمْرِ، وهو الَّذي وَثَبَ على الهُرمزان فقتَله، وقتل معه نصرانيًا اسمُه جُفَيْنَة من أهل الحِيرة، وقد اتهمهما أنَّهما أغْرَيَا أبا لُؤلؤة بقَتْل عُمر. وقتل أيضًا ابنةً لأبي لؤلؤة طِفلة، ولما ضَرَبَ الهُرْمزانَ بالسَّيف قال: لا إله إلاَّ الله، فلمّا قَتَل هؤلاء أخَذَه سعدُ بنُ أبي وَقَّاص وحَبسَه في داره، وأحضره عند عثمان. وكان عبيد الله يقول: واللّهِ لأقتلنَّ رجالاً مِمَّن شرِك في دمِ أبِي، يُعرِّض بالمهاجرين والأنصارِ.

قالوا: وإنَّما قتل هؤلاء، لأنَّ عبدَ الرحمٰن أبي بكر قال غداةَ قتِل عمر: رأيْتُ عشيَّة أمسِ الهُرْمزان، وأبا لؤلؤة، وجُفَيْنة، وهم يتناجَون، فلمَّا رأوني ثاروا، وسَقَط منهم خِنْجر له رأسان، نصابه في وَسَطه، وهو الخِنجر الذي ضُرِبَ به عمر، فقَتَلهم عُبيدُ الله.

فلمّا أحضَرَهُ عثمان قال: أشيروا عليَّ في هذا الَّذِي فَتَقَ[1] في الإسلام ما فَتَقَ، فقال عليّ: أرى أنْ تقتُلَه. فقال بعضُ المهاجرين: قُتِلَ عمرُ أمس، ونَقْتُل ابنَه اليوم! فقال عمرُو بنُ العاصِ: إنَّ الله قد أعفاكَ أن يكون لك هذا الحَدَث، ولك على المسلمين سلطانٌ. فقال عثمان: أنا وليُّه، وقد جعلتُها ديةً، واحتملتُها في مالي.

وقيل في فداء عُبيدِ الله غير ذلك.

قال القُماذيانُ بنُ الهُرْمِزَان: كانت العَجَمُ بالمدينة يستروح بعضُها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خِنجر له رأسان، فتناوَلَه منه، وقال له: ما تَصْنَعُ به؟ قال: أسُنُّ به، فرآه رجلٌ، فلمّا أُصِيبَ عمر قال: رأيتُ الهُرْمُزانَ دَفَعه إلى فيروز، فأقبلَ عبيْد اللّهِ فقَتَلَه.

فلمّا ولِّيَ عثمانُ أمكنَنِي منه، فخرجْتُ به وما في الأرضِ أحدٌ إلاَّ معي، إلاَّ أنَّهم يَطلبُون إليّ فيه، فقلْتُ لهم: ألِي قَتْلَه؟ قالوا: نعم، وسَبُّوا عُبيدَ الله، قلْتُ: أفلَكُمْ مَنْعُه؟ قالوا: لا، وسَبُّوه، فتركْتُه للّهِ ولهم، فحملُوني، فوالله ما بلَغْتُ المنزلَ إلاَّ على رُؤوسِ النَّاسِ.

والأوّلُ أصحُّ وأشهرُ؛ لأنَّ عليًّا لما ولِيَ الخلافةَ أراد قتل عبيدِ اللّهِ، فهربَ منه إلى معاوية بالشّامِ، ولو كان إطلاقه بأمْرِ وليِّ الدَّمِ لَم يَعرِض له عليٌّ رضي الله عنه.

---

(١) فتق: أوقع الخلاف بين الجماعة وصدع الكلمة.

قال أبو عمر: وكان عبيدُ اللّهِ من أنجادِ قريشٍ وفُرْسانِهِم، قُتِلَ بصِفِّينَ مع معاويةَ، وكان يومئذ على الخَيْلِ، فرماه أبو زُبَيْد الطائيّ.

وقيل: كان قد خرج في اليوم الذي قُتِلَ فيه، وجعل امرأتين له بحيْث تنظران إلى فعلِه وهما: أسماء بنتُ عُطَارِد بن حاجب التّميميّ، وبحريّة بنت هانىء بن قبيصة، فلمّا بَرز شدّت عليه ربيعة فنشِب[1] بينهم فقَتَلُوه، وكان على ربيعةَ يومئذ زيادُ بْنُ خَصفة التّميمي، فقيل له: إنَّ هذه بحريّة، فسقطَ عبيدُ اللّهِ مَيِّتًا قُرْبَ فُسْطَاطِه، وقد بَقِيَ طُنُبٌ من طِنبةَ الفُسْطاطِ لا وَتَدَ لَه، فجرُّوه، وشدُّوا الطُّنُبَ بِرجْلِهِ، وأقبلَتْ ٱمرأتاه حتّى وقفتا عليه، فبَكَتا وصاحَتا، فخرجَ زيادُ بنُ خصفة فقيل له: إن هذه بحرية بنت هانىء، فقال: ما حاجتُكِ يا بنت أخي؟ فقالتْ: زَوْجي قُتِلَ، تَدْفَعُه إليّ، قال: نعم، فَخُذِيه، فحملتْه على بَغْلٍ، فذكر أنّ يديْه ورجْلَيْهِ خَطَّتا على الأرضِ من فَوقِ البغْلِ. والله سبحانه وتعالى أعلَمُ بالصَّواب، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى اللّهُ على سيّدنا محمّد.

ذكر عمال عمر
رضي الله عنه وعنهم على الأمصار

قد ذكرْنا عُمّالَه في حوادث السِّنين، ورأيْنَا أنْ نجمعَهُمْ في هذا الموضع فنقول: كان عمّالُه رضي الله عنهم: على مكّة عَتّاب بنَ أسِيد، وعلى اليَمَن والطائف يَعْلَى بن مُنْيَة، وعلى البَحْرين واليَمامة العَلاء بنَ الحَضْرميّ، ثمّ عثمان بن أبي العاص، ثم قُدامة بنَ مظعون، ثم أبا بَكْرة، وعلى عُمان حُذَيفةَ بن مِحْصَن، وعلى البَصْرَةِ ـ أول من كان بها ـ قُطْبَةَ بن قَتادةَ السَّدوسيّ، يَغْزو بتلك الناحية، كما كان المثنَّى يَفعلُ بناحية الحِيرة. ثم كتبَ إلى عمر يُعْلِمُهُ بمكانه، ويستمدُّهُ، فوجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر، أحد بني سعدِ بنِ عمروِ بنِ بكر، فسار إلى الأهوازِ، فقتله الأعاجمُ بدارس، فاستعمل عمرُ عُتْبَة بنَ غَزْوان، ففتحَ الأبُلَّةَ، ثم سار إلى عمر، فأعاده إلى عَمَلِهِ، فمات في الطَّريقِ، فكانت إمارتُهُ ستَّةَ أشهرٍ، فٱستعمل بعده أبا سَبْرَة بن أبي رُهْم على أحدِ الأقوالِ، ثم المغيرةَ بنَ شُعْبة، ثم عَزَلَه كما تقدّم بيانُه، فٱستعمَل أبا موسى الأشعري، ثمّ صَرفه إلى الكوفةِ، واستعمَل عمرَ بنَ سُراقة، ثم صَرَفه إلى الكوفةِ، وصرف أبا موسى إلى البصْرةِ فعَمِل عليها ثانيةً، ثمّ صرفَهُ وأعاده ثالثةً.

---

(١) نشب بينهم: علق.

وعلى مُضافاتِ البصرةِ جماعةٌ فكان على مَناذر غالب الوائليّ، وعلى نهر تيرَى حرملة بن مريطة، وعلى سوق الأهواز حرقوص بن زهير. وعلى الكوفة وما يَليها، أوّلُ من استعمَل عليها سعد بن أبي وقّاص، فكان عليها إلى سنةِ عشرين، فَعَزَلَه لشكَايةِ أهلها، وأقَرَّ خليفتَهُ على الكوفةِ، وهو عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن عتْبان، ثم استعمَل عُمَرُ عمّارَ بنَ ياسر بن مسعود كما تَقَدَّم، ثم المغيرة بن شعبةَ.

وعلى ثُغُورِ الكوفةِ مَنْ قَدَّمنا ذكره، وعلى الجَزيرة وما يليها عِياض بن غَنْم، ثم ضمَّه عمر إلى أبي عبيدة، واستعمل حبيبَ بنَ مَسلمَة على خَراج الجزيرةِ وعَجَمِها، والوليدَ بنَ عقبة على عَرَبِهَا، وعلى المَوْصِل من كان على حَرْبها رِبْعيّ بن الأفكل، وعلى خَرَاجِهَا عرْفجةُ بن هرثمة؛ وذلك في سنة ستّ عشرةَ.

وقيل: كان على الحربِ والخراجِ بها عتبة بنُ فرقد، وقيل كان ذلك إلى عبد الله بن مغنم، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، وكانت تحت يده جماعةٌ على الأعمال، فكان خالدُ بنُ الوليد على قِنّسْرين، وحِمْص، ويزيدُ بنُ أبي سفيان على دمشق ومعاوية على الأُردنّ، وعلقمة بن مجزّز على فلسطين وعبد الله بن قيس على السواحل. فلما مات أبو عبيدة استعمل عمرُ معاذ بن جبل فمات من عامه، فاستعمل يزيد بن أبي سفيان، فمات، فاستعمل معاوية على دمشق والأردنّ، ثم استقر في سنة إحدى وعشرين عمير بن سعد على دمشق وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية بن أبي سفيان على البَلْقَاء والأُرْدُنّ، وفِلَسطين، والسَّواحل، وأنطاكية، وقلقيةَ، ومعرَّة مصرين.

وعلى مصرَ عمْرو بن العاص، وكان العمّالُ في سنة وفاته إلى آخر سنة ثلاثٍ وعشرين.

وعلى مكّةَ نافعَ بن عبد الحارثِ الخُزاعيّ، وعلى الطائفِ سُفيانَ بن عبد الله الثَّقفيّ، وعلى صَنْعَاءَ يَعلَى بن مُنْية، وعلى الجَنَدِ عبدَ اللّهِ بنَ أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بنَ شُعْبة، وعلى البصْرةِ أبا موسى الأشعريّ، وعلى مصر عمرو بن العاصِ، وعلى حمصَ عُمَير بن سعد، وعلى دمشق معاوية، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ.

كُتّابُه

عبد الله بن خلف الخُزَاعيّ وزيد بن ثابت، وعلى بيت المال زيد بن أرقم.

قُضاتُه

يزيد ابن أخت النَّمِر بالمدينة.

وأبو أُمية شُريحُ بن الحارث الكِنديّ بالكوفة، ويقال: إنَّ شُرَيْحًا أقام قاضيًا سِتّين سنةً إلى أيّام الحجّاج، فعُطِّلَ ثلاثَ سنين، وامتَنَعَ من الحكم، وذلك في أيّام فتنةِ ابن الزُّبيْرِ. ولمّا وُلِّيَ الحجّاجُ استعْفاه، فأعْفَاه، ومات سنة سبع وثمانين وله مائةٌ وعشرون سنةً.

وقيل: مائة سنة، وليس هو في عدادِ الصَّحَابة رضي الله تعالى عنهم، بل من كبارِ التّابعين.

وعلى قَضاءِ البَصْرة كَعْب بن سور[1].

وعلى قضاء مِصْر قيسُ بنُ العاص السَّهْمِيّ، ثم كعبُ بن سَيّار بن ضبّة، ثمّ عثمان بنُ قيس بن أبي العاص.

وكان حاجبهُ يَرْفأ مولاه، وخاتَمه خاتم رسول الله ﷺ.

وقال أبو عمرُ بنُ عبدِ البرّ: كان نقشُ خاتَمِه: «كَفَى بالموت واعِظًا يا عُمرَ».

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو أبو عبد اللّهِ، وقيل: أبو عمرو، وقيل في تَكْنِيَتِه بأبي عبد الله: إنَّ رقيةَ بنت رسول الله ﷺ، ولدتْ له ابنًا فسمّاه عبد الله، فاكتنى به، ومات، ثم ولد له عمرو، فاكتنى به إلى أن مات.

وقيل: إنَّه كان يُكْنَى أبا ليلى عثمان بن عفانَ بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبدِ شمس بن عبد مناف، ويجتمِع مع نَسبِ رسول الله ﷺ في عبدِ مناف، ولُقِّبَ بذي النُّورَيْن، لأنه تزوّجَ ابْنَتَيْ رسولِ اللّهِ ﷺ رقيّةَ وأُمَّ كُلثوم.

وقيل للمهلَّب بن أبي صُفرةَ: لم قيل: عثمانُ ذو النُّورَيْنِ؟ قال: لأنه لا نَعلَم أن أحدًا أرسلَ سِتْرًا على ٱبنتيْ نبيٍّ غيره.

---

(١) هو كعب بن سور بن بكر بن عبد بن ثعلبة بن سليم بن لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم، ولي القضاء بالبصرة لعمر وعثمان رحمهما الله. وخرج يوم الجمل وفي عنقه المصحف ليصلح بين الناس فجاءه سهم غرب فقتله... (الاشتقاق لابن دريد ص٥٠٠).

وأُمُّه أروى بنتُ كُرَيزِ بنِ ربيعة بنِ حبيب بنتِ عبدِ شمسِ بن عبد مَناف، وأُمُّهَا البيضاء، أُمُّ حَكيم بنت عبد المطَّلبِ، عمَّةُ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وُلِدَ في السَّنةِ السادسة بعد عام الفيلِ. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصَّواب، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمد.

ذكر صفته ونبذة من فضائله

كان رضي الله عنه طويل القامة، حسن الوجه وقيل: كان رَبْعةً، ليس بالقصير ولا بالطَّويل، حسنَ الوجهِ رقيقَ البَشَرةِ، كبيرَ اللِّحيَةِ، عظيمًا أسمر اللَّونِ، كثير الشَّعْرِ، ضَخْم الكرادِيس، بعيدَ ما بينَ المنكبَيْن، وكان يصفِّر لحيته، ولما كَبِر شدَّ أسنَانَه بالذَّهب، وهو رضي الله عنه أحدُ العَشَرةِ الَّذين شَهِد لهم رسولُ الله ﷺ بالجنَّةِ، ومات وهو عنْهم راضٍ.

وله رضي الله عنه فضائلُ ومآثرُ وسابقةٌ في الإسلام.

قال عليٌّ رضي الله عنه: كان عثمانُ أوصَلنَا للرَّحِم، وكان مِنَ الَّذِين آمنوا واتَّقَوْا وأحسَنوا، والله يحبُّ المحسنين.

واشترى رضي الله عنه بئرَ رُومَة[1]، وكانت رَكيَّةً ليهُوديٍّ، يبيعُ للمسلمين ماءَها، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بئر رُومة فيجعلها للمسلمين، يضرِبُ بدَلْوِه في دِلائهم، وله بها مَشْربٌ في الجنَّة؟». فأتى عثمانُ اليهوديَّ فساومَه بها، فأبى أنْ يبيعَهَا كلَّها، فاشترى منه نِصحفَها باثني عشر ألف درهم فجَعَلَه للمسلمين، فقال له عثمان: إنْ شئْتَ جعلْت على نصيبي يَوْمَيْن، وإنْ شئْتَ عليَّ يومٌ ولك يومٌ، قال: لا، بل لك يوم ولي يومٌ. فكان إذا كان يومُ عثمان اسْتقَى المسلمون ما يكفيهم يومَيْن، فلمَّا رأى اليهوديُّ ذلك، قال: أفْسَدْتَ عَلَيَّ رَكِيَّتِي، فاشْترِ النَّصفَ الآخَر، فاشتراه بثمانيةِ آلافٍ.

وقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ يزيدُ في مسجدِنا؟» فاشترى عثمانُ رضي الله عنه موضع خمس سَوَارٍ، فزادَه في المسجد.

وجهَّزَ رضي الله عنه جَيْش العُسْرة بتسعمائة وخمسين بعيرًا، وأتمَّ الألف بخمسين فرسًا.

---

(١) بئر رومة: بضم الراء، وسكون الواو، وفتح الميم: وهي في عقيق المدينة... (معجم البلدان لياقوت).

وعن قتادة رضي الله عنه، قال: حملَ عثمانُ ما في جيْش العُسْرة على ألفِ بَعير، وسَبْعِين فرسًا.

وعن محمدِ بنِ بكير: أنَّ عثمانَ رضي الله عنه، كان يُحيي اللَّيلَ بركعةٍ يقرأُ فيها القرآنَ. ورُوِيَ أنَّه كان يصومُ الدَّهرَ رضي الله عنه.

ذكر بيعة عثمان رضي الله عنه

بُويع له بالخلافةِ كما تقدَّمَ في قصَّةِ الشُّورَى، وقد اختُلف في يوم بَيْعَتِه، وهو مُرتَّبٌ على الخلافِ في تاريخ وفاةِ عمرَ رضي الله عنهما، فقيل: في يوم السَّبْتِ غرَّة المحرم، سنةَ أربع وعشرين. ولم يذكر أبو عُمرَ بنُ عبدِ البرِّ غيرَه.

وقيل: يوم الاثنين لليلةٍ بقيَتْ من ذي الحجّةِ، سنةَ ثلاثٍ وعشرين، فاستقبَل بخلافتِه شهرَ المحرَّم، سنة أربع وعشرين، قاله أبو جعفر.

قال: وقيل: لعشر خلوْن من المحرّم بعد مقتلِ عمرَ بثلاث ليالٍ.

قال: استُخْلِفَ وقد دخل وقت العصْرِ، وقد أذَّنَ مؤذِّنُ صُهَيْبٍ، واجتَمعوا في ذلك بين الأذان والإقامة، فخرج فصَلَّى بالنَّاس، وزادهم مائةً مائةً، وَوَفَّدَ أهل الأنْصَارِ، وهو أوّلُ مَنْ صَنعَ ذلك.

قال: وقيل: لمّا بايع أهلُ الشُّورَى عثمانَ رضي الله عنه، خرج وهو أشدُّهم كآبَةً، فأتَى مِنبر النَّبيّ ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على النبيّ ﷺ وقال:

أيها النَّاسُ، إنَّكُمْ في دارِ قُلْعة[1]، وفي بقيّة أعْمَارٍ، فبادروا آجالكم بخير ما تَقْدِرُون عليه، فلقَدْ أُتيتُم صُبِّحْتم أو مُسِّيتُم، ألا وإنَّ الدُّنْيَا طُوِيَتْ على الغُرورِ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] واعتَبِرُوا بمَنْ مضى، ثم جِدُّوا ولا تَغفُلوا؛ فإنَّه لا يَغْفُل عنكم.

أين أبناءُ الدُّنيا وإخوانُها الَّذين أثارُوهَا وعَمروها، ومُتِّعُوا بها طويلًا! ألم تَلْفِظْهم! رمُوا بالدّنيا حيث رَمَى اللّهُ بها. واطلبوا الآخرة؛ فإنَّ الله عزَّ وجلّ قد ضربَ لها مَثلًا ولِلَّذي هو خير، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

---

(١) المراد بقوله «دار قلعة» أي ليست دار إقامة.

وكان أوَّلُ كتابٍ كتبَهُ إلى عمّاله:

أمّا بعدُ؛ فإنَّ الله تعالى أمر الأئمةَ أن يكونوا رُعاةً، ولم يتقدّمْ إليهم أن يكونوا جُبَاةً، وأنَّ صدرَ هذه الأمّةِ خُلِقُوا رُعاةً، ولم يُخْلَقُوا جُباةً، وليوشِكَنَّ أئمّتكُمْ أنْ يَصِيرُوا جُبَاةً، ولا يكُونوا رُعاةً؛ فإذا عَادُوا كذلك انقطعَ الحياءُ والأمانةُ والوفاءُ.

ألا وإنَّ أعدَلَ السِّيرة أن تنظروا في أُمورِ المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لَهُمْ، وتأْخذوهم بما عليهم، ثم تثنُّوا بالذِّمةِ فتعطوهم الذي لهم، وتأْخذوهم بالَّذِي عليهم، ثم العدوّ الذي تَنْتَابون، فاسْتَفْتِحُوا عليهم بالوفاء.

وكان أولُ كتابٍ كتبه إلى أُمراءِ الأجنادِ في الفروج[1]:

أمّا بعد، فإنَّكُمْ حماةُ المسلمين وذادَتُهم، وقَدْ وضعَ لكم عمر رضي الله عنه ما لم يغبْ عنَّا، بل كان عن ملأٍ منّا، ولا يَبلُغنا عن أحدٍ منكم تغييرٌ ولا تبديلٌ، فيغيِّر اللّهُ بِكُمْ، ويستبدلُ بكم غيرَكم. فانظروا كيف تكونون، فإنّي أنظر فيما أَلْزَمَنِي الله النَّظرَ فيه والقيامَ عليه.

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عثمان

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

وفي سنةِ خمسٍ وعشرين نقضَ أهلُ الإسكندريةِ الصُّلْحَ؛ وذلك أنَّ الرومَ حضرُوا إليهم من القُسْطَنطِينيّة، ونفذ منهم منُّويل الخَصِيّ، واتفقُوا مَعَ مَنْ بها مِن الرّومِ، ولم يُوَافِقْهُم المقوقِسُ، وثَبَتَ على صُلْحِه، فثبتَ لذلِكَ.

وسار عَمرُو بنُ العاص إليهم، وسار إليه الرُّومُ، واقْتتلُوا أشَدَّ قتالٍ، فانْهزمَ الرومُ وتَبِعهم المُسلمون إلى أنْ أدْخلُوهم الإسكندريّةَ، وقتلُوا منهم في البلدةِ مَقتلةً عظيمةً، وقُتِلَ منُّويل الخصيّ.

وكان الرُّومُ لمّا خَرجُوا من الإسْكَندريّةِ أخَذُوا أموالَ أهلِ تلك الْقُرَى، مَن وافَقهم ومن خالَفَهم، فلمّا ظَفر بهم المسلمون جاء أهلُ الْقُرى الَّذِين خَالَفُوهم فقالوا لعمْرِو بن العاص: إنَّ الرّومَ أخذوا أموالَنا ودوابَّنا، ولم نخالفْ نحن عليكم، وكُنَّا على الطَّاعةِ، فردّ عليهم ما غَرِمُوا مِنْ أموالهم بعد إقامةِ البيِّنةِ.

وهدمَ عمروٌ سورَ الإسكندريّةِ.

---

(١) الفروج: واحدتها الفرج، وهو الثغر المخوف.

ذكر غزو أرمينية وغيرها وما وقع من الصلح

كان عثمانُ رضي الله عنه قد استعملَ سعدَ بنَ أبي وقَّاص على الكوفةِ، ثم عزَلَه، واستَعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة بن أبي مُعَيْط ـ وهو أخو عثمانَ لأُمِّه ـ فعزل الوليدُ عُتْبَةَ بنَ فَرقَدٍ عن أذْرَبيجان[١]، فنقضُوا العهدَ فغزاهم الوليدُ في سنةِ خمسٍ وعشرينَ، وجعَل عَلَى مقدِّمتِهِ ٱبنَ شُبَيْل الأحْمسِيِّ، وأغار على أهل مُوقَانَ[٢] وما جاورها، ففَتَحَ وغَنِم وسَبَى، وطلبَ أهلُ كُوَرِ أذرَبِيجانَ الصُّلْحَ، فصالحهم على صُلْحِ حُذَيْفة، وهو ثمانمائة ألف درهم، فقبضَ المالَ ثم بثَّ سراياهُ، وبَعثَ سَلْمانَ بنَ ربيعَةَ الباهِليَّ إلى أهل أرْمينيَةَ في ٱثْنَي عشر ألفًا فقتلَ وسبَى وغَنِمَ، ثم انصرفَ وقد ملأ يدَهُ حتى أتى الوليد. وعادَ الوليدُ وجعل طريقَهُ على المَوْصلِ، ثم أتى الحَدِيثَةَ.

قال: ولمّا نزل الوليدُ بنُ عقبة الحديثةَ، أتاه كتابُ عثمانَ رضي الله عنه يقول: إنَّ معاويةَ كتب إليَّ أنَّ الرّومَ قد أجلبتْ على المسلمين في جموعٍ كثيرةٍ، وقد رأيتُ أن يمدَّهم أخوانُهُمْ من أهلِ الكُوفةِ. فابعثْ إليهم رَجُلاً له نجدَة وبأسٌ في ثمانيةِ آلافِ، أو تسعةِ آلافِ، أو عشرةِ آلافِ من المكانِ الَّذي يأتيكَ كتابي فيه، والسّلام.

فقامَ الوليدُ في النّاسِ، وأعلَمَهُم الحال، وندَبَهم مع سَلْمان بنَ ربيعَةَ الباهِليّ، فٱنتَدَبَ معه ثمانيةُ آلافِ، فمضَوْا حتَّى دخلوا مع أهلِ الشّامِ إلى أرضِ الرّومِ، فشَنُّوا الغاراتِ، فأصابَ النّاسُ ما شاؤوا، وافتتحوا حصونًا كثيرةً.

وقيل: إنَّ الذي أمدَّ حبيبَ بنَ مسلمةَ بسلمانَ بن ربيعة، كان سعيدَ بنَ العاص لمّا كان على الكوفةِ؛ وكان سببُ ذلك أنَّ عثمانَ كتبَ إلى معاويةَ يأمره أنْ يُغْزِيَ حبيبَ بنَ مسلمةَ في أهلِ الشّام أرمينِيَة، فوجَّهَهُ إليها، فأتى قالِيقَلاَ فحصرها، وضيَّقَ على مَنْ كان بها، فطَلَبُوا الأمانَ على الجلاءِ أو الْجِزْية، فجلا كثيرٌ منهم، فلحقُوا ببلاد الرُّوم، وأقام حبيبٌ بها فيمن معه أشهُرًا، ثم بلغَهُ أنَّ بِطْريق أرْمَنْية قُس ـ وهي مَلَطْيَة، وسِيوَاس وقُونية، وما والاها من البلاد إلى خليج القسطَنْطِينيَّة ـ وٱسمُه الموريان، قد توجَّه نحوه في ثمانين ألفًا من الرُّوم. فكتبَ إلى معاوية بذلك، فكتب

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وباء ساكنة، وجيم: حدها من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، والطرم.. ومن مشهور مدائنها: تبريز، والمراغة، وخويّ، وسلماس، وأرمية وغيرها... (معجم البلدان).

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال... (معجم البلدان).

معاويةُ إلى عثمانَ، فأرسلَ عثمان إلى سعيدِ بنِ العاصِ، يأمره بإمداد حبيب، فأمدَّه بسلمان في ستةِ آلافٍ، فأجمع حبيب على تبييت الرّوم، فسمعَتْهُ امرأتهُ أمّ عبدِ الله بنتُ يزيدَ الكَلْبيّة، فقالت: أينَ موعِدُك؟ فقال: سُرادِقُ الموريان، ثم بيَّتهم، فقتل مَنْ وقفَ له، ثم أتى السُّرادقَ فوجد امرأتَهُ قد سبقته إليْهِ، ولمّا انهزمَتِ الرّومُ عاد حبيبٌ إلى قَالِيقَلا، ثم سار فيها فنزلَ مربالا، فأتاه بِطريقُ خِلاط[1] بكتابِ عياضِ بنِ غَنْم بأمانه فأجراه عَلَيْه، وحمَل إليه البِطْريقُ ما عليه من المالِ.

ونزلَ حبيبٌ خِلاطَ، ثم سار منها، فلقيه صاحِبُ مُكْس، وهي من البُسْفُرْجان، فقاطعه على بلاده، ثم سار منها إلى أزدشاط وهي القريةُ التي يكون بها القِرْمِزُ[2] الَّذي يُصْبَغُ به، فنزل على نَهْرِ دَبيل، وسرّح الخيولَ إليها وحصرها، فتحصَّن أهلُها، فنصبَ عليهم مَنجنيقًا، فطلَبُوا الأمانَ، فأجابهم إليْه، وبثَّ السّرايا فبلغَتْ خيلُهُ ذاتَ اللُّجُم؛ وإنّما سُمِّيتْ ذاتَ اللُّجم لأنَّ المسلمين أخَذُوا لُجُمَ خَيْلهم، فكَبَسَهم الرُّومُ قبل أنْ يُلجِموهَا، ثم ألجَمُوهَا وقاتَلوهم فظفِرُوا بهم.

ثم وجّه سريَّةً إلى سِراجِ طَيْر وبَغْرَوَنْد، فصالَحه بِطريقُهَا على إتاوة، وقدم عليه بطريقُ البُسْفُرْجان، فصالحه على بلاده، وأتى السِّيْسَبان[3] فحارَبَهُ أهلُها فهزمَهُم، وغَلَب على حصونهم. وسار إلى جُرْزَان، وفتح عِدَّةَ حُصُونٍ ومُدُنٍ تُجاوِرُها صُلْحًا.

وسار سلمانُ بنُ ربيعة إلى أرّان، ففتحَ البَيْلَقان صُلْحًا، على أنْ يؤمِّنَهم على دمائهم وأموالِهم، وحيطانِ مُدُنِهم، واشترطَ عليهم الجزيةَ والخراجَ، ثم أتى سلمانُ مدينةَ بَرْذَعةَ فعَسْكَرَ على الثُّرْثور (نهرٌ بينه وبينها نحو فَرْسَخ) فقاتَلَهُ أهلُهَا أيامًا، وشنَّ الغاراتِ على قُراها، فصالَحوه على مثلِ صُلْحِ البَيْلَقَانِ، ودَخَلَهَا، ووجَّه خيلَه ففتحتْ رساتيقَ الولاية، ودعا أكرادَ البلاشجان إلى الإسلام، فقاتلوه فظفر بهم، فأقرَّهم على الجزيةِ، وأدَّى بعضُهُمْ الصَّدقة وهم قليلٌ، ووجَّه سَرِيَّةً إلى شَمْكور ففتحوها، وهي مدينةٌ قديمةٌ، ولم تزلْ معمورةً حتّى أخربها السّاوَرْدِيَّةُ، وهم قومٌ تجمّعُوا لمّا انصرف يزيدُ بنُ أَسِيد عن أرْمِينِيَة، فَعظُم أمرُهم، ثم عمَّرها بغا في سنةِ أربعين ومائتين، وسمَّاها المتوكِّليَّة، نسبةً إلى المتوكِّلِ.

---

(١) خلاط: هي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة، والمياه الغزيرة، وببردها في الشتاء يضرب المثل. . . (معجم ياقوت).

(٢) القرمز: صبغ لونه أحمر قان. يقال: إنه عصير نوع من الديدان الصخرية. ويقال: لون قرمزي. . . (المعجم الوسيط).

(٣) سيسبان: بلدة من نواحي آراب، بينها وبين بيلقان أربعة أيام من ناحية أذربيجان. . . (معجم ياقوت).

وسار سلمان إلى مجمع الرَّسّ والكُرّ، ففتح قَبَلَةَ، وصالحه صاحبُ شَكّى وغيرها على الإتاوَة، وصالحه مَلِكُ شَرْوَانَ، وسائر ملوك الجبالِ فأهلُ مَسقَط والشَّابَران[١]، ومدينة البابِ. والله تعالى أعلمُ بالصوابِ.

ذكر غزو معاوية الروم

وفي سنة خمسٍ وعشرين، غزا معاويةُ بنُ أبي سفيانَ الرُّوم، فبلغَ عَمُّورِيَة فوجد الحصونَ الَّتي بين أنطاكيَةَ وَطَرَسوسَ خالية، فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشّام والجزيرة؛ حتى انصرف من غَزاتِهِ. ثم أغزَى بعد ذلك يزيدَ بن الحُرّ العَبْسيَّ الصائفَةَ وأمره أن يَفْعَلَ مثل ذلك، ولما خرجَ هدمَ الحصونَ إلى أنطاكيَة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح كابل

وفي سنة خمسٍ وعشرين بعثَ عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه عبد الله بن عامر إلى كابُل[٢]، فبَلَغها في قولٍ، وكانت أعظمَ مِنْ خُراسانَ ولم يزلْ إلى أنْ مات معاويةِ، فامْتَنَعَ أهْلُهَا. والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر غزو إفريقية وفتحها

وفيها بعثَ عمرُو بنُ العاصِ عبدَ الله بنَ سعدِ بن أبي سَرْحٍ إلى أطرافِ إفريقيّةَ غازيًا بأمرِ عُثمانَ فغَنِم وعاد، وكتبَ إلى عُثمانَ يستأذنُه في غَزوِها، فأذن له، وعزلَ عمروَ بنَ العاص عن خَراجِ مصْرَ. واستعملَ عبدَ اللّهِ بنَ سعد في سنةِ ستٍّ وعشرين، فَتَنَازَعا الأمر.

فكتبَ عبدُ الله إلى عُثمَانَ أنَّ عَمْرًا كسرَ عليّ الخراجَ، وكتب عمروٌ إنَّ عبدَ اللّهِ كسرَ عَلَيَّ مكيدةَ الحرْبِ. فعزَلَ عثمان عَمْرًا واستقدمَه، واستعمل عبدَ اللّهِ على حربِ مصرَ وخراجِها، وأمره أنْ يغزوَ إفريقيَّة وقال: إنْ فتح اللّهُ عليكَ فلكَ خُمس الخمسِ نَفْلاً[٣].

---

(١) شابران: مدينة من أعمال أران، استحدثها أنوشروان، وقيل: من أعمال دربند وهو باب الأبواب، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) كابل: بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور. وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند. . . (معجم البلدان).

(٣) النفل: الغنيمة أو الهبة.

وأمَّر عثمانُ عبدَ اللّهِ بنَ نافعِ بن عبد القيس وعبد اللّهِ بن نافع بن الحارث على جُنْدٍ، وسرَّحهما، وأمَرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سَعْدٍ على صاحب إفريقيّة، ثم يقيمُ عبدَ اللّهِ في عَمَلِهِ فخرجوا ووصلوا إلى أرض إفريقيّة في عشرةِ آلافٍ من شُجْعَانِ الإسلام، فصالحهم أهلُ إفريقيَّة على مالٍ يؤدُّونه، ولم يُقْدِمُوا على دخولِ إفريقيَّة والتَّوغُّلِ فيها لكثرةِ أهلِها.

ثم أرسلَ عبدُ الله إلى عُثمانَ يستشيره في قَصْدِ إفريقيَّة، وفَتْحِهَا، فجهّز إليه عثمان جماعة من أعيان الصّحابة، منهم عبدُ اللّهِ بنُ عبَّاسٍ وغيره، فسار بهم ابنُ سعدٍ إلى إفريقيّة.

فكان مِنْ أمرِ فَتْحِ إفريقيّةَ ما نذكرُه إنْ شاء الله تعالى في الباب السَّادِسِ من القسم الخامِس من هذا الفنِّ في أخبارِ إفريقيّة، وبلادِ المغرب بما هو أبسطُ مِنْ هذا القولِ، وهو السِّفر الثاني والعشرون من هذه النُّسْخَةِ.

قال: لمّا فُتِحَتْ سُبَيْطِلة[1] وهي دارُ المُلْكِ، وُجد فيها من الأمْوالِ ما لم يكن في غيرها، فكان سَهْمُ الفارسِ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ، وسهم الرّاجلِ ألف دينارٍ.

وبعثَ عبدُ اللّهِ بنُ سعدٍ جُيُوشَه في البلادِ، فبَلَغَتْ قَفْصَةَ، فسَبُوا وغَنِمُوا، وبعثَ عَسْكَرًا إلى حِصْنِ الأجَمِ، وقد احتمى به أهلُ البلادِ، فحصَرَه وفتَحَه بالأمانِ، فصالحه أهلُ إفريقيّة على الفيء، ألفِ وخمسِمائة ألف دينارٍ.

وسار عبد اللّهِ بنُ الزُّبيْر إلى عثمانَ بالبشارةِ، وتنفَّلَ بابنة الملكِ، ثم عاد عبد الله بنُ سَعْدٍ من إفريقيّة إلى مِصْرَ، وكان مقامه بها سنةً وثلاثةَ أشهرٍ، ولم يفقدْ مِنَ المسلمين إلاّ ثلاثةَ عشر رجُلاً، وحُمِلَ خُمْسُ إفريقيّةَ إلى المدينةِ، فابتاعه مروانُ بنُ الحكم بخمسمائة ألف دينارٍ، فوضَعَها عنه عُثْمَانُ وهو مما أُخِذَ عليه، وأنْكَرَهُ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم، وقال في ذلك عبد الرحمٰن بن حنبل أحد الصّحابة رضي الله تعالى عنهم:

أحلفُ باللّهِ جَهْدَ اليمينِ ... ما تَرَكَ اللّهُ أمْرًا سُدَى
ولكنْ جعلْتَ لنا فتنةً ... لكي نُبْتَلى بك أو تُبْتَلَى
دعوْتَ الطريدَ فأدْنَيْتَهُ ... خلافًا لِمَا سنَّه المُصْطَفى
وولَّيْتَ قُرْباكَ أمرَ العبادِ ... خلافًا لسنَّةِ مَنْ قد مَضَى
وأعطيْتَ مروان خُمْسَ الغنيمَـ ... ـةِ آثرته وَحَمَيْتَ الحِمَى

---

(١) سبيطلة: مدينة من مدن إفريقية؛ بينها وبين القيروان سبعون ميلاً... (معجم ياقوت).

ومـــالاً أتـــانـــي بـــه الأشـــعـــريُّ ... مِـن ٱلْـفَـيءِ أعـطـيْـتَـه مَـن دَنَـا
فـإنَّ الأمِـيـنَـيْـنِ قـد بـيَّـنَـا ... مـنـارَ الـطَّـرِيـقِ عـلـيـه الـهـدى
فـمـا أخـذا غِـيـلـةً دِرْهَـمًـا ... ولا قَـسَّـمَـا دِرْهـمًـا فـي هـوى[1]

قال: ولما فُتحت إفريقيَّة أمرَ عثمانُ عبد اللّهِ بن نافع بن عبدِ القيسِ أن يسيرَ إلى الأندلس، فأتاها من البحرِ، ففتحَ الله تعالى على المسلمين.

وفي سنة سبع وعشرين فُتِحَتْ إصْطَخر، وهو الفتحُ الثاني، وكان فتحُهَا الآن على يدِ عثمانَ بن أبي العاص.

وقد ذكرنا الأول في خلافةِ عمَرَ. وفيها غزا معاويةُ بنُ سفيانَ رضي الله تعالى عنه قُبْرُس.

ذكر فتح جزيرة قبرس

كان فتحها على يدِ معاوية بن أبي سفيان، واختُلِفَ في وقته، فقيل: فُتِحَتْ في سنة ثمانٍ وعشرين، وقيل: في سنة تسع وعشرين، وقيل: في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين.

وكان قد ألحَّ على عمر رضي الله عنه في غزوِ البحْرِ، وذكر قرْبَ الرّوم من حِمْص، وقال: إنَّ قريةً من قُرَى حِمْص ليَسْمَع أهلُها نُبَاحَ كلابهم وصِيَاحَ دَجاجِهم.

فكتب عمرُ إلى عَمرو بنِ العاص: أنْ صِفْ لي البحرَ وراكبَه، فكتبَ إليه عمرو: إني رأيتُ خلْقًا كبيرًا يركَبه خَلْقٌ صغير، ليس إلاَّ السّماء والماء، إنْ رَكَد خرقَ القلوبَ، وإنْ تحرّكَ أزاغَ العقول، يَزْدَادُ فيه اليقينُ قلّة، والشّكّ كثرةً، هُمْ فيه كدُودٍ على عودٍ، إنْ مالَ غَرِقَ، وإنْ نَجا بَرِقَ[2].

فلمّا قرأ كتابَ عمرو، كتب إلى معاويةَ: والَّذِي بعثَ محمدًا بالحقّ لا أحملُ فيه مسلمًا أبدًا، وقد بلغني أنّ بحر الشّام يُشرفُ على أطولِ شيءٍ من الأرضِ، فيستأذن الله كلّ يوم وليلةٍ في أن يُغْرِقَ الأرضَ، فكيف أحمل الجنودَ على هذا الكافرِ، لَمُسلِمٌ أحبُّ إليَّ ممّا حَوَتِ الرُّوم. فإيّاكَ أنْ تَعرَّضَ إليّ، فقد علمتَ ما لقيَ العَلاءُ مِنّي.

وتركَ مَلِكُ الرُّوم الغزوَ، وكاتبَ عمر وقاربه، فلمّا كان زمن عثمان كتبَ معاويةُ إليه يستأذنه في غزو البَحرِ مرارًا، فأجابَهُ إلى ذلك وقال: لا تَنْتَخِبَ الناس ولا تُقْرِعْ بينهم، خيِّرهم، فمن اختارَ الغزوَ طائعًا، فاحْمله وأعِنْه، ففعل.

---

(١) غيلة: أي على غفلة منه.

(٢) برق: أي فزع ودهش فلم يبصر.

واستعملَ عبدَ اللّهِ بنَ قيس الحارثيّ حليف بني فَزَارَة، وسار المسلمون إلى قُبْرس، وسار إليها عبدُ اللّهِ بنُ سعدٍ من مصر، فاجْتَمَعُوا عليها فصالَحهم أهلُهَا على جِزْيةٍ، وهي سبعة آلافِ دينار في كلِّ سنةٍ، ويؤدُّون للرّومِ مِثلَها، لا يمنعُهم المسلمون مِنْ ذلكَ، وليس على المسلمين منعهم مِمَّن أرادَهُمْ مِنْ ورائِهم. وعليهم أن يُؤذوا المسلمين بِمَسيرِ عدوِّهم من الرُّومِ، ويكون طريقُ المسلمين إلى العَدْوّ عليهم، فقبلُوا ذلك منهم، وعادوا عنهم.

وشهدَ هذه الغزاة جماعةٌ من الصحابةِ، منهم: أبو ذَرّ الغفاري، وعُبادةُ بنُ الصَّامِت، ومعه زوجتُه أمُّ حَرام بنت مِلْحان، وأبو الدَّرداء شدَّادُ بنُ أوسٍ.

وفي هذه الغزاةِ ماتت أُمُّ حَرام، ألقتْها بَغْلتُها بجزيرة قُبرس فانْدَقَّ عنقُها، وكان رسول اللّهِ ﷺ أخبرَها أنّها مِن أوّلِ من يغزو في البحرِ.

قال: وبقيَ عبدُ اللّهِ بنُ قيس على البحرِ، فغزا خمسين غَزاةً في البحْرِ، من بَيْنِ شاتِية، وصائفة، لم يُنْكَبْ أحَدٌ مِنْ جُنْدِه، وكان يدعو اللّهَ أن يُعافِيَه في جُنْدِه، ثم خرجَ هو في قارِبٍ طلِيعةً، فانتهى إلى المَرْفأ من أرْضِ الرُّومِ، وعليه مساكينُ يسألون، فتصدَّق عليهم، فرجعَتْ امرأةٌ منهم إلى قريتها، فقالت: هذا عبدُ اللّهِ بنُ قيْس في المَرْفأ فبادَروا إليه، وهجموا عليه، فَقَتلوه، بعدُ أنْ قاتلَهُم، فأُصيبَ وحْدَه، ونجا الملاَّحُ حتَّى أتى أصحابَهُ فأعلَمَهم، فجاؤوا حتَّى رسَوْا بالمرفأ وعليهم سُفْيانُ بنُ عوف الأزْدِيّ، فخرج إليهم فقاتلَهُمْ.

وقيل لتلك المرأةِ بعد ذلك: بأيِّ شيءٍ عَرَفْتِ عبدَ اللّهِ بنَ قيس؟ قالت: كان كالتَّاجرِ، فلمّا سألتُه أعطاني كالمِلكِ، فعرفْتُه بهذا.

ولمّا كانت سنة اثنتين وثلاثين أعَان أهلُ قُبْرس الرّومَ على غَزْوِ المسلمين بمراكبَ أعطَوْهم إيّاها، فغزاهم معاوية في سنة ثلاث وثلاثين فَفَتَحها عَنْوةً، فقَتَل وسَبَى، ثم أقرَّهم على صُلْحهم، وبعثَ إليهم اثني عشر ألفًا فبنَوا المساجِدَ، وبنى بها مدينةً.

وقيل: كانت الغزوةُ الثانيةُ في سنةِ خمسٍ وثلاثين.

وفي سنةِ ثمانٍ وعشرين غزا حبيبُ بنُ مسلمةَ سورية مِنْ أرضِ الرُّومِ. والله تعالى أعلمُ، وحسبُنَا الله ونعم الوكيلُ.

ذكر نقض أهل فارس وغيرهم وفتحِ إصطخْر ودرابجرْد

وفي سنةِ تسع وعشرين نقض أهلُ فارس بعُبَيد الله بن مَعمَر، فسار إليهم، فالتقَوْا على باب إصطَخر، فقُتِلَ عبيدُ اللهِ، وانهَزَم المسلمون. فبلغَ الخبرُ عبدَ اللهِ بنَ عامرٍ أميرَ البَصْرةِ، فاستنْفَر أهلَ البصرةِ وسار إلى فارسَ، فالتقَوْا بإصْطَخْر، واشتدّ القتالُ، فهزم المسلمون الفُرْسَ، وقُتِلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ، وفُتِحَتْ إصْطَخْر عَنوةً، وأتى درابجرد، وقد غدرَ أهلُها، ففتحها وسار إلى مدينة جُور، فانتقَضتْ إصطَخر، فلم يرجعْ إليها، وتمَّمَ السيرَ إلى جُور[١] فحاصَرَها، وكان هرمُ بنُ حيّان محاصرًا لها، وكان المسلمون يُحَاصرُونَهَا وينصرفون عنها فيأْتُونَ إصطخر، ويغزون نواحِيَ كانت تَنتقِض عليهم، فلم يزلْ عبدُ الله بنُ عامر عليها حتَّى فَتَحَها.

وكان سببُ فتْحها أنَّ بعض المسلمين قام يصَلِّي ذاتَ ليلةٍ، وإلى جانبه جرابٌ له فيه خُبْزٌ ولحم، فجاء كَلْبٌ فجرَّه وعَدَا بهِ حتَّى دخل المدينة مِنْ مَدْخلٍ خفيٍّ، فلزِمَ المسلمون ذلك المَدْخَل حتَّى دخلوها منه وفَتَحوها عَنوةً، فلمَّا فرغَ ابنُ عامرٍ منها عاد إلى إصْطَخْر وفتحَها عنوةً بعدَ أنْ حاصرَها ورَماها بالمَجانيق، وقتلَ بها خلقًا كثيرًا من الأعاجمِ، وأفْنَى أكثَرَ أهلِ البيُوتاتِ، ووجوه الأساوِرة[٢]، وكانوا قد لجؤوا إليها.

وقيل: إنَّ أهل إصطخر لما نكثُوا عادَ إليها ابنُ عامرٍ قبل وصوله إلى جُور، فملكَهَا عنوةً، وعاد إلى جُور، وأتى درابجرد فملكَهَا، وكانت منتقضةً أيضًا، ووطىءَ أهلَ فارسٍ وطأةً لم يزالوا مِنْها في ذُلٍّ. وكتبَ إلى عثمانَ بالخبر، فكتبَ إليه أن استعْمل على بلادِ فارس هرمَ بنَ حَيّان اليَشْكريّ، وهرمَ بنَ حيّان العَبْدِيّ، والخرِّبت بنَ راشِد، والتَّرجمانَ الهُجَيْميّ.

وأمره أن يفرِّقَ كُورَ خُراسانَ على جماعَة، فيجعَلَ الأحنفَ بنَ قيْس على المَرْوَيْنِ، وحبيبَ بنَ قُرَّة اليَرْبُوعيّ على بَلْخ، وخارجَة بنَ عبدِ اللّهِ بنِ زُهَيْر على هَراةَ[٣]، وأميرَ بنَ أحمرَ على طُوس، وقيسَ بنَ هُبَيْرة وقيسًا السُّلميّ على نيسابور، واللّهُ أعلمُ.

---

(١) جور: مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وهي في الإقليم الثالث... والعجم تسميها كور، وكور اسم القبر بالفارسية، وهي مدينة نزهة طيبة... (معجم البلدان).

(٢) الأسوار: قائد الفرس؛ أو الجيد الرمي بالسهام وغيرها. والأصل أساورة الفرس وكانوا رماة الحدق.

(٣) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان.. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر غزو طبرستان

في سنة ثلاثين غزا سعيدُ بنُ العاص عاملُ الكُوفَة طَبَرِسْتان ومعه الحسنُ والحسينُ وابنُ عبّاسٍ، وابنُ عُمر، وعبدُ الله بنُ عمرو بن العاص وحذيفةُ بنُ اليمانِ، وابنُ الزُّبير وغيرهم، ولم يَغْزُها غيْرُه أحد على أصحّ الأقوالِ.

وقد ذكرْنا فيما تقدّمَ في خلافة عمر رضي الله عنه فتحَها، والخلاف فيه.

قال: فأتَى سعيدٌ جُرجانَ، فصالحوه على مائتي ألفٍ، ثم أتى طَمِيسة وهي كلُّها منْ طبرستان، مُتاخمة جُرجانَ على البَحر، فقاتَله أهلُهَا، فصلَّى صلاةَ الخَوْف وحاصَرهُم، فسألوه الأمانَ فأعطاهم، عَلَى ألاَّ يَقْتُلَ منهم رجلاً واحدًا، واحتَوى على ما في الحصْنِ، وفتح سعيدٌ ناميَة، وليست مدينة، هي صحارى. والله أعلم.

ذكر غزو الصواري

كانت هذه الغزوة في سنة إحدى وثلاثين، وقيل في سنة أربع وثلاثين، وكان سببها أنَّ المسلمينَ لمّا فعلوا بأهل إفريقيّة ما فعلوا عند فتحها، عَظُمَ ذلك على قُسْطَنْطين بنِ هرَقْل، فخرج في جمعٍ لم يجمع الرُّومُ مثلَه مذ كان الإسلام.

قيل: خرج في خمسمائة مركبٍ، وقيل: في ستّمائة، وخرج المسلمون، وعلى أهل الشّامِ معاويةُ بنُ سفيان، وعلى البحرِ عبدُ الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح، فالتقَوْا، وقرَّبوا السّفنَ بعضَها إلى بعض، فاقتتلوا بالسُّيوف والخناجرِ، فأنزل اللّهُ نصْرَه على المسلمين، فانهزَم قُسطَنْطين جريحًا، ولم يَنْجُ من الرُّومِ إلا الشَّريد، وأقام عبدُ الله بنُ سعدٍ بذات الصَّواري بعدَ الهزيمة أيّامًا ورجع.

وأمّا قُسطَنْطين فإنّه وصلَ في مَركَبه إلى صِقلّيَة، فقال أهلُهَا: أهلَكْتَ النَّصْرانيّةَ، وأفنَيْتَ رِجالَها، لو أتانا أهل المغرب لم يكُنْ عندنا من يَمنعُهُمْ، ثم أدخَلوه الحَمّام وقَتَلوه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر مقتل يزدجرد آخر ملوك بني ساسان

قال: لمّا فتح عبدُ الله بنُ عامرٍ بلادَ فارسَ على ما قدّمناه، هَرَب يزدجردُ إلى خُراسان، فوجّه عبدُ الله في طلبِه مجاشعَ بن مسعودٍ وقيل: غيره، فأتبعه إلى كرْمان، وكثُر الثّلجُ والبرْدُ، فهلك جيْشُ مجاشعٍ، ورَجَع هو.

واختُلفَ في قتْلِ يَزْدَجِرْد، فقيل: هَرَب من كرْمانَ إلى مَرْوَ ومعه خُرَّزاد أخو رُسْتُم، فرجعَ عنه إلى العراقِ، وأوْصَى به ماهَوَيْه مرزُبانَ مَرْو، فسأله يَزْدَجِرْد مالاً فمنَعَه مخافةَ أهل مَرْو على أنفسهم فأرسَلُوا إلى التُّرك يَسْتَنصرُونَهم عليه، فأتَوْه فبيَّتوه وقتَلوا أصحابه، فخرج ماشيًا إلى وَسَط المَرْغاب[1]، فأوى إلى بيْت رجلٍ ينقرُ الأرْحاءَ[2]، فلما نام قَتَلَهُ.

وقيل: بل قَتَله أهلُ مَرْو، ولم يستنصرُوا بالتُّرْك. وقيل: غيرُ ذلك، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ، وهو حَسْبي.

ذكر فتح خراسان

قال: كان أهلُ خُراسانَ قد غَدَروا لمّا قُتلَ عمرَ بنُ الخطّاب رضي اللّهُ تعالى عنه، ونَقَضُوا، فلمّا افتتحَ عبدُ الله بنُ عامر بلادَ فارسَ عادَ إلى البَصْرة، واستخلفَ على إصْطَخر شرِيكَ بنَ الأعورِ الحارثيّ، فبنى شَريك مسجد إصْطَخْر، ثم تجهَّزَ ابنُ عامرٍ من البصرة، واستخلفَ عليها زيادَ ابنَ أبيه، وسار إلى كِرْمان واستعملَ عليها مجاشعَ بنَ مسعود السُّلَمي، وله صحبةٌ، وأمرَه بمحاربة أهلها، وكانُوا قد نكَثُوا.

واستعمَل على سجستانَ الربيعَ بنَ زياد الحارثيّ، وكانُوا قدْ أعدُّوا له أيضًا، ونَقَضُوا الصُّلْحَ.

وسار عبدُ الله بنُ عامرٍ إلى نيسابورَ، وعلى مقدّمَته الأحنف بنُ قيس، فأتى الطَّبَسَيْن، وهما حصّنان، وهما بابَا خُراسانَ، فصالَحه أهلُهَا، وسار إلى قُوهِسْتانَ فقاتَلَهُ أهلُها، فقاتَلَهُمْ حتَّى ألجأهم إلى حصنِه، وقَدم عليه ابنُ عامرٍ، فصَالَحه أهلُهَا على ستِّمائة ألف درْهَم، وبثَّ سراياه فَفَتَحت البلادَ، وفتحَ بهقَ، وبُشت[3]، (وهي بالشِّين المعجمة)، وليست بُسْت المعروفة، ثم فتحَ نيسابورَ بَعْدَ أنِ استولَى عَلَى أعمالها، وبعد أن حاصَرَها أشهُرًا.

---

(١) المرغاب: قرية من قرى هراة ثم من قرى مالين...

(٢) الأرحاء: واحدتها الرحى، وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) بشت: بالضم: بلد بنواحي نيسابور.. وهي كورة قصبتها طريثيت... وتشتمل على مائتين وست وعشرين قرية منها كندر التي منها الوزير أبو نصر الكندري.. وقد ينسب إليها جماعة كثيرة في فنون العلم... (معجم البلدان لياقوت).

وكان لكلّ ربع منها مَرْزبان من القُرى يَحفَظه، فطلبَ أحدُهم الأمان والصُّلْح على جميع نيسابورَ، فصالحَه على ألف ألف درهم، وولّى نيسابورَ قيسَ بنَ الهيثَم السُّلَميّ، وسيَّر جيْشًا إلى نَسَا[١]، وبيوَرْد ففتحوهما صُلْحًا، وسيَّر سَريَّةً أُخرى إلى سَرْخَس، فقاتَلَ أهلَها، ثم طلَبُوا الأمانَ والصُّلْحَ على مائة رجل، فصالح مَرْزُبانها على ذلك، فأُجيب إلى ذلك، وسَمَّى مائة رجلٍ، ولَم يذكر نفسَه، فَقَتَله، ودَخل سَرْخَسَ عَنْوةً، وأتى مَرْزبان طُوس إلى عبد الله، فصالحَه على ستِّمائة ألف درْهَم.

وبعثَ جيْشًا إلى هَراة عليهم عبدُ الله بنُ خازم، وقيل غيره، فسار مَرْزُبانُهَا إلى ابن عامرٍ وصالحه على هَراةَ، وباذَغيس وبُوشَنْج على ألفَيْ ألف درْهم، ومائَتَيْ ألف درْهم.

وكانتْ مَرْوُ كلُّها صلحًا إلا قريةَ السِّنْج[٢]، (وهي بكسر السين المهملة)، فإنَّها فُتحَتْ عنوةً.

ووجَّه الأحنفَ بنَ قيس إلى طَخارِسْتانَ، فمرَّ برُسْتاقٍ يُعْرَفُ برُسْتاقِ الأحنف، فصالحُوه على ثلاثمائة ألف درهم، ومضى إلى مَرْوِ الرُّوذ، فقاتله أهلُهَا، فهزَمَهم، ثم صالحهم مرزبانُهَا على ستِّمائة ألف درْهَم.

فاجتمع أهلُ طَخارستان والجُوزجَان والطَّالقان، والفارِياب ومَن حَولَهم، فلقوْه في خلقٍ كثير، فالتقَوْا واقتتلُوا، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم قتلًا ذريعًا، وعاد إلى مَرْو الرُّوذ، ولَحق بعضُ العدوّ بالجُوزجان، فوجَّه إليهم الأحنفُ بنُ قَيس الأقْرعَ بنَ حابِسُ التَّميميّ في جيشٍ، وقال: يا بني تميم، تحابُوا وتَباذَلوا تَعتدلْ أمورُكم، وابدؤوا بجِهاد بطُونكم وفُروجِكُم يَصْلُحْ لكم دينكُمْ، ولا تَغُلُّوا فيَسلَم لكُمْ جهادكُمْ.

فسار الأقرعُ فلقيَ العدوَّ بالجُوزجان[٣]، فكانت بالمسلمين جَوْلَةٌ، ثم عادوا

---

(١) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام... وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المديني حتى أن الصيف قلّ أن ينجو من أهلها...

(٢) سنج: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره جيم: وهي من أعظم قرى مرو الشاهجان على نهر هناك يكون طولها نحو الفرسخ إلا أن عرضها قليل جدًا. بنيت دورها على النهر ثم صارت مدينة عظيمة جدًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) جوزجان وجوزجانان واحد: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار، وبها قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وقد نسب إليها جماعة كثيرة... (معجم البلدان).

فهزموا المشركين وفتحوا الجُوزجان عَنوةً، وفَتح الأحنفُ الطالقان صُلْحًا، وفَتَحَ الفارياب، وقيل: بل فتَحَها أميرُ بنُ أحمرَ.

ثم سار الأحنفُ إلى بَلْخ، وهي مدينةُ طخارِسْتان، فصالحه أهلُهَا على أربعين ألف. وقيل: سبعمائة ألف.

فاستعملَ على بَلْخ أسيدَ بنَ المُتَشَمِّس، ثم سار إلى خُوارزْم، وهي على نَهْر جَيْحون، فلم يَقدرْ عليها، فعاد إلى بَلْخ.

ولمّا تمَّ هذا الفتحُ لعبد الله بن عامرٍ، قال النَّاسُ: ما فُتحَ لأحَدٍ ما فتِح عليك فارس، وكرْمان، وسجِسْتَان، وخُراسان، فقال: لأجعلنَّ شكْرِي لله على ذلك؛ أنْ أخرجَ محرِمًا من موقِفي هذا. فأحرمَ بعُمْرةٍ منْ نَيسابور.

وقَدمَ على عُثمَان، واستخلفَ على خُراسانَ قيسَ بن الهَيثَم، فسار قيسٌ في أرضِ طخارِسْتان، فلَمْ يأت بلدًا منها إلا صالحَه أهلُهَا، وأذْعنوا له، إلا سِمِنْجان[1]، فإنَّه فتَحَها عنوةً. والله سبحانه وتعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر فتح كرمان

قال: لمّا سار عبدُ الله إلى خُراسان استعمل مُجاشعَ بنَ مسعود السُّلَميّ على كرْمانَ كما ذكرنا، وأمَرَه أن يفتَتِحَها، وكان أهلُها قد نكَثُوا وغدَرُوا، ففتحَ هميد عنْوةً، واستَبْقى أهلَها وأمَّنهم، وبنى بها قَصْرًا يُعْرَفُ بقصْرِ مُجاشع، وأتى السِّيرجان، وهي مدينة كَرْمان فأقام عليها أيّامًا يسرةً، وقد تحصَّن أهْلُها فقاتَلَهم وفتَحها عنوةً، فجلا كثيرٌ من أهلها.

وفتح جِيرَفْت عَنوةً، وسار في كرمانَ فدَوَّخ أهلَها، وأتى القُفْص[2] وقد تجمَّع له خلق كثيرٌ من الأعاجم الذين جَلَوْا، فقَاتَلهم، فظَفر بهم وَظَهر عليهم، وهرَب كثيرٌ من أهل كرْمان، فركبوا البحرِ ولحقَ بعضهم بمُكْران، وبعضهم بسِجِسْتان، فأُقْطِعَتِ العربُ منازلَهم وأراضيَهم، واحتَفَروا لها القُنِيَّ في مواضعَ منها، وأدَّوُا العُشْر منها. والله تعالى أعلَم، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وصحبه وسلَّم.

(١) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان، وبها شعاب كثيرة، وبها طائفة من عرب تميم، ومن بلخ إلى خلم يومان، ومن خلم إلى سمنجان خمسة أيام...

(٢) القُفص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه، ومجالس الفرح، تنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة...

ذكر فتح سجستان وكابل[١] وغيرها

قد ذكرْنا أنَّ عبدَ الله بنَ عامر استعمل على سِجستان الربيعَ بن زِياد الحارثيّ وسِجِسْتان من الفُتوحات في خلافة عُمَر، ولمّا نقض أهلُهَا؛ سَار الربيعُ وقطعَ المفازَةَ حتى حصْن زالق، فأغارَ على أهله في يوم مِهْرجان وأخذ الدهْقان، فافتدى نفسَه بأنْ ركز عنزَةً[٢] وغَمَرها ذهبًا وفضَّةً، وصالحه على صُلْح فارس، ثم أتى بلدةً يُقَال لها: كَرْكُويه فصالحه أهلُهَا، وسار إلى زَرَنْج، فنزل على مدينة روشت بقرب زَرَنْج[٣]، فقاتله أهْلُهَا وأُصيبَ رجالٌ من المسلمينَ، ثم انهزم المشركون، وقُتلَ منهم مقتلةً عظيمةً.

وأتى الرَّبيعُ ناشِرُوذ ففَتَحها، ثم شَرْواذ فَغَلب عليها، وسار إلى زَرَنْج فنازلَهُ أهلُها، فهزَمَهم وحصَرَهم، فأرسلَ إليه مَرْزُبانُها ليصالِحه واستأْمَنَه ليحضُر عنده، فأمَّنَهُ، وجلس الربيعُ على جَسَدٍ منْ أجساد القتْلَى، واتَّكأ على آخر، وأمر أصحابَه ففعَلوا مثْلَه، فلمّا رآهم المَرْزُبان هالَه ذلك، فصالَحَه على ألف وصيف[٤] مع كُلِّ وصيف جامٌ[٥] منْ ذَهَبٍ ودخل المسلمون المدينةَ.

ثم سار منها إلى سَناروذ، وهوَ وادٍ، فعَبرَه، وأتَى القريةَ الَّتي بها مَرْبط فرس رُسْتُم الشَّديد، فقاتلَهُ أهلُهَا فظَفر بهم، ثم عاد إلى زَرَنج وأقام بها نحوَ سنةٍ، وعاد إلى ابن عامرٍ، واستخلفَ عليها عاملًا، فأخرجَ أهلُها العاملَ، وامتنعُوا.

فكانت ولايةُ الرَّبيع سنةً ونصفًا، سَبَى فيها أربعين ألفَ رأْسٍ.

وكان كاتِبُه الحسَنُ البصريّ، فاستعمل ابنُ عامر عبدَ الرَّحمٰن بنَ سَمُرة بن حبيب بن عبدِ شمس على سجستان، فسار إليها، فحصَرَ زَرَنْج، فصالَحَهُ مَرْزبانُها على ألفي ألف دِرْهم وألف وصيف.

وغلبَ عبدُ الرَّحمنِ على ما بين زرَنج والكَشّ[٦] من ناحية الهند، وغلبَ من ناحية الرُّخَّج على ما بينه وبين الداون، فلمّا انتهى إلى بلد الداون وحصَرهم في جبلِ

---

(١) كابل: قال ابن الفقيه: كابل من ثغور طخارستان، ولها من المدن: واذان وخواش، وخشك، وجزه.. وبكابل عود ونارجيل وزعفران وإهليلج لأنها متاخمة للهند... (معجم البلدان).

(٢) العنزة: رميح بين العصا والرمح، فيه زج.

(٣) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلها.

(٤) الوصيف: الخادم، غلام كان أو جارية.

(٥) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها.

(٦) الكش: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل، ينسب إليها أبو زرعة محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الجنيد الكشي الجرجاني...

الزُّوز، ثم صالَحهم ودخلَ الزُّوز، وهو صَنَمٌ من ذهب عيْناه ياقُوتَتَانِ، فقطع يَده وأخذ الياقوتتين وقال لِلْمرزُبان: دُونَك الذَّهبَ والجوْهَرَ، وإنَّما أردتُ أنْ أُعْلِمَكَ أنّه لا يَضرّ ولا ينفعُ.

وفتحَ كابُل، وزابُلستان، وهي ولاية غزنة، ثم عادَ إلى زَرَنْج، فأقامَ بها حتى اضطربَ أمرُ عثمان، فاستخلفَ عليها أميرَ بنَ أحمر، وانصرف فأخرجَ أهلُهَا أميرًا وامتَنَعوا.

* * *

وفي سنة اثنتين وثلاثين غزا معاويةُ بنُ أبي سفيان مضيق القُسطنطينيّة ومعه زوجَتُه عاتكة بنتُ قَرَظة، وقيل: فاختة. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب، وإليه المرجعُ والمآب.

ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقتله

في سنة اثنتين وثلاثين جَمَعَ قارِن جمعًا كثيرًا من ناحية الطَّبَسَين وأهل باذغيس وهَراةَ وقُهِسْتان، وأقبل في أربعين ألفًا.

وقال قيسُ بن الهيثَم أميرُ خراسانَ منْ قِبَلِ ابن عامرٍ لعبد الله بن خازم: ما تَرى؟ فقال: أرى أن تُخلّيَ البلادَ؛ فإنّي أميرُها، ومَعِي عهدُ ابنِ عامِر؛ إن كانت حَرْبٌ بخُراسَانَ فأنا أميرُها، وأخرج كتابًا كان قد افتعَله، فكَرِه قيسٌ منازَعتَهُ وخلاّه والبلادَ.

وأقبلَ إلى ابنِ عامرٍ فلامَه، وقال: تركْتَ البلادَ خرابًا، وأقبلْتَ! فقال: جاءني تعهُّدك..

ولمّا توجَّه قيسُ بنُ خازِم إلى قارِن في أربعةِ آلافٍ، أمرَهم أن يحمِلوا الوَدَكَ[1]، فلمّا قرُبُوا من ذلك، وقَرُبَ من الوَدَك، أمرَ النَّاسَ أن يُدرِجَ كلُّ رجلٍ منهم على زُجِّ رمحه خرقةً أو قُطْنًا، ثم يكثِّروا دهنَه، ثم سار حتَّى أمسَى، فقدّم أمامه ستمائةً من أصحابه، ثم اتَّبَعهم، وأمرَ النَّاسَ أنْ يُشعلُوا النيران في أطراف الرِّماح، وانتهتْ مقدّمته إلى معسكر قارن نصفَ اللَّيلِ فناوَشوهُمْ، وهاج النَّاس على دَهَش، وكانُوا قد أمِنوا من البَيات، ودنا ابن خازِمٍ منهم، فرأوا النيرانَ يَمْنةً ويَسْرة تتقدّم وتتأخَّرُ، وترتفعُ وتنخفضُ، فهالَهم ذلك وأهلُ المقدّمة يقاتلُونَهم ثم غشيَهُمْ ابنُ خازم بالمسلمين، فقُتِلَ قارن وانهزمَ المشركون، واتبعوهم يقتُلونَهم كيف شاؤُوا، وأصابُوا سَبْيًا كثيرًا.

---

(١) الودك: الدسم؛ أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه؛ أو شحم الألية والجنبين في الخروف والعجل.

وكتبَ ابنُ خازم بالفتحِ إلى ابنِ عامرٍ، فرضيَ وأقرَّهُ على خُرَاسَان، فكان عليها حتَّى انقضَتْ حَرْبُ الجَمَل.

وقيل: لمّا جمع قارن، استشار قيس بنُ عبد الله عبدَ الله بنَ خازِم فيما يَصنعَ؟ فأشار عليه أن يلحقَ بابنِ عامرٍ، فيخبِرُه بكثرة العدوّ، وقال له: إنك لا تُطيقُ كثرةَ مَنْ قد أتاك، فاخرجْ بنفسكَ ونقيمُ نحن بالحصونِ ونُطاولهم حتَّى يأْتِيَنا مَددُكم.

فخرجَ قيس، فلمّا أبعدَ، أظهرَ ابنُ خَازِم عَهْدًا، وقال: قد ولأني ابنُ عامرٍ خُراسانَ، وسار إلى قارِن فظَفِر بِهِ كما تقدَّمَ.

وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا معاويةُ حصْنَ المرأة من أرض الرّومِ، بناحية مَلَطْيَةَ[1].

وفيها سار الأحنفُ بنُ قيسٍ إلى خُراسانَ، وفتحَ المَرْوَيْن: مَرْو الرُّوذ ومَرْو الشَّاهجان.

* * *

انتهتْ الفتوحاتُ والغزواتُ، والله سبحانه وتعالى أعلَمُ بالصواب. وإليه المرجعُ والمآب، وحسبنا اللّهُ ونعم الوَكيلُ وصلّى الله على سيّدنا مُحمّد.

ذكر ما وقع في خلافة عثمان غير الغَزَوات والفُتوحات على حُكْم السِّنين

سنة أربع وعشرين

في هذه السّنة كَثُرَ الرُّعافُ بالنّاس، فسمِّيَ عامَ الرُّعاف.

وفيها استَعمل عثمانُ سعدَ بنَ أبي وَقَّاص على الكُوفة، وعَزلَ المغيرةَ بنَ شُعْبة عنها، فعمل سعدٌ عليها سنةً وبعضَ أُخرى.

وقيل: بل أقرَّ عثمانُ عُمَّالَ عمر رضي الله عنه سنةً؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه أوصَى بذلك، ثم عزلَ المغيرةَ، واستعملَ سعدًا.

وحجّ عثمانُ بالنّاس.

* * *

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

سنة خمس وعشرين

في هذه السَّنَة عزلَ عثمانُ سعدَ بنَ أبي وقَّاص عن الكُوفة في قول بعضهم، واستعملَ الوليد بنَ عقبة بن أبي مُعَيط بنِ أبي عَمرو ذَكْوان بن أُميَّة بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمِّه، وسبب ذلك أنَّ سعدًا رضي الله عنه اقترضَ من عبد الله بنِ مَسْعودٍ[١] قَرْضًا، فلمّا تقاضاه ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه لم يتيسَّر له قضاؤه، فارتفع بينهما الكلامُ.

فقال سعدٌ: ما أراك إلاَّ ستَلْقى شرًّا، هل أنت إلاَّ ابن مسعودٍ، عبد مِنْ هُذَيل! فقال: أجَلْ، والله إنِّي لابْنُ مسعودٍ، وإنَّكَ لابن حُمَيْنة.

وكان هاشم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص حاضرًا فقال: إنكما لَصاحبَا رسولِ الله ﷺ، يُنظَر إليكما. ثمّ ولّى عبدُ الله، فخرج واستعان بأُناسٍ على استخراجِ المالِ منْ سَعْدٍ، واستعانَ سعدٌ بأُناسٍ على إنظاره، فافترَقوا وبعضُهم يلُومُ بعضًا.

فكان ذلك أوّل ما نَزَغَ[٢] به الشيطانُ بين أهل الكوفة، وأوّل مِصَرٍ نزغ الشيطانُ بين أهله الكُوفة.

وبلغ الخبرُ عثمانَ، فَغَضبَ وَعزَلَ سعدًا، وأقرّ عبد الله، واستعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة مكان سَعْدٍ، وكان على عرب الجزيرةَ عاملاً لعمر، وعثمان بعدَه، فلمّا قَدمَ الكُوفة قال له سعد: أكِسْتَ[٣] بعدنا أم حمُقنا بعدَك! قال: لا تجزعَنَّ أبا إسحاق، كُلُّ ذلك لم يكن؛ وإنما هو المُلكُ يتغَدَّاه قومٌ ويتعشَّاه قومٌ آخرون. قال سعد: أراكم والله ستجعلُونَها مُلْكًا.

وقيل: لمّا قدم الوليدُ أميرًا على الكوفة، أتاه ابنُ مسعودٍ فقال: ما جاء بِك؟ فقال: جِئْتُ أميرًا. قال ابنُ مسعود: ما أدْرِي صَلحتَ بَعْدَنا أم فسدَ النّاسُ!.

وفيها وُلدَ يزيدُ بنُ معاوية، وقيل: في سنة اثنتين وعشرين وقد تقدّم.

وحجّ بالنّاس عثمانُ.

* * *

(١) عبد الله بن مسعود: من بني صاهلة، وهو من المهاجرين الأولين، وله فضائل كثيرة معروفة... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) نزغ: أفسد، وحمل بعض القوم على بعض.

(٣) كاس: عقل وظرف وفطن.

سنة ست وعشرين

في هذه السنة زاد عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه في المسجد الحرام ووسَّعَه، وابتاعَ أملاكَ قَوْمٍ وامتَنَع آخرون، فهَدمَ عليهم، ووضع الإيراد في بيت المال، فصاحُوا بعُثْمانَ فحبسهم، وقال: قد فَعَل بكم عمرُ هذا فلَم تصيحُوا! فكلَّمَهُ فيهم عبدُ الله بنُ خالد بن أَسيد فأطلقَهُم.

وفيها استَعمل عثمانُ رضي الله عنه عبدَ الله بن أبي سَرْحٍ على مصر، وكان أخا عثمانَ منَ الرَّضاعة، وعزلَ عمرو بنَ العاص.

***

سنة سبع وعشرين

في هذه السنة حجَّ عثمانُ بالنَّاس.

وفيها من الغَزَوات ما تقدَّم بيانهُ.

***

سنة ثمان وعشرين

في هذه السَّنَة تزوَّجَ عثمانُ نائلَة بنت الفَرافصَة، وكانت نصرانيّة، فأسلمتْ قبلَ أنْ يَدخلَ بها.

وفيها بَنى عثمانُ رضي الله عنه الزَوْراء.

وحجّ بالنّاس عثمانُ رضي الله عنه في هذه السّنة.

***

سنة تسع وعشرين

ذكر عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن العاص عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بنِ عامر على ذلك

قيل: كان عزلُ أبي موسى الأشعريِّ عن البصرة، وعَزلُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمانَ والبحريْنِ، واستعمالُ عبد الله بن عامر على أعمالها في هذه السَّنة.

وقيل: كان لثلاث سنينَ مضَت منْ خلافة عثمانَ وكان سبب عزل أبي موسى أن

أهل إيذَج[1] والأكراد كَفَروا في السنة الثالثة من خلافة عثمان فنادَى أبو موسى في النَّاس وحضَّهم على الجهاد، وذَكَر من فَضْلِ الماشي للجهاد ما ذكر، فحَمَل قومٌ على دَوابِّهم، وأجمعوا على أن يَخرجُوا رَجّالةً لينالوا فضل الماشي.

وقال آخرون: لا نعْجل حتَّى ننظُر ما يَصْنع، فإنْ أشبه قولَه فعلُه فعلْنا كما يفعَلُ، فلمّا خرجَ أخرجَ ثَقَلَه على أربعين بغلًا، فعلقوا بعنانِ دابّته، فقالوا: احملْنا على بعض هذه الفضول، وارغَبْ في المَشْي كما رَغَّبتنا، فَضرَبهم بسَوطٍ، وتركوا دابَّته، وأتَوْا عثمان فاستعفَوْهُ منه، وقالوا: ما كلُّ ما نعلم نُحبّ أن تسألَنا عنه، فأبدلْنا ما سواه، فقال: مَن تحبُّون؟ فقال: غيلان بن خَرَشةَ، وفي كلِّ أحدٍ عوضٌ منْ هذا العبد الذي قد أكلَ أرْضَنَا أما منكم خسيس فتَرفعُونه! أما منكم فقيرٌ فتجبرونه. يا مَعشرَ قريش حتَّى متى يأكُلَ هذا الشيخُ الأشعريّ هذه البلاد!

فعزل عثمانُ أبا موسى؛ وأمَّرَ عبدَ الله بن عامر بن كُرَيْز بن حبيب بنِ عبد شمس بنِ عبد مناف بنِ قُصَيّ القرشيّ العَبْشَميّ، وهو ابن خال عثمان، وممّن وُلدَ على عهد النَّبيّ ﷺ.

وعزل أيضًا عثمانُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمَان والبحرين، واستعملَ عبدَ الله على ذلك كُلِّه، وكان إذْ ذاك ابنَ خمسٍ وعشرين سنة.

واستعمل عثمانُ رضي الله عنه على خُراسانَ عميرَ بن عثمان بن سَعدٍ، فأثْخنَ في خُراسَان حتَّى بلغَ فَرْغانة، فلم يَدعْ دُونَها كُورةً إلا أصلَحها.

واستعملَ على سجستانَ عبدَ الله بنَ عُمَير اللَّيثي، فأثخن فيها إلى كابُل.

وبعث إلى مُكران عبيد الله بن مَعمَر، فأثخنَ فيها حتى بلغ النَّهر وبعثَ على كَرْمانَ عبدَ الرَّحمٰن بنَ عُبَيْس.

ثم عزلَ عبدَ الله بن عُمَير عنْ سجستان. واستعملَ عبدَ الله بنَ عامرٍ فأقرَّهُ عليها سنةً ثم عزَلَه. واستعَمَل عاصم بنَ عمرو، وعزل عبدَ الرحمٰن بنَ عُبَيْس، وأعادَ عديَّ بن سُهَيل، وصرفَ عبدَ الله بنَ مَعمر إلى فارِسَ، واستعملَ مكانه عميرَ بنَ عثمانَ، واستعمل على خُراسانَ أميرَ بن أحمرَ اليَشْكُريّ، واستعمل على سِجستانَ في سنة أربع عمرانَ بن الفَضْل البُرْجُميّ.

---

(١) إيذج: الذال معجمة مفتوحة، وجيم: كورة وبلد بني خوزستان وأصبهان، وهي أجل مدن هذه الكورة.. وهي في وسط الجبال، يقع بها ثلج كثير يحمل إلى الأهواز والنواحي وشربهم من عين شعب سلمان، ومزارعهم على الأمطار، ولهم بطيخ كثير وهو في هوّة؛ وقنطرة إيذج من عجائب الدنيا المذكورة لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر الزيادة في مسجد النبيّ ﷺ

وفي سنة تسع وعشرين أيضًا في شهر ربيع الأول، زادَ عثمانُ رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ، فجعلَ طُولَه ستين ومائةَ ذراع وعرْضَه خمسين ومائة ذراعٍ، وجعَلَ أبوابه على ما كانت أيامَ عمرَ ستَّةَ أبوابٍ، وبناه بالحجارةِ المنقوشة، وجعل عَمَده من حجارَة فيها رَصاصٌ. والله تعالى أعلمُ وهو حسبي.

ذكر إتمام عثمان الصلاة
وما تكلم الناس به في ذلك

وفي هذه السَّنَةِ حجَّ عثمانُ رضي الله عنه بالنَّاسِ، وضرب فسْطَاطَه بِمنًى، وهو أوَّلُ فُسْطَاطٍ ضُرِبَ بِمنًى، وأتمَّ الصلاَة بها وبعرَفة، فكان أوّل ما تَكلَّم به النَّاسُ في عثمانَ ظاهِرًا حين أتمَّهَا، فعاب عليه ذلك غيرُ واحدٍ من الصَّحابة، وقال عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: ما حَدَث أمرٌ، ولا قَدُم عَهْد، ولقد عهدتُ النبيَّ ﷺ، وأبا بكرٍ وعُمرَ يُصَلُّون ركعتيْن، وأنتَ صَدْرًا من خِلاَفَتِكَ. فقال: رأيٌ رأيْتُهُ.

وبلغ الخبرُ عبدَ الرّحمٰن بنَ عَوْفٍ، وكان معه، فجاءه وقال: ألم تُصَل في هذا المكان ركعتيْن مع رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ وعُمرَ، وصلَّيْتهما أنتَ! قال: بلى؛ ولكني أُخْبِرتُ مِنْ بعض النَّاسِ أنَّ بعضَ مَنْ حجَّ من اليَمَن وجُفَاةِ النَّاس قالوا: إنَّ الصلاَة للمقيمِ ركعتان، واحتجُّوا بصَلاَتي، وقد اتَّخذتُ بمكَّة أهلاً ولِي بالطَّائِف مال.

فقال له عبدُ الرحمٰن: ما في هذا عُذْرٌ، أمّا قولُكَ: اتخذتُ بها أهلاً، فإنَّ زوجَكَ بالمدينةِ تخرج بها إذا شئتَ، وإنما تسْكُنُ بسُكْنَاك. وأما مالَك بالطَّائِفِ فبينك وبينه مسيرةُ ثلاثِ ليالٍ. وأمّا قولُكَ عن حاجّ اليمنِ وغيرهم فقد كان رسولُ اللّهِ ﷺ ينزل عليه الوحْيُ والإسلامُ قليل، ثم أبو بكر وعمر، فصلَّوْا ركعتَين، وقد ضَرَبَ الإسلامُ بجِرانِه[1]. فقال عثمان: هذا رأْيٌ رأيتُه.

وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين، والله أعلم.

* * *

(١) ضرب الإسلام بجرانه: أي ثبت واستقر.

سنة ثلاثين

ذكرُ عَزْلِ الوليد بنِ عقبة عن الكوفةِ وولايةِ سعيد بنِ العاص

في هذه السنة، عَزَل عثمانُ رضي الله عنه الوليدَ بنَ عُقْبة عن الكُوفة، واستعملَ عليها سعيدَ بنَ العاصِ، وكان سببُ عزله أنَّ أهلَ الكوفةِ نسبوه أنَّه يَشربُ الخَمرَ، وذكروا ذلكَ لعثمان، فاستَدْعاه وطلب مَن ذَكَر ذلك عنه، فقال: أتشهدونَ أنَّه يشربُ الخمرَ؟ فقالوا لا، قال: فكيف قُلْتُم عنه إنَّه شَرِبها؟ فقالوا اعتصَرْناها من لِحيتِهِ، وهو يقيء الخمرَ، فأمرَ بجَلْده، فجلده عبدُ الله بنُ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ أربعين.

وقيل: إنَّ الوليدَ سَكِرَ وصلَّى بأهلِ الصُّبْحِ أربعًا، ثم التفَتَ إليهم وقال: أزيدُكُم؟ فقال ابنُ مسعودٍ: ما زلنا مَعَك في زيادةٍ مُنْذُ اليوم، فقال الحُطيئة: [من الكامل]

شَهِدَ الحُطَيئةُ يومَ يَلقَى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادَى وقد تمَّتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدُكُم؟ سكرًا وما يدْري
فأبَوْا أبا وَهْبٍ ولو أذنوا ... لقرنْتَ بينَ الشَّفْعِ والوتْرِ[1]

وقال أيضًا: [من الوافر]

تكلَّمَ في الصَّلاةِ وزادَ فيها ... عَلانيةً وجاهَرَ بالنِّفاقِ
ومَجَّ الخمرَ في سَنَنِ المصلَّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ
أزيدكُم على أنْ تَحمَدُوني ... فما لكُمْ وما لِي مِنْ خَلاقِ[2]!

قالوا: ولمّا استُعملَ سعيدُ بنُ العاص، قال بعضُ شعرائِهم: [من الوافر]

فررْتُ مِن الْوليدِ إلى سعيدِ ... كأهلِ الحِجْرِ إذْ جزِعوا فَباروا[3]
يُلينا من قريشٍ كُلَّ يومٍ ... أميرٌ محدِثٌ أو مُستشارُ
لنا نارٌ نُخَوِّفُها فَنخشَى ... وليس لهمْ ولا يخشَوْنَ نارُ

قال: واستعمَل عثمانُ سعيدَ بنَ العاص بن سعيد بنِ العاص بن أُميّةِ وهو والد عَمرو بن سعيد الأشدق، فسار إلى الكوفة ومعه مَنْ كان قد شَخَص من أهلِ الكوفةِ مع الوليدِ، فلمّا وصَلَها صَعِد المنبرَ، فحمدَ اللّهَ وأثنى عليْه ثم قال: والله لقد بُعِثْتُ

---

(١) الشفع: ما شفع غيره وجعله زوجًا، وهو خلاف الوتر. والوتر: الفرد.
(٢) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير. (٣) بار: هلك.

إليكُمْ وإني لكارهٌ؛ ولكنّي لم أجِدْ بُدًّا إذ أُمِرْتُ أنْ أأْتَمِرَ. ألاَ إنَّ الفِتْنَةَ قد أطلعتْ خَطْمَهَا[1] وعينيْها، ووالله لأضربَنَّ وَجْهَهَا حتَّى أقْمَعَهَا أو تُعْيِيَني، وإنِّي لرائدٌ نفسي اليومَ. ونَزَل.

وسأل عَن أهْل الكوفةِ، فعرفَ حالَ أهلِها، فكتبَ إلى عثمان: إنَّ أهلَ الكوفةِ قد اضطربَ أمْرُهم، وغُلِب أهلُ الشرفِ منهم والبيوتاتِ والسابقةِ، والغالبُ على تلك البلادِ روادِفُ قدِمَتْ، وأعرابٌ لحقَتْ حتى لا يُنظَر إلى ذي شرفٍ ولا بَلاءٍ من نازلتِها ولا نابتتِها.

فكتب إليه عثمان: أمَّا بعد، ففضِّل أهلَ السَّابقةِ والقدمةِ، مِمَّن فَتَحَ اللّهُ عليه تلك البلادَ؛ وليكنْ من نَزَلها غيرهم تبعًا لهم إلاَّ أنْ يكونوا تَثَاقلوا عن الحق، وتركوا القيامَ به، وقام به هؤلاء. واحفَظْ لكلٍّ منزلتَهُ، وأعطِهم جميعًا بقِسْطِهم من الحقِّ، فإنَّ المعرفة بالناسِ بها يُصَاب العدْلُ.

فأرسَل سعيدٌ إلى أهلِ الأيام والقادِسيَّةِ، فقال: أنْتُم وجوهُ النَّاس، والوجْهُ ينبىء عن الجسد، فأبْلِغُونا حاجةَ ذي الحاجَةِ. وأدخل معهم مَنْ يحتملُ مِن اللَّواحِق والرَّوادف، وجَعَل القرّاء في سَمَرِه، ففَشَت القالةُ في أهلِ الكُوفةِ.

فكتبَ سعيدٌ إلى عثمانَ بذلك، فجمعَ النَّاسَ وأخبرَهم بما كتبَ، فقالوا له: أصبْتَ لا تُطمِعْهم، هم ليسوا له بأهْلٍ؛ فإنَّه إذا نَهَض في الأمور مَنْ ليس لها بأهْلٍ لها لم يحتملْها وأفسدَها.

فقال عثمانُ: يا أهلَ المدينةِ، استعدّوا واستمسِكُوا، فقد دبَّتِ إليكُمْ الفِتَن. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب، وإليه المرجعُ والمآب.

ذكر جمع القرآن

كان سببُ ذلك أنّ حُذيفة بنَ اليَمانِ كانَ قد توجَّهَ مددًا لعبد الرَّحْمٰنِ بن ربيعة لحِصار البابِ، وكان مع سعيدِ بنِ العاص عاملُ الكوفة، فخرج معه سعيدُ بنُ العاصِ حتَّى بلغَ أذْرَبِيجانَ، فأقامَ حتى عاد حُذَيْفَة، فلمّا عادا ورجَعَا، قال لسعيدِ بنِ العاصِ: لقد رأيتُ في سَفْرتي هذه أمرًا لئن نزل بالنّاسِ ليختلِفُنّ في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبدًا.

---

(١) الخطام: الزمام، والمراد هنا أن الفتنة قد ظهرت.

قال: وما ذاكَ؟ قال: رأيتُ أُناسًا مِن أهلِ حِمْصَ يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنّهم أخَذُوا القرآن عن المقداد، ورأيتُ أهل الكوفةِ يقولون مِثلَ ذلك، وأنّهم قرؤُوا على ابنِ مَسْعُودٍ، وأهلَ البصرةِ يقولون مثلَ ذلك، وأنّهم قرؤُوا على أبي موسى، ويسمُّونَ مصحفَه لُبابَ القلُوبِ.

فلمّا وصلوا إلى الكُوفةِ أخبرَ حذيفةُ النّاسَ بذلك، وحذَّرهم ما يخافُ، فوافقه أصحابُ رسول الله ﷺ، وكثيرٌ مِنَ التّابعينَ.

فتفاوضَ حذيفةُ، وابنُ مسعودٍ، فغضِبَ سعيدٌ وقام، وتفرّقَ النّاسُ وسار حذيفةُ إلى عثمانَ، وأخبره بما رأى، وقال: أنا النّذِيرُ العُرْيان، فأدرِكْ الأمّةَ.

فجمعَ عثمانُ الصّحابةَ وأخبرَهم الخبرَ، فأعظَمُوهُ، فأرسل إلى حفصة بنتِ عمرَ رضي الله عنهما: أن أرسِلِي إلينَا بالصُّحفِ لننْسَخَهَا وكانت هذه الصُّحف هي التي كُتِبَتْ في أيّام أبي بكرٍ رضي الله عنه، وكانت عندَهُ ثم عند عمر، ثم كانتْ عند حفصةَ، فأخذها عثمانُ منها، وأمر زيدَ بنَ ثابت وعبدَ اللّهِ بنَ الزُّبيرِ وابنَ عبَّاسٍ وسعيدَ بنَ الْعَاصِ وعبدَ الله بنَ عَمْرو بن العاصِ، وعبدِ الرحمٰن بنَ الحارثِ بنِ هشام فنسخوها في المصاحفِ.

وقال عثمان: إن اختلَفْتُم فاكتُبوا بلغةِ قُريشٍ؛ فإنّما نَزَل بلسانها.

قال زيدٌ: فجعلْنَا نكتبُ؛ فإذا اختلَفْنَا في شيءٍ جَمَعْنَا أمْرَنا على رأيٍ واحدٍ، فاختلَفْنَا في التّابوتِ، فقلتُ: التّابُوه. وقال النّفرُ القُرَشيُّون التّابوت. فأبيتُ أنْ أرجعَ إليهم، وأبَوْا أنْ يرجعوا إليّ فرفَعْنَا ذلك إلى عثمانَ، فقال: اكتُبُوا التّابوتَ.

قال زيد: وذكرتُ آيةً كنتُ سمعتُهَا من رسول الله ﷺ لم أجِدْها عند أحدٍ حتّى وجدتُهَا عندَ خُزيمةَ بن ثابتٍ الأنصاريّ وهي: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

قال: وكُتِبَتْ أربعُ نسخٍ، فبعث نسخةً إلى الكوفةِ، وأُخرى إلى البصرةِ، وأُخرى إلى الشّامِ، وأمسكَ واحدةً لنفسِه، وأعاد الصُّحُفَ إلى حَفْصةَ، وأمر أن يُحْرَقَ ما سِوى ذلكَ.

وقيل: إنّ النُّسخَ كانت سبعةً، وأنّه وجّه نُسخةً إلى مكّة، وأُخرى إلى اليَمَن، وأُخرى إلى البَحْرين، والأوّلُ أصحُّ.

قال: فعرفَ النَّاسُ فَضلَ عثمانَ إلاَّ أهلَ الكوفة، فإنَّ المصحفَ لمّا قَدِمَ عليهم فَرِح به الصحابة، وامتَنَع عبدُ الله بنُ مسعود ومن وَافَقَهم. فقام ابن مسعود. فيهم فقال: ولا كلّ ذلك، فإنكم قد سبِقْتُم سبقًا بيّنًا، فاربَعوا على ظَلْعِكُم[١].

ولمّا قَدِمَ عليٌّ رضي الله عنه إلى أهلِ الكُوفَةِ، قام إليه رجلٌ، وعاب عثمانَ بجَمْعه الناسَ على الصُّحف، فنهاه، وقال: لو وليتَ منه ما وَلِيَ عثمانُ سلكْتَ سبيلَهُ رضي الله عنهما.

وفيها زاد عثمانُ رضي الله عنه النّداء الثّالِثَ يوم الجمعةِ على الزَّوْراء[٢]، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر سقوط خاتم النبيّ ﷺ

وفيها سقط خاتمُ النّبيِّ ﷺ من يدِ عثمانَ في بئرِ أرِيسَ[٣] وهي على مِيلَيْن من المدينة، وكانت قليلةَ الماءِ، فما أُدرِك قَعرُها بعدُ، ولمّا سقط من يدِهِ، نَزَحوا ما فيها من الماء فما قَدَروا عليه، فلمّا أيِسَ منه، صَنَع خاتَمًا آخرَ على مِثَالِه ونَقْشِه، فكان في إصبَعِهِ حتى قُتِلَ.

وقيل: إنّه نقشَ عليه: «آمَنْتُ بالَّذي خَلَق فَسوَّى».

وقيل: كان عليه «لَتُنْصَرُنّ أو لَتَنْدَمُنّ»، والله تعالى أعلم.

ذكر خبر أبي ذر الغفاري في إخراجه إلى الربذة وما تكلم الناس به في ذلك ووفاة أبي ذر رضي الله عنه

وفي سنة ثلاثين أخرَج عثمانُ رضي الله عنه أبا ذَرّ الغِفاريّ، وٱسمُه جُنْدُب بن جُنادة.

وقد ذُكِرَ في سببِ ذلك أمورٌ كثيرةٌ، منها ما أورَده أحمد بن يحيى بنُ جابر البَلاذُرِيّ[٤]، في كتاب «جُمَل أنسابِ الأشْراف» وغيرُه.

---

(١) يقال: أربع على ظلعك: أي إنك ضعيف فارفق على نفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق. والمثل نفسه يقال للمتوعد، أي لا تجاوز حدك في وعيدك.

(٢) الزوراء: دار عثمان بن عفان رضي الله عنه، بالمدينة.

(٣) بئر أريس: بئر بالمدينة ثم بقبا مقابل مسجدها.

(٤) البلاذري: هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري. أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد. سمع بدمشق، وبأنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية. له من الكتب: كتاب البلدان الصغير، كتاب البلدان الكبير (لم يتم)، التاريخ في أنساب الأشراف وأخبارهم وفتوح البلدان، الاستقصاء في الأنساب والأخبار سوّده في أربعين مجلدًا فمات ولم يكمله، وله شعر بخمسين ورقة. كانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين لعمر كحالة ٢٠١:٢).

قال البَلاذُري: لـمّا أعطَى عثمانُ رضي الله عنه مروانَ بنَ الحَكَم ما أعطاه، وأعطى الحارثَ بنَ الحَكَم بن أبي العاص - وهو أخو مَرْوان - ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيدَ بنَ ثابت الأنصاري مائةَ ألفِ درهم، جعل أبو ذَرٍّ يقول: بشِّر الكافرين بعذاب أليمٍ: ويتلو قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ...﴾ [التوبة: ٣٤] الآية.

فَرفَع مروانُ ذلك إلى عثمان، فأَرسلَ إلى أبي ذرٍّ، أن أنْتَهِ عمّا يبلُغني عنك، فقال: أيَنْهاني عثمانُ عن قراءةِ كتابِ اللّهِ، وعَيْب من تَرَكَ أمرَ اللّهِ! فواللّهِ لأنْ أُرضِيَ اللّهَ بسَخَط عثمانَ أحبُّ إليّ مِنْ أن أُسْخِط اللّهَ برِضاه، فأغضبَ ذلك عثمان، وصَبَرَ وكَفَّ عنه، ثم قال عثمانُ يومًا: أيجوزُ للإمام أن يأْخذَ من المالِ، فإذا أيسَرَ قَضَى؟ فقال كعبُ الأحبارِ: لا بأس بذلك. فقا لأبو ذَرّ: يا بْنَ اليهوديَّيْن أتعلِّمُنا دينَنا! فقال عثمان: ما أكثَر ذاك لي وأوْلعَك بأصْحابي! الحق بمَكْتَبِكَ، وكان مكتبُه بالشّام، إلا أنّه كان يقدمُ حاجًّا، ويسأل عثمانَ الإذْنَ له في مُجَاوَرةِ قبر رسول الله ﷺ، فيَأْذَن له في ذلك.

وقيل: إنّه إنّما صار إلى الشام لأنّه رأى البِناءَ قد بلغ سَلْعًا، فقال لعثمان: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلَغ البناء سَلْعًا فالهَرَب»، فأذَنْ لي آتِيَ الشّأمَ فأغْزُو هناك. فأذِنَ له، فكان أبو ذَرّ يُنكِرُ على معاويةَ أشياءَ يفعلُهَا، فبعثَ إليه معاوية ثلاثمائة دينارٍ، فقال: إنْ كانت صلةً فلا حاجةَ لي فيها. وبنى معاويةُ الخَضْراءَ بدمشقَ، فقال: يا مُعاويةُ، إنْ كانت هذه من مالِ اللّهِ فهي الخِيانةُ، وإن كانت من مالِك فهي الإسْرافُ، فسَكتَ معاويةُ.

وكان أبو ذَرٌّ يقول: واللّهِ لقد حَدَثَتْ أعمالٌ ما أعْرِفُهَا، والله ما هي في كتاب اللّهِ، ولا سنَّةِ نبيّه، والله إنّي لأرى حقّا يُطْفَأ، وباطلاً يَحيَا، وصادِقًا مكذَّبًا، وأثرَةً بغير تُقى.

فقال حبيبُ بنُ مسلمة لمعاويةَ: إن أبا ذَرٍّ مُفسِدٌ عليك الشَّامَ، فتداركْ أهلَه إن كانَت لك بهم حاجَةٌ.

فكتبَ معاويةُ إلى عثمانَ، فكتبَ إليه عثمانُ:

أمّا بعدُ، فاْحمِلْ جُندبًا إليَّ عَلَى أغْلَظِ مَرْكَبٍ وأوْعَره.

فوجّه معاويةُ مع أبي ذَرٍّ من سار معه الليلَ والنهار، فلمّا قَدِمَ المدينةَ جعلَ يقولُ: تستعمل الصِّبيان، وتَحمِي الحِمَى، وتُقرِّبُ أولادَ الطُّلَقاء!

فبعثَ إليه عثمانُ: الحَق بأيِّ أرضٍ شِئْتَ. فقال: بمكّة؟ فقال: لا، قال: فبيْت المَقْدِس؟ قال: لا، فبأحد المِصْرين؟ قال: لا، قال: ولكني مسيِّرك إلى الرَّبَذةِ، فسيَّره إليها، فلم يزلْ بها حتَّى مات.

وذكَر البَلاذُري فيما حكاه كلامًا كثيرًا، وقَع بين عثمانَ بن عفَّان وعليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنهما بسبب ذلك أغضيْنَا عن ذكرِهِ.

وحُكِيَ أنَّ أبا ذرٍّ بلغه أنَّ معاويةَ يقول: إنَّ المالَ مالُ اللّهِ، ألا إنّ كلَّ شيءٍ فللّهِ، وأنَّه يُريدُ أنْ يحتَجِبَهُ دون الناس، ويمحوَ اسمَ المسلمين: فأتاه أبو ذَرٍّ فقال: ما يَدْعُوك إلى أنْ تسمِّيَ مالَ المسلمين. مالَ اللّهِ! فقال: يَرحمُكَ اللّهُ يا أبا ذرّ! ألسْنا عبادَ اللّهِ، والمالُ مالُه، قال: فلا تَقُلْهُ، قال: سأقولُ مال المسلمين.

وكان أبو ذرٍّ يذهبُ إلى أنَّ المُسْلمَ لا ينبغي أنْ يكون في مِلكه أكثر من قُوتِ يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ إلاَّ شيء يُنفقه في سبيل اللّهِ أو يُعِدّه لغَريم، ويأخذُ بظاهر القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، وكان يقومُ بالشام ويقولُ: يا معشَر الأغنياءِ، واسُوا الفُقَراءَ، بَشِّرُوا الَّذِين يَكنزون الذَّهبَ والفضّة ولا يُنفقونها في سبيلِ اللّهِ بمكاوٍ من نارٍ تُكْوَى بها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهم وظهورُهُم. فما زال حتّى وَلع[1] الفقراءُ بِمثل ذلك، وأوجَبوه على الأغنياءِ.

وشكا الأغنياءُ ما يلقَوْنَ منهم إلى معاوية، فأرسلَ معاويةُ إليه بألفِ دينار في جُنْح اللَّيْلِ، فأنفقَها، فلمّا صلَّى معاويةُ الصُّبْح دعا معاوية رسولَه الذي أرسلَه إليْه، فقال: اذْهَب إلى أبي ذَرّ، فقلْ له: أنْقِذْ جَسَدِي من عذابِ معاويةَ، فإنهُ أرسلَني إلى غيرك، وأنّي أخطأتُ بك، ففعَلَ ذلك. فقال له أبو ذَرّ: يا بُنيّ، قل له: والله ما أصبحَ عندنا من دنانيرِكِ دينارٌ، ولكن أخِّرْنا ثلاثةَ أيّامٍ حتَّى نَجمَعَها.

فلمّا رأى معاويةُ أنَّ فِعْلَهُ صَدَّق قولَه كتبَ إلى عثمان: إنَّ أبا ذرٍّ قد ضيَّقَ عليَّ، وقد كان كذا وكذا، الَّذي يَقولُه الفقراء.

فكتبَ إليه عثمان: إنّ الفتنة قد أخْرجَتْ خَطْمَها وعَيْنَيْها، ولم يَبْق إلاَّ أن تَثِبَ، فلا تَنْكإِ القَرْح، وجَهّز أبا ذرّ، وابعَثْ معه دليلاً، وكَفْكِف النَّاسَ ونفسَكَ ما ٱستَطَعْتَ.

---

(١) ولع به: أغراه.

فَبَعَثَ له بأبي ذرٍّ، فلمَّا قَدِمَ المدينة ورأى المجالسَ في أصلِ جبل سَلْعٍ قال: بشِّرْ أهلَ المدينة بغارةٍ شَعْوَاءَ، وحَرْب مِذْكار[١] ودخل على عثمانَ فقال له: ما بالُ أهلِ الشَّامِ يشكونَ ذَرَبَ[٢] لسانِكَ؟ فأخبَرَه. فقال: يا أبا ذرٍّ، عليَّ أنْ أقْضِيَ ما عَلَيّ، وأنْ أدْعُوَ الرَّعيَّةَ إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليَّ أنْ أجْبُرَهُم على الزُّهدِ.

فقال أبو ذرٍّ: لا ترضَوْا مِن الأغنياءِ حتَّى يَبذُلوا المعروفَ، ويُحْسِنُوا إلى الجِيرانِ والإخوان، ويَصِلوا القَرابات، فقال: كعبُ الأحْبارِ ـ وكان حاضرًا: من أدَّى الفريضة فقد قَضَى ما عليه، فضَرَبه أبو ذرٍّ فشجَّه، وقال: يا بن اليَهوديّة، ما أنتَ وما هاهُنا!

فاستوْهَبَ عثمانُ كعْبًا شجَّتَه، فوَهَبَه، فقال أبو ذَرٍّ لعثمان: تأذَنُ لي في الخروجِ من المدينةِ؛ فإنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَني بالخروج منها إذا بلغَ البناءُ سَلْعًا؟ فأَذِنَ له، فبلغ الرَّبَذَةَ[٣]، وبنى بها مسجدًا، وأقطَعَه عثمانُ صِرْمةً[٤] مِنَ الإبلِ، وأعطاه مملوكيْن، وأجرى عليه في كُلِّ يوم عطاءً، وكذلك أجرَى على رافع بن خُدَيجٍ، وكان قد خَرَج أيضًا من المدينة لشيءٍ سَمِعه.

قال: وكان أبو ذرٍّ يتعاهَدُ المدينةَ مخافةَ أنْ يعودَ أعرابيًا، وأخرجَ معاويةُ إليه أهلَه، فخَرجوا ومعهم جِرابٌ يُثْقِلُ يَدَ الرَّجُل، فقال: انظروا إلى هذا الَّذي يُزَهِّدُ في الدّنيا ما عندَهُ؟ فقالت امرأتُه: والله ما هو دينارٌ ولا درهم ولكنَّها فُلوسٌ كان إذا خرجَ عطاؤه ابتاع منه فُلوسًا لحوائجنا..

وَروَى البُخَاريُّ رحمه الله في صحيحه بسنده إلى زَيْد بن وهْبٍ، قال: مررْتُ بالرَّبَذةِ، فإذا أنا بأبي ذَرٍّ رضي الله عنه، فقلتُ له: ما أنْزَلكَ مَنزِلَكَ هذا؟ قال: كنتُ في الشَّام، فاختلفْتُ أنا ومعاوية في ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال معاويةُ: نزلتْ في أهل الكتابِ، فقلْتُ: نزلَتْ فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك كلام، وكتبَ إلى عثمانَ رضي الله عنه يشْكُوني، فكتبَ إليَّ عثمانُ أن اقدم المدينة، فقدمْتُها، فكثُر عليَّ النَّاسَ حتَّى كأنَّهم لم يرَوْني قبلَ ذلك، فذكرْتُ ذلك لعثمان رضي الله عنه فقال لي: إنْ شئتَ تنحّيتَ فكُنْتَ قريبًا؛ فذلك الَّذي أنْزَلَني هذا المنزل، ولو أمّرُوا عليَّ حَبشيًّا لسمعتُ وأطعْتُ.

---

(١) حرب مذكار: قوية. (٢) ذرب اللسان: حدته.
(٣) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رجلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).
(٤) الصرمة: القطعة من الإبل، ما بين العشرين إلى الثلاثين.

وأقامَ أبو ذَرٍّ بالرَّبَذةِ إلى سنةِ اثنتين وثلاثين، فمات بها رضي الله عنه، ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال لابنتِه: استشرِفي[1] يا بُنَيَّة، هل ترَيْنَ أحدًا؟ قالت: لا، قال: فما جاءتْ ساعتي بعدُ، ثم أمرَها فذبَحتْ شاةً ثم طبختْهَا، ثم قال: إذا جَاءكِ الَّذِين يَدْفُنُونني ـ فإنَّه سَيَشْهُدنِي قومٌ صالحون ـ فقولي لهم: يُقْسِمُ عليكم أبو ذرّ ألاَّ تركَبُوا حتى تأكُلُوا؛ فلمَّا نَضِجَتْ قِدْرُها قال لها: انظُري، هل تَرَيْنَ أحدًا؟ قالت: نعم، هؤلاء رَكْبٌ. قال: استَقْبِلِي الكعْبَةَ، ففعلَتْ. فقال: بسمِ اللّهِ، وباللّهِ، وعلى ملّةِ رسولِ الله ﷺ، وماتَ. فخرجتْ ابنتُه، فتلقَّتْهم وقالتْ: رحمكم الله، اشْهَدُوا أبا ذرٍّ قالوا: وَأيْنَ هو؟ فأشارتْ إليه، قالوا: نَعَمْ، ونَعْمَةَ عَيْنٍ، لقد أكرَمَنا الله بذلك.

وكان فيهم ٱبنُ مسعودٍ رضي الله عنه فبَكَى، وقال: صَدَقَ رسولُ الله ﷺ، قال «يموتُ وحْدَه، ويُبْعَثُ وحْدَه».

فغسَّلوه وكفَّنوه، وصلَّوْا عليه ودَفَنوه، فقالت لهم ٱبنتُه: إنَّ أبا ذَرٍّ يقرأُ عليكم السّلامَ، وأقْسَم ألاَّ تَركَبُوا حتَّى تأكُلُوا، فَفَعَلوا، وحَملوا أهلَه معهم حتَّى أقْدَموهم مكَّة، ونَعَوْه إلى عُثمانَ، فضَمَّ ٱبنتَه إلى عِيالِهِ.

وقيل: كانتْ وفاتُه في سنة إحدى وثلاثين.

وقيل: إنَّ ٱبنَ مسعودٍ لم يحملْ أهلَ أبي ذَرٍّ معه، إنَّما تركَهُم حَتَّى قَدِم على عثمانَ بمكَّة فأعلمَه بمَوْتِهِ، فجعَلَ عثمانُ طريقه عليهم، فحمَلَهُمْ معه.

سنة إحدى وثلاثين

فيها حَجَّ عثمان رضي الله عنه بالنَّاسِ.

وفيها ماتَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب، وصَخْرُ بنُ حرْبٍ، وهو ابْنُ ثمانٍ وثمانين سنةً.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين

في هذه السَّنَةِ مات العبّاس بنُ عبد المطَّلب، وكان قد كُفَّ بصرُه، وله من العمرِ ثمان وثمانون سنة.

---

(١) استشرف الشيء: رفع بصره ينظر إليه.

ومات عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ، وصلّى عليه عمّارُ بنُ ياسر، وقيل: عثمان.

وتُوفِّيَ عبدُ اللّهِ بن زيد بن عبد ربّه الّذي أُرِيَ أمرَ الأذان.

وتُوفِّيَ عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْف رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن بن عوف وشيء من أخباره ونسبه

هو أبو محمّدٍ عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفٍ بن الحارثِ بن زهْرة بن كِلاب بنِ مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب القُرَشيّ الزُّهريّ.

وكان اسْمُهُ في الجاهليّةِ عبدَ عمرو، وقيل: عبد الكعْبَةِ، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبدَ الرّحْمٰنِ.

وأُمّه الشفاء بنتُ عَوْف بنِ عبدِ الحارث بن زُهْرة.

وُلِدَ بعد عام الفيلِ بعَشْرِ سنين، وأسلَم قبلَ أنْ يدخُلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأرْقَم، وكان من المهاجرين الأوّلين، جمَع الهجرتَيْنِ جميعًا؛ إلى أرضِ الحَبَشة، ثم قَدِم قبلَ الهجرة مهاجرًا إلى المدينةِ، وهو أحدُ العَشَرة المشهودِ لهم بالجنّةِ، وأحد السّتّة الّذين جَعَلَ عمرُ رضي الله عنه الشُّورَى فِيهم.

وشهدَ عبدُ الرحمٰن بَدْرًا، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وبَعَثَه رسول الله ﷺ إلى دَوْمة الجَنْدَلِ[1]، وعَمَّمَهُ بيَدِه، وأسْدَلَها بَيْن كتِفَيْهِ، وقال له: سِرْ بأسم اللّهِ، وأوْصاه بوَصايا الأمَراء، ثم قال: إنْ فتحَ اللّهُ عليك فتزوّجْ بنت مَلِكِهم أو شَرِيفِهم.

وكان الأصبغُ بنُ ثعلبةَ بن ضَمضم الكلْبيّ شريفهم، فتزوّج عبدُ الرحمٰن ابنته تماضُرَ بنت الأصْبغ، فهي أُمُّ أبي سَلَمَة الفقيه بنُ عبدِ الرحمٰن، وكان له من الولدِ سالم الأكبر، ماتَ قبل الإسلام، وإبراهيم، وحُمَيد، وإسماعيل، وعُرْوة قُتِل بإفريقيّة، وسالم الأصغر، وأبو بكر، وعبدُ اللّهِ الأكبر قُتِلَ بإفريقيّة، والقاسمُ، وعبدُ الله الأصغرِ، هو أبو سَلَمَة الفقيه، وعبدُ الرحمٰن بنُ عبد الرحمٰن، ومصعب، وعثمان، ومحمد، ومَعْن وزيد، وأُمُّ القاسم وُلِدَتْ في الجاهلية، وجُوَيْرية، وهم لأُمّهاتِ أولادٍ شَتّى ذكرهُنَّ الزُّبيرُ بنُ بَكّار.

---

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبليّ طيىء كانت به بنو كنانة من كلب...

ولعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف رضي الله عنه، فضائلُ كثيرةٌ، ومناقبُ جَمَّةٌ؛ منها أنّ رسول اللّهِ ﷺ صَلَّى خَلْفَه في سَفرٍ.

ورُوِيَ عنه ﷺ. أنّه قال: «عبدُ الرحمٰن بنُ عوفٍ سيِّدٌ من ساداتِ المسلمين».

وقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفٍ أمينٌ في السماء، وأمينٌ في الأرض».

وكان رضي الله عنه رجلاً طويلاً، أجْنَأ[١]، أبيضَ مُشْرَبًا بحُمْرةٍ، حسنَ الوجْهِ، رقيقَ البَشَرَةِ، لا يغيِّر لحيتَه ولا رأسَه.

ورُوِيَ عن سهلة بنتِ عاصم زوجته قالت: كان عبدُ الرحمٰن أبيضَ أعْيَنَ[٢]، أهدَبَ الأشفارِ[٣]، أقْنَى[٤]، طويلَ النَّابَيْنِ الأَعْلَيَيْن، ورُبّما أدْمَيَا شَفَتَهُ، له جُمّة[٥]، ضخمَ الكَفَّين، غليظ الأصابع، جُرِحَ يومَ أحُدِ إحدى وعشرين جِراحة، وجُرِحَ في رِجْله، فكان يَعْرُج منها.

وقال أبو عمر بنُ عبد البَرِّ: كان عبدُ الرّحمٰنِ تاجرًا مَجْدودًا[٦] في التِّجارةِ وكَسَبَ مالاً كثيرًا، وخلَّف ألفَ بعيرٍ، وثلاثةَ آلافِ شاة، ومائةَ فرسٍ تَرعَى بالبَقِيع، وكان يَزرعُ بالجُرْفِ على عشرين ناضِحًا[٧] فكان يأْخُذُ مِنْ ذلك قُوتَ أهلِهِ سنةً، وخلَّفَ مالاً كثيرًا جدًا.

رَوَى عَمرو بنُ دينارٍ، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرّحمٰن بن عَوْفٍ قال: صالَحْنَا امرأةَ عبدِ الرَّحمٰن بن عَوْفٍ الّتي طلَّقَها في مَرَضه عن ثُلُث الثُّمن، بثلاث وثمانين ألفًا.

ورَوَى غيرُه أنَّها صولحَتْ بذلك على رُبعْ الثمن مِن مِيراثِه.

وَحَكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أنَّ عبدَ الرّحمٰن بنَ عَوْفٍ رضي الله عنه أوْصَى لكلِّ رجلٍ بَقِيَ من أهْلِ بَدرٍ بأربَعمائةِ دينار، وكان عُدّتُهم يومئذٍ مائة رجلٍ، وقسَّم ماله على سِتَّةَ عَشَر سهمًا، فكانَ كُلُّ سَهمٍ ثمانين وألف دينارٍ.

---

(١) الأجنأ: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الأعين: الواسع العين.
(٣) الشفر: أصل منبت العين في الجفن.
(٤) الأقنى: الذي ارتفع أعلى أنفه واحدودب وسطه.
(٥) الجمة: مجتمع الشعر. (٦) المجدود: المحظوظ.
(٧) الناضح: البعير يستقى عليه.

وقال أبو عُمَر: ورُوِيَ أنَّه أعتَق في يوم واحدٍ ثلاثين عبدًا. ولمّا حضرتْه الوفاةُ بَكَى بكاءً شديدًا، فسئلَ عن بُكَائه فقال: إنَّ مصعبَ بنَ عُميرٍ كان خيْرًا مِنّي، تُوفِّيَ على عَهْدِ رسول الله ﷺ ولمْ يكُنْ له ما يُكَفَّن فيه، وإنَّ حمزةَ بن عبد المطلب كان خيرًا مِنّي لم نجد له كفنًا، وإنّي أخْشَى أنْ أكُونَ مِمّنْ عُجِّلتْ لَه طَيِّباتُه في حَياتِه الدّنْيا، أو أخافُ أن أحْتبِسَ عَنْ أصحابي بكثرةِ مالي.

وقد تقدَّم أن هذا المالَ الّذي اكتَسبَه كان ببركة دعاءِ رسولِ الله ﷺ.

وكانت وفاتُه رضي الله عنه بالمَدينة في هذه السَّنَةِ.

وقيل: في سنة إحدى وثلاثين، وصَلَّى عثمان رضي الله عنه عليه بوصيّةٍ منه، ودُفِنَ بالبَقيع.

واختُلِفَ في مبلغ سنِّه، فقيل: توفِّيَ وهو ابنُ خمسٍ وسبعين، وقيل: اثنتين وسبعين، وقيل: ثمانٍ وسبعين. والله أعلم.

سنة ثلاث وثلاثين

ذكر خبر من سار من أهل الكوفة إلى الشام وما كان من أمرهم

في هذه السَّنةِ سيَّر عثمانُ رضي الله عنه نفرًا من أهلِ الكوفةِ إلى الشّام، وكان سببُ ذلك أنَّ سعيدَ بنَ العاص لمّا ولاّه عثمانُ الكوفةِ اختارَ وجوه النَّاسِ، وأهلَ القادِسيّةِ، وقُرّاءَ أهلِ الكُوفةِ، فكان هؤلاء يَدْخلونَ عليه في منزله، وإذا خرجَ فكلُّ النَّاسِ يَدْخلون عليه، فدخلوا عليه يومًا، فبينما هُمْ يتحدَّثون، قال حُبَيْش ابن فلان: ما أجْوَد طلحة بنَ عبيد الله! فقال سعيدٌ: إنَّ مَنْ له مثلُ النشاسْتَج[1] لحقيقٌ أن يكونَ جوادٌ، واللّهِ لو كان لي مِثْلُه لأعاشكُمْ اللّهُ به عيشًا رغدًا.

فقال عبدُ الرحمٰن بن حُبَيش، وهو حَدَث: والله لوَدِدْتُ أنَّ هذا المِلطاط[2] لك، وهو ما كان للأكاسِرةِ على جانِب الفُراتِ الّذي يَلِي الكُوفة، فقالوا: فَضَّ اللّهُ فاكَ، والله لقد هَمَمْنا بكَ، فقال أبوهُ: غلامٌ فلا تجاوِزه، فقالوا: يتمنَّى سَوادَنا،

(١) النشاستج: ضيعة أو نهر بالكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة المبشرة، وكانت عظيمة كثيرة الدخل، اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها معظم دخلها... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الملطاط: قيل: هو طريق على ساحل البحر.. وقيل: كان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط...

ويتمنّى لكم أضعافَه. فثارَ بهِ الأشترُ وجُنْدُبَ وابن ذي الحنكة، وصَعْصعةُ، وابنُ الكَوّاء، وكُمَيْل، وعُمَيرُ بنُ ضابىء، فأخَذوه، فثارَ أبوه ليَمنَع عنه، فضَرَبُوهُمَا حتّى غُشِيَ عليهما، وجعَل سعيدٌ يُناشِدُهم ويأبَوْن، حتى قضَوْا منهما وَطَرًا، فسمِعَتْ بذلك بنو أسَد، فجاؤوا، وفيهم طليحة، فأحاطوا بالقصر، وركبَتْ القبائِلُ فعاذوا بسعيدٍ، فخرجَ سعيدٌ إلى النّاسِ، فقال: أيُّها النّاس، قوم تَنَازعوا، وقد رَزَق اللّهُ العافية. فردَّهم، فتراجَعُوا. وأفاقَ الرجلانِ، فقالا: قاتَلْنا غاشيتَك، فقال: لا يَغْشُوني أبدًا، فكُفَّا ألسنَتكُمَا ولا تجرِّئا النّاسَ، ففعَلا، وقَعَد أُولئك النَّفَرُ في بُيوتِهِمْ، وأقبلُوا يَقَعون في عثمانَ رضي الله عنه.

وقيل: بل كان السَّبَبُ في ذلك أنَّه كان يسمُر عند سعيدٍ وُجُوهُ أهلِ الكوفةِ، منهم: مالكُ بنُ كعب الأرْحَبيّ، والأسودُ بنُ يزيد وعلقمةُ بن قيْس النَّخَعيّانِ، ومالِكُ بنُ الأشْتَر، غيرهم.

فقال سعيدٌ: إنَّما هذا السَّوَادُ بُسْتانُ قريشٍ، فقال الأشترُ: تزعم أنَّ السَّوادَ الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! وتكَلَّم القومُ معه، فقال عبد الرحمٰن الأسَديّ، وكان على شُرطةِ سَعيد: أتردّون على الأميرِ مَقالتَه! وأغلظَ لهم، فقال الأشترُ: من هاهنا لا يفوتنَّكم الرَّجُل، فَوثَبوا عليه فوطئوه وطْئًا شديدًا حتَّى غُشِي عليه، ثم جَرُّوا بِرجْله فنُضِح بماءٍ فأفاق، وقال: قتلني مَنْ انتخبْتُ، فقال: والله لا يسمرُ عندي أحدٌ أبدًا، فجعلوا يَجْلسون في مَجالسهم يشْتمون عثمانَ وسعيدًا، واجتمعَ إليهم النّاس حتَّى كَثُروا.

فكتبَ سعيدٌ وأشرافُ أهلِ الكوفةِ إلى عثمانَ في إخراجِهم، فكتب إليهم أن يُلحِقوهُم بمُعاويةَ، وكتب إلى معاويةَ: إنَّ نَفَرًا قد خُلِقُوا للفِتنةِ، فقُمْ عليهم وانْهَهُمْ، فإنْ آنَستْ منهمْ رُشْدًا فأقْبَلْ مِنْهم وإنْ أعْيَوْك فارددهم عليّ.

فلمّا قدموا على معاوية أنزلهم كنيسةَ مَرْيم، وأجْرَى عليهمْ ما كان عليهم بالعِراقِ بأمرِ عثمانَ وكان يَتغدَّى ويَتعشَّى معهم.

فقال لهم يومًا: إنَّكُمْ قوم مِنَ العَرَبِ لكم أسنانٌ وألْسنة، وقد أدركتُمْ بالإسلام شرفًا، وغَلبتُم الأُممَ، وحُزتُم مَراتبهم ومَواريثَهمْ، وقدْ بلغَنِي أنَّكُمْ نقمتُم قريشًا؛ ولو لم تكُنْ قريشٌ كنتُمْ أذِلَّة، إنّ أئِمتكم لكم جُنَّةٌ[1]، فلا تفترفُوا عن جُنَّتِكُمْ، وإنَّ أئمتكُمْ يَصْبرُون لكُمْ على الجَوْرِ، ويَحْملون عَنكم المَؤونة، واللّهِ لتَنْتَهُنَّ أو ليبتلينَّكُمُ

(١) الجنة: كل ما وقى من سلاح وغيره.

اللَّهُ بِمَنْ يَسُومُكُمْ ولا يحمدُكم على الصَّبْرِ، ثم تكونون شركاءَهم فيما جَرَرْتُم على الرّعيَّةِ في حياتِكُمْ وبعْدَ وفاتِكُمْ.

فقال صَعْصعة: أمّا ما ذكَرْتَ من قريشٍ فإنَّها لم تكن أكثرَ النَّاسِ، ولا أرفقها، ولا أمنعَهَا في الجاهليّة فتخوّفنا، وأمّا ما ذكرتَ من الجُنّةِ؛ فإنَّ الجُنَّةَ إن اخْتُرِقَتْ خُلِص إلينا.

فقال معاوية: عرَفْتُكم الآن، وعلمتُ أنَّ الَّذِي أغراكُمْ على هذا قِلّة العُقولِ؛ وأنتَ خطيبُهُم، ولا أرى لك عَقلاً، أُعَظّم عليك أمرَ الإسلام وتُذكّرني الجاهليَّة! أخْزى اللّهُ قومًا أعظَموا أمرَكُمْ.

افقَهوا عنّي ـ ولا أظُنُّكُمْ تَفقهون ـ أنّ قريشًا لم تعزّ في جاهليّة ولا إسلام إلاّ بالله تعالى، لم تكُنْ بأكثرِ العَرَبِ ولا بأشَدِّهم؛ ولكنَّهُمْ كانوا أكرمَهُمْ أحسابًا، وأمحضَهُمْ أنسابًا، وأكملَهُمْ مروءةً، ولَم يَمْتنعُوا في جاهليَّة ـ والنَّاسُ يأكل بعضهُم بعضًا ـ إلا باللّهِ، فبوّأهم[1] حرمًا آمنًا، يُتخطَّفُ النَّاسُ مِن حَوْلِهم، هل تعرفُون عَربًا أو عَجَمًا أو سُودًا أو حُمْرًا، إلاّ وقد أصَابَهُ الدَّهْرُ في بَلَدِه وحُرْمَتِهِ؛ إلاّ ما كان مِنْ قُرَيشٍ؛ فإنَّهم لم يُرِدْهُم أحدٌ من النَّاسِ بكَيْدٍ إلاّ جعل اللّهُ خدَّهُ الأسفلَ؛ حتى أرادَ الله أنْ يَسْتَنقِذَ مَن أكرمَ، واتّبع دِينَهُ من هَوانِ الدُّنيا وسُوء مَرَدّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خَلْقِه، ثم ارتضى له أصحابًا فكان خيارُهُم قريشًا، ثم بَنَى هذا المُلك عليهم، وجعلَ هذه الخلافةَ فيهم، فلا يَصلُح ذلك إلاّ عليهم، فكان اللّهُ تعالى يَحُوطُهم في الجاهليّةِ، وهم على كُفْرِهم، أفتراه لا يَحوطُهُمْ وهم على دِينِهِ! أُفٍّ لك ولأصحابِكَ!.

أمّا أنتَ يا صَعْصَعة، فإنَّ قَرْيَتَك شَرُّ القُرَى، أنْتَنُها نَبْتًا، وأعمَقُها واديًا، وأعرَفُها بالشَّرّ والأَمُها، ألأمُ العَرَب ألقابًا وأصهارًا، نُزّاع الأمم، وأنتمْ جِيرانُ الخَطِّ، وفَعَلَةُ فارِسَ، حتّى أصابتْكُم دعوةُ النبيّ ﷺ، لم تسكُنْ البحرينْ فتشرَكُهم في دعوةِ النَّبيّ ﷺ. فأنتَ شَرّ قومِكَ، حتى إذا أبْرَزَكَ الإسلام وخلَطَك بالناس أقبَلْتَ تبتَغي دينَ الله عِوَجًا، وتَنْزِعُ إلى الذِّلّةِ، ولا يضرُّ ذلك قريشًا، ولا يضعهم ولن يمنعَهُمْ من تأديةِ ما عليهم، إنَّ الشيطانَ عنكم غيرُ غافلٍ، قد عرّفَكم بالشَّرِّ فأغرَى بكم النَّاس وهو صارِعُكُمْ، ولا تُدرِكون بالشر أمرًا أبدًا؛ إلاّ فتَح اللّهُ عليكم شرًا منه وأخْزَى.

ثمَّ قامَ وتركَهُم، فتقاصَرتْ إليهم أنْفُسُهم.

---

(١) بوأهم: أنزلهم مكانًا وأقامهم به.

فلمّا كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنتُ فاذهبوا حيثُ شِئتُم، لا ينفعُ اللّهُ بكم أحدًا أبدًا ولا يضرُّه، ولا أنتم برجالِ منفعَةٍ ولا مَضَرَّةٍ فإن أردْتُم النجاةَ فالزَمُوا جماعَتَكُمْ، ولا يُبْطِرنَّكم الإنعام، فإنَّ البَطَرَ لا يعتَرِي الخيارَ، فاذهبوا حيثُ شئْتُم، فسأكتُبُ إلى أميرِ المؤمنين فيكم.

فلمّا خرجُوا دعاهم وكلَّمَهُم نحوَ كلامِه الأوّل، وكتبَ إلى عثمان أنّه قدم عليّ أقوامٌ ليستْ لهم عقولٌ ولا أديان، أضجرَهُم العدلُ، لا يريدُون اللّهَ بشيْء، ولا يتكلّمُون بحجّة؛ إنَّما هَمُّهم الفتنةُ، وأموالُ أهلِ الذِّمّة، واللّهُ مبتليهم ومختبِرُهم، ثم فاضِحُهم ومُخزيهم، ولَيسُوا بالّذين ينكئُون أحدًا إلاَّ مع غيرِهم، فانْهَ سَعِيدًا ومَنْ عندَه عنهم؛ فإنَّهم ليسوا لأكبر مِن شَغَبٍ أو نَكِيرٍ.

قال: ولمّا خرجوا من دِمَشْقَ قالوا: لا نرجع إلى الكُوفةِ، فإنَّهم يَشْمَتون بِنَا، ولكِنْ مِيلُوا إلى الجَزيرةِ، فسمِعَ بهم عبدُ الرحمٰن بنُ خالدِ بنِ الوليدِ وكان على حِمْصَ، فدعاهم وقال: يا آلَةَ الشَّيْطان، لا مرحبًا بكم ولا أهلًا! قد رجَعَ الشيطانُ مَحْسورًا، وأنتُمْ بعدُ نِشاطَ، خَسَّر اللّهُ عبدَ الرحمٰنِ إنْ لم يؤدِّبْكم، يا معشرَ مَنْ لا أدري، أعَرَبٌ أم عَجَم! لا تقولوا لي ما يبْلغني أنّكم قلْتُم لمعاوية: أنا ابن خالدِ بن الوَليدِ، أنا ابنُ من عَجَمتْهُ[1] العاجِماتُ، أنا ابنُ فاقىء الرِّدَّة.

والله لئن بلغني يا صعصعةُ أنَّ أحدًا مِمَّنْ معي دَقَّ أنْفَكَ، ثم أمَضَّكَ[2]، لأطيرنَّ بك طيرةً بعيدةَ المَهْوَى. وأقامَهُم شهرًا، كلَّما ركبَ أمشاهم. فلمَّا مرّ به صعصعة قال: يا بن الخَطِيئة، أعلمتَ أنَّ مَنْ لم يصْلحه الخيرُ أصلَحَه الشَّرّ، ما لَك لا تقول كما بلغني أنّك قلْتَ لسعيد ومعاوية! فيقولون: نتوبُ إلى اللّهِ، أقِلْنَا أقالَك الله، فما زالوا به حتّى قال: تابَ اللّهُ عليكم.

وسَرّحَ الأشْتَرَ إلى عثمان، فقدِمَ إليْهِ ثانيًا، فقال له عثمان: احلل حيث شئت، قال: مع عبد الرحمٰن بن خالد؟ فقال: ذاك إليك، فرجعَ إليه.

وقد حَكَى بعضُ المؤرِّخِينَ مِنْ أخبارِهم نحوَ ما تقدم، وزاد فيه: إنَّ معاويةَ لمّا عادَ إليهم من القابلةِ وذكَّرهم، كان ممّا قال لهم: واللّهِ إنّي لا آمركم بشيءٍ إلا قَدْ بدأتُ فيه بنفسي، وأهل بيتي، وقد عرفَتْ قريشٌ أنَّ أبا سفيان كان أكرمها، وابنَ أكرمِها؛ إلاَّ ما جعلَ اللّهُ لنبيِّه ﷺ، فإنَّه انتخَبَهُ وأكرَمَهُ، وإني لأظُنُّ أنَّا أبا سُفْيان لو وَلَدَ النَّاسَ لم يَلِدْ إلاَّ حازِمًا.

---

(١) المراد بقوله: عجمته العاجمات: أي امتحن واختبر ودرّب.

(٢) أمضك: آلمك.

قال صَعْصعة: كذبتَ، لقد وَلَدهم خيرٌ من أبي سُفْيان، مَن خَلقَه اللّهُ بيَده، ونَفَخ فيه من رُوحه، وأمَر الملائكةَ فسجَدُوا له، وكان فيهم البَرُّ والفاجرُ، والأحمقُ والكيِّس.

فخرجَ تلك الليلةَ من عندِهم، ثم أتاهُم من القابلة فتحدّث عِنْدَهم طويلاً ثمّ قال: أيُّها القومُ، ردُوا خيرًا أو اسْكتوا، وتفكَّرُوا وانْظُروا فيما ينفعُكُمْ وينفَعُ أهاليَكم المسلمين فاطْلُبُوه.

فقال صعصعة: لستَ بأهلِ ذلك ولاَ كَرامة، لك أنْ تُطاعَ في مَعْصِيَةِ اللّهِ عزَّ وجلّ! فقال: أليس أوّل ما ابتدأتكم به أن أمرتُكُمْ بتقوى الله وطاعَتِهِ وأنْ تعتصمُوا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرَّقُوا.

قالوا: بلْ أمرْتَ بالفُرْقةِ وخلافِ ما جاء به النّبيُّ ﷺ.

قال: فإنّي آمُرُكُمْ الآنَ، إنْ كنتُ فعلتُ فإنّي أتوبُ إلى اللّهِ وآمُرُكمْ بتقواه وطاعتِهِ، وطاعةِ نبيِّهِ، ولزومِ الجماعةِ، وأنْ توقِّروا أئمّتَكُمْ، وتَدُلّوهم عَلَى أحْسَنه ما قَدَرْتُم عليه.

فقالَ صعصعة: فإنّا نأمُرك أنْ تعتزِلَ عملَكَ؛ فإنَّ في المسلمينَ مَنْ هو أحقُّ به منك؛ مَنْ كان أبوه أحسَن قَدَمًا من أبيك في الإسلام وهو أحسَن قدمًا في الإسلام من أبيك.

فقال: واللهِ إنَّ لي في الإسلام قدمًا، ولَغَيْري كان أحسن قدمًا مِنّي، ولكن ليسَ في زماني أحدٌ أقوَى على ما أنا فيه مِنّي، ولقد رأى ذلك عمرُ بنُ الخطّابِ، فلو كان غيري أقوى مِنّي لم تَكُنِ عند عَمر هَوادةٌ لي ولا لغيري، ولم أحدِثْ من الحَدَثِ ما ينبغي أنْ أعتزِلَ عملي، ولو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكَتَبَ إليّ فاعتزلْتُ عمله، فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهِهِ ما يَتمنَّى الشيطانُ ويأمرُ.

ولعمري، لو كانتْ الأمورُ تُقْضَى على رأيكُمْ وأمانِيِّكُمْ، ما استقامت لأهلِ الإسلام يومًا وليلة، فعاوِدوا الخيرَ وقُولُوه، وإنّ لِلّه لسَطَوَاتٍ، وإنّي لخائفٌ عليكم أنْ تتابَعُوا في مُتابَعة الشَّيْطَان، ومعصيةِ الرّحمٰن فيُحِلَّكُم بذلك دارَ الهَوان في العاجلِ والآجلِ.

فَوثَبوا عليه، وأخَذُوا رأْسه ولحيتَهُ. فقال: مه! إنّ هذه ليستْ بأرضِ الكُوفةِ، والله لو رأى أهلُ الشّام ما صنعتُمْ فيَّ ما ملكتُ أنْ أنهاهُمْ عنكم حتى يقتلوكُم، فلَعَمري إنّ صنيعَكم لَيُشبه بعضُه بعضًا، ثم قام مِن عندهم.

فكَتَبَ إلى عثمانَ نحوَ ما تقدمَ، فكتبَ إليه يأمره أن يرُدَّهم إلى سعيدِ بنِ العاصِ إلى الكوفةِ، فردَّهُم، فأطْلَقُوا ألسنتَهُمْ، فضجّ سعيدٌ مِنهم إلى عُثمانَ، فكتب إليه أنْ يسيِّرَهم إلى عبدِ الرحمٰن بنِ خالدِ بِحمص، فسيّرهم إليه، فأنْزَلهم وأجْرى عليهم رِزْقًا. وكانوا: الأشتر، وثابتَ بنُ قيْس الهَمْداني، وكُمَيل بنُ زيادٍ، وزيد وصَعصعة ابنَا صُوحان، وجُنْدُب بنُ زُهَير الغامِدِيّ، وجُندَب بنُ كعبِ الأزْديّ، وعروة بن الجَعد، وعمرو بن الحِمَق الخُزاعيّ، وابن الكَوّاء.

* * *

وفيها مات المقدادُ بنُ عمرو، المعروفُ بابنِ الأسودِ، وتُوفِّيَ الطُّفيلُ والحصينُ ابنَا الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشم.

وحجَّ عثمان بالنَّاسِ.

* * *

سنة أربع وثلاثين

ذكرُ خبرِ يومِ الجَرَعة وعزلِ سَعيد وخروجه عن الكُوفة وٱستعمال أبي موسى الأشعريّ

وفي هذه السنة توجّه سعيدُ بنُ العاص أميرُ الكوفة إلى عثمانَ، وقد استعملَ على أعمالِه قبل مَسيره بسنةٍ وبعض أُخرى على أذْرَبيجان الأشعثَ بنَ قيس، وعلى الرَّيِّ سعيدَ بنَ قيس، وعلى هَمَذَان النُّسَيْر العِجْليّ، وعلى أصْبهانَ السائبَ بنَ الأقرع، وعلى ماه مالِكَ بنَ حبيب، وعلى المَوْصل حكيمَ بنَ سلام الحرَّاني، وعلى قَرْقِيسيا جريرَ بنَ عبدِ اللّهِ، وعلى البابِ سليمانَ بن ربيعة، وعلى حُلوان عُتَيْبَةَ بنَ النَّهّاس. وجعلَ القعقاعَ بن عمرو على الحربِ، وخلَتْ الكوفةُ من الرُّؤساء. فخرج يزيدُ بنُ قيس وهو يريدُ خلعَ عثمانَ، ومعه الَّذِين كان ابنُ السَّوْداء يكاتِبُهم، فأخذه القعقاعُ بنُ عمرو فقال: إنَّمَا نَستَعْفِي من سعيد. فتَرَكه، وكاتبَ يزيدُ النَّفرَ الَّذِين كانوا سُيِّروا من الكوفةِ إلى الشّام في القدوم عليه، فسار الأشترُ والَّذِين كانوا عند عبد الرّحمٰنِ بن خالد، فسبَقَهم الأشترُ. فلَم يَفجأ النَّاس بالكُوفة يومُ جمعة إلا والأشترُ على باب المسجد يقول: جئتكُمْ من عندِ أمير المؤمنين عثمانَ، وتركتُ سعيدًا يُريده على نقصان نسائكم على مائة دِرْهم، وردِّ أُولِي البَلاء منكمْ إلى ألْفَيْن، ويزعمُ أنَّ فيئكم بُسْتان قريش، فاستخلَفَ النَّاس، وجَعَل أهلُ الرأي ينهوْنَهم فلا يَسمَعُون منهم.

فخرج يبزدُ، وأمَرَ مُنادِيًا ينادي: مَنْ شاءَ أنْ يَلحقَ بيزيد لِرَدّ سعيد فليفعلْ، فبقيَ أشرافُ النَّاس وحلماؤُهم في المسجد، وعمرُو بنُ حُرَيْثٍ يومئذٍ خليفة سعيد، فصعِدَ المِنبرَ، فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه، وأمرَ النَّاسَ بالاْجتماعِ والطاعةِ.

فقال له القعقاعُ بنُ عمرو: أتَرُدُّ السَّيْلَ عن أدراجِه؟ هَيْهات! لا والله لا يَسْكُن الغَوْغاءَ إلاَّ المَشْرَفِيّة[1] ويوشكُ أن تُنتضَى، ثم يَعجّون[2] عَجيجَ العدّان[3]، ويتمنَّوْن ما همْ فيه اليَوْم، فلا يَرُدّه الله عليهم أبدًا، فاصبرْ. قال: أصبِرُ، وتَحَوّل إلى مَنزله.

وخرج يزيدُ بنُ قيس فنزل الجَرَعة[4]، وهي قريب من القادِسيّة، ومعه الأشْتَر، ووصل إليهم سعيدُ بنُ العاص، فقالوا: لا حاجة لنا بكَ، فقال: إنّما كان يكْفِيكُمْ أنْ تبعثُوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً، وهَلْ يخرُجُ الألفُ لهمْ عُقولٌ إلى رجلٍ. ثم اْنصرفَ عنهمْ، ومَضى حتّى قدمَ على عثمانَ فأخبَرَهُ الخبرَ، وأنَّ القومَ يريدون البَدَل، وأنهم يختارونَ أبا مُوسى. فولاَّه عثمانُ، وكتبَ إليهم:

أمّا بعد، فقد أمّرتُ عليكم مَن اْخترتُمْ، وأعفيْتُكُمْ مِن سعيد، ووالله لأُقرِضَنّكُمْ عِرْضي، ولأبْذُلَنّكُم صَبْري، ولأُصْلحَنّكُمْ جَهْدِي، فلا تَدَعوا شيئًا أحبَبْتُموه لا يعصَى اللّهَ فيه إلاَّ سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلاَّ ما اْستعفَيتم منه. أنزِل فيه عندَ ما أحبَبْتُم؛ حتى لا تكون لكمْ على اللّهِ حُجّة، ولنَصْبِرَنّ كما أمِرْنا؛ حتَّى تَبلغوا ما تُريدون.

ورَجَع الأُمَراءُ من قُربِ الكُوفةِ، فرجعَ جَريرٌ من قَرْقِيسياء، وعتيبة بن النهاس من حُلوان، وخطبهُم أبو موسى، وأمرهم بلزُوم الجماعةِ وطاعةِ عثمانَ. فأجابوه إلى ذلك، وقالوا: صلِّ بنا. فقال: لا، إلاَّ على السّمعِ والطاعةِ لعثمان، قالوا: نعم، فصلَّى بهم. وأتاه وُلاتُه فوَلاَّهم. واللّهُ سبحانه وتعالى أعلم، وهو حسبي.

---

(١) المشارف: قرى قرب حوران، منها بصرى من الشام ثم من أعمال دمشق، إليها تنسب السيوف المشرفية، وهنا حذف المضاف.

(٢) يعجون: يصيحون.

(٣) عدّان: المراد به ضفة النهر، وعدّان: مدينة كانت على الفرات لأخت الزباء ومقابلتها أخرى يقال لها عزّان.

(٤) الجرعة: هو موضع قرب الكوفة المكان الذي فيه سهولة ورمل... وقيل: الجرعة بين النجفة والحيرة...

ذكر ابتداء الخلاف على عثمان
ومن ٱبتدأ بالْجُرْأة عليه

كان أوّل من ابتدأ بالْجُرْأةِ عليه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف؛ وذلك أنّ إبلاً من إبلِ الصدقةِ جِيءَ بها إلى عثمانَ، فوَهَبَها لبعض بني الحَكَم، فبلغ ذلك عبدَ الرحمٰن، فأخَذَها، وقسَّمَهَا بين النَّاسِ وعثمانُ في الدار.

وكان أولَ من ٱجترأ عليه في المَنطق جَبَلةُ بنُ عَمْرو السّاعديّ، مَرّ به عثمانُ وهو في نادِي قومِه وبيَدِه جامِعة[١]، فسَلَّم عثمان، فَردَّ القومُ، فقال جبلة: لِم تردُّون على رجلٍ فَعَلَ كذا وكذا! ثم قال لِعُثمان: واللّهِ لأَطْرَحَنّ هذه الجامِعةَ في عنُقِك، أو لتتركَنَّ بطانَتَك هذه الخَبِيثةَ؛ مَرْوان وٱبنُ عامِرٍ وابن سَعْدٍ، ومنهم من نزلَ القرآنُ بذمّه، وأباحَ رسولُ اللّهِ ﷺ دَمَه.

وحَكَى أبو جعفر الطَّبَرِيّ: أنّه مَرّ به وهو بفناءِ داره ومعه جامِعة، فقال يا نَعْثَل[٢] والله لأقتلنّك ولأحملنّكَ على قُلُوصٍ[٣] جَرْباء، ولأحملنَّكَ إلى حَرّة النَّارِ.

قال: ثم جاءَهُ مرّةً أُخرى، وعثمانُ على المِنبرِ، فأنزَلَه عنه.

قال أبو جعفر: وعن أبي حبيبةَ، قال: خطبَ عثمانُ النَّاسَ في بعضِ أيّامه، فقال عمرُو بنُ العاص: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك قد ركبتَ نَهَابير[٤]، وركبنا معك، فتُبْ نَتُبْ. فاستَقْبَلَ عثمانُ القبلةَ، وشَهَر يَدَيْه، قال أبو حُبَيْبَة: فلم أرَ يومًا أكثرَ باكيًا ولا باكيةً من يومئذ.

قال: ثمّ خطبَ الناسَ بعد ذلك، فقام إليه جَهْجَاهٌ الغِفَارِيّ فصاح: يا عثمانُ، ألا إنّ هذه شارِف[٥]، قد جئنَا بها، عليها عَباءة وجامِعة، فأنزل فلندرّعْكَ العَباءة، ولنَطْرَحْكَ في الجامعةِ، ولنحملنَّكَ على الشّارف، ثم نَطرحْكَ في جَبَلِ الدُّخان.

فقال عثمانُ: قَبَّحكَ اللّهُ، وقبَّح ما جئتَ به!

---

(١) الجامعة: الغل يوضع في العنق.

(٢) نعثل: رجل من أهل مصر، قيل: كان يشبه عثمان رضي الله عنه.

(٣) القلوص: من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة.

(٤) النهابير: المهالك.

(٥) الشارف من النوق: المسنة الهرمة.

قال أبو حبيبة: ولم يكن ذلك منه إلا عن مَلأٍ من النَّاسِ، وقام إلى عثمانَ شيعته من بني أُميَّةَ، فحَمَلوه فأدخَلوه الدّار.

ورَوى عن يحيى بن عبدِ الرحمٰن بنِ حاطب عن أبيه، قال: أنا أُنظر إلى عثمانَ يخطبُ على عصا النبيّ ﷺ التي كان يخطبُ عليها أبو بكر، فقال له جَهْجَاه: قمْ يَا نَعْثَل، فأنزِل عن هذا المِنبرِ، وأخذِ العَصا فكسَرَها على رُكبَتِه اليمنى، فدخلَتْ شَظيّةٌ منها فيها، فبَقيَ الجُرح حتَّى أصابته الأكَلَةَ[1]، فرأيتُهَا تَدوَّد. ونزل عثمانُ وحَمَلوه، وأمرَ بالعصا فشدّوها، فكانت مُضبَّبَةً[2]، فما خرجَ بعد ذلك اليومِ إلاَّ خَرْجةً أو خَرْجتيْن حتى حُصِر، فقتل.

هذا ما كان من أمرِ أهل المدينة.

وأمّا ما كان من أهل الأمصار، فكان سبب خلافهم أنّ عبدَ اللّهِ بن سَبأ المعروف بأبن السَّوْداء، كان يهوديًا، فأسلَمَ أيّامَ عثمان، ثم تنقَّلَ في الحِجاز، ثم بالبَصْرةِ، ثم بالكُوفةِ، ثم بالشام، يريدُ إضلالَ النَّاسِ، فلم يقدرْ منهم على ذلك، وأخرجَهُ أهلُ الشّام، فأتَى مصرَ، فأقامَ فيهم، وقال لهم: العجبُ ممن يُصَدِّق أنّ عيسى يرجعُ، ويكذِّبُ أنّ محمدًا يرجعُ، ووضعَ لهم الرّجعةَ، فقبِلُوا ذلك معه، ثم قال لهم بعد ذلك: إنّه كان لكلِّ نبيٍّ وصيّ، وعليٌّ وصيُّ محمّدٍ، فمن أظلمُ ممّن لم يُجِز وصيّةَ رسولِ الله، ووَثَب على وصيِّه! وإنَّ عثمانَ أخذَها بغيْرِ حقٍّ، فأنهضُوا في هذا الأمرِ، وابدؤوا بالطَّعْنِ على أُمرائِكُمْ، وأظهروا الأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكرِ تستميلوا به النَّاس. وبثَّ دُعاتَه، وكاتبَ من أستفسدَ في الأمصار، وكاتبُوه، ودَعَوْا في السِّرّ إلى ما عليه رأيُهُمْ.

ثم كان أهلُ الكوفةِ أوّلَ مَنْ قامَ في ذلك، فاجتمعَ ناسٌ منهم فتذاكَرُوا أعمالَ عثمانَ، فاجتمعَ رأيُهم أنْ يُرسِلوا إليه عامرَ بنَ عبدِ اللّهِ التَّمِيْمِيّ، ثم العنْبَريّ، وهو الّذي يُدْعى عامرَ بنَ عبدِ القيس، فأتاه، فدخل عليه فقال: إنَّ ناسًا من المسلمين اجتمعُوا ونظروا في أعمالِك، فوجَدُوك قد ارتكبْتَ أُمُورًا عظَامًا، فاتّقِ اللّهَ وتُبْ إليه.

فقال عثمانُ: انْظُروا إلى هذا، فإنّ النَّاسَ يزعمُون أنّه قارىء، ثم هو يجيء فيكلِّمُني في المحقَّرات، ووالله ما يَدْرِي أينَ الله؟ فقال عامر: بل واللّهِ إنّي لأدْرِي إنّ الله لَبالْمِرْصاد.

---

(١) الأكلة: الحكة.

(٢) يقال: ضبّب الخشب ونحوه: ألبسه الحديد ونحوه.

فأرسلَ عثمانُ إلى معاوية، وعبدِ الله بنِ سعد، وسعيدِ بنِ العاص، وعمرو بنِ العاص، وعبد الله بن عامر، فجمعَهُم وشاورَهم، وقال لهم: إن لكلِّ أميرٍ وزراء ونُصَحاء وإنكُمْ وُزرائِي ونُصَحائي، وأهلُ ثِقَتي، وقد صنعَ النَّاسُ ما قد رأيتُم، وطلبوا إليّ أنْ أعزلَ عُمَّالِي، وأنْ أرجعَ عَنْ جميع ما يَكْرَهون إلى ما يحِبُّون، فاْجتهدُوا رأيَكم.

فقال ابنُ عامرٍ: أرَى يا أميرَ المؤمنين أن تَشغَلَهم بالجهادِ عنك حتَّى يَذِلُّوا لك، ولا تكون همّةُ أحدهم إلا في نفسَه وما هو فيه من دَبَر[1] دابَّتِهِ وقَمَلَ[2] فَرْوَتِهِ.

وقال سعيد: احْسِمْ عنك الداءَ فاْقطعْ عنك الَّذي تخافُ، فإنَّ لكُلِّ قومٍ قادةً، مَتى تَهلك تفرَّقُوا ولا يجتَمعُ لهم أمْر، فقال عثمان: هذا هو الرأيُ لولا ما فيه.

وقال معاوية: أُشيرُ عليك أن تأمرَ أُمراءَ الأجنادَ فيكْفِيَكَ كلُّ رجلٍ منهم ما قبَله، وأكفيك أنا أهلَ الشام.

وقال اْبن سَعد: إنَّ الناسَ أهلُ طمعٍ، فأعطِهم من هذا المالِ، تَعطِفْ عليك قلوبُهُم.

ثم قام عمروُ بنُ العاص فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك قَدْ ركبْتَ النَّاس بمِثلِ بني أُميَّة. فقلْتَ وقالوا، وزُغتَ وزَاغوا، فاْعتَدِل أو اْعتزِلْ، فإن أَبَيْتَ فاعتزِمْ عَزْمًا، واْمضِ قُدُمًا.

فقال له عثمانُ: ما لَكَ قَمِلَ فَرْوُك، أهذا الجدّ منك! فسكتَ عَمرو حتَّى تَفرّقوا، فقال: واللّهِ يا أميرَ المؤمنين لأنت أكرمُ عليَّ من ذلك؛ ولكِنِّي علمتُ أن بالبابِ من يُبَلِّغ النَّاسَ قولَ كلّ رجلٍ منَّا، فأردْتُ أن يَبْلُغَهُمْ قَوْلي، فَيثِقُوا بي، فأقود إليك خيرًا، وأدفَعُ عنك شرًّا.

ثم ردَّ عثمانُ عماله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناسِ في البُعوثِ، وردَّ سعيدَ بنَ العاصِ إلى الكوفةِ، فلقيَهُ الناسُ من الجَرَعةِ فردُّوه كما تقدمَ، وتكاتبَ أهلُ الأمصار، لمّا أفسَدَ أمرَهم ابنُ السوْداء[3]، وصار أهلُ كلِّ مصر يكتب إلى أهلِ المِصر الآخَرَ بعُيوب يضعونها لوُلاتِهم، وينالُون منهم حتى ذَاع ذلك في سائرِ البلادِ، ووَصَل إلى المدينةِ.

---

(١) دبر الدابة: أصابها الدبر، والدبر: داء يصيب الإبل.

(٢) قمل فروته: كثر فيها القمل.

(٣) ابن السوداء: هو عبد الله بن سبأ.

فيقولُ أهلُ كلِّ مصر: إنا لَفِي عافية مما أبتُلِيَ به هؤلاء. ثمّ تكاتبَ نفرٌ من أصحابِ رسول اللّهِ ﷺ وغيرهم، بعضُهم إلى بعض في سنة أربع وثلاثين أنْ اقدَموا فإنّ الجهادَ عندنا، ونالَ الناسُ مِنْ عثمانَ، وعَظَّموا عليه، وليس أحدٌ من الصحابة يَنهى ولا يَذُبُّ، إلا نَفَرٌ، منهم زيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو أُسَيدٍ الساعديّ، وكعبُ بنُ مالك، وحسّانُ بنُ ثابت، فاجتمعَ الناس، فكلّموا عليّ بن أبي طالبِ رضي اللّهُ وأرْضاه وكَرّم وجْهه.

ذكر كلام علي لعثمان وجوابه له

قال: ولمّا اجتمعَ الناسُ إلى علي رضي الله عنه، وكلَّمُوه، دخل إلى عثمان فقال: إن الناسَ وَرَائِي، وقد كَلَّمُوني فيك، واللّهِ ما أدري ما أقولُ لك، ولا أعرفُ شيئًا تجهَلُه، ولا أدُلُّك على أمرٍ لا تعرفُه، إنك لتعلم ما نَعلَمُ، ما سَبَقْناكَ إلى شيءٍ فنُخبِرك عنه، ولا خَلَوْنا بشيءٍ فنبلِّغَك، وما خُصِصْنا بأمرٍ دونك، وقد رأيتَ وصَحِبْتَ رسولَ اللّهِ ﷺ، وسمعتَ منه، ونِلْتَ صِهْرَه، وما ابن أبي قُحافةَ بأوْلَى بالعملِ منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنتَ أقربُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ رَحِمًا، ولقدْ نِلْتَ من صهرِ رسولِ اللّهِ ﷺ ما لَم يَنالا، ولا سَبقَاك إلى شيءٍ، فالله، الله في نَفْسِكَ، فإنك واللّهِ ما تُبصّر عن عَمًى، وما تُعلَّمُ من جَهالةٍ، وإن الطريقَ لواضحٌ بيِّن، وإن أعلامَ الدِّينِ لقائمة.

اعلَمْ يا عثمانُ أنّ أفْضَل عبادِ اللّهِ عِند الله إمامٌ عادلٌ، هُدِيَ وهَدَى، وأقامَ سُنةً معلومةً، وأماتَ بدعةً مكروهةً، فوالله إنّ كلاً لبيِّن، وإن السُّنَن لقائمةٌ لها أعلامٌ، وإنّ البدعَ لقائمة لها أعلامٌ، وإن شرّ الناس عندَ اللّهِ إمامٌ جائرٌ ضلّ وأضلّ، فأماتَ سنةً معلومةً وأحْيَا بِدْعةً متروكة، وإنّي أُحَذِّرُك اللّهَ وسَطَوَاتِهِ ونَقَماتِهِ، فإن عذابَه شديدٌ أليم، وأُحذِّرُك أنْ تكون إمامَ هذه الأُمةِ الذي يُقتَلُ فَيَفتَح عليها القتْل والقِتالَ إلى يوم القيامةِ، وتُلبِسُ أُمُورَها وتَتركهم شِيَعًا؛ لا يُبصرون الحق لعلوّ الباطل، يَموجون فيها مَوْجًا، ويَمرَجُون[1] فيها مَرْجًا.

فقال عثمانُ: قد علمتُ والله ليَقولُنّ الَّذِي قلْتَ، أما والله لو كنتَ مكاني ما عنَّفْتُكَ ولا أسْلَمْتُك، ولا عِبْتُ عليك، ولا جئتُ نكرًا، أنْ وصلْتُ رحِمًا، وسدَدْتُ خَلَّة، وآويتُ ضائعًا، ووَلَّيتُ شبيهًا بمن كان عمر ولّى. أنشُدُكَ اللّهَ يا عليّ، هل تَعلمُ أنَّ المغيرَةَ بنَ شعبة ليس هناك! قال: نعم، قال: فتعلمُ أنّ عمرَ ولاَّهُ؟ قال: نعم، قال: فلِمَ تلومُني أنْ وَلَّيتُ ٱبنَ عامر في رَحِمِه وقَرَابَتِهِ؟ قال عليّ: إنّ عمرَ كان يَطأُ

(١) مرج الناس: اختلطوا؛ ومريع الدين: فسد وقلّ الوفاء به.

على صِماخ[١] مَن ولّى إنْ بلغَهُ عنه حرفٌ جَلَبَهُ، ثم بلغَ به أقْصَى العُقوبةِ، وأنْتَ لا تَفعلُ، ضعُفْتَ ورفقْتَ على أقربائِك.

قال عثمانُ: وهم أقرباؤُك أيضًا. قال: أجَل، إنَّ رَحِمَهُمْ منّي لقريبة؛ ولكنَّ الفضلَ في غيرهم.

قال عثمانُ: هل تعلَمُ أنَّ عمرَ وَلّى معاوية، فقد ولَّيتُه؟ قال عليّ: أنشُدُك اللّهَ! هل تعلمُ أنَّ معاويةَ كان أخوف لِعُمَر مِن يَرْفَأ[٢] (غلام له)؟ قال: نعم، قال: فإنّ معاويةَ يقطع الأُمورُ دونك، ويقولُ للنّاسِ: هذا أمرُ عثمان، وأنْتَ تعلَمُ ذلك، فلا تغيّر عليه.

ثمّ خرج عليٌّ مِنْ عنده، وخرجَ عثمانُ على أثرِه، فجلس على المِنبرِ ثم قال:

أمّا بعد، فإنَّ لكلّ شيءٍ آفةً، ولكُلِّ أمرٍ عاهةً، وإنَّ آفةَ هذه الأُمّةِ، وعاهةَ هذه النِّعْمة، طَعّانُون يُرُونكم ما تُحِبُّون، يسترُون عنكُمْ ما تكرهُون، ويقولُون لكم ويقولون، أمثالُ النَّعام، يَتْبَعُون أوّلَ ناعق، أحبُّ مواردِها إليها البعيد، لا يشربون إلاّ نَغَصًا[٣]، ولا يَرِدُون إلاّ عَكَرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعْيتْهم الأُمورُ، ألا فقد عِبْتُم عليّ واللّهِ بما أقررْتُم لابن الخطّابِ بمثلِهِ؛ ولكنَّهُ وَطِئكم برِجْلِهِ، وضرَبَكم بيَدِهِ، وقَمَعَكُمْ بلسانِهِ، فدِنْتُم له على ما أحبَبْتُمْ أو كرهْتُمْ، ولنْتُ لكم، وأوطأتُكُمْ كتِفي، وكَفَفْتُ يَدِي ولساني عنكُمْ، فأجترَأْتُم عَلَيَّ. أما واللّهِ لأنا أعزُّ نَفرًا، وأقربُ ناصرًا، وأكثرُ عَدَدًا، وأحرى أن قلتُ هَلُمَّ أُتِيَ إليّ، ولقد أعددْتُ لكم أقرانَكم، وأفضلْتُ عليكم فضولاً، وكَشَرْتُ لكمْ عن نَابي، وأخْرجْتُم منّي خُلُقًا لم أكن أُحْسِنُهُ، ومَنطقًا لم أنطِقْ به، فكفُّوا عنّي ألسنَتَكُمْ وطعنَكُمْ وعيْبَكُمْ عَلَى وَلاتِكُمْ، فإنّي قد كَفَفْتُ عنكم مَنْ لو كان هو الّذِي يُكلّمكم لرضيتُمْ منه بدون مَنْطِقي هذا، ألا فما تَفقِدون من حَقِّكُمْ؟ والله ما قصّرْتُ عَنْ بلوغ ما بَلَغ من كان قَبْلي، ولم يَكُونوا يَختلفون عليه.

فقام مروانُ بنُ الحكم فقال: إنْ شئتُمْ حكَّمْنَا واللّهِ بينَنا وبينكم السيفَ، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر: [من الطويل]

فَرشْنا لكُمْ أعراضَنا فَنَبَتْ بِكُمْ مَغَارِسُكُمْ تَبْنُونَ في دِمَنِ الثَّرَى[٤]

فقال له عثمانُ: اسْكتْ لا سكتّ، دَعْني وأصحابي، ما منطقُكَ في هذا؟ ألم أتقدَّمْ إليك ألاّ تَنطِق! فسكت مروانُ، ونَزَل عثمانُ.

---

(١) الصّماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته. (٢) يرفأ: يصلح.
(٣) النغص: الماء الكدر. (٤) الدمن: جمع دمنة: وهي المزبلة.

ذكر إرسال عثمان إلى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله وما يقول النَّاسُ فيهم

قال: لما تكاتَبَ أهلُ الأمصارِ بعُيوب وُلاتِهم التي وَضَعوها، وشاعَ ذلك، وأتت الأخبارُ إلى المدينة، أتَى أهلُ المدينةِ إلى عثمانَ وقالوا: يا أميرَ المؤمنين إنا نخبرك عن النَّاس بما يأتينا، وأخبَروه، فاستشارَهم فأشاروا أن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصارِ، ليأتُوه بأخبار العُمّالِ، فأرسلَ محمدَ بن مَسلَمة إلى الكُوفةِ، وأُسامةَ بنَ زَيْدٍ إلى البَصْرةِ، وعمّارَ بنَ ياسِرٍ إلى مِصْر، وعبدَ الله بنَ عمرَ إلى الشَّام. وفرّق رجالاً سواهم، فرجَعوا جميعًا قبل عمّار، فقالوا: ما أنكَرْنا شيئًا ولا أنكَرَه أعلامُ النَّاسِ ولا عَوامُّهم. وتأخَّرَ عمّار حتَّى ظَنُّوا أنَّه اغتِيلَ، فجاء كتابُ عبدِ اللّهِ بنِ أبي سرح يذكرُ أنَّ عمّارًا قد استمالَه قومٌ وانقَطَعوا إليه، منهم عبدُ اللّهِ ابن السَّوْداء، وخالدُ بنُ مُلجَم، وسُودانُ بنُ حُمران، وكنانةُ بنُ بشْر.

فكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمْصَارِ: إنِّي آخذُ عُمّالِي بموافاتي في كلّ موْسم، وقد رفع إليّ أهلُ المَدينة أن أقوامًا يُضربون ويُشتَمون، فمن ادّعى شيئًا من ذلك فلْيُوافِ المَوسم، ليأخذ بحقّه منّي أو من عُمّالي، أو تَصّدقُوا فإنَّ اللّهَ يَجزِي المتَصدِّقين.

فلمّا قرىء كتابه في الأمصار بَكى النَاسُ بكاءً شديدًا، ودَعَوْا لعثمانَ رضي الله عنه. وقدمَ عمّالُ الأمصارِ إلى مكّة في المَوْسم: عبدُ اللّهِ بن عامر أميرُ البصرةِ، وعبدُ اللّهِ بنُ سعد أميرُ مصر، ومعاويةُ أميرُ الشّام وأدْخلَ معهم في المشورة سعيد بنَ العاص، وعمرَو بنَ العاصِ.

فقال عثمانُ رضي الله عنه: ويحَكُم! ما هذه الشكايةُ وما هذه الإذاعة! إنِّي والله لخائف أن تكونوا مَصْدوقًا عليكم، وما يُعْصَب هذا إلاّ بي، فقالوا: ألَم تبعثْ؟ ألم نَرْجعْ إليك الخبرَ عن القَوْم؟ ألم ترجعْ رسُلُك ولَم يشافِهْهم أحدٌ بشيءٍ، والله ما صَدَقُوا ولا بَرُّوا ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلاً، ولا يحلُّ الأخذُ بهذه الإذاعة. فقال: أشيرُوا عليّ.

فقال سعيد: هذا أمرٌ مَصْنوع يُلقَى في السِّرّ، فَيتحدَّثُ به النَّاسُ، ودواء ذلك طلبُ هؤلاء، وقتلُ الَّذِين يَخرجُ هذا مِنْ عِنْدِهم.

وقال عبدُ اللّهِ بنُ سعد: خذْ من النَّاسِ الَّذِي عليهم إذا أعطيتَهُمْ الَّذِي لهم، فإنَّه خيرٌ من أنْ تَدَعَهُم.

وقال معاوية: قد ولَّيْتَني فوَلَيْتُ قومًا لا يأتيك عنهم إلاَّ الخيرُ، والرّجلان أعلمُ بناحِيَتَيْهما، والرأيُ حُسنُ الأدب.

وقال عمرو: أرى أنَّكَ قد لِنتَ لهم، وتَراخَيْتَ عليهم، وزِدْتَهم على ما كان يَصنعُ عُمر، فأرى أن تَلزمَ طريقَ صاحبَيْك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلين في موضع اللِّين.

فقال عثمانُ: قد سمعتُ كلّ ما أشَرْتُم به عليَّ، ولكل أمرٍ باب يُؤتى منه. إنَّ هذا الأمرَ الَّذي يُخافُ على هذه الأمَةِ كائنٌ، وإنَّ بابهُ الَّذي يُغْلَق عليه فيُكَفْكَف به، اللينِ والمُؤاتاة إلاَّ في حدود اللّهِ، فإنْ فُتِح فلا يكون لأحدٍ عليَّ حُجةُ حَقٍّ. وقد علمَ اللّهُ أنّي لم آل الناسَ خيرًا، وأنَّ رَحا الفِتنةِ لدائرة، فطوبى لعثمانَ إنْ مات ولم يحرِّكْها. سكِّنُوا النَّاسَ، وهيِّئوا لهم حقوقَهُمْ؛ فإذا تُعُوطيَتْ حقوق اللّهِ عزَّ وجلّ فلا تذْهِنُوا فيها.

وكان هذا بمكّة. فلمّا قدِم عثمانُ المدينةَ دعا عليًّا وطلحةَ والزُّبيْرَ، وعنده معاوية، فحمِدَ معاويةُ اللّهَ، ثم قال: أنتم أصحابُ رسولِ الله ﷺ وخِيرتُه مِن خلقِهِ، ووُلاةُ أمرِ هذه الأمَّة، لا يَطمَعُ فيه أحدٌ غيرُكم، اخترْتُمْ صاحِبَكُم عن غيرِ غَلَبةٍ ولا طمع، وقد كبرَ وولّى عمره، ولو انتظرتُمْ به الهَرَمَ لكان قريبًا؛ مع أنّي أرجو أنْ يكون أكرمَ على الله أنْ يُبْلِغَه ذلك، وقد فشتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم، فما عَتَبْتُم فيه من شيءٍ فهذه يَدِي لكم به، ولا تُطمِعُوا النَّاسَ في أمْرِكم، فوالله إن طَمِعُوا فيه لا رأيتُم منها أبدًا إلاَّ إدْبارًا.

فقال عليُّ بنُ أبي طالب: ما لَكَ وذاك لا أُمَّ لك! قال: دعْ أُمِّي فإنَّها ليستْ بِشَرِّ أُمَّهاتِكم، قد أسلمتْ وبَايَعت النبيَّ ﷺ، وأجِبْني عمّا أقولُ لك.

فقال عثمانُ: صدق ابنُ أخي، أنا أُخبِركم عَنّي وعمّا وليتُ، إنَّ صاحِبَيَّ اللَّذَيْنِ كانا قَبْلي ظَلَما أنفُسَهما، ومَنْ كان منهما بسَبيل احتِسابًا، وإن رسولَ اللّهِ ﷺ كان يُعْطِي قَرابتَه، فأنا في رَهْطِ أهلِ عَيْلَة، وقِلَّة مَعاش، فبسطْتُ يدي في شيءٍ من ذلك المال لِما أقوم به فيه، فإنْ رأيْتُمْ ذلك خَطأً فردّوه، فأمري لأمركم تبع.

فقالوا: أصبْتَ وأحسنتَ، قد أعطيْتَ عبدَ اللّهِ بنَ خالدِ بن أَسِيد خمسين ألفًا، وأعطيْتَ مَروانَ خمسةَ عشر ألفًا. فأخذ منهما ذلك، فَرضُوا وخَرَجوا راضين.

ولمّا رأى معاويةُ ما النَّاس فيه قال لعثمان: اخرجْ معي إلى الشام فإنَّهم على الطاعة قبلَ أن يَهجُمَ عليك ما لا قِبَلَ لك به، فقال: لا أبيعُ جِوارَ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وإن كان فيه قَطْعُ خَيْطِ عُنُقي.

قال: فأبعثُ إليك جُندًا منهمْ يُقِيمون معك لنائبةٍ إن نابَت المدينة، فقال: لا أُضَيِّقُ على جِيران رسولِ الله ﷺ، فقال: واللّهِ إنك لَتُغْتالَنَّ، فقال: حسبيَ اللّهُ ونعمَ الوكيل.

وخرج معاويةُ، فمرَّ بنفر من المهاجِرين؛ فيهم عليٌّ وطلحةُ والزُّبير وعلى معاويةَ ثِيابُ سَفَره، فقام عليهم، فقال: إنَّكم قد علِمتُمْ أنَّ هذا الأمرَ كان النَّاسُ يتغالَبُون عليه حتَّى بعثَ الله نبيَّهُ، فكانوا متفاضِلِين بالسابقةِ والقدمةِ والاجتهادِ، فإنْ أخَذوا بذلك فالأمرُ أمرُهم، والنَّاسُ لهم تبع، وإن طَلَبوا الدُّنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك وَردّه اللّهُ إلى غيرِهِم، وإنَّ الله على البدَل لقادر، وإني قد خَلَّفْتُ فيكم شيْخًا، فاستَوْصوا به خيرًا، وكاتِفُوه تكونوا أسعدَ منه بذلك. ووَدَّعَهم ومَضَى إلى الشَّام.

فقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: كنتُ أرَى في هذا خيرًا.

فقال الزُّبيرُ: والله ما كان قطُّ أعظم في صَدْرِك وصدورِنا منه اليوم. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

سنة خمس وثلاثين

ذِكرُ مسيرِ مَن سار إلى عثمان رضي الله عنه من أهل الأمصار

قال: ولمّا فَصَل[١] الأُمراء عن المدينةِ، وقدموا على أمصارهم وذلك في سنة خمسٍ وثلاثين، وكان المنحرفُون عن عثمانَ قد اتَّعدوا يومًا يخرجون فيه بالأمصار جميعًا إذا سارَ عنها الأُمَراء، فلم يتهيّأ لهمْ ذلك. ولمّا رجع الأمراءُ ولم يتمّ لهم الوُثوبُ تَكاتَبُوا في القدوم إلى المدينةِ، لينظُروا فيما يريدُون ويسألوا عثمانَ عن أشياءَ، لِتَطيرَ في النَّاسِ.

فخرج المِصْريُّون وفيهم الرحمٰن بنُ عُدَيْس البَلَويّ في خمسمائة. وقيل: ستّمائة، وقيل: في ألف، وفيهم كنانةُ بنُ بِشْر اللَّيْثي، وسُودان بن حُمْران السَّكونيّ، وعليهم جميعًا الغافِقِيّ بن حرب العَكّيّ.

وخرجَ أهلُ الكوفةُ وفيهم زيدُ بنُ صُوحان العَبْديّ، والأشْتَر النَّخَعيّ، وزيادُ بنُ النَّضْر الحارثيّ، وعبدُ اللّهِ بن الأصمّ العامريّ، وهم عِدَادِ أهل مِصْرَ.

---

(١) فصل القوم عن البلد: خرجوا.

وخرجَ أهلُ البصرةِ وفيهم حكيم بن جَبَلة العَبْدِيّ، وذَرِيحُ بنُ عبّاد العَبْديّ، وبشرُ بنُ شُرَيْح القَيْسي، وابنُ المُحترِش، وهم بِعَدادِ أهلِ مِصرَ، وأميرهم حُرْقوصُ بنُ زُهَير السَّعْديّ.

فخرجوا جميعًا في شوّال، وَأظهَرُوا أنَّهم يريدون الحَجّ، فلما كانوا من المدينةِ على ثلاثٍ، تَقدَّم ناسٌ من أهلِ البَصْرةِ، فنزلُوا ذا خُشُبٍ[1]، وكان هواهم في طلحة، وتقدَّم ناس من أهلِ الكوفة فنزلوا على الأعوَص وهَواهم في الزُّبَيرِ، وجاءهم ناسٌ من أهلِ مِصرَ وهواهُم في عَلِيّ، ونَزل عامّتهم بذِي المروة[2].

فاجتمعَ نفرٌ من أهلِ مصرَ وأتَوْا عليًا، ونفرٌ من أهلِ البصرةِ، وأتَوْا طلحةَ، ونفرٌ من أهلِ الكُوفةِ فأتَوْا الزُّبيرَ، واجتمعوا بهم فكلٌّ طَرَدَهم وأبعَدَهم، فعادُوا إلى أصحابهم.

وقيل: إنَّ عثمانَ لما بَلَغَهُ نُزُولهم بذي خُشُبٍ، جاء إلى عليٍّ وكلَّمه في رَدّهم، فقال عليّ: على أيّ شيءٍ أرُدُّهم؟ فقال عثمان: على أن أصير إلى ما أشرْتَ إليه ورأيْتَه لي.

فركبَ عليٌّ ومُحمد بنُ مَسلمة وأبو المُضرّس وكلَّموهم في الرُّجوع، فرجَعُوا، فعاد عليٌّ إلى عثمانَ برجوعهم، فسُرّ بذلك.

فلمّا فَارَقه جاء مروانُ بنُ الحكم إلى عثمانَ من الغَدِ فقال له: تكلَّم وأعلِم النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ رجعوا، وأنَّ مَا بَلَغَهم عن أميرهم كان باطلًا قبل أنْ يأتيَ النَّاسُ مِنْ أمْصارِهم، ويأتيك ما لا تَستطيعُ رَدَّه، ففعَلَ عثمان، فلمّا خَطَبَ النَّاسَ قال عمرُو بنُ العاصِ: اتّقِ اللّهَ يا عثمان، فإنَّك قد ركبْتَ أموَرًا وركبْنَاهَا معك، فتُبْ إلى اللّهِ نَتُبْ.

فناداه عثمانُ: وإنَّك هُنالك! قَمِلَت واللّهِ جُبّتُكَ، منذُ عزلتُكَ عن العَمَل، فنُودِيَ من ناحية أُخرى: تُبْ إلى اللّهِ، فَرفَع رأسَه وقال: اللَّهمَّ إني أوّلُ تائبٍ. وخرجَ عمرُو بنُ العاص حتَّى أتَى فِلَسْطين.

وفي روايةٍ عن عَلْقَمة بنِ وَقَّاص: إنَّ عَمرو بن العاص قامَ إلى عثمان وَهو يخطبُ، فقال: يا عثمانُ، إنَّك قد ركبْتَ بالنَّاسِ النَّهَابِير[3] وَرِكبوها، فتُبْ إلى اللّهِ ولْيتُوبُوا. فالتَفَتَ إليه عثمان وقال: وإنَّكَ لهُنا يا بن النابغة! ثمَّ رَفع يَدَيْه واستَقْبلَ القِبلَةَ وقال: أتوبُ إلى اللّهِ، اللهمّ أنا أوّل تائب إليْك.

---

(١) خُشُب: بضم أوله وثانيه، وآخره باء موحدة: واد على مسيرة ليلة من المدينة..

(٢) ذو المروة: قرية بوادي القرى؛ وقيل: بين خشب ووادي القرى...

(٣) النهابير: المهالك.

قال ابن الأثير الجَزَرِيّ: وقيل: إنَّ عليًا لمّا رجع من عند المصريِّين بعد رجوعِهِمْ أتى عثمان، فقال: تكلَّمْ كلامًا يسمعُه النَّاسُ منك، ويشهدُون عليك ويشهدُ اللّهُ على ما في قلبك من النُّزوع[1] والإنابة؛ فإنَّ البلادَ قد تمخَّضت عليك، فلا آمَنُ أن يَجيء ركبٌ آخَرُ من الكُوفةِ والبصرة، فتقول: يا عليّ، اركَبْ إليهم، فإنْ لم أفعَلْ رأيتني قد قَطعتُ رَحِمَك، واستخففْتُ بحقّكَ.

فخرج عثمانُ فخطبَ خُطبةَ نزعَ فيها، وأعطَى الناسَ مِن نفسِه التَّوبةَ، وقال أنا أولُ من اتَّعظَ، أستغفرُ اللّهَ مما فعلْتُ وأتوبُ إليه، فمِثْلي نَزَعَ وتابَ؛ فإذا نزلتُ فليأْتِنِي أشرافكُمْ فليرَوْا رأيَهم، فوالله لئِن ردَّنِي الحقُّ عبدًا لأسْتَنُّ بسُنّة العَبْدِ، ولأذلَّنّ ذُلَّ العَبدِ، وما عن اللّهِ مَذهَب إلاَّ إليه، فواللّهِ لأُعطينَّكم الرضا، ولأُنحّينَّ مروانَ وذَويه، ولا أحتجبُ عنكم.

فرقَّ النَّاسُ وبَكَوْا حتَّى أُخْضِلَتْ[2] لحَاهم، وبكَى هو أيضًا، فلمّا نزل وَجَد مروانَ وسعيد بنَ العاصِ ونفرًا من بني أُميَّة في منزله، لم يكونُوا شهدُوا خُطبَتَهُ.

فلمّا جلس قال مروانُ: يا أميرَ المؤمنيِّن، أتكَلَّمُ أم أسكُت؟ فقالَتْ نائلةُ ابنةُ الفَرافصَة امرأةُ عثمانَ: لا، بل اصمُتْ، فإنَّهم واللّهِ قاتِلوه ومُؤْثِموه، إنه قد قال مقالةَ لا ينْبَغِي له أنْ ينزِعَ عنها.

فقال لها مروانُ: ما أنتِ وذاك؟ فواللّهِ لقَدْ مات أبوكِ وما يُحسِن يتوضّأ، فقالت: مهلاً يا مَرْوان عن ذِكرِ الآباء، تُخْبِرُ عن أبي وهو غائبٌ تَكْذِب عليه! وإنّ أباك لا يستطيعُ أنْ يدفعَ عنه. أما واللّهِ لولا أنَّه عمُّه، وأنَّه ينالُه غَمُّه لأخبرتُكَ عَنْه بما لَم أكذِب. قال: فأعرَض عنها مروانُ، وقال: يا أميرَ المؤمنين، أتكلَّمُ أم أسْكُتُ؟ قال: تكلَّمْ، فقال: بأبي أنتَ وأُمّي! والله لوددْتُ أنّ مقالتَكَ هذه كانتْ وأنتَ ممتنعٌ، فكنتُ أوّلَ من رضيَ بها، وأعانَ عليْها؛ ولكنّكَ قلْتَ ما قلْتَ حين قد بلغَ الحزامُ الطُّبْيَيْن[3]، وبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى[4]، وحين أعْطَى الخُطَّةَ الذَّليلةَ الذَّليلُ، واللّهِ لإقامةٌ على خطيئةٍ يُستغْفَرُ منها، أحسنُ من توبةٍ يخافُ عليها، وأنتَ إن شئتَ تقرُّ بالتَّوبةِ، ولم تُقرّ بالخطيئةِ، وقد اجتمعَ بالباب أمثالُ الجبالِ من النّاسِ.

---

(١) النزوع: الكف. (٢) أخضلت: ابتلت.

(٣) الطبى: حلمة الضرع التي فيها اللبن، والتي يرضع منها الرضيع.

(٤) بلغ السيل الزبى: مثل يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

فقال عثمانُ: فاَخرجْ إليهم وكلِّمْهُم، فإنِّي أستحيي أنْ أُكلِّمَهُمْ، فخرجَ مروانُ إلى البابِ والناسُ يَركبُ بعضُهم بعضًا، فقال: ما شأنُكم؟ قَدْ اجتمعْتُم كأنَّكُمْ قد جئتُمْ لنَهْب، شاهَتْ(١) الوجُوهُ! إلا منْ أُرِيد، جئتُم تُرِيدُون أنْ تَنزِعُوا مُلْكَنا من أيدينا، اخرُجُوا عنَّا، والله لئنْ رُمْتمونا لَيُمرّن عليكُمْ منَّا أمرٌ لا يَسُرّكم، ولا تحمدوا غِبَّ رَأيكم، ارجِعوا إلى منازلكُمْ، فإنَّا واللّهِ ما نحنُ بمغلوبين على ما في أيْدينا.

فرجَعَ النَّاسُ، وأتى بعضُهم عليًّا فأخْبَرَه الخبرَ، فأقبل على عبدِ الرحمٰن بنِ الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ فقال: أحضرْتَ خُطبةَ عثمان؟ قال: نعم، قال: أفحضرْتَ مقالةَ مَرْوانَ للنَّاس؟ قال: نعم، فقال عليٌّ: أيْ عِبادَ الله، يا للمسلمين! إنِّي إنْ قعدْتُ في بيتي قال لي: تركْتَنِي وقرابَتِي وحَقِّي، وإنِّي إنْ تكلَّمْتُ فجاء ما يريدُ يَلعبُ به مَرْوان، فصار سَيِّقَةً له يَسُوقُهُ حَيْثُ يشاءُ، بعد كبَرِ السِّنِّ، وصُحْبَةِ الرسولِ ﷺ. وقام مُغضَبًا حتَّى دخلَ على عثمانَ فقال له: أما رضيتَ من مروانَ ولا رضيَ منك إلاَّ بتحرُّفِك عن دينكَ، وعن عَقْلِكَ، مِثل جملِ الظَّعِينَةِ(٢). يُقَادُ حيْثُ يَشاءُ رَبُّه(٣). واللّهِ ما مروانُ بذي رأيٍ في دِينه ولا نفسِه، ولا وأيْمُ اللّهِ إنِّي لأراه يورِدُكَ ثمّ لا يُصْدِرُكَ، وما أنا عائد بعدَ مُقامي هذا لمعاتَبَتِكَ، أذهبتَ شَرفَكَ، وغُلِبْتَ على رَأْيك.

فلمّا خرجَ عليٌّ دخلَتْ على عثمانَ امرأتُه نائلة فقالتْ: قد سمعْتَ قولَ عليٍّ لك، وليس يُعَاوِدُكَ، وقَدْ أطَعْتَ مروان يقودُك حيْثُ شاء قال: فما أصنَعُ؟ قالت: تتَّقي اللّهَ، وتَتَّبعَ سنَّةَ صاحبَيْكَ؛ فإنَّك متى أطعْتَ مروانَ قتَلَكَ، ومروانُ ليس له عندَ النَّاسِ قَدْرٌ ولا هَيْبةٌ ولا محبَّةٌ؛ وإنَّما تركك النـاسُ لمَكانِه، فأرْسِلْ إلى عليٍّ فاستصْلِحْه فإنَّ له قرابةَ منك، وهو لا يُعْصَى.

فأرسل عثمانُ إلى عليٍّ فلَم يأْتِهِ وقال: قَدْ أعلمْتُه أنِّي غيرُ عائدٍ، فبلغَ مروان مقالةُ نائلة فيه، فجلسَ بين يدي عثمانَ فقال: يا ابنَةَ الفَرافِصة، فقال عثمانُ: لا تَذكُرَنَّهَا بحَرفٍ، فأسوىءُ وجهَكَ، فهي واللّهِ أنصحُ لي مِنك، فكَفَّ مَرْوان.

وأتَى عثمانُ إلى عليٍّ بمَنزلِه ليلاً وقال له: إنِّي غيرُ عائدٍ، وإنِّي فاعلٌ، فقال له عليٌّ: بعدما تكلَّمتَ على مِنبرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وأعطيْتَ من نفسكَ، ثم دخلْتَ بيتَكَ. فخرج مروانُ إلى النَّاسِ يشتُمُهم على بابِكَ ويُؤْذيهم!

---

(١) شاهت الوجوه: قبحت.
(٢) الظعينة: الراحلة يرتحل عليها.
(٣) ربّ الشيء: سيده أو صاحبه.

فخرج عثمانُ من عنده وهو يقولُ: خذلْتني وجرّأْتَ النّاسَ عليّ، فقال له عليٌّ: واللّهِ إنّي لأكثَرُ النّاس ذَبًّا[١] عنك؛ ولكنّي كلّما جئتُ بشيء أظنّه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعتَ قوله، وتركت قولي. ولم يَعُدْ عليٌّ يَعمَل ما كان يعملُ إلى أنْ مُنعَ عثمان الماءَ. فغضبَ غضبًا شديدًا حتّى دخلتْ الرَّوايا على عثمانَ رضي الله عنه. واللّهُ أعلم.

ذكر مقتل عثمان رضي الله عنه

ولمّا عاد المِصريُّون وغيرُهم، ظُنَّ أنّ الفِتْنَة قد رَكَدتْ، والبليّةَ قد سكَنَتْ، فلم يفجأْ أهلُ المدينةِ إلاّ والتَّكْبِيرُ في نواحِيها، وقد عاد القوم، فجاءهم أهلُ المدينةِ وفيهم عليٌّ، فقال: ما ردَّكُم بعدَ ذَهابِكُم!

وقيل: إنّ الّذي سألهم محمّد بنُ مَسلَمة، فأخرجُوا صحيفةً في أُنبوبَةِ رَصاصٍ وقالوا: وجدْنا غلامَ عثمانَ بالبُويْب[٢] على بَعيرٍ من إبلِ الصَّدَقةِ، ففتَّشْنا متاعَه، فوجدْنا فيه هذه الصَّحيفةَ، يأمرُ فيها عاملَ مصرَ بجَلْد عبدِ الرحمٰن بن عُدَيْس وغيْره، وصلْب بعضِنا.

قيل: وكان الّذي أُخِذتْ منه الصّحيفةُ أبو الأعورِ السُّلَمِيّ.

فدخلَ عليٌّ ومحمدُ بنُ مَسْلَمَة على عثمانَ وأعلَمُوهُ بما قال القَوْمُ، فأقسمَ باللّهِ ما كتبَه ولا عَلِمَ به. فقال محمدٌ: صَدَق، هذا مِن فِعْلِ مَرْوان، ودخلَ عليه المِصْريّون، فلم يسلّموا عليه بالخِلافَةِ، وتكَلَّمُوا، فذكر ٱبنُ عُدَيْس ما فعلَ عبدُ اللّهِ بنُ سعد بالمسلمين وأهلُ الذِّمّةِ، وأنّه استأْثَر بالغنائم، فإن قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أميرِ المؤمنين، وذكر أشياء ممّا أحْدَثَها عثمانُ بالمدينةِ.

وقال: خرجْنا من مصرَ نريد قَتْلَكَ، فردَّنا عليٌّ ومحمدُ بن مُسَلْمة، وضَمِنَا لنا النزوعَ عن كلّ ما تكلَّمْنَا فيه، فرجعْنَا إلى بلادِنَا، فرأيْنَا غلامَكَ وكتابَك وعليه خاتَمُك، تأمرُ بجَلْدنَا والمُثلةِ[٣] بنا، وطولِ حبْسِنَا. فحلفَ أنّه ما كتبَ ولا أمرَ ولا عَلِمَ.

---

(١) ذبّ عنه: دفع عنه ومنع.

(٢) البويب: بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) المثلة: العقوبة والتنكيل.

فقال محمدٌ وعليٌّ: صدق عثمان. قال المصريُّون: فمَنْ كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيُجترَأُ عليك، ويُبعثُ غلامُك وجَمَلُ الصَّدَقةِ، وينقَشُ على خاتَمِك، ويُبعَثُ إلى عامِلِك بهذه الأمورِ العظيمةِ وأنت لا تعلَمُ! قال: نعم. قالوا: ما أنت إلاَّ صادقٌ أو كاذبٌ، فإن كنتَ كاذبًا فقد ٱستحققْتَ الْخَلعَ لِما أمرْتَ به من قَتْلِنا بغيرِ حقٍّ، وإن كنت صادقًا فقد استحققتَ الخلع. لضَعْفِك عن هذا الأمر، وغَفْلَتِكَ، وخُبْث بطانَتِكَ، ولا نَتْرُكُ هذا الأمر بيَدِ مَنْ يُقطعُ الأمرُ دونَه.

فقال: لا أنزعُ قميصًا ألبَسنيه اللّهُ؛ ولكنَّني أتوبُ وأنزع.

قالوا: قد رأيْنَاك تتوبُ، ثمَّ تَعودُ، ولسْنَا منصرفينَ حتَّى نَخْلَعَك، أو نقتُلَك، أو تُلحَق أرواحُنَا باللّهِ، وإنْ مَنَعَك أهلُكَ وأصحابُكَ قاتلْنَاهم.

فقال: أمّا أنْ أتَبرَّأَ من خلافةِ اللّهِ فالقتلُ أحبُّ إليَّ من ذلك، وأمّا قتالُكُمْ مَنْ مَنَعني فإنّي لا آمُر بقتل أحدٍ بقتالِكُمْ، فمن قاتَلَ فبغيرِ أمْري.

وكَثُرت الأصواتُ واللَّغطُ[1]، فقام عليٌّ وأخرَج القومَ ومضى إلى منزلِهِ.

قال: لمّا رجع أهلُ مصرَ، رجع أهلُ الكُوفةِ وأهلُ البَصْرةِ فكأنَّما كانُوا على مِيعادٍ واحد؛ فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه: كيف علمتُمْ يا أهلَ الكوفةِ، ويا أهلَ البصرةِ بما لَقِيَ أهلُ مصر، وقد سِرْتُم مراحلَ حتَّى رجعْتُمْ! هذا واللّهِ أمرٌ بيِّتَ بليل! فقالوا: ضعُوه كيْفَ شِئْتُم، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، ليعتزِلْنَا.

قال: ثم أحاطَ القومُ بعثمانَ، ولم يَمنعُوه من الصلاةِ، ولا مَنعُوا مِنْ ٱجتماعِ النّاس به.

وكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمصارِ يَسْتَنْجِدُهم، ويأمُرُهم بالحثِّ للمَنْع عنه، ويعرِّفُهم ما النّاسُ فيه، فخرجَ أهلُ الأمصارِ على الصَّعْبِ[2] والذَّلول[3].

فبعثَ معاويةُ حبيبَ بنَ مَسلَمة الفِهْرَيّ، وبعثَ عبدُ اللّهِ بنُ سعد معاويةَ بنَ حُدَيج. وخرج من الكوفة القعقاعُ بنُ عمرو.

وقام بالكوفةِ نفرٌ يحضُّونَ على إعانةِ أهلِ المدينة، منهم عقبةُ بنُ عمرو، وعبدُ اللّهِ بنُ أبي أوْفَى، وحنظلةُ الكاتب وغيرُهُمْ من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن التابعين مسروقٌ الأسود وشريْح وعبدُ اللّهِ بنُ عُلَيم وغيرهم.

---

(١) اللغط: الصوت والجلبة.
(٢) الصعب: الذي صعب قياده.
(٣) الذلول: السهل الانقياد.

وقام بالبَصرةِ عمرانُ بنُ حصيْن، وأنَس بنُ مالك، وهشامُ بنُ عامر وغيرُهم من الصحابةِ.

وقام بالشّام جماعةٌ من الصّحَابةِ والتَّابِعين، وكذلك بمصر.

قال: ولمّا جاءت الجمعةُ التي على إثْرِ دخولِهم المدينة، خرج عثمانُ فصلَّى بالنَّاسِ، ثم قام على المِنبَرِ وقال: يا هؤلاء، لَلّهَ اللّهَ، فواللّهِ إنّ أهلَ المدينةِ ليعلَمُون أنَّكُمْ ملعُونُون على لسانه محمّد، فامْحُوا الخطأ بالصواب.

وقام محمدُ بنُ سلمة وقال: أنا أشهدُ بذلك، فأقْعَدَهُ حكيمُ بنُ جَبَلَة، وقام زيْد بنُ ثابت، فأقْعَده محمدُ بنُ أبي قُتَيْرة، وثارَ القومُ بأجْمَعِهِم، فحصَبُوا النَّاسَ حتَّى أخرجُوهم من المسجدِ، وحَصَبُوا عثمانَ حتّى صُرِع عن المِنبَرِ مغشيًّا عليه، فأُدْخِلَ داره، واستَقتلَ نفرٌ من أهلِ المدينةِ معه، منهم سعدُ بنُ أبي وقَّاص، والحسنُ بنُ عليّ وزيدُ بنُ ثابت وأبو هريرة، فعزم عليهم عثمانُ بالأنصراف، فانصَرَفُوا، وجاءَهُ عليٌّ وطلحةُ والزُّبيرُ يعودونَه، وعنده جماعةٌ من بني أُميَّة، منهم مروانُ بنُ الحَكَم، فقالوا كلُّهُم لعليّ: أهلكْتَنَا وصَنَعْتَ هذا الصُّنْعَ! واللّهِ لئن بلغْتَ الذي تريدُ لتُمرّن عليك الدُّنيا، فقام مُغضَبًا، وعاد هو والجماعةُ إلى منازِلِهم.

قال: وصَلَّى عثمانُ بالنَّاس في المَسجد بعدمَا نَزَلُوا به ثلاثين يومًا، ثمَّ مَنَعوه الصَّلاةَ، وصَلَّى بالنَّاس أميرُهم الغافِقيّ، وتفرّقَ أهلُ المدينةِ في حِيطانِهم[1]، ولَزِموا بيوتَهُمْ، لا يجلسُ أحدٌ ولا يخرجُ إلاَّ بسَيْفه؛ ليَمتنع به.

قال: وفي أثناء ذلك أستشارَ عثمانُ نُصَحاءَهُ في أمرِه، فأشاروا عليه بالإرسال إلى عليٍّ في رَدِّهم، ويُعطيهم ما يُرضِيهم؛ ليطاوِلَهُمْ[2] حتَّى تأْتيَه أمدادُه، فقال: إنَّهم لا يَقبلون التعلُّل، وقد كان منِّي في المرّةِ الأُولى ما كان.

فقال مَروانُ: أعطِهم ما سألوك، وطاولْهم ما طاوَلُوكَ؛ فإنَّهم قومٌ بَغَوْا عليكَ ولا عَهْدَ لهم.

فدعَا عليًّا وقالَ له: قد تَرَى ما كان من أمرِ النَّاسِ، ولا آمَنُهم على دَمِي، فارْدُدْهم فإنِّي أُعطِيهم ما يريدُون من الحقِّ منِّي ومن غيري. فقال عليٌّ: النَّاس إلى عَدْلِكَ أحْوَجُ منهم إلى قَتْلِكَ، وقد كنتَ أعطيتَهُمْ عهدًا فلَم تَفِ به، فلا تُفرِدْني هذه المرّة فإنِّي مُعطيهم عليْكَ الحقّ.

---

(١) الحيطان: البساتين.

(٢) طاولهم: ماطلهم وأخرهم.

قال: أعطِهم، فوالله لأفينّ لهم. فخرج عليٌّ إلى الناس فقال لهم: إنّما طلبتم الحقَّ وقد أُعطِيتُموه، وقد زَعَمَ أنّه منصفُكُمْ من نفسِه ومن غيره، فقال النَّاسُ: قَبِلْنَا، فاستَوْثِقْ منه لنا؛ فإنَّا لا نرضى بقولٍ دون فِعْلٍ، فدخل عليه عليٌّ فأعلَمه، فقال: اضرِب بَيْنِي وبينهم أجَلًا يكون لي فيه مُهلة، فإنه لا أقدر على ردِّ مَا كَرِهُوا في يوم واحد منك. فقال له عليّ: أمّا ما كان بالمدينة فلا أجَلَ لك فيه، وما غاب فأجلُهُ وصولُ أمرِك.. قال: نعم، فأجِلْني فيما في المدينةِ ثلاثةَ أيام، فأجابَهُ إلى ذلك.

وكتبَ بينهم كتابًا على ردِّ كلِّ مَظلمةٍ، وعَزلِ كُلِّ عاملٍ كَرِهوه، فكفَّ النَّاسُ عنه، فجعلَ يتأهّبُ للقتالِ، ويستعِدُّ بالسِّلاح، واتخذ جُندًا. فلمّا مضتِ الأيّامُ الثلاثة ولم يُغيِّرْ شيئًا ثار به القوم.

وخرجَ عمرُو بنُ حزم إلى المصريِّين فأعلَمَهم الخبر، وهم بذي خُشُبٍ، فقدِمُوا المدينةَ وطلَبوا منه عَزلَ عُمّاله، وردّ مَظالِمهم.

فقال: إنْ كنتُ أستعمِلُ من أردْتُم، وأعزلُ مَنْ كرِهْتُمْ، فلَسْتُ في شيءٍ مِنَ الأمرِ، والأمرُ أمرُكُمْ. فقالوا: واللّهِ لتَفعَلَنَّ أو لتُخلَعنّ أو لتُقتَلَنّ. فأبَى عليهمْ، فحَصَروه، واشتد الحصارُ، فأرسلَ إلى عليٍّ وطلحةَ والزُّبيرِ فحضَروا، فأشرفَ عليهم وقال: يأيّها الناسُ، اجلسوا، فجلسَ المُحاربُ والمسَالمُ، ثم قال: يا أهلَ المدينة، أستَوْدِعُكم الله، وأسألُه أنْ يُحسِنَ عليكم الخلافةَ مِن بعْدِي، ثم قال: أنشُدُكم باللّهِ! هل تعلمُون أنّكم دَعَوْتُم الله عِنْدَ مصابِ عمرَ أنْ يَختارَ لكم، وأنْ يجمعَكُمْ على خيرِكُمْ! أتقولُون إن اللّهَ لم يَستجبْ لكم، وهُنْتُمْ عليه، وأنتُمْ أهلُ حَقّه! أم تقولُون: هانَ على اللّهِ دِينُه، فلَم يبالِ مَن وَلّى، والدِّين لم يَتفرّقْ أهلُه حينئذٍ؟ أم تقولون: لم يكُنْ أخْذُ عَنْ مَشُورةٍ، إنما كان عَنْ مُكابَرةٍ فوَكّل اللّهُ الأمّةَ إذ عَصَتْه ولم يُشَاوِرُوا في الإمامةِ! أم تقولون: إن الله لم يعلَمْ عاقبةَ أمري.

وأنشدكم باللّهِ! أتعلَمُون لي سابقةَ خَير وقدَم خيرٍ قَدّم اللّهُ لي ما يُوجِبُ علي كلّ من جاء بَعْدِي أن يَعْرِفُوا لي فضلَها، فمهلاً لا تقتلُوني فإنه لا يَحِلُّ إلا قتل ثلاثة: رَجُل زَنَى بعْدَ إحصانِه، أو كفر بعدَ إيمانِهِ، أو قتلَ نفْسًا بغيْرِ حق. فإنكُمْ إنْ قتلْتُمُوني وضَعْتُم السيف على رِقابِكُمْ، ثم لَم يَرفع اللّهُ عنكُمْ الاختلافَ أبدًا.

قالُوا: أمّا ما ذكَرْتَ من استخارة النّاسِ بَعْدَ عمرَ، ثم وَلَّوْك فإنّ كلّ ما صنعَ اللّهُ الخِيرةَ، ولكن اللّهَ جعلَك بَلِيّةً ابتلى بها عبادَه.

وأما ما ذكَرْتَ من قَدمِكَ وسلَفِك مع رسول الله ﷺ فقد كنتَ كذلك، وقَدْ كنتَ أهلاً للوِلايةِ، ولكن أحدثتَ ما علمتَه، ولا نَترُكُ إقامةَ الحقِّ عليك مخافةَ الفتنةِ عامًا قابلاً.

وأمّا قولُكَ: إنه لا يَحِلّ إلا قتل ثلاثة، فإنا نجدُ في كتَابِ اللّهِ قَتْل غيرِ الثلاثة الذِين سَمَّيْتَ، قتْلَ من سَعى في الأرضِ فسادًا، أو قتْلَ مَنْ بَغى، ثم قاتَلَ على بَغْيِهِ، وقَتْلَ مَنْ حَالَ دون شيءٍ من الحقِّ ومَنَعه وقاتَلَ دُونَه. وقد بغيْتَ ومنَعْتَ الحقَّ وحُلْتَ دُونَه، وكابرْتَ عليه، ولم تُقِد[1] من نفسِك مَنْ ظلمتَ، وقد تمسَّكتَ بالإمارة علينَا، فإنْ زعمْتَ أنّك لَم تكابرْنا عليه فإنَّ الَّذِين قَامُوا دُونَكَ ومنعُوكَ منّا إنّما يقاتلون لتَمسّكِك بالإمارةِ، فلو خلَعْتَ نفسكَ لانْصَرفُوا عَن القتالِ معك.

فسَكتَ عثمانُ ولزِمَ الدارَ، وأمرَ أهلَ المدينةِ بالرجوعِ، وأقسمَ عليهم فرجعُوا، إلا الحسنَ بنَ عليٍّ، ومحمدَ بنَ طلحة، وعبدَ الله بنَ الزُّبير وأشباهًا لهم، واجتمعَ إليهم ناسٌ كثيرٌ، وكانت مُدةُ الحصارِ أربعين يومًا، فلمّا مضَتْ ثماني عشرةَ ليلةً، قَدِمَ رُكبانٌ من الأمْصار فأُخبِرُوا خبرَ مَن تهيّأ لهم من الجنودِ، فحالوا بينَ النّاسِ وبيْنَه، ومنعُوهُ كُلَّ شيءٍ حتّى الماءَ، فأرسَل إلى عليٍّ سِرًّا، وإلى طَلحةَ والزُّبير، وإلى أزواج النّبيّ ﷺ، يقولُ لهم: إنّهم قد مَنعُوني الماءَ، فإن قَدرتُمْ أنْ تُرسِلوا إلينا ماءً فافعَلُوا، فكان أوّلُهم إجابةً عليّ، وأُمُّ حَبيبة، فجاء عليٌّ في الناسِ فقال: يأيُّها الناس، إنَّ الّذِي تَفعَلُونَ لا يُشْبِهِ أمْر المؤمنين، ولا أمْرَ الكافرين، فلا تَقطعوا عن هذا الرّجل الماءَ ولا المادّة؛ فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتَأسِر فتُطعِمُ، وتسْقِي. فقالُوا: لا واللّهِ ولا نَعْمةَ عَينٍ، فَرمى بعمامَتِهِ في الدّارِ، وجاءتْ أُمُّ حَبيبةَ على بَغْلةٍ لها إداوة[2]، فضربوا وجهَ بَغلَتِها فقالتْ: إنَّ وَصايَا بني أُميّةَ عندَ هذا الرّجلِ، فأحببْتُ أنْ أسألَه عنها لئلا تهْلِكَ أموالُ الأيتامِ والأراملِ، فقالوا: كاذبة، وقطعُوا حَبْلَ البغْلَةِ بالسَّيْفِ، فَنَفَرت، وكادَتْ تَسقُطُ عنها، فتلَقَّاها النّاسُ، ثم ذهَبُوا بها إلى منزلها.

فأشرفَ عثمانُ يومًا، فسلَّمَ عليهم، ثم قال: أنشُدكم اللّهَ، هَلْ تعلمون أنّي اشتريْتُ بئر رُومة[3] من مَالي ليُسْتَعْذَبَ بها، فجعلْتُ رِشائي[4] فيها كَرجُلٍ من المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: فلمَ تَمنَعوني أن أشربَ منها حتّى أُفْطِرَ على ماء المِلح! ثم قال: أنشُدُكم الله! هَلْ تعلمونَ أنّي اشتريتُ أرضَ كذا فزِدْتُها في المسجدِ؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتُمْ أنَّ أحدًا مُنِعَ أنْ يُصلِّيَ فيه قبْلي؟ ثم قال: أنشُدُكم الله! هل تعلمون أنَّ النبيَّ ﷺ قال عنّي كذا وكذا أشياءَ في شأْنِهِ؟

---

(١) القود: القصاص.
(٢) الأداوة: الإناء.
(٣) بئر رومة: هي في عقيق المدينة.
(٤) الرشاء: حبل الدلو ونحوها.

فَفشَا النَّهْيُ في النَّاسِ، يقولون: مَهْلاً عن أميرِ المؤمنين فقام الأشترُ: فقال: لعلَّهُ قد مَكَرَ به وبكُمْ.

قال: وبلغَ طلحةَ والزبيرَ ما لقيَ عليّ وأمّ حَبيبة، فلَزِموا بيوتَهُم، وبقِيَ عثمانُ يَسْقيه آلُ حَزْمٍ في الغفلاتِ.

قال: وخرجَتْ عائشةُ رضي الله عنها إلى الحج، فاسْتَتْبَعَتْ أخاها محمدًا، فأبى، فقالتْ: واللّهِ لئن استطعْتُ أن يَحرمَهُمْ الله ما يُحاوِلون لأفعلَنَّ.

فقال له حنظلة الكاتب: تَسْتَتْبِعُك أُمُّ المؤمنين فلا تَتْبَعُها، وتَتْبع ذُؤْبانَ العَرَب إلى ما لاَ يَحِلّ! وإنَّ هذا الأمرَ إنْ صارَ إلى التَّغالُب غَلبتْك عليه بنو عَبدِ مناف. ثم رَجَع حنظلةُ إلى الكوفةِ وهو يقولُ وبالله المستعانُ، وعليه التُّكْلان: [من الوافر]

عَجِبتُ لِما يخوضُ الناسُ فيه ... يَرُومُونَ الخِلافَةَ أنْ تَزُولاَ
ولو زالتْ لزالَ الخيرُ عنهمْ ... ولاقَوْا بَعدها ذُلاً ذَليلاَ
وكانُوا كاليَهودِ أو كالنَّصَارى ... سَواءٌ كلُّهمْ ضَلُّوا السَّبِيلاَ

قال: ثم أشرفَ عثمانُ على النَّاسِ، واستَدْعى عبدَ اللّهِ بنَ عبَّاسٍ، فأمَرَه أن يَحجّ بالنَّاسِ، وكان مِمنْ لزِمَ البابَ، فانطلَقَ.

قال: ولمّا رأى المصريُّون أنَّ أهلَ الموسم يريدُونَ قَصْدَهم بعد الحجِّ مع ما يليهم من مسير أهلِ الأمصارِ، قالوا: لا يُخرجنَا من هذا الأمرِ الَّذِي وَقَعْنا فيه إلاّ قتلُ هذا الرّجلِ، فيشتَغلُ النَّاسُ عنَّا. فتقدَّمُوا إلى البابِ، فَمنَعهم الحسَنُ، وابنُ الزبير، ومحمدُ بنُ طلحة، ومَروان وسعيدُ بنُ العاص ومن معهم من أبناءِ الصَّحابَةِ، واجْتَلَدوا[1] فزجرَهُم عثمان، وقال: أنتُمْ في حِلٍّ مِن نُصْرَتي، فأبَوا، ففَتَح البابَ ليمنَعَهُم، فلمّا خَرج ورآه المصريُّونَ رجعُوا، فرَكِبَهُم هؤلاء، وأقسَمَ عثمانُ على الصَّحَابةِ ليَدْخُلُنَّ، فدخَلُوا، فأغلقَ البابَ دون المصريِّين فثارُوا إلى البابِ، وجاؤوا بنارٍ، فأحْرَقوا السَّقيفةَ الَّتي على البابِ، وثارَ بِهِمْ أهلُ الدار، وعثمانُ يُصَلِّي، قد فتح طَهَ، فما شَغَله ما سَمِع حتَّى أتى عليها، فلمّا فَرَغ جَلَس إلى المُصحفِ فقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(١) اجتلدوا: تضاربوا بالسيوف.

قال: ثمَّ قال عثمانُ للحَسَن: إن أباكَ الآنَ لَفِي أمرٍ عظيم مِن أمرِك، فأقسمْتُ عليك لـمَا خَرجتَ عليه، فتقدَّموا فقاتَلُوا، ولم يَستَمِعُوا قولَه، فبرزَ المغيرةُ بنُ الأخنسِ بن شريق الثَّقَفيّ حليفُ بني زهرة وكان تعجّل الحج في عصابة لينصروا عثمان وهو معه في الدارِ، وارتَجز:

قـد عَـلـمـتْ ذاتُ الـقُـرونِ الـمِـيـل والـحَـلْـي والأنـامِـل الـطُّـفـولِ[1]

لـتَـصْـدَقَـنْ بَـيْـعَـتـي خـلـيـلـي بـصـارِمٍ ذي رَوْنـقٍ مَـصْـقـولِ[2]

* لا أسـتَـقِـيـلُ إذ أقـلْـتُ قِـيـلـي *

وحَكى أبو عمر أنَّ المغيرةَ بنَ الأخنسِ قال لعثمان حين أحرقوا بابَهُ: والله لا قال الناسُ عنَّا: إنَّا خذلْنَاك، وخَرجَ بسَيْفه وهو يقول: [من البسيط]

لـمّا تَـهـدَّمَـت الأبـوابُ واحـتَـرقَـتْ تيمّمْتُ منهنَّ بابًا غيرَ مُحترقِ[3]

حـقًّـا أقـولُ لـعـبـدِ الـلّـهِ آمُـرهُ إن لم تقاتلْ لَدَى عثمانَ فانطلقِ

والـلّـهِ أتـرُكُـه مـا دامَ بـي رَمَـقٌ حتَّى يُزايَلَ بين الرأسِ والعُنقِ[4]

هـو الإمـامُ فـلسْـتُ الـيـومَ خـاذِلَـهُ إنَّ الـفِـرَارَ عـلـيَّ الـيـومَ كـالـسَّـرَقِ

وحَمَل على النَّاسِ فضَربَهُ رجلٌ على ساقِه فقطَعها، ثم قَتَله، فقيل إنَّ الَّذِي قتله تقطَّعَ جُذامًا[5] بالمدينةِ.

وقال قتادَةُ: لمّا أقبلَ أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ في شأنه عثمانَ رأى رجل منهم في المنَامِ كأنَّ قائلاً يقول له: بَشِّرْ قاتل المغيرة بنِ الأخنسِ بالنَّار، وهو لا يَعرفُ المُغيرة، رأى ذلك ثلاثَ ليالٍ، فجعل يحدِّثُ أصحابَه. فلمّا كان يومُ الدّارِ خرجَ المغيرةُ فقاتَلَ، والرجلُ يَنظرُ إليه فقتَل ثلاثةً، فلمّا قَتلَهم وَثَبَ إليْه الرجُل فحذفه، فأصابَ رِجْله، ثم ضَرَبَه حتَّى قَتله، ثم قال: مَنْ هَذَا؟ فقالوا: المغيرة بن الأخْنَس، فقال: لا أراني إلاَّ صاحبَ الرؤيا المبشَّر بالنَّار، فلم يزلْ بشرّ حالٍ حتَّى هَلَكَ.

وخرج الحسنُ بنُ عليٍّ وهو يقول: [من الكامل]

لا دِيـنـهُـمْ دِيـنِـي ولا أنـا مـنـهـمُ حـتَّـى يـسِـيـرَ إلـى طَـمـارِ شَـمَـامُ[6]

---

(١) الطفول: جمع الطفل، والطفل: الناعمة. (٢) الصارم: القاطع.
(٣) يمم: قصد. (٤) الرمق: بقية الروح.
(٥) جذم: أصابه الجذام، والجذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.
(٦) الشمام: اسم جبل بالعالية. والطمار: المكان العالي من الجبل وغيره.

وخرج محمدُ بنُ طلحةَ وهو يقولُ: [من الرجز]

أنا ابنُ مَنْ حامَى عليه بأُحُدْ ورَدَّ أحزابًا على رغم معدّ[١]

وخرج سعيدُ بنُ العاصِ وهو يقول: [من الطويل]

صبرْنا غَداةَ الدّارِ والموتُ واقفٌ بأسيافِنا دونَ ابنِ أرْوَى نُضارِبُ
وكُنّا غَداةَ الرَّوْعِ في الدّار نُصْرَةً نُشافِهُهُمْ بالضّرب والموتُ ثاقبُ[٢]

وكان آخر مَنْ خرج عبدُ الله بنُ الزُّبَيرِ، وأقبلَ أبو هريرةَ والنّاسُ محجِمُونَ، فقال: هذا يومٌ طابَ فيه الضَّرْبُ، ونادَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١].

وجاء عبدُ اللّهِ بنُ سَلاَمٍ يَنْهاهم عن قَتْلِه، فقال: يا قوم، لا تَسُلُّوا سيفَ اللّهِ فيكم، فواللّهِ إنْ سَلَلْتُمُوه لا تُغمِدوه، ويْلَكم! إنَّ سُلطانكُمْ اليومَ يقومُ بالدِّرّةِ[٣]، فإن قتلتُموه لا يقومُ إلا بالسَّيْفِ، وَيْلكم! مدينتَكُمْ محفوفةٌ بالملائكةِ، فإن قتلتُموه ليترُكُنّها.

فقالوا: يا بن اليهودية، ما أنتَ وهذا! فرجع عنهم.

قال: ثمَّ اقْتَحمُوا على عثمانَ دارَه، مِنْ دَارِ عمرو بنِ حَزْم حتّى ملؤوها ولَم يَشعرْ مَنْ بالبابِ منهم، ففي ذلك يقول الأحوصُ[٤] يهجُو آلَ حَزْم: [من البسيط]

لا ترثِينَّ لحزمِيٍّ رأيتَ به ضُرًّا ولو طُرِحَ الحَزْمِيُّ في النّارِ
الباخسين لمَروانِ بذِي خُشُبٍ والمُدْخلين على عُثمانَ في الدّارِ

قال: ولمّا صارُوا في الدّارِ نَدَبُوا رجلاً ليقتلَهُ، فدخل عليه فقال: اخلَعْها وَنَتْرُكُكَ. قال: لستُ خالعًا قميصًا كَسَانيهِ اللّهُ تعالَى حتّى يُكرِمَ اللّهُ أهلَ السعادة، ويُهينَ أهلَ الشّقاوةِ، فخرج عنه، فأدخَلُوا عليه رجلاً من بني ليث، فقال: لستَ بصاحبي لأنَّ النبيّ ﷺ دَعَا لكَ أنْ تُحفظَ يومَ كذا وكذا، ولَنْ تُضيَّعَ، فرجع عنه

---

(١) بنو معد: بطن من بعد عدنان. (٢) الثاقب: الظاهر.

(٣) الدرة: السوط يضرب به.

(٤) الأحوص: هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وعاصم بن ثابت من الأنصار وهو حميّ الدبر وكان الأحوص يرمى بالأبنة والزنى وشكي على عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر، فدخل إليه عدة من الأنصار فكلموه فيه وسألوه يرده إلى المدينة.. فلم يستجب لهم... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

وفارَقَ القومَ. ودخل عليه رجلٌ من قُريش فقال له: إنَّ النبيّ ﷺ استغفرَ لك يومَ كذا وكذا فلَنْ تُقَارِفَ دمًا حرامًا، فرجعَ وفارقَ أصحابه.

ودخل عليه جماعةٌ كلُّهم يَرْجعُ، أخرُهم محمدُ بنُ أبي بكر، فلمَّا خرجَ ثار قُتَيْرةُ وسُودانُ بنُ حُمرانَ والغَافِقِي، فضَربَه الغافِقيّ بحديدة، وضرب المصحفَ برِجْلِهِ، فدار المصحفُ، واستقرَّ بين يديْه، وجاء سُودانُ ليضْربَه فأكَبَّتْ عليه نائلة بنتُ الفَرافِصةِ، واتَّقَت السيفَ بيَدها فَقَطَع أصابعها وشيئًا من الكفِّ، ونصفَ الإبهامِ فوَلَّتْ، فَغَمَزَ أوْراكَها، وقال: إنها لكَبِيرة العَجُز، وضربَ عثمانَ فقتَلَه.

وقيل: إنَّ الَّذِي قَتَله كِنانةُ بنُ بِشْر التُّجيبيّ، وكان عثمانُ قد رأى النبيّ ﷺ في تلك الليلة وهو يقولُ له: إنَّك تُفْطِرُ اللَّيلةَ عندَنا.

ولما قُتِلَ قَطرَ من دَمِه على المصحف على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال: ودخل غِلمةٌ لعثمانَ مع القوم لينصرُوه، فقال عثمانُ: مَنْ كفَّ يَدَه فهو حُرّ، فلما ضَربَه سُودانُ ضَربَ بعضُ الغلمان رقبةَ سُودان فقتَله، ووَثَب قُتَيْرةُ على الغُلامِ فقتَلَه، وانتَهَبُوا ما في البيْت، وخرجوا، وأغلَقُوا البابَ على ثلاثة قَتْلَى.

فلمّا خرجُوا وثبَ غلامٌ لعثمانَ على قُتَيْرةَ فقتَله، وثار القومُ فأخَذُوا ما وَجَدُوا حتى أخَذُوا ما عَلى النِّساءِ، وأخَذَ كلثومٌ التُّجِيبيُّ مُلاءة كانتْ على نائلةَ، فضَربه غلامٌ لعُثمان فقتَله، وانتَهبَ القومَ بيْتَ المال.

قال: ووثبَ عَمرُو بنُ الحَمِق على صَدْرِ عثمانَ وبه رَمَق، فطعَنه تسعَ طعنَاتٍ، وأرادَ قطْعَ رَأْسِه، فوقعَتْ نائلةُ وأُمُّ البَنِينَ عليه فصِحْن وضَرَبن الوجوه، فقال ابن عُدَيس: اتْرُكوه، وأقبل عُميرُ بنُ ضابىء البُرْجُمِيّ فوثبَ على عثمانَ، فكسر ضلعًا منْ أضْلاَعِهِ، وقال له: سَجنْتَ أبِي حتَّى ماتَ في السِّجْنِ.

وكان قَتْلُه يومَ الجُمُعةِ لثماني عشرةَ، أو سبع عشرةَ ليلةَ خلتْ من ذي الحِجَّةِ، سنةَ خمسٍ وثلاثين. ذَكَره المَدائني عن أبي مَعْشَر عن نافع، وعن أبي عثمانَ النَّهْدِيّ؛ أنَّه قُتِلَ وَسَطَ أيَّام التَّشْريق[1].

وقال ابنُ إسحاق: قُتِلَ عثمانُ عَلَى رأْسِ إحدى عشرةَ سنة، وأحدَ عشَرَ شهرًا، واثنَيْن وعشرين يومًا من مقتَلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ، وعلى رأْسِ خمسٍ وعشرين سنة من متوفَّى رسول اللّهِ ﷺ.

---

(١) أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

وقال الواقديّ رحمه الله: قُتِلَ يومَ الجمعةُ لثمانِ ليالٍ خلت من ذي الحجة يوم التروية[١]. وقد قيل: إنه قتل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجةِ.

رَوَى هذه الأقوالَ كلَّها أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ.

واختُلِف في مدة الحصارِ. فقال الواقديّ: حاصَروه تسعة وأربعين يومًا. وقال الزُّبير بنُ بَكَّار: حاصروه شهرَيْن وعشرين يومًا؛ وقيل غير ذلك.

وقد تقدَّمَ أنَّه رضي الله عنه صلَّى بالنَّاس بعد أنْ نَزَلوا به ثلاثين يومًا، ثم منعوه الصَّلاة، وصَلَّى بالنَّاسِ أميرُهم الغَافِقِيّ.

وقد قيل: إنَّه لمّا مُنِع عثمانُ الصلاةَ جاء سَعْدُ القَرظ وهو المؤذِّن إلى عليٍّ بنِ أبي طالب، فقال: مَنْ يُصَلِّي بالنَّاس؟ فقام خالدُ بنُ زيد، وهو أبو أيّوبَ الأنصاريّ، فصلَّى أيامًا، ثم صَلَّى عليٌّ بعدَ ذلك بالنَّاس.

وقيل: بل أمرَ عليٌّ سهلَ بنَ حُنَيف فصَلَّى بالنَّاسِ من أوّلِ ذي الحجّة إلى يوم العيد، ثم صلَّى عليٌّ بالنَّاس العيدَ، وصَلَّى بهمْ حتى قُتِلَ عثمانُ. والله أعلمُ.

حكى أبو عُمرَ بنُ عبدِ البرِّ في مَقتِلِ عثمانَ، قال: كان أولُ مَنْ دخل عليه الدارَ محمّد بنُ أبي بَكْر، فأخذ بِلحْيَتِهِ فقال: دَعْها يا بن أخِي، فواللّهِ لقد كان أبوكَ يُكْرِمُهَا، فاستَحيَا وخرج، ثم دَخَل عليه رومانُ بنُ سرْحان، رجلٌ أزرق قَصِير مَجْدُور، عِدادُه في مُراد، وهو من ذي أصْبَح، معه خِنْجَر، فاستقبَلَهُ به، وقال: على أيّ دِينٍ أنتَ يا نَعثل؟ فقال: لسْتُ بنَعْثل ولكني عثمانُ بنُ عفَّانَ، وأنا على مِلَّة إبراهيمَ حنيفًا مُسلِمًا وما أنا مِنَ المشرِكين. قال: كذَبْتَ، وضَربَه على صُدْغه فقتَلهُ، فخرّ، فأدخَلَتْه امرأتُه نائلةُ بينها وبين ثيابِهَا، وكانت امرأة جَسيمة.

ودخل رجلٌ من أهلِ مصرَ معه السَّيْفُ مصلَتًا فقال: والله لأقطعنَّ أنْفَكَ، فعالَجَ المرأةَ فكشَفتْ عن ذِراعيْها، وقبضَتْ على السّيف فقَطَع إبْهامَها، فقالت لغلام لعثمانَ يُقَالُ له رَباح، ومعه سيفُ عثمانَ: أعِنِّي على هذا، وأخرِجْه، فضربَه الغلامُ بالسيْفِ فقتَله.

قال: وأقام عثمانُ يومَه ذلك مطروحًا إلى اللَّيْلِ، فحمله رجالٌ على بابٍ ليَدْفِنُوه، فعرضَ لهم ناسٌ ليمنَعُوهم من دَفْنِه، فوجَدُوا قبرًا قد حُفِرَ لغيره فَدَفَنُوه فيه، وصلَّى عليه جُبَيْرُ بنُ مطعِم.

---

(١) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

وقال محمدُ بنُ طلحة: حَدَّثَنِي كنانةُ مولَى صفية بنت حُيَيّ بن أخطَب، فقال: شهدْتُ مقتلَ عثمان، فخرج من الدارِ أمامي أربعة من شباب قريش مضرّجين بالدّم، محمولين، كانوا يَذُودُونَ عن عثمانَ وهم الحسنُ بنُ عليٍّ، وعبدُ اللّهِ بنُ الزُّبير، ومحمدُ بنُ حاطِب، ومروانُ بنُ الحَكَم.

قال محمدُ بنُ طلحة: فقلْتُ له: هل نَدِي محمّدَ بنَ أبي بكر بشيءٍ من دمِه؟ فقال: مَعاذَ اللّهِ، دخل عليه فقال له عثمان: يا بن أخي لستَ بصاحِبِي، وكَلَّمَهُ كلامًا فَخَرج، ولم يندّ بشيء من دمه.

قال: فقلْتُ لكنانة: مَنْ قَتَلَهُ؟ قال: رجلٌ مِنْ أهلِ مصر، يقالُ له: جَبَلَةُ بنُ الأيْهَم، ثم طاف بالمدينةِ ثلاثًا يقول: أنا قاتِلُ نعثَل.

ورَوَى أبو عُمَر أيضًا بسندِه إلى مالك بن أَنس، قال: لمّا قُتِلَ عثمانُ أُلقِيَ على المِزْبَلة ثلاثة أيّام، فلمّا كان في اللَّيلِ أتاه اثنا عشر رجلًا، منهم حُويْطِبُ بنُ عبدِ العُزَّى وحكيم بنُ حِزام، وعبدُ الله بنُ الزُّبير، وجُدَيّ بنُ مالِك بنِ أبي عامر، فاحتملوه، فلمّا صارُوا به إلى المقبرة ليَدفِنُوه ناداهم قومٌ من بني مازن: واللّهِ لئن دفنتموه هاهنا، لنخبرنَّ النّاس غدًا، فاحتملوه، وكان على باب، وإنَّ رأسَهُ كان على البابِ يقول: طَقْ طَقْ حتّى صَارُوا به إلى حَشّ كوكب[1] فاحتَفَرُوا له، وكانتْ عائشة بنتُ عثمان معها مصباح في حُقٍّ[2]، فلمَّا أخرجُوه ليدفنوه صاحَتْ، فقال لها ابنُ الزُّبير: واللّهِ لئن لم تسكتي لأضربَنَّ الذي فيه عيناك، فسكتَتْ، فدفن.

قال مالك: وكان عثمان يمرّ بحَشِّ كوْكَب فيقولُ: إنَّه سيُدْفَن هاهنا رجل صالح.

وعن هشامِ بنِ عروة، عن أبيه، قال: أرادوا أنْ يُصَلُّوا على عثمان رضي الله عنه فمنعوه، فقال أبو جهم بنُ حذيفة: دعوه، قد صلَّى عليه اللّهُ ورسولُه.

وقَدْ قيل: إنَّ عليَّ بنَ أبي طالب، وطلحةَ، والزبَير، وزيدَ بن ثابت، وكعبَ بنَ مالك، وعامرَ بنَ نمير من أصحابِهِ شَهدوا جنازَتَهُ.

وقِيلَ: إنه كُفِّنَ في ثيابِهِ ولم يُغْسَل.

واخْتُلِفَ في سنة يوم قُتِل.

---

(١) حش كوكب: الحش: البستان؛ وكوكب: رجل من الأنصار، وهذا البستان كان عثمان قد اشتراه وزاده في البقيع، كما سيأتي.

(٢) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

فقال ابنُ إسحاق: قُتِلَ وهو ابنُ ثمانين سنة. وقال غيره: قُتِلَ وهو ابنُ ثمان وثمانين، وقيل: تسعين.

وقال قتَادةُ: قُتِلَ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة.

وقال الواقديّ: لا خلافَ عندنا أنه قُتِلَ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وهو قولُ أبي اليقظان.

ودُفِنَ ليلاً بموضع يقال له: حَشّ كَوْكب، وكوكب رجلٌ من الأنصارِ (الحَشّ: البستان)، كان عثمانُ قد اشتراه وزاده في البَقِيع، وهو أوّلُ من قُبِر فيه.

قال: وقَدْ قيل: إنه صلّى عليه عَمرو بن عثمان ابنه، وقيل: بل صلّى عليه حكيمُ بنُ حِزام، وقال: بل صلّى عليه المسورُ بنُ مَخرَمة. وقيل: بل جُبيرُ بنُ مُطعِم. وقيل: بل مروانُ بنُ الحَكَم، وقيل: كانوا خمسةً أو ستةً وهم: جبيرُ بنُ مُطعِم، وحكيمُ بنُ حزام، وأبو جهم بنُ حذيفة، ونيارُ بنُ مُكرم، وزوجتاه نائلة وأُمُّ البنين بنتَ عُيَيْنَة.

ونزل قَبْرَهُ دينارٌ، وأبو جَهم، وجُبَيْر، وكان حكيمُ ونائلةُ وأُمُّ البنين يُدْلُونه، فلمّا دفنُوه غيّبُوا[1] قبرَه.

ورَوَى أبو الفَرج الأصفهَاني بسندٍ رفعه إلى نائلةَ بنتِ الفَرافِصة: كتبتْ إلى معاويةِ، وبعَثت بقميصِ عثمانَ رضي الله عنه مع النعمانِ بنِ بَشِيرِ وعبدِ الرحْمٰنِ بنِ حاطبِ بنِ أبي بلتعة:

من نائلةَ بنتِ الفَراقصة، إلى معاوية بنِ أبي سُفْيان:

أمّا بعدُ، فإنّي أذكّركم باللّهِ الذي أنعَمَ عليكم، وعلّمكُم الإسلام وهَداكم من الضلالة، وأنقذَكُمْ من غوايةِ الكُفرِ، ونصرَكُم على العدوّ، وأسبَغَ عليكم النعْمة، فأنشدكُم الله تعالى، وأُذَكِّرُكُمْ حقه وحق خليفتِه أنْ تَنْصُرُوه بعزمة اللّهِ عليكم، فإنه قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وإن أميرَ المؤمنين بُغيَ عليه، ولو لم يكن له عليكم حَقٌّ إلا حقُّ الوِلايةِ ثمّ أُتِيَ عليه بما أُتِيَ لحُقّ على كلِّ مسلم يرجُو أيامَ الله أن ينصره لقِدَمِه في الإسلام، وحُسْنِ بَلائِهِ؛ فإنه أجابَ داعيَ اللّهِ، وصدّق كتابَه ورسولَهُ، واللّهُ أعْلَمُ به إذا انتجبَهُ، فأعطاه شرفَ الدنيا، وشرفَ الآخِرَة.

---

(١) غيّب الشيء: واراه وأخفاه.

وإنّي أقصُّ عليكم خبرَه، لأنّي مُشاهِدةٌ أمرَه كُلَّه حتى أُفضِيَ إليه.

إن أهلَ المدينة حَصَروه في دارِه يَحرُسونه لَيْلَهم ونهارَهم، قِيامًا عَلى أبوابه بسلاحِهم، يمنعونه كل شيء قَدَروا عليه حتى منَعوه الماء يُحضرونه الأذى، ويقولون له الإفك[1]. فمكثَ هو ومَنْ معه خَمْسِين ليلةً، وأهلُ مصر قد أسنَدوا أمرَهم إلى محمدِ بن أبي بكر وعمّارِ بنِ ياسر، وكان عليٌّ مع المُحَرِّضين للمصريّين في أهلِ المدينةِ، ولم يُقَاتلْ مع أميرِ المؤمنين ولَم ينصُرْه، ولم يأمرْ بالعدلِ الذي أمرَ اللّهُ تبارَكَ وتعالى به، فظلّت تُقَاتلُ خُزاعة، وبكر، وسعد بن بكر، وهُذَيْل، وطوائفُ من مُزَينة، وجُهَينةَ، وأنباطِ يَثْرِب، ولا أرَى سائرَهم، ولكنّي قد سمّيْتُ الّذين كانوا أشدَّ الناسِ عليه في أول أمرِه وآخِرِه، ثمّ إنه رمِيَ بالنبْلِ والحجارة، فَقُتِلَ ممّنْ كان في الدارِ ثلاثة نفرٍ، فأتَوْه يَصرُخون إليه ليأذنَ لهم في القِتالِ، فنهاهمْ عنه، وأمرَهمْ أن يَرُدُّوا إليهم نَبْلَهُم فردّوهَا إليهم، فلَم يزدْهم ذلك على القِتالِ إلاّ جُرأةً في الأمرِ وإغراقًا، ثم أحرقوا بابَ الدارِ.

فجاءه نفرٌ مِن أصحابِه وقالوا: إنَّ في المسجدِ ناسًا يُريدُون أنْ يأخذوا أمْرَ النَّاس بالعَدْل، فاخرُجْ إلى المسجدِ حتّى يأتوكَ، فانطلق، وقد كان نفرٌ مِنْ قريش على عامّتهم السِّلاح، فلبِسَ دِرْعَه، وقال لأصحابِهِ: لولا أنتم ما لبسْتُ دِرْعًا، فوثب عليه القومُ، فكلَّمَهُم الزبيرُ، وأخَذ عليهم الميثَاقَ في صحيفَةٍ، بَعَثَ بها إلى عثمانَ رضي الله عنه: إنَّ عليكم عهد اللّهِ وميثاقَه ألا تَعرُّوه بشيءٍ، فكلَّمُوه وتحرّجُوا، فوضع السلاحَ فلم يكن إلاّ وَضْعه حتى دخلَ عليه القومُ يَقدُمهم ابنُ أبي بكر؛ حتى أَخَذُوه بلحيَتِهِ ودَعَوْه باللَّقَبِ، فقال: أنا عبدُ اللّهِ وخليفَتُه، فضربُوه في رأسِه ثلاثَ ضَربَاتٍ، وطعَنُوه في صدرِه ثَلاث طَعَناتٍ، وضربُوه على مُقدَّم الجبين فوقَ الأنْفِ ضَربةً أسْرعتْ في العَظْم، فسقطتْ عليه، وقد أثْخَنُوهُ وبه حياة، وهم يُريدون قَطْعَ رأْسِهِ ليذهبوا به، فأتَتْني بنتُ شَيْبة بن ربيعة، فألقتْ بِنَفْسِهَا مَعِي عليه، فَوُطِئنا وَطْئًا شديدًا وعُرِّينا مِن ثيابِنَا، وحرمة أمير المؤمنين أعظَم، فقتلوه رحمةُ اللّهُ في بَيْته، وعلى فِراشه.

وقد أرسلتُ إليكم بثوبِهِ، وعليه دَمُه، وإنَّه واللّهِ لئن كان أثِمَ مَنْ قَتَلَهُ لا يَسْلَم مَنْ خَذَلَه، فانظُروا أين أنتم مِنَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّا نشتَكي ما مَسّنا إليه، ونَسْتَنْفِرُ وليَّه، وصالح عِباده. ورحمةُ اللّهِ على عثمان، ولَعنَ اللّهُ مَنْ قتلَه، وصرعَهُم في الدُّنيا والآخِرة مصارِعَ الخزي والمَذَلَّةِ، وشَفَى منهم الصُّدورَ.

---

(١) الإفك: الكذب.

فحلف رجالٌ مِنْ أهْلِ الشام ألاَّ يطئوا النساءَ حتَّى يَقتلُوا قتلَة عثمان، أو تَذهبَ أرواحُهم. وكان أمرُهُمْ في القتالِ ما نذكره إنْ شاء اللّهُ تعالى.

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، قاله ابنُ إسحاق. وقال غيرُه: إلاَّ ثمانية أيام. وقيل: إلاَّ ستَّة عشر يومًا.

رُوِيَ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: ادعُوا لي بعضَ أصحابي، فقلْتُ: أبو بكر؟ قال: لا، فقلْتُ: عمر؟ قال: لا، فقلْتُ: ابن عمِّكَ عليّ؟ قال: لا، فقلْتُ: عثمان؟ قال: نعم. فلمّا جاء قال لي بيَدِه فتنحّيتُ، فجعلَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُسارّه ولونُ عثمانَ متغيّر، فلمّا كان يومُ الدَّارِ وحُصِر، قيل له: ألاَ تُقاتِل؟ قال: لا، إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ عَهد إليَّ عهدًا، وأنا صابرٌ نَفْسِي عليه.

وعن موسى بن طلحة، قال: أتَيْنَا عائشةَ رضي الله عنها لنسْألَهَا عَنْ عثمان فقالت: اجلسوا أُحدِّثكم عمّا جئتم له: إنّا عَتَبنا على عثمان رضي الله عنه في ثلاثِ خلال ـ ولم تَذكرهنّ ـ فعَمَدوا إليه حتَّى إذا مَاصُوه[1] كما يُماصُ الثوبُ اقتحموا عليه الفِقر الثَّلاثة: حرمةَ البيْتِ الحرام، والشهر الحرام، وحرمةَ الخِلاَفَةِ؛ ولقد قَتَلوه، وإنَّه لمن أوصَلهم للرَّحم وأتْقاهمْ لربِّه.

وعن أبي جعفر الأنصاريّ قال: دخلْتُ مع المصريِّين على عثمان، فلمّا ضربوه خرجْتُ أشتدّ، حتَّى ملأْتُ فُروجِي عَدْوًا، حتَّى دخلْتُ المسجد؛ فإذا رجلٌ جالسٌ في نحوِ عشرةٍ، عليه عمامةٌ سوداء، فقال: ويْحك! ما وراءَك؟ قال: قلْتُ: قد والله فُرِغ من الرَّجلِ، قال: تبًّا لكمْ آخرَ الدّهر! فنظرتُ، فإذا هوَ عليٌّ رضي الله عنه.

ورُوِيَ عن مباركِ بنِ فضالة قال: سمعت الحَسَن يقول: سمعتُ عثمانَ يخطبُ يقول: يأيُّها الناس، ما تَنقِمون عليّ، وما مِنْ يَومٍ إلا وأنتم تَقسِمون فيه خَيْرًا!

قال الحَسَن: وسمعتُ مُنادِيًا يُنادِي: يأيُّها النَّاس، اغدوا على أعطِياتِكم، فيغدون فيأخذُونَها وافرة، حتَّى والله ما سمعتُه يقول: اغدُوا على كُسْوتِكم، فيأخذون الحُلَل، واغدُوا على السَّمن والعَسَل.

قال الحَسَن: أرزاقٌ دارَّة، وخيرٌ كثير، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمِنًا إلاَّ يودُّه وينصُرُه، فلو صَبرَ الأنصارُ على الأثَرةِ[2] لوَسِعَهم ما كانوا فيه من العَطَاءِ والأرْزَاق، ولكنَّهم لم يصبروا، وسَلُّوا السيْفَ مع مَنْ سَلّ، فصار عن الكفَّار مُغمَدًا، وعلى المسلمين مَسْلولاً إلى يوم القيامة.

---

(١) ماص الثوب: غسله غسلاً لينًا رفيقًا. (٢) الأثرة: المنزلة؛ أو المكرمة المتوارثة.

وعن محمد بن سيرين[١]، قال: كَثُر المالُ في زمن عثمان حتى بِيعَت جاريةٌ بوَزْنِها، وفرسٌ بمائةِ ألفِ درهم، ونَخْلَةٌ بألفِ دِرهم.

وقد ذكر بعض من أرّخَ أسبابًا كثيرةً، جعلها مَنْ أقدمَ على قَتْل عثمانَ ذريعةً له، وتَمَسّك بها، أغضَيْنَا عن ذكرِها، وهو رضي الله عنه مبرّأ من كلّ سوء ونَقْص، فلنذكرُ خِلافَ ذلك.

ذكر أزواج عثمان وأولاده

تزوّج رضي الله عنه رُقَيّةَ، وأُمَّ كُلْثوم ٱبنتَيْ رسولِ الله ﷺ، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله، هَلَك. وتزوّج فاختة بنت غَزْوان، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله الأصغر. وتزوّج أُمَّ عَمرو بنت جُنْدُبٌ الدَّوْسيَّة، فولدتْ له عمرًا، وخالدًا، وأبانًا، وعمر، ومريم، وتزوّج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزوميَّة، ولدتْ له الوليدَ، وسعيدًا، وأُم سعيد، وتزوّجَ أُمَّ البنين بنتَ عُيَيْنة بن حِصْنِ الفَزَاريّة، فولدتْ له عبدَ الملكِ، هلك. وتزوّجَ رَمْلة بنتَ شيبة بن ربيعة، ولدتْ له عائشة وأُمَّ أبان، وأُمّ عَمرو، وتزوّج نائلةَ بنتَ الفَرافِصَة الكلبيّة.

وقد رَوَى أبو الفَرَجِ الأصفَهانيُّ في سببِ زواجِ عثمانَ نائلةَ سَنَدًا رفعهُ إلى خالدِ بنِ سعيد، عن أبيه، قال: تزوّج سعيدُ بنُ العاص وهو على الكوفةِ هِنْدًا بنتَ الفَرافِصةِ بنِ الأحوص بنِ عمرو بنِ ثعلبة، فبلغَ ذلك عثمان، فكتبَ إليه: قد بلغني أنّكَ تزوَّجْتَ امرأةً، فاكتبْ إليّ نسبَها وجمالَهَا، فكتبَ إليه: أما بعد، فإنّ نَسَبَها أنّها بنتُ الفَرافصةِ بن الأحوَص، وجَمَالَها أنّها بَيْضاء مَدِيدة[٢].

فكتبَ إليه: إنْ كان لها أختٌ فزوِّجْنيها، فكتَب سعيد، وبعثَ إلى الفَرافصة يخطبُ إحدى بناته على عثمانَ رضي الله عنه، فأمر الفَرافصةُ ٱبنَه ضَبًّا فزوّجها إيّاه، وكان ضَبٌّ مُسلِمًا، والفَرافصة نصرانيًّا، فلمّا أرادُوا حَمْلَهَا، قال لها أبوها: يا بنتي إنّك تَقدمين على نساءٍ من نساءِ قريْش، هنّ أقدَرُ على الطِّيبِ منكِ، فاحفظي عنّي خَصْلتين: تكَحّلِي وتطيّبي بالماء حتّى تكون ريحُك رِيحَ من أصابَه مطر.

---

(١) محمد بن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري؛ كان أبوه عبدًا لأنس بن مالك رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم... كان محمد المذكور صاحب الحسن البصري ثم تهاجرا في آخر الأمر... وكانت له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلاف عثمان، وتوفي سنة عشر ومائة بالبصرة... (وفيات الأعيان ٤ :١٨١).

(٢) المديدة: الطويلة.

فلمّا قدمتُ على عثمانَ قعدَ على سريره، ووضع لها سريرًا حِيالَه، فجلسَتْ عليه، فوضعَ عثمان قُلَنسِيتَه فَبَدَا الصَّلَعُ، فقال: يا بنت الفَرافصَة، لا يَهُولَنَّكِ ما تَرَيْن مِن صَلَعي، فإنّ وراءَه ما تُحِبِّين، وقال: إما أن تقومي إليّ، وإمّا أنْ أقومَ إليكِ. فقالت: أمّا ما ذكرتَ من الصّلَعِ فإنّي من نساءٍ أحبُّ بُعولَتِهنّ إليهنّ السادةُ الصُّلع، وأمّا قولك: إمّا أن تقومي إليّ، وإمّا أن أقومَ إليْكِ، فوالله ما تجشَّمْتُ من جَنَبَات السَّماوَة أبعدُ ممّا بيني وبينَك، بل أقومُ إليْك. فقامتْ فجلسَتْ إلى جَنْبِه، فمسحَ رأسَهَا ودَعَا لها بالبَرَكة، ثم قال لها: اطْرَحي عنك رِداءكِ، فطرحَتْه، ثم قال لها: خِمَارَكِ، فطرحَتْه، ثم قال لها: انزَعي دِرْعَك[1] فنَزَعَتْه، ثم قال لها: حُلّي إزارَكِ. فقالت: ذا إليْك، فحلّ إزَارَهَا، وكانتْ من أَحْظَى نسائِهِ عندَهُ.

ولدتْ له مريم. وقيل: ولدتْ له أُمّ البَنين بنتُ عُيينةَ عبدَ الملك، وعُتْمَة وولدت له نائلةُ عَنْبَسة، وكان له منها أيضًا ابنة تُدعَى أُمّ المؤمنين وأُمّ البَنين، كانت عند عبدِ الله بن يزيدَ بن أبي سُفْيان.

وقُتِلَ عثمانُ وعندَه رَمْلة بنت شَيْبة، ونائلة وأُمّ البنين، وفاختة، غير أنّه طلّق أُمّ البنين وهو محصور.

فهؤلاء أزواجُه في الجاهليّة والإسلام، وأولادُه رضي اللّهُ تعالى عنه.

كتّابه وقضاته وحجّابه وأصحاب شرطته

كاتبُهُ مروانُ بنُ الحَكَم، وقاضِيه كعبُ بنُ سُور، وحاجبُه عمران، مولاه، وصاحبُ شرطَتِهِ عبدُ اللّهِ بنُ قُنفُذ التّمِيميّ، وهو أوّلُ من اتّخذ صاحبَ شُرْطة، وكان على الدّيوان وبيتِ المال زيدُ بنُ ثابت. والله تعالى أعلَمُ بالصوابِ، وهو حَسبِي ونِعمَ الوكيل.

ذكر عماله على الأمصار في سنة مقتله

كان عمّالُه في هذه السنةِ على مكّة عبد الله بن الحَضْرميّ، وعلى الطائِف القاسم بن ربيعة الثّقَفيّ، وعلى صَنْعاءَ يَعلَى بن مُنْيَة، وعلى الجَنَدِ عبد اللّهِ بن ربيعة، وعلى البصرةِ عبد اللّهِ بن عامر، وكان قد خرج منها ولم يُوَلّ عثمانُ عليها أحَدًا، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعريّ، وعلى الصّلاة، وعلى خراج السواد جابر ابن فلان

---

(١) الدرع: قميص المرأة.

المُزَنيّ وسِماك الأنصاري، وعلى حَرْبِها القَعْقاع بن عَمرو، وعلى قَرْقِيسيا جرير بن عبدِ اللّهِ، وعلى أذْرَبيجانَ الأشعث بن قيس الكنْدِيّ، وعلى حُلوان عُتيبة بن النَّهّاس، وعلى ماه مالك بن حَبيب، وعلى همذان النُّسَير، وعلى الرَّيّ وأصفَهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسَبَذان حبيش، وعلى بيْت المال عُقْبَة بنُ عمرو، وعلى الشّام معاويةُ بن أبي سُفْيان. ولمعاوية عمّالٌ وهم عبدُ الرحمٰن بنُ خالد بنِ الوليد على حمْص، وحبيبُ بنُ مَسلمةَ الفِهْري على قِنَّسْرين، وأبو الأعوَر السُّلَمي على الأرْدُنّ، وعلقمة بن حكيم الكِناني علَى فِلسْطِين وعبدُ اللّهِ بن قَيس الفَزَاريّ على البَحْر، وكان عامل عثمانَ على مصرَ عبد اللّهِ بن سَعْد بن أبي سَرْح، ثم سار إلى عثمان في رَجَبَ سنة خمسٍ وثلاثين، واستَخلف عنه بمصرَ عقبةَ بنَ عامر، فقام محمدُ بنُ أبي حُذَيفة في شوَّال، وأخرج عقبة، وتأمّر بمصر، وعاد عبدُ اللّهِ بنُ سعد فلم يمكِنه، فتوجّه إلى عَسْقلانَ، ومات بها.

وكان القاضي بمصْر عمّارُ بنُ قيسِ بنِ أبي العاص، ثم مات بعد مَقْتَل عثمانَ فلم يكُنْ بمصْر قاضٍ إلى أيّام معاوية بنِ أبي سُفْيانَ رضي الله تعالى عنهم. والله تعالى أعْلَمُ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ذكر شيء مما رثي به عثمان من الشّعر

ولما قُتِلَ رضي الله عنه رَثاه جماعةٌ، منهم: حسّانُ بنُ ثابت وغيرُه فكان مما قال حسَّانُ بنُ ثابت: [من البسيط]

إن تُمْسِ دارُ ابنِ أرْوَى اليومَ خاليةً ... بابٌ صريعٌ وبابٌ مُخرَقٌ خَرِبُ
فقد يُصادِف بَاغِي الخيرِ حاجتَه ... فيها ويأوِي إليها الجُودُ والحَسَبُ

وقال أيضًا ممّا رثاه به في أبيات أُخرى: [من البسيط]

من سَرَّه الموتُ صِرْفًا لا مِزاجَ له ... فليأتِ مأدُبةً في دارِ عُثمانا
ضَحّوا بأشمط عُنوان السجود به ... يُقطِّع الليلَ تسبيحًا وقُرآنا[1]
صبرًا فِدًى لكُمُ أُمّي وما وَلَدَتْ ... قد يَنفَع الصبرُ في المَكْروهِ أحيانا
لتَسمَعَنَّ وَشيكًا في دِيارهِمُ ... اللّهُ أكبرُ واثاراتِ عُثمانا

(١) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض.

وقد قيل: إنَّ البيت الثاني من هذه الأبيات «ضَحَوْا بأشمَط» ليس له، وقال بعضهم: هو لعِمرانَ بنِ حِطان.

وقال أبو عُمَر: وقد زاد أهلُ الشَّام فيها أبياتًا لم أرَ لِذكرها وَجهًا.

قال ابن الأثير: يعني ما فيها من ذكر عليٍّ رضي الله عنه، وهو:

يا ليتَ شعري وليتَ الطير تُخبرني ... ما كان شأن عليٍّ وابنِ عَفَّانا

وقال أيضًا: [من الطويل]

قتلتمْ وليَّ اللّهِ في جوفِ دارِهِ ... وجئتمْ بأمرٍ جائرٍ غيرِ مهتدِ

فلا ظفرتْ أيمانُ قَوْمٍ تَعاوَنُوا ... على قَتْلِ عثمانَ الرَّشيدِ المسدَّدِ

وقال كعبُ بنُ مالك: [من البسيط]

يا لَلرِّجال لأمْرٍ هاج لي حَزَنَا ... لقد عجبتُ لِمن يَبكي على الدِّمَنِ

إنِّي رأيتُ قتيلَ اللّهِ مُضْطَهَدًا ... عثمانَ يُهدَى إلى الأجداثِ في كَفَنِ

يا قاتَلَ اللّهُ قومًا كان أمْرَهمُ ... قتلُ الإمامِ الذكيِّ الطيِّبِ الرُّدُنِ(١)

لم يَقْتُلوه على ذَنْبٍ ألَمَّ بِهِ ... إلاَّ الَّذِي نَطقُوا زُورًا ولم يكُنِ

وقال أيضًا: ونسبت لحسّان وقيل: للوليدِ بنِ عُقْبة، والله تعالى أعلم: [من الطويل]

وكفَّ يَديْهِ ثمّ أغلقَ بابَهُ ... وأيقَنَ أنَّ الله ليس بغافلِ

وقال لأهلِ الدار لا تَقتُلوهُمُ ... عَفا اللّهُ عن ذنبِ امرىءٍ لم يُقاتِلِ

فكيفَ رأيتَ الله ألقَى عليهمُ الـ ... ـعَداوَةَ والبَغْضاء بعدَ التَّواصُلِ

وكيف رأيت الخَيْرَ أدبَرَ بعدَهُ ... عن النَّاسِ إدبار السَّحاب الحَوافِلِ(٢)

وقال حُميدُ بنُ ثَوْرِ الهِلاليّ(٣): [من البسيط]

إنَّ الخلافةَ لمَّا أظْعَنَت ظَعَنَتْ ... من أهلِ يثربَ إذ غير الهدى سَلَكُوا

صارتْ إلى أهلها منهم ووارثها ... لمّا رأى الله في عثمانَ ما انتَهَكوا

وقال قاسمُ بنُ أُميَّةَ بنُ أبي الصَّلْت: [من الطويل]

لعَمْرِي لبئس الذَّبْحُ ضَحيتُمُ به ... وخُنتُمْ رسولَ اللّهِ في قتلِ صاحبِهِ

---

(١) الردن: الكم. (٢) الحوافل: اللاتي كثر ماؤها.

(٣) حميد بن ثور الهلاليّ: هو من بني عامر بن صعصعة، إسلاميّ مجيد.

وقالت زينب بنت الزُّبير بن العوّام: [من الطويل]

أعَطَشْتُمُ عثمانَ في جَوْفِ دارِهِ ... شربتُمْ كَشُرْبِ الهيمِ شُرْبَ حَمِيمِ[١]

وكيف بنا أم كيف بالنَّومِ بعدَمَا ... أُصِيبَ ابنُ أروَى وابنُ أُمِّ حكيمِ

وقالت لَيْلَى الأخيَلِيّة[٢]: [من مجزوء الكامل]

قُتِلَ ابنُ عَفَّانَ الإِمَا ... مُ وضاعَ أمْرُ المُسلِمِينَا

وتَشتَّتَتْ سُبُلُ الرَّشا ... دِ لِصادِرينَ ووارِدِينَا

فانهَضْ مُعاوِيَ نَهضَةً ... تَشفي بها الداءَ الدَّفِينا

أنتَ الَّذي مِن بعدِهِ ... تُدْعَى أميرَ المؤمنينا

وقال أيمنُ بنُ خُرَيم[٣]: [من البسيط]

ضَحَّوْا بعثمانَ في الشَّهرِ الحرام ضُحىً ... فأيّ ذبحِ حرامٍ ويلَهمْ ذَبَحوا

وأيَّ سُنَّةِ كفرٍ سَنَّ أوَّلُهمْ ... وباب شَرٍّ على سلطانِهمْ فَتَحوا

ماذا أرادُوا أضَلَّ اللّهُ سعيَهُمُ ... بسَفْكِ ذاكَ الدمِ الذَّاكي الذي سَفَحُوا

ورَثاه غيرُهم ممّن لو ذكرْنا شعرَهم لانبسط به الخَبر.

تمّ الجزء التاسع عشر،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء العشرون،
وأوله: ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) الهيم: جمع الأهيم، وهو من الرجال ومن الإبل: العطشان أشد العطش.

(٢) ليلى الأخيلية: هي ليلى بنت الأخيل من عقيل بن كعب وهي أشعر النساء لا يقدم عليها غير خنساء وكانت هاجت النابغة الجعدي... (الشعر والشعراء).

(٣) أيمن بن خريم: هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد وكان أبوه قد صحب النبيّ ﷺ، وروى عنه الحديث، وكان به برص وكان أسيرًا عند عبد العزيز بن مروان... (الشعر والشعراء).

فهرس المحتويات